الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

SOCIETE EGYPTIENNE D'ETUDES HISTORIQUES.

المجلة التاريخية المصرية

يشرف على تحريرها

محمد شفيق غربال — رئيس الجمعية

محمد مصطفى زيادة — الأمين العام

سكرتير التحرير

أحمد محمد عيسى

المجلد الثامن — سنة ١٩٥٩

تطلب من مقر الجمعية ١٠ شارع البستان (٢ / ناصر الدين)
ومن المكتبات الكبرى

Dr. Binibrahim Archive

الجمعية المصرية للدراسات التاريخية
SOCIETE EGYPTIENNE D'ETUDES HISTORIQUES.

المجلة التاريخية المصرية

يشرف على تحريرها

محمد شفيق غربال
رئيس الجمعية

محمد مصطفى زيادة
الأمين العام

سكرتير التحرير
أحمد محمد عيسى

المجلد الثامن سنة ١٩٥٩

تطلب من مقر الجمعية ١٠ شارع البستان (٢ / ناصر الدين)
ومن المكتبات الكبرى

Dr. Binibrahim Archive

الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة

فى العصور الوسطى

الأثيوبيون والأحباش ــ عناصر السكان ــ سيادة لغة الجعز ــ تكوين المملكة الحبشية ــ عناصر حضارتها : الأثر السامى العربى ــ الأثر اليهودى ــ أثر الحضارة المصرية ــ البطالمة والحضارة الأغريقية ــ توسع مملكة أكسوم ــ دخول المسيحية والنفوذ الروحى للكنيسة المصرية ــ وصول الرهبانية والديرية إلى الحبشة ــ أثر المسيحية فى تاريخها الدينى والسياسى ــ علاقات الحبشة بالعرب قبل الإسلام ــ الحبشة واليمن ــ أثر النزاع الفارسى البيزنطى فى العلاقة الحبشية العربية ــ أبرهة ــ ظهور الإسلام وهجرة المسلمين الأولين إلى الحبشة ــ محاولات قريش ــ ما ذكرته المراجع من إسلام النجاشى ــ انتشار الإسلام فى الحبشة ــ ثغر عدوليس ــ احتلال العرب لجزائر دهلك ــ المعادن والبجة وإسلامهم ــ بنو مخزوم ــ المراكز الإسلامية ــ التوسع الإسلامى روحياً وسياسيا ــ « الطراز الإسلامى » ــ الخصائص المميزة لممالك الطراز الإسلامى : الوضع السياسى لها ــ نظم الحكم فيها ومظاهره ــ أحوالها العامة ــ تاريخها السياسى : أوفات ــ بالى ــ هديه ــ داره ــ مشيخات الساحل ــ تطلع الممالك الإسلامية إلى مصر ــ سياسة ملوك الحبشة : يكونو أملاك وبيبرس ــ أوفات تتزعم حركة الجهاد الإسلامى ضد الحبشة ــ اضطراب مملكة الحبشة ــ عمداصيون والناصر محمد ــ سفارة الممالك الإسلامية برئاسة الزيلعى إلى الناصر محمد ــ اشتداد النزاع بين الممالك الإسلامية والحبشة ــ سيف أرعد والناصر حسن ــ نهاية سلطنة أوفات فى زيلع وظهورها باسم « بر سعد الدين » أو مملكة عدال ــ بين برقوق والنجاشى داود ــ زرء يعقوب والحلف المسيحى ضد الإسلام خلال حملات مصر على قبرص ــ محاولة ربط الكنيسة الحبشية بروما ــ كتاب زرء يعقوب إلى السلطان جقمق ــ رجحان كفة المسلمين والنجاشى لبان العذراء ــ حلول العثمانيين محل سلاطين مصر فى حماية مسلمى الحبشة .

تدل المعلومات التى أوردها الكتّاب والمؤرخون من اليونان والرومان ، على أن البلاد التى نعتوها بكلمة (أثيوبيا) تعنى المساحات الشاسعة الممتدة جنوبى مصر من أفريقية غرباً إلى آسيا شرقاً، وهى المنطقة التى تسكنها العناصر من ذوى البشرة المحترقة

أو السوداء أو الزيتونية اللون ، وهـــذا ما يعنيه اللفظ الأغريق (Aethiops) ، ويتكوّن من مقطعين : (Aitheim) بمعنى محترق ، (ops) بمعنى وجه[١] .

ومن هؤلاء الـكتّاب هوميروس الشاعر وهيرودوت المؤرخ اليونانيان، وديودور وسترابو من مؤرخى الرومان أوائل ظهور المسيحية . قسم هؤلاء المؤرخون سكان تلك المنطقة تقسيا عرضيا إلى مجموعتين كبيرتين هما : الأثيوبيون الشرقيون ، وموطنهم بلاد العرب وسوريا ومابين النهرين ثم امتداد هذا الصقع شرقاً حتى الهند ، والأثيوبيون الغربيون ، ويقطنون البلاد الواقعة غربى البحر الأحمر وتضم مصر والسودان[٢] .

على أن الذين تولوا ترجمة الإنجيل إلى اللغــة اليونانية ، استعملوا كلمة (كوش) وأرادوا بها أثيوبيا ، أى أنهم حددوا أثيوبيا أو شطرها الغربى بالمنطقة المعروفة باسم كوش والممتدة جنوب مصر ، وهى التى اشتهرت بصلتها بمصر منذ أقدم العصور ، وجاء فى سفر التكوين أن كوش هو ابن حام بن نوح[٣] ويقال إن لـكوش هذا ولداً يسمى إيتيوبس (Aethiopis) وهو الذى سميت البلاد باسمه[٤] .

---

(١) القنائى : الجواهر الحسان فى تاريخ الحبشان؛ الجاحظ : فخر السودان على البيضان ص ٨١ .
Coulbeau (J. B.) : Histoire Politique et Religieuese d'Abyssinie, T. I, p.79

(٢) لهذا التحديد الجغراف صلة بأسطورة القديس يوحنا .
(انظر : عبـــد المجيد عابدين : بين الحبشة والعـرب ص ١٦٧ ـ ١٦٩ ؛
Budge (sir E. A. W.) : A History of Ethiopia, Nubia & Abyssinia, Vol. I, pp. 120. Jone (A. H. M.) & Monroe (Eliz) : A History of Abyssinia, pp. 59-63,178,180) .

(٣) جاء فى سفر التكوين : « وبنو حام كوش ومصرايم وفوط وكنعان ؛ وبنو كوش سبأ وحويلة وسبتة ورعمة وسبتكا ؛ وبنو رعمة بشا ودوان ؛ وكوش ولد نمرود الذى ابتدأ يكون جباراً فى الأرض » (الإصحاح العاشر : آيات ٦ ، ٧ ، ٨) .

(٤) اليعقوبى : جـ ١ ص ١٥٥ ، المسعودى : مروج الذهب جـ ١ ص ١٨١ ؛
Alype (pierre) : L'Empire des Negus, p. 19; Budge, op . cit. pp. 142,190.

وهناك حديث ينسب إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم مؤداه أن سام أبو العرب ويافث أبو الروم وحام أبو الحبش (٥) .

وحين أعيدت ترجمة الإنجيل من الأغريقية إلى اللغة الأثيوبية المعروفة باسم الجعز، أطلق المترجمون كلمة أثيوبيا وعنوا بها الحبشة ، وكان هذا الاسم الأخير معروفاً وقتئذ، أى فى القرن الرابع الميلادى يوم دخلت المسيحية دولة أكسوم الحبشية .

والمعروف أن الأحباش الأكسوميين يفضلون أن تدعى بلادهم أثيوبيا بدلاً من الحبشة ، وأن يدعوا هم أنفسهم بالأثيوبيين لا الحبشيين ، بل إنهم ليشعرون بالإهانة إذا ما نعتوا بالأحباش، ولعل ذلك يرجع إلى أن أثيوبيا تعنى الكوش، والكوشيون قد أضحوا سادة على أغلب بلاد شمال شرقى أفريقية ، باستثناء مصر، وذلك بعد إخضاعهم للقبائل الزنجية ، وهذا مجد قديم . كما أن أثيوبيا وردت فى التوراة ، فالحرص على هذه التسمية فيه معنى التيمن ، أما الأحباش فتعنى الأخلاط ، فضلًا عن أن الأحباش عنصر أجنبى (٦) .

أما كلمة الحبشة ، ومنها الأحباش ، وهما اللفظان اللذان صارا فى اللغة الأجنبية (Abyssinia — Abyssinians) فيرجع أصلها إلى قبيلة عربية هى «حبشت» السامية التى عبرت البحر الأحمر ، مهاجرة من جنوب بلاد العرب واستقرت فى أفريقية (٧) ،

---

(٥) السيوطى: أزهار العروش فى أخبار الحبوش (مصور عن نسخة بالاسكوريال — ميكروفلم رقم ٢٧ تاريخ بدار الكتب) .

ابن الجوزى : تنوير الغبش في فضل السودان والحبش (مصور عن نسخة بالاسكوريال — ميكروفلم رقم ٢٩ تاريخ بدار الكتب) .

(٦) الجواهر الحسان ص ح — ٧ ؛ عابدين : ص ٧ ؛ Budge, op. cit. pp. 120,130; Coulbeaux, op. cit. pp. 81.
Jones and Monroe, op. cit. pp. 10-14.
الشاطر بوصيلى : معالم تاريخ سودان وادى النيل ص ٦

(٧) ورد فى بعض المراجع العربية أن الحبش من نسل حبش بن كوش بن كنعان بن حام ابن نوح (ابن عبد الباقى : الطراز المنقوش بمحاسن الحبوش (مخطوط) ورقة ٦ ؛ الحلبى : أعلام الطراز المنقوش (مخطوط) ورقة ٤ .

ويرجح أن ذلك تم فى الفترة بين القرنين العاشر والسابع قبل الميلاد ، والغالب أن الوطن الأصلى لهذه القبيلة هو بلاد اليمن . ولما كانت اليمن خلال تلك الفترة على درجة كبيرة من التقدم والعمران فى ظل ملوك سبأ ، فإن هـذه القبيلة لا شك كانت أرفع حضارة ومدنية من الوطنيين المقيمين فى أفريقية إبّانئذ ، وهم الذين استقر الأحباش بينهم . ولم تلبث قبيلة حبشت حتى سادت فى موطنها الجديد ، وصبغت البلاد بالصبغة الحضارية التى تميزت بها ، غير أن الوطنيين لم ينظروا بعين الارتياح أو الرضا لسيادة هؤلاء الأجانب . ومع ذلك لم يكد القرن الرابع الميلادى يطلع حتى غلب اسم هذه القبيلة السامية على المنطقة التى استوطنتها ، بل وعلى الوطنيين أنفسهم ، فغدا الجميع أحباشا ، وأصبحت كلة الحبشة ترادف أثيوبيا(٨) .

وهنا تحسن الإشارة إلى وجوب التفرقة بين ما نعرفه اليـوم بمدلول هذا اللفظ (الأحباش) ، وبين ما عرف قبيل الإسلام من « أحابيش قريش » فهؤلاء الأخيرون ليسوا أحباشا أو زنوجا ، وإنما هم حلف عربى قوامه أحياء من عرب كنانة وخزعة اللتين كانتا تنزلان أغوار تهامه(٩) .

ومن الآن فصاعدا، سنستعمل كلة حبشة كرادف لأثيوبيا ، وحدود هذه المنطقة قديما، بين النيل غربا والبحر الأحمر شرقا، ومن النوبة شمالا إلى ماوراء خط الاستواء جنوبا ، بمعنى آخر أن الحبشة أو أثيوبيا فى فجر الفترة التى يعنينا الحديث عنها، تشمل ما هو معروف حاليا باسم السودان والحبشة وأرتريا والصومال ، وكانت حدودها دائمة

---

(٨) Kammerer (A.) : Essai sur l'Histoire Antique d'Abyssinie, pp. 25-82; Coulb. op. cit. pp. 77-78; Budge, op. cit. p, 122; Trimingham (J.S.) : Islam in Ethiopia, pp. 5,7,32; Pankhurst (S.): Ethiopia, ACultural History, p. 28; Encyc. of Islam, Art. «Abyssinia»; عابدين ص ١٢

(٩) انظر العبادى : صور من التاريخ الإسلامى ــ العصر العربى ، وهو بحث ممتع عن أحابيش قريش للمحقق الثبت المرحوم الأستاذ عبد الحميد العبادى ص ١٣ــ٢١ .

التغير من ناحية الشمال والجنوب ، وحدث نزاع حول هذه الحدود فى العصور الوسطى[١٠].

أما العناصر المكونة للحبشة ، فالمعروف أن القبائل الكوشية الرعوية الحامية تكون العنصر الغالب فى شمالها ، وتنقسم هذه القبائل إلى عدة فروع منها : الأجاو والبجه والساهو والسيداما والجالا، وأبرز هذه العناصر عنصر الجالا (Galla)[١١] تعرض الكوشيون إلى تغير ثقافى عميق مبعثه هجرة القبائل السامية منذ القرن العاشر قبل الميلاد تقريبا ، وأهم قبيلة سامية ذات الأثر البارز فى تاريخ الحبشة ، هى قبيلة حبشت التى سميت البلاد باسمها ، ثم قبيلة الجعز أو الأجاعز ، وهى التى سادت لغتها وغدت اللغة الأدبية للمسيحية فيما بعد ، وتعرف اللغة الأثيوبية باسم « لسان الجعز » وأقدم نص كتب بهذه اللغة فى الحبشة ، وجد على مسلة ترجع إلى القرن الثالث الميلادى[١٢] . استقر الجعزيون فى مناطق : شميزانا وأجاما وأكيله وجوزى[١٣].

لذلك لم تكن هجرة الساميين لقبائل بدوية، وإنما لجماعات من الزراع المتحضرين الذين ألفوا الاستقرار ، ولهم نظمهم الاجتماعية وعناصر حضارتهم العريقة . أدخل هؤلاء الحضارة السبئية المعتمدة على الوسائل الصناعية كوسائل الرى المتقدمة فى عمل الخزانات والسدود وشق القنوات ، وزراعة سفوح الجبال ، وأدخلوا كذلك استعمال

(١٠) رسمت حدود الحبشة الحالية بمقتضى معاهدة أديس أبابا عام ١٩٠٢ ، بينها وبين السودان ، وذلك من ناحية الشمال والشمال الغربى ، وحدودها الشمالية الشرقية أرتريا والصومال بأقسامه ، ويحدها من الجنوب أفريقية الشرقية البريطانية ؛ Budge, op. cit. p. 122 Trimingham, op. cit. p. 1).

ابن حوقل : كتاب صورة الأرض (القسم الأول) ص ١٦

(١١) Budge, op. cit. pp. 129-31

(١٢) عايدين ص ١٣ ؛ Trimingham, op. cit. pp. cit. pp. 6-7,32

(١٣) Jones & Monroe, p. 34; Trimingham, p. 32; Coulbeaux, p. 91; Encycl. of Religion & Ethics, Art. Hamitss & East Africa; Pankhurst, pp. 28,111; Beckingham (C. F.) & Huntingford (C.W.B,), Trans. & Edit. : some records of Ethiopia, p. LXVIII.

المعادن ، وبعض النباتات الجديدة ، واستخدموا الأحجار فى البناء ، وهـذا بجانب نوع من التنظيم الإدارى والإقليمى وفن الكتابة ، ومن ثم أضحت المناطق التى استقروا فيها مراكز لنشر الحضارة . وقد عثر على أثر قديم لهذا العنصر السامى فى مدينة قديمة تسمت آفا (Ava) وتعرف الآن باسم « يحا » ؛ عثر فى هـذه المدينة السامية على بعض أحجار لمعبد إله الشمس وعليها كتابات حميرية ترجع إلى القرنين السابع والخامس قبل الميلاد[١٤] .

وجد هؤلاء المستعمرون الجدد فى مهجرهم مناخا يشبه ذلك المناخ الذى فارقوه ، مما ساعدهم على مواصلة نشاطهم ، ورغم أن الكثير منهم جاء ومعه نساؤه ؛ إلا أنهم لم يلبثوا أن اختلطوا بالقبائل الحامية وصاهروها ، وكان من نتيج هـذا الامتزاج مواطنو مملكة أكسوم ، حيث برز بيت من البيوت الإقطاعية الوثنية ، تولى الزعامة وأسس هذه المملكة التى يرجح أنها قامت فى القرن السابع قبل الميلاد ، ونمت نواة هذه المملكة فى الجبال ثم امتد سلطانها إلى الوديان والمناطق الساحلية حتى ضمت أرتريا ، وعاصمتها «أكسوم[١٥] » ولم تزل أكسوم حتى الوقت الحاضر العاصمة الدينية لملوك الحبشة ، يتوجون فيها .

نشطت مملكة اكسوم ، وهى المملكة الحبشية الأولى ، واستطاعت أن تكون حضارة وطنية متأثرة بالحضارة السامية ، وكذلك بالحضارات الأخرى فى شمالى شرق إفريقية وهذه الحضارات مشتقة بدورها من الحضارة المصرية القديمة ، ومن أمثال هـذه الحضارات المشتقة من الحضارة المصرية مملكة مروى (Meroë) فى وادى النيل[١٦] ، وكذلك حضارة البجة والشعوب النيلية مثل باريا . غير أن أبرز

(١٤) Alype, op. cit.pp. 23-24; Pankhurst, p. 48; Trimingham, pp. 33-43.

(١٥) تذكر بعض الروايات أن هـذه العاصمة أخذت اسم مؤسسها : أكسوماى ؛ Bupge, pp. 140,190-1- Coulb. p. 84.

(١٦) قامت هذه المملكة فى مروى قرب نباتا عند الشلال الثانى ، وامتد سلطانها من =

عنصر فى حضارة أكسوم هو العنصر السبئى الذى اشتقت منه أصلا[١٧] .

ومن الحضارات التى أثرت فى حضارة أكسوم ، هناك الحضارة اليهودية ، التى تسربت إلى البلاد عن طريق اعتناق قبائل الأجاو (Agao) لهذه العقيدة . ويرجح أن اليهود وصلوا إلى الحبشة على أثر تفرقهم أواخر القرن السادس قبل الميلاد حين ضرب بختنصر البابلى (Nebuchadrezzar) بيت المقدس وشتت بنى إسرائيل . ويعرف اليهود فى الحبشة باسم قبائل الفلاشة[١٨] ؛ وقد كون هؤلاء مستعمرات تجارية فى الحبشة وغيرها ، وصارت هذه المستعمرات خلايا للدعاية اليهودية فضلا عن النشاط التجارى الذى أسهم فى تقدم اكسوم ، ورغم أن قبائل الأجاو قد اعتنقت اليهودية إلا أنها لم تثبت عليها ، فقد تحولت فيما بعد إلى المسيحية المينوفيزيتية ، ولا يخفى أثر اليهودية فى الأفكار السياسية والدينية لمملكة الحبشة ، منها أسطورة تسلسل ملوك الأحباش من سلالة سليمان الحكيم وزوجته ملكة سبأ التى يسميها الأحباش ماقده (Makeda)[١٩] ، أما أثر الإغريق والحضارة الهللينية ، فقد وصل عن طريق البطالمة فى مصر ، ولعبت الثغور التجارية التى أنشأوها على ساحل البحر الأحمر الغربى دورا هاما فى نقل الحضارة الهللينية إلى دولة أكسوم الناشئة ، ومن هذه الموانى البطلمية الإغريقية : ليوكوس ليمون وميوس هرموس ، وبدا مظهر الحضارة الهللينية فى التنظيم التجارى وإصلاح الموانى وصيانتها وتنظيم الجيوش ، ونظم التعليم والإدارة ،

= الشلال الأول إلى حدود الحبشة ، وتأثرت بالحضارة المصرية القديمة ، ومن مظاهر هذا التأثر أن ملوك مروى كانوا يدفنون موتاهم فى مقابر على شكل أهرامات ، وتكتب أسماؤهم فى خراطيش ، وذلك على النحو المعروف عند الفراعنة (Budge, pp.56-62 ؛ عبدالله حسين : تاريخ السودان ص ٥١ ــ ٥٢) .

(١٧) Trim., pp. 33,35

(١٨) الجواهر الحسان ص و ، ٨ ؛ Hall (H.R.): The Ancient Hist. of the Near East, p. 246.

(١٩) عابدين ص ١٦ــ١٧ ; Trim., pp. 345; Budge, p. 194; Coulb.; pp. 95,99.

يقصدها التجار من مختلف الجنسيات ، حتى أشبهت على عهد عزانة ، الإسكندرية على عهد البطالمة . بل إن أى أثر أو نقش ذى أهمية فى تاريخ الحبشة ، إنما يرد إلى عهد هذا الملك، كتبت حولياته بالإغريقية وبالحبشية أو الحميرية، وربما قورن بدارا الأكبر الفارسى من حيث إن كلا الرجلين رغب فى أن يقرأ رجاله أعماله ويشهدوا مآثره ، كل بلغته الخاصة حين يزور العاصمة ، وقد طال عهده وازدهر . وبجانب كونه محاربا من الدرجة الأولى كان سياسيًا من الطراز الأول ، وحسبنا دليلًا على سعة نفوذه أن السجلات التى دوّنت فى عهده كانت تستهل بعبارة « نحن عزانة ملك أكسوم وحمير وريدان (صفر باليمن) ـ وسبأ وسالحين (حصن مأرب) ـ وسيامو (القبائل الساكنة جنوب شرق أكسوم) ـ وبجة وكاسو (الكوش) ... »(٢٣) .

***

وعن اعتناق أكسوم للمسيحية ، يلاحظ أن هذه الدولة كانت تدين بالوثنية ، وعلى دين الصابئة الذى أتاها من اليمن . وأعظم آلهتها « عثتر » آلهة السماء ، ومدر (Meder) آلهة الأرض ومحرم (Mahràm) إله الحرب ، ويقابله الإله مارس (Mars) إله الحرب عند الرومان (ومارس هو كوكب المريخ) ويعتبر محرم إله الأسرة الحاكمة، التى تدعى أنها منحدرة عنه، ففى سجلات الملك عزانة أن أباه الإلهى هو محرم . وأغلب رعايا الدولة الأكسومية على الوثنية، ولآلهتها عدد كبير من المعابد يتبعها طوائف من الكهان (٢٤).

وخلال القرون الأولى للمسيحية، نهضت طوائف المبشرين بعملها فى مصر وشمال شرق إفريقية ، وازداد عدد الداخلين فيها ، ولا سيما بعد مرسوم ميلانو عام ٣١٣م ،

---

(٢٣) Coulb., pp. 138-9; Pankhurst, p. 51; Budge, pp.242-3
Bury (J.B.) : Hist. of the Later Roman Empire, Vol. II, p. 323; Kammerer, op. cit., pp. 58,87-88

(٢٤) Trim., p. 37; Kammerer, pp. 121-3, Budge, pp. 142, 243.

وهــو المرسوم الذى أصــدره الامبراطور قنسطنطين الأكبر معترفا بالمسيحية ضمن الديانات القائمة فى امبراطوريته(٢٥). وتسربت المسيحية إلى الحبشة فى وقت مبكر عن طريق العلاقات التجارية مع بيزنطــة وولاياتها ؛ على أن تأسيس الــكنيسة الحبشية الأكسومية يرجع إلى أخوين صوريين هما:فرومنتيوس (Frumentius)وأيدسيوس (Aedesius).

يذكر المؤرخ رفينوس المتوفى عام ٤١٠ م أن الفيلسوف أو التاجر الصورى (Meropius) ، أرســل جماعــة للتبشير بالمسيحيــة بين الأحباش وكان الأخوان فرومنتيوس وأيدسيوس ضمن هذه البعثة ، فلما وصلت السفينة بهم إلى إحدى موانى البحر الأحمر المطلة على الحبشة ، خرج عليهم المواطنون وقتلوهم ولم ينج سوى هذين الأخوين اللذين أخذا كرقيق وبيعا إلى الملك فى أكسوم ، وفى البلاط الأكسومى عمل الأول رائدا للأمير الطفل ولى العهد ، واشتغل الثانى ساقيا للملك، وعند ماتولى ولى العهد العرش ، وهو عزانة ، بقى الأخوان فى خدمته ، وبرز اسم فرومنتيوس بسبب نشاطه الدينى فى نصح المسيحيين من تجار الإغريق المقيمين فى أكسوم وأخذ يحثهم على بناء الــكنائس ، ونجح فى ذلك نجاحا كبيرا . وبعـــد فترة غادر الأخوان أكسوم ، وصار أيدسيوس أسقفا لمدينة صور حيث التقى بالمؤرخ رفينوس وقص عليه قصته ، وتوجه فرومنتيوس إلى الإسكندرية حيث تقابل مع البطريق أثناسيوس ، الذى كان قد تولى البطريكية منذ عام ٣٢٨ م ، وتناقش معه فى وجوب إرسال أسقف ليشرف على المسيحيين الذين كثر عددهم فى أكسوم وليس لهم راع أو رئيس يرشدهم . أجاب أثناسيوس بعقد مجلس من الأساقفة بالإسكندرية واستقر الرأى على إرسال فرومنتيوس نفسه ، إذ بدأ فى نظر المجلس أنسب رجل لهذه المهمة التى خبرها من قبل، وصدر قرار تعيينه أسقفا للحبشة عام ٣٤١ م أو ٣٤٦ م . سافر الأسقف إلى أكسوم

---

(٢٥) انظر المرسوم فى : Barker, (E.) from Alexander to Constantine. «Passages & Documents Illustrating the Hist. of social & Political Ideas». pp. 468-471.

وقام بمهمته خير قيام ، ويعتبر مؤسس الكنيسة الحبشية وأول أسقف لها . وخلال إقامته اعتنق الملك عزانة المسيحية بعد أن كان وثنيا وجعلها الدين الرسمي للدولة حوالى عام ٣٥٠م ، وربما أشبه عزانة الإمبراطور قنسطنطين الأول فى اعترافه بالمسيحية واعتناقه لها ، حتى ليعد فى نظر بعض المؤرخين أنه قنسطنطين الحبشة(٢٦) كما أنه يشبه من جانب آخر الامبراطور تيود سيوس الأول الذى جعل المسيحية الدين الرسمي للامبراطورية البيزنطية .

ومنذ ذلك الوقت أضحت الشارة التى تزين عملة عزانة هى شارة الصليب الإغريقى وحلت هذه الشارة محـل رمز الشمس والقمر الذى كان يطبع على عملته حين كان على الوثنية . احتفى عـزانة ومن تبعه من المسيحيين ، بالقديس فرومنتيوس ولقبوه الأب سلامة (Abba Salama) ويقال إن الأب سلامة هو الذى ترجم الإنجيل إلى لغة الجعز أو على الأقل بدأ هذه الترجمة ، وخلفه فى منصب الأسقفية بالحبشة القديس مينا أوالأب ميناس (Abba Minas) الذى عين بقرارمن البطريق اثناسيوس عام ٣٦٢م(٢٧) . وحدث خلال تلك الفترة أن أرسل الامبراطور البيزنطى قنسطنطيوس الثانى (٣٣٩ـ٣٦١م) أسقفا معينا من قبله وهو الأسقف ثيوفلس الأريوسى، عينه الامبراطور على كنائس الحبشة واليمن وجزيرة سوقطرة(٢٨) وبعث إلى عزانة وأخيه شيزانا (Shaiazana) خطابا عام ٣٥٦ ، يطالب إليهما فيه

---

(٢٦) Jones & Monroe, Pankhurst, pp. 120-5;Kammerer, p. 85 pp. 26-27.

(٢٧) الجواهر الحسان ص٩ ؛ Budge pp. 38-40. Bury, II' p. 322, Trim. ,pp. 147-8, Coulb., pp. 159-161.

(٢٨) اختلفت الآراء فى مهمة الأسقف الأريوسى ثيوفلس ، فنسب إلى هذا الأسقف نشر المسيحية فى جنوب بلاد العرب وإنشاء ثلاث كنائس فى ظفار وعدن وهرمز ، وهـذه الأخيرة مع الخليج العربى ؛ ونسب إليه كذلك عقد معاهدات تجارية لصالح الامبراطورية البيزنطية ؛ وهناك من يقول أن مهمته قد اقتصرت على تحـويل المسيحيين الموجودين فى تلك البقاع ، إلى المذهب الأريوسى . (Trim, p. 40 , Bury, II p. 322)

طرد القديس فرومنتيوس لأنه مهرطق(٢٩) ، غير أن الملك لم يستمع إلى هذا الطلب ، وظلت الكنيسة الحبشية منذ ذلك العهد مرتبطة بكنيسة مصر حيث يقوم البطريق القبطى بتعيين أسقف (مطران) للحبشة(٣٠) ، ويقال إن أحد المجامع الدينية التى عقدت فى نيقيا خلال القرن الرابع الميلادى ، قد أقر خضوع كنيسة الحبشة لمصر ومضمون القرار — : « أن مسيحيى الحبشة لا يجوز لهم الاستقلال بأمورهم الدينية ، وإنما هم تابعون للكرسى الإسكندرى(٣١) ». وفى هذا المعنى يقول المقريزى : » ولابد للحبشة من مطران يوليه بطريق النصارى اليعاقبة بمصر ، بعد سؤال الحطى — لقب ملك الحبشة (Hade) — لسلطان مصر فى ذلك بكتاب يبعثه مع مرسله صحبة هدية ، فيتقدم البطريق بتعيين مطران(٣٢) ». وفى كتاب القوانين : « والحبش فلا يبطرك عليهم بطرك من علمائهم ولا باختيار منهم فى أنفسهم لأن بطركهم إنما يكون من تحت يد صاحب الإسكندرية وهو الذى ينبغى أن يصلح عليهم قاتوليقا الذى هو دون البطريرك ومن قبله ، فإذا بطرك عليهم هذا المذكور باسم القتلقة فليس له مطلقا أن يطرن مطارنة كما يطرنهم البطاركة ، لأنه إنما يكرم باسم البطريركية من غير أن يكون له سلطان ذلك(٣٣) .... »

ولهذا المطران المصرى مكانة محترمة فى نظر الحبشه ، كما أن لأوامر البطريق المصرى من الاعتبار بقدر ما لشريعته من الحرمة فى عين الأحباش».

يقول العمرى « وإذا كتب إليــــه — أى إلى ملك الحبشة — كتابا فأتى ذلك .

---

(٢٩) انظر نص الخطاب في : Pankhurst, pp. 58-59

(٣٠) Bury, II, p. 322, Trim, p, 39, Budge, pp. 150,243

(٣١) الجواهر الحسان ص ٩

(٣٢) يلاحظ أن صلة الحبشة الدينية بمصر قد انقطعت خلال الاحتلال الإيطالى ، ثم استؤنفت عقب عودة هيلاسلاسى إلى الحكم . Trim., p. 25

المقريزى : الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام ص ٣

القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا جـ ٥ ص ٣٢٢—٣٢٣

(٣٣) ابن العسال : كتاب القوانين (قانون رقم ٤٢ من القوانين النيقية) ص ٢٣

الكتاب إلى أول مملكة ، خرج عميد تلك الأرض لحمل الكتاب على رأس علم ولا يزال يحمله بيده حتى يخرجه من أرضه وأرباب الدولة فى تلك الأرض كالقسوس والشمامسة حوله مشاة بالأدخنة ، فإذا خرجوا من أرضهم تلقاهم من يليهم أيدا ، كذلك فى كل أرض بعد أرض حتى يصلوا إلى أمحره ، فيخرج صاحبها بنفسه ــ أى الملك ــ ويفعل مثل ذلك الفعل الأول ، إلا أن المطران هو الذى يحمل الكتاب لعظمته لا لتأبى الملك ، ثم لا يتصرف الملك فى أمر ولا نهى ولا قليل ولا كثير حتى ينادى للكتاب ويجمع له يوم الأحد فى الكنيسة ويقرأ والملك واقف ثم لا يجلس مجلسه حتى ينفذ ما أمر به»(٣٤).

وخلال حكم الملك الأكسوس ال عامدا (Al ‘Amida) دخلت الرهبانية والديرية حوالى عام ٤٨٠ م ، وذلك حين وفد على الحبشة عدد كبير من الرهبان وأسسوا عدة أديرة فى مناطق مختلفة ، منها منطقة تيجرى ، ويقال إن بعثة مكونة من تسعة رهبان قديسين من أصل سورى جاءت من مصر وروما ودخلت أثيوبيا بقصد إصلاح العقيدة وتأسيس الأديرة ، وينسب إلى أعضائها ترجمة الإنجيل من الإغريقية إلى لغة الجعز الوطنية ، بدليل وجود بعض الألفاظ السوريانية فى لغة الجعز ، أدخل هؤلاء الطقوس المتبعة فى الإسكندرية ، ومن أولئك التسعة الأب ألف (Alef) مؤسس دير بجزا والأب ميخائيل (Za-Michael)(٣٥) مؤسس دير برادامو فى تيجرى وهكذا . . ، ويبدو أن كلا من أولئك الرهبان التسعة قد أسس ديراً شمالى الحبشة وجمع حوله طائفة من الرهبان .

والملاحظ أن الرهبانية التى انتشرت فى الحبشة كانت على النظام الباخومى المصرى نسبة إلى الراهب باخوم (١٩٢ ـ ٣٤٦م) وهى الرهبانية الاجتماعية أو الديرية(٣٦) . وفى

---

(٣٤) العمرى : التعريف بالمصطلح الشريف ص ٣٠ ــ ٣١ ؛ صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٠٨ ــ ٣٠٩ .

(٣٥) انظر عابدين ص ١٤

(٣٦) Munier (H.) : L’Egypte Byzantine (Précis de l’Hist. d’Egypte) T. II, pp. 14-18.

النصف الثانى من القرن الثالث عشر الميلادى ، وفد كثير من الرهبان الأقباط من مصر وأدخلوا فى الحبشة عدة كتب دينية مثل كتاب الصلوات وأناجيل الحواريين وهذه كلها ترجمت إلى لغة الجعز(٣٧) .

هكذا كان دخول المسيحية وما تفرع عنهـا من نظم إلى الحبشة ، ولهذا أثره الكبير فى تاريخ الحبشة الدينى والسياسى ، إذ غدت الكنيسة الحبشية مرتبطة بكنيسة مصر منذ البداية ، وبكنيسة بيزنطة إلى حدما ، نظرا لأن الامبراطورية البيزنطية تعد نفسها حامية للمسيحية ، ومعنى هذا ارتباط الحبشة المسيحية بالحضارة الإغريقية المنتشرة فى حوض البحر الأبيض على نطاق أوسع مما كان عليه الأمر إبان وثنيتها . ومن جانب آخر ارتبطت الحبشة بالمسيحية فى جنوب بلاد العرب بل أضحت نائبة عن بيزنطة فى رعاية المسيحيين باليمن ونصرتهم عند الحـاجة. غير أن ارتباطها بالإسكندرية كان بطبيعة الحال أقوى من صلتها بغيرها ، ولا سيا بعد اعتناق العرب فى الجزيرة العربية للإسلام . وهناك الأثر الثقافى واللغوى ويتمثل الأخير فى دخول بعض تحسينات على اللغة الحبشية القديمة ، وتسرب بعض الألفاظ السوريانيـة إليها(٣٨) .

على أن البارز فى آثر المسيحية فى الحبشة ، هو تعصبها الشديد لمسيحيتها يقول المقريزى : « والحبشة يتشددون فى دياناتهم تشددا زائدا ويعادون من خالفهم من سائر الملل أشد عداوة ويعادون الطائفة الملكية (الملكانية) من النصارى(٣٩) . ولعل مبعث هذا التعصب ضد الإسلام خاصة هو إحاطة الإسلام للحبشة من جميع الجهات تقريبا ونشاط الدعاية الإسلامية وازدياد الرقعة الإسلامية فى البلاد الحبشية ، كما أن اختلاط الأهداف السياسية بالحماس الدينى قد أدى إلى حدة هذا التعصب ،

(٣٧) Coulb. , pp. 168-170; Trim., pp. 22-23, 40; Budge, pp, 152-3 .

(٣٨) انظر عابدين ص ٢٠–٢١

(٣٩) الإلمام ص ٣

وربما كانت الأهداف السياسية هى الباعث الأكبر على الحروب التى نشبت بين الحبشة والممالك الإسلامية التى جاورتها[٤٠] .

***

ومن حيث علاقة الحبشة ببلاد العرب قبـل الإسلام ، فالملاحظ أن هذه العلاقة قد بدأت تجارية ، فيذكر عن دولة أكسوم فى أول بروزها أنها أخذت ترسل البعثات إلى الجهات المختلفة ومن بينها اليمن ، وحين بدأت توسعها الإقليمى ، عبرت البحر الأحمر، وأول غزولها فى اليمن كان فى الفترة الواقعة بين عامى ٢٧٧،٢٩٠م واستطاعت بالفعل أن تستولى على اليمن فى الفترة ما بين ٣٠٠م ، ٣٧٨م واستولى الملك عيزانا على اليمن حوالى عام ٣٢٠م أو ٣٤٢م بدليل النقش الذى تركه مسجلا فتوحه[٤١]؛ غيرأن الحميريين (١١٥ ق م ـ ٥٢٥م) تمكنوا من طرد الحبشة التى ظلت تدعى سيادتها على اليمن . ولما كانت المسيحية قد انتشرت فى جنوب بلاد العرب ، وكانت الامبراطورية البيزنطيـة تعتبر نفسها حاميـة للمسيحية ، وهناك ارتباط بين كنيسة الحبشة وبين بيزنطة ، فقد بدأ عامل جديد هو العامل الدينى ، لحث دولة أكسوم على التدخل فى اليمن لحماية المسيحية ، ويحتمل أن الغزو الحبشى تكرر على عهد الامبراطور البيزنطى زينو (٤٧٤ ـ ٤٩١م) أو أنسطاسى (٤٩١ ـ ٥١٨م) ، وخلال تلك الفترة أخذت اليهودية تزحف إلىاليمن من مستعمراتها بالحجاز فى يثرب وخيبر،على عهد الأمبراطور البيزنطى جستين الأول (٥١٨ ـ ٥٢٧) م ، وحينئذ ظهر أمير فى اليمن هو ذونواس الحميرى ، اعتنق اليهودية وحاول طرد الأحباش ، وعذب النصارى ، ويقال إن حملة الاضطهاد العنيفة التى شنها ضد النصارى فى بلاده ، كانت ردا على ما لحق اليهود من اضطهاد فىالامبراطورية البيزنطية[٤٢] . فضلا عن العامل الوطنى، تدخل ملك الحبشة

(٤٠) انظر عابدين ص ١٦٦ وما بعدها .

(٤١) انظر ما سبق .

(٤٢) Bury; p. 323

إلى أصبحه Ella Asbeha (٥١٤ ـ ٥٤٢م) واستعاد سلطانه عام ٥١٩/٥٢٠م . غير أن ذا نواس استطاع التغلب على الحبشة واسترد سلطته وأمعن فى اضطهاد النصارى وتوجه إلى نجران عام ٥٢٣ م وطلب إلى أهلها اعتناق اليهودية فأبوا ، فقتلهم وعذبهم وحفر لهم أخدوداً ، وهؤلاء هم أصحاب الأخدود الذين ورد ذكرهم فى القرآن الكريم « قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ، النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ . . . »[٤٣] ثم أرسل ذو نواس إلى المنذر ملك الحيرة وحثه على أن يقضى على المسيحيين فى بلاده ، وحين وصلت سفارته إلى المنذر وهو فى معسكره بالرملة فى يناير سنة ٥٢٤ م كان بحضرته سمعان رئيس المينوفيزيتيين فى الامبراطورية الفارسية ، مرسلا من قبل الامبراطور جستين الأول ليفاوض المنذر فى الصلح ، فلما سمع ما فعله ذو نواس بنصارى نجران تملكه الفزع والرغبة فى الانتقام ، وأسرع لإشاعة هذا الخبر بين المسيحيين المينوفيزيتيين فى المدن الكبرى أمثال أنطاكية وطرسوس وغيرها[٤٤] .

أرسل بطريق الإسكندرية المعاصر يومئذ وهو تيموش (Timothy) رسالة إلى ملك الحبشة لينهض للانتقام لضحايا نجران ، ويحتمل أن الامبراطور جستين الأول كان قد اتفق مع بطريق الإسكندرية على مخاطبة ملك الحبشة وهذا فضلًا عن استنجاد نصارى نجران بملك أكسوم وكان رسولهم هو ذو ثعلبان الأصفر[٤٥] ، ولما لم يكن لدى إل أصبحه سفن كافية للغزو طلب مدداً من الامبراطور جستين ، وهو يعلم حق العلم العداء الزمن بين بيزنطة وفارس ، وأن الحميريين قد حالفوا الفرس وأن ذا نواس لا يعدو أن يكون صنيعة الفرس . بمعنى آخر إن نزاع الحبشة واليمن كان صدى للنزاع بين فارس والروم ، وسرعان ما استجاب أمبراطور بيزنطة ، فقام ملك الحبشة على رأس جيشه وقضى على ذى نواس ٥٢٤ م / ٥٢٥م الذى آثر أن يقتحم البحر بفرسه على ألا يقع أسيراً فى يد الأحباش[٤٦] .

(٤٣) سورة البروج آية ٤ وما يليها .

(٤٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ١ ص ١٨٨ ــ ١٨٩ ؛ Bury, p. 234

(٤٥) ابن سعد الحميرى : منتخبات فى تاريخ اليمن ص ١٥

(٤٦) ابن كثير : البداية والنهاية ج ٢ ص ١٦٨ ــ ١٧٠

ثم عين على اليمن مسيحياً من حمير هو سميفع أشوع (Esimiphaios) كملك تابع له[٤٧] .

كان هذا هو الوضع السياسى لليمن وأكسوم عند ما أرسل الامبراطور جستينيان (٥٢٧ ـ ٥٦٥ م) رسوله جوليان عام ٥٣١ م إلى بلاط ملك الحبشة وبلاط ملك حمير المسيحى ليفاوض الدولتين فى الاتحاد والتحالف ضد فارس ، وافق ملك الحبشة ووعد بحرب اقتصادية ضد فارس مؤداها قيام الحبشة بالقضاء على احتكار الفرس لتجارة الحرير ، وذلك بالعمل على نقل هذه السلعة على سفن حبشية رأساً من سيلان إلى موانى البحر الأحمر ، وقد نجحت هذه السياسة وأفادت الحبشة مادياً . كذلك وافق ملك حمير باعتباره تابعاً لملك الحبشة . ولما كانت نجد فى ذلك الوقت خاضعة لحمير وأميرها قيس كان قد فر هارباً لقتله أحد أقرباء ملك حمير ، فقد فكر جستينيان فى استغلال هذه الحالة بأن يستصدر عفواً عن قيس ، على أن يقوم بمعاونة حمير حربياً ضد فارس ، غير أن حمير لم تستطع القيام بأى عمل حربى ضد فارس لبُعد الشقة[٤٨] .

قامت بعد ذلك فتنة فى اليمن انتهت بتدخل ملك الحبشة وهرب السميفع وتولية أبرهة (Ella Abreha) حاكما على اليمن وأرياط حاكما على حمير ، ولكن الأمور لم تلبث أن تعقدت بسبب تنافس أبرهة مع أرياط . تمكن أبرهة من قتل أرياط والاستقلال بحكم اليمن حوالى عام ٥٣١ م ، وقد جرح أبرهة خلال حربه ضد أرياط ومن أجل ذلك سمى الأشرم فقد شرم حاجباه وأنفه وشفته ، ورفض أبرهه دفع الجزية إلى النجاشى إل أصبحه ، ولما فشل النجاشى فى إقناعه ، وافق على جعله ملكا على اليمن ، وعندئذ انتحل أبرهة لنفسه لقب « ملك الحبشة » . أما النجاشى فيذكر عنه أنه بعد عودته من اليمن ترهّب وأرسل تاجه إلى بيت المقدس ليعلق بجوار قبر المسيح ، وربما كان النجاشى المعروف باسم « بيت إسرائيل » وهو ابن إل أصبحه هو الذى

(٤٧) عابدين ص ٥٧ ؛ Budge, pp. 261-263

(٤٨) Coulb., p. 183; Bury, pp. 325-7

اعترف بسلطة أبرهة باعتباره ملكا على اليمن ، ثم حكم فى الحبشة بعد بيت إسرائيل أخوه « جبره مسقل » (Gabra Maskal) أى عبد الصليب عام ٥٥٠ م وامتد حكمه حتى ٥٧٠ أو ٥٨٠ م(٤٩) .

وخلال تلك الفترة كان أبرهة فى اليمن يعمل على التوسع لحسابه دون نظر إلى النجاشى وبنى كنيسة فى صنعاء المعروفة باسم القليس (Kalis) (أى كنيسة) وجمّلها أروع تجميل ، وأرسل إلى ملك الحبشة ينبئه بأنه بنى له كنيسة رائعة ، وأنه يعزم على تحويل الحجاج من مكة إلى صنعاء ، كما أرسل إلى إمبراطور بيرنطة ــ جستنيان ــ ليساعده ، فأرسل له بعض قطع المرمر لزخرفة الكنيسة . ولما سمعت العرب بذلك ، قام رجل من كنانة واستطاع أن يدخل الكنيسة حيث عبث بمقدساتها ، فاستشاط أبرهة غضباً وصمم على هدم الكعبة ، وحشد جيشاً استخدم فيه الفيلة ، وهذه هى الحملة التى أرخ لها بعام الفيل حتى عام ٥٧١ م وأشير إليها فى القرآن الكريم « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ . . . » وقد فشلت . وفى ذلك العام ولد النبىّ صلى الله عليه وسلم .

توفى أبرهة بعد ذلك وخلفه ولداه يكسوم ومسروق ، وخلال حكم مسروق قامت ثورة وطنية باليمن تزعمها ذو يزن ، ثم ابنه من بعده وهو سيف بن ذى يزن وابنه الآخر معديكرب ، انتهت هذه الثورة بطرد الأحباش من اليمن بمساعدة الفرس، وأضحت اليمن تابعة للفرس منذ عام ٥٩٠ م خلال حكم الملك الفارسى خسرو الثانى (٥٩٠ ــ ٦٢٨ م) ، وظلت كذلك حتى فتحها المسلمون عام ١٣ هـ (٦٣٤ م)(٥٠) ومنذ تلك الفترة بدأت دولة أكسوم الحبشية فى التدهور والانحلال(٥١) .

---

(٤٩) Budge, pp. 263-265

(٥٠) البداية والنهاية جـ ٢ ص ١٦٩ ــ ١٧٦ ، ١٧٨ ــ ١٧٩ ؛ منتخبات فى تاريخ اليمن ص ٥٥ ؛ الجواهر الحسان ص ١١

(٥١) Trim., p. 42; Budge, pp. 262-9

تلك صفحة من تاريخ الحبشة وعلاقتها ببلاد العرب حتى قبيل ظهور الإسلام أى حتى مطلع القرن السابع الميلادى ، وهو القرن الذى شهد انتشار الإسلام والفتوحات الإسلامية .

فلما ظهر الإسلام واشتد إيذاء قريش للنبي وأصحابه ، ورأى الرسول مايصيب أصحابه من البلاء وأن عمه أبا طالب لايستطيع أن يمنعهم مماهم فيه من بلاء ، قال لهم : « لو خرجتم إلى أرض الحبشة ، فإن بها ملكا لايظلم عنده أحد ، وهى أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه »(٥٢). وتذكر المراجع العربية أن هذا الملك الحبشى هو أصحمه ابن الحر أو ابن أبجر وتفسر كلمة أصحمة بكلمة (عطية)(٥٣). وتكاد تتفق المراجع الأجنبية على هذا الاسم Ella Saham أو Ella Asham وهو أبو أرماح (Armach)(٥٤) الذى يعتبره Coulbeaux أنه الملك الحبشى المعاصر للنبي(٥٥) وقد أورد السيوطى عدة أسماء له كلها متشابه منها : صحمه وصمحه وأصمحه ومصمحه وأصخمه وأصحبه(٥٦) .

ويرجح أن الرسول قد نصح أصحابه بالهجرة إلى الحبشة نظرا لمعرفة العرب بأرض الحبشة خلال الاتصالات التجارية القديمة ، يقول الديار بكرى : « وكانت أرض الحبشة متجرا لقريش »(٥٧) كذلك كان لنهوض الحبشة للأخذ بيد المسيحيين المضطهدين باليمن أثر فى هذا الاتجاه الإفريقى ، وإلى هذا وذاك يضم تأثر ملك الحبشة بتعاليم المسيحية والرهبنة اللتين وفدتا إليه من مصر .

---

(٥٢) ابن هشام : سيرة النبي صلى الله عليه وسلم جـ ١ ص٣٤٣ ؛ السهيلى : الروض الأنف جـ ١ ص ٢٠٤ .

(٥٣) تاريخ اليعقوبى جـ ٢ ص ٢٢ ؛ الروض الأنف جـ ١ ص ٢٠١ ؛ صبح الأعشى جـ ٥ ص ٣٢٢

(٥٤) Budge, pp. 271-3; Trim., p. 46

(٥٥) Coulb., pp. 205-7

(٥٦) السيوطى : رفع شأن الحبشان (مخطوط رقم ٧٢٦ تاريخ تيمور بدار الكتب) ورقة ٤٨ ؛ انظر كذلك : تنوير الغبش .

(٥٧) الديار بكرى : تاريخ الخميس فى أحوال أنفس نفيس جـ ١ ص ٢٨٨

خرج المهاجرون الأولون قاصدين الحبشة ، فى رجب من السنة الخامسة من البعثة والثانية من إظهار الدعوة وذلك عام ٦١٥م وعبروا البحر فى مجموعات قليلة ، ويقال إنهم استأجروا سفينة بنصف دينار[٥٨] ومن أوائل هذا النفر عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت الرسول صلى الله عليه وسلم وهو من بنى أمية، ومن بنى عبد شمس : أبو حذيفة بن عتبة وامرأته سهلة التى ولدت له بأرض الحبشة ابنه محمد ، ومن بنى أسد الزبير بن العوام، ومن بنى زهرة عبد الرحمن بن عوف ، ومن بنى عبد الدار مصعب بن عمر وغيرهم ؟ ثم خرج جعفر بن أبى طالب وزوجته أسماء ، وهذه ولدت له بالحبشة ابنه عبد الله وتتابع المسلمون ، حتى بلغ عدد المهاجرين نحو ٨٣ رجلا باستثناء أبنائهم الذين خرجوا معهم صغارا أو ولدوا بالحبشة[٥٩] .

أمن المسلمون بأرض الحبشة وحمدوا جوار النجاشى وعبدالله ، وأحسن النجاشى جوارهم . تقول أم سلمة : لما نزلنا بأرض الحبشة جاورنا بها خير جار النجاشى : أمننا على ديننا وعبدنا الله تعالى لانؤذى ولا نسمع شيئا نكرهه[٦٠] .

وقد ذكر بصدد هذه الهجرة كثير من الشعر يصف ما كان يقاسيه المهاجرون من اضطهاد وما آل أمرهم إليه من إعزاز وتكريم ويتناول بعضه عتاب قريش وتقريعها على كفرها وموقفها . من ذلك قول أحد المهاجرين وهو عبد الله بن الحارث ابن قيس بن عدى :

كل امرئ من عباد الله مضطهدٌ ... ببطن مكة مقهور ومفتون
إنا وجدنا بلاد الله واسعة ... تنجى من الذل والمخزاة والهون

---

(٥٨) المصدر السابق .

(٥٩) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٤٤ — ٣٥٣ ؛ الروض الأنف ج ١ ص ٢٠٨ ؛ الخميس ج ١ ص ٢٧٩ ؛ رفع شان الحبشان ورقة ٢٣

(٦٠) الروض الأنف ج ١ ص ٢١١ ؛ تنوير الغبش :

وقوله :

تلك قريش تجحد الله حقه | كما جحدت عاد ومدين والحجر(٦١) .

ولا نريد أن نستطرد فى ذكر أمثال هجرات المضطهدين من أصحاب العقائد والمذاهب فهذا أمر معروف فى التاريخ ، فاضطهاد المسيحيين واضح على يد الأباطرة الوثنيين مما كان من بين أسباب نشوء الرهبنة والديرية ، واضطهاد أصحاب المذاهب المختلفة ، ثم ماعرف فى فجر العصور الحديثة من اضطهاد أصحاب العقائد المخالفة مما كان من بين نتائجه نشوء بعض المستعمرات الإنجليزية على الساحل الشرقى لأمريكا .. وهكذا . . .

أما قريش ، فقد آلمها أن ترى أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم آمنين بأرض الحبشة ، حيث أصابوا الدار والقرار ، فأتمرت بينها وقر رأيها على إيفاد سفارة إلى النجاشى .. تطلب عودة المهاجرين ، وعضوا هذه السفارة رجلان جليدان هما : عمرو ابن العاص وعبد الله بن أبى ربيعة ؛ جمعت لهما قريش الهدايا للنجاشى ورجال حاشيته ، ولما علم أبو طالب بما استقر عليه عزم قريش ، بعث برسالة إلى النجاشى يوصيه بابنه وصحبه ومما جاء فى هذه الرسالة :

تعلم ، أبيتَ اللعن ، أنك ماجد | كريم فلا يشقى لديك المجانب
تعلم بأن الله زادك بسطة | وأسباب خير كلها بك لازب
وأنك فيض ذو سجال غزيرة | ينال الأعادى نفعها والأقارب(٦٢)

اقتضت خطة قريش أن تبدأ السفارة بتقديم الهدايا أولا إلى بطارقة النجاشى قبل الاتصال به حتى تضمن معاونة هؤلاء البطارقة ، تقدم القاصدان إلى البطارقة بقولهما :

---

(٦١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٣٥٤ ــ ٣٥٧ ؛ المصادر السابقة .

(٦٢) تاريخ اليعقوبى جـ ٢ ص ٢١ ــ ٢٢ ؛ الروض الأنف جـ ١ ص ٢١١ ــ ٢١٢ ؛ الخميس جـ ١ ص ٢٨٩ ؛ الطراز المنقوش ورقة ١٧ ؛ سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٣٥٦ ــ ٣٥٧

« إنه قد ضوى إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينكم ، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردوهم إليهم ، فإذا كلمنا الملك فيهم ، فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم ، فإن قومهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم »[٦٣] .

وعد البطارقة بالإيجاب ؛ وفي حضرة الملك أعاد السفيران مقالتهما السابقة وأمّن البطارقة على ماقالوا ، غير أن النجاشي غضب، قائلا : « لا ها الله إذ لاأسلمهم إليهما ولا يكاد قوم جاوروني ونزلوا بلادي واختاروني على من سواي ، حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم ، فإن كانوا كما يقولون ، أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم ، وإن كانوا غير ذلك منعتهم منهم وأحسنت جوارهم ما جاوروني » .

استدعى النجاشي المهاجرين وسألهم : ما هـــذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا دين أحد من هذه الملل ؟ وهنا انبرى جعفر بن أبي طالب وتحدث عن المهاجرين مجيبا النجاشي :

« أيها الملك! كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام ونسيء الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف ، فـكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والـكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة،وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا ، وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان عن عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين

---

(٦٣) الروض الأنف جـ ١ ص ٢١٢

دينا خرجنا إلى بلادك ، واخترناك على من سواك ورغبنا فى جوارك ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك »[٦٤].

ولما سأله النجاشى عما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم عن الله ، قرأ عليه صدرا من سورة مريم : كهيعص ، ذكر رحمة ربك عبده زكريا . . فبكى النجاشى كما بكى من حوله من أساقفة ثم عقب بقوله : إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة والتفت لسفيرى قريش رافضا ما طلبا بقوله .. أدفع إليكم قوما فى جوارى على دين الحق وأنتم على دين الباطل ؟ انطلقا ، فلا والله لا أسلمهم إليكما ولا يكادون[٦٥].

حينئذ أيقن السفيران بفشل ما سفرا فيه ، فقال عمرو لزميله : « والله لآتينه غدا بما أستأصل به خضراءهم » وحاول زميله صرفه عما اعتزم القيام به بحجة أن لهم أرحاما وإن كانوا قد خالفوا قومهم ، ولكن عمرو لم يعدل عن تصميمه ، وغدا على النجاشى صبيحة اليوم التالى وقال له: « إنهم يقولون فى عيسى بن مريم قولا عظيما، إنهم يزعمون أن المسيح عبد مملوك» حقيقة تغير قلب النجاشى، لكنه لم يشأ أن يتخذ بشأنهم قرارا حتى يناقشهم ، فاستقدمهم وسألهم عما يقولونه فى عيسى ، فأجاب جعفر : نقول فيه الذى جاء به نبينا صلى الله عليه وسلم : هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى العذراء البتول[٦٦] فضرب النجاشى الأرض بيده وأخذ منها عودا ثم قال: « والله ماعدا عيسى بن مريم عما قلت هذا العود ! اذهبوا فأنتم شيوم بأرضى (أى آمنون) » وكأنه أراد أن يقطع كل حديث ومحاولة بشأن المهاجرين ، فرد على قريش هداياها وقال :

---

(٦٤) اليعقوبى ج ٢ ص ٢١ ؛ الخميس ج ١ ص ٢٩٠، ٢٩١ ؛ الطراز المنقوش ورقة ١٨؛ رفع شأن الحبشان ورقة ٢٤ — ٣٠

(٦٥) اليعقوبى ج ٢ ص٢١ ؛ ابن الأثير ج ٢ ص ٣٢ ، ٣٣ ؛ الروض الأنف ج ١ ص٢١٣

(٦٦) الخميسى ج ١ ص ٢٩١ ، ٢٩٢ ؛ اليعقوبى ج ٢ ص ٢١

« لا حاجة لى بها ، فوالله ماأخذ الله منى الرشوة حين رد على ملكى فآخذ الرشوة فيه وما أطاع الناس فى فأطيعهم فيه »(٦٧) .

على هذا النحو كانت حماية النجاشى للمهاجرين الأولين من المسلمين أوائل القرن السابع الميلادى ولم يتأن هؤلاء المسلمون عن رد صنيعه حتى لاحت الفرصة وكان ذلك عندما نشب نزاع بينه وبين منافس له على العرش ـ لعله من أبناء عمه ـ فخشى المسلمون أن ينتصر المنافس وهو لايعرف من حق المهاجرين ما يعرفه النجاشى ومن ثم انضموا إليه فى القتال حيث برز الزبير بن العوام وصحبه حتى انتصر صاحبهم(٦٨) .

ظل المهاجرون فى أرض الحبشة ، وولد لهم الأولاد بل أن أولاد جعفر بن أبى طالب قد ولدوا بأرض الحبشة وقد عاد بعضهم على أثر ظهور أمر النبى صلى الله عليه وسلم بعد هجرته إلى المدينة(٦٩) وفى عام ٦٢٧م ، وهى السنة الخامسة للهجرة ، أرسل النبى صلى الله عليه وسلم للنجاشى رسولا من قبله هو عمرو بن أمية الضمرى لإعادة المهاجرين(٧٠) ويقال إن عبيد الله بن جحش وهو من المهاجرين ظل بالحبشة وارتد عن الإسلام واعتنق المسيحية ، وأخذ يغرى المسلمين على الارتداد وتعتبر ردته هذه أول ردة فى الإسلام(٧١) .

***

(٦٧) يشير النجاشى فى إجابته هذه إلى قصة زوال الملك عنه ورجوعه إليه ، وتتلخص فى ثورة قامت بالحبشة ، انتهت بقتل أبيه وتولية عمه ، فعاش ابن القتيل فى رعاية عمه حتى غلب عليه أمره بحذقه ونبوغه ، وحينئذ خشى أنصار عمه من أن ينتهى الأمر بنقل الملك إليه ، فينتقم منهم لمقتل أبيه ، ولذلك سعوا فيه عند عمه حتى أذن لهم ببيعه ، فباعوه ، وفى ذلك الوقت قتل عمه بصاعقة ، ولم يكن هناك من أبناء ذلك العم من يصلح للملك ؛ ولذا أسرع الأحباش واسترجعوا من باعوه وولوه ملكا عليهم (الروض الأنف جـ ١ ص ٢١٣ ؛ سيرة ابن هشام ص ٣٦٢ ـ ٣٦٣ ؛ الخميس جـ ٢ ص ٢٩١ ـ ٢٩٢ ؛ رفع شان الحبشان ورقة ٤٩ ـ ٥٠) .

(٦٨) المراجع السابقة .

(٦٩) الخميس جـ ١ ص ٢٩١

(٧٠) الروض الأنف جـ ١ ص ٢١٤ ؛ اليعقوبى جـ ٢ ص ٢٢

(٧١) الطراز المنقوش ورقة ٢٢ـ٢٤

أما عن إسلام النجاشي فقد جاء بصدده أن النبي صلى الله عليه وسلم أرسل فى عام ٦ هـ كتابا إليه يدعوه فيه إلى الإسلام ، ورسوله هو عمرو بن أمية ونص الكتاب : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى النجاشي الأصحم ملك الحبشة — سلم أنت ، فإنى أحمد إليك الله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ، ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة ، فحملت بعيسى من روحه ونفخه ، كما خلق آدم بيده ونفخه ، وإنى أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، والموالاة على طاعته ، وأن تتبعنى وتؤمن بالذى جاءنى ، فإنى رسول الله ، وقد بعثت إليك ابن عمى جعفراً ونفراً معه من المسلمين ، فإذا جاءك فأقرهم ودع التجبر ، فإنى أدعوك وجنودك إلى الله ، فقد بلغت ونصحت ، فاقبلوا نصحى ، والسلام على من اتبع الهدى »(٧٢) .

أجاب النجاشي بهذه الرسالة التى أظهر فيها قبوله للإسلام ، ونصها : « بسم الله الرحمن الرحيم : إلى محمد رسول الله من النجاشي أصحمه — سلام عليك يارسول الله ورحمة الله وبركاته، لا إله إلا الله الذى هدانى للإسلام . أما بعد ، فقد وصلنى كتابك يارسول الله ، فماذكرت فيه من أمر عيسى بن مريم ، فورب السماء والأرض أن عيسى ابن مريم لايزيد على ماذكرت ثفروقا واحدا ، إنه كما قلت ، وقد عرفنا مابعثت به إلينا ، وشهدنا بأنك رسول الله ، صادقا مصدقا ، وقدبايعتك بواسطة ابن عمك جعفر وأسلمت على يديه لله رب العالمين ، وقد بعثت إليك بابنى أرها بن الأصحم بن أبجر ، فإنى لا أملك إلا نفسى وإن شئت أن آتيك فعلت يارسول الله فإنى أشهد أن ما تقوله حق ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته ... »

وعند ما تسلم الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الرسالة ، علق بقوله : « اتركوا الحبشة ماتركوكم » . ولما بلغه نبأ وفاة النجاشي عام ٩هـ (٦٣٠م) قال: « توفى اليوم

---

(٧٢) ابن جرير الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ ٢ ص ١٠١ ؛ ابن خلدون : تاريخه جـ ٢ ص ٣٦ — ٣٧ ؛ الطراز المنقوش ورقة ١٩

رجل صالح من الحبشة ، فهلموا فصلوا عليه »(٧٣) . وهناك رسالة أخرى أرسلها النبي صلى الله عليه وسلم لخطبة أم حبيبة بنت أبي سفيان وهي التي ارتد زوجها عبد الله بن جحش فأجاب النجاشي ودفع لها الصداق وأرسلها محملة بالهدايا(٧٤) .

أما أن النجاشي أعلن قبوله للإسلام فهذا أمر يكاد يكون محققا إذ أجمعت عليه المراجع العربية تقريبا ، أما أنه اعتنق الإسلام فعلا وآمن وترك النصرانية ، فهذا ما لا يمكن التحقق منه إثباتا أو نفيا ، ويرى بعض المحدثين أن النجاشي أظهر الإسلام هو وأساقفته لهدف سياسي بحت لا بدافع العقيدة الدينية ، فقد رأى انتصارات الإسلام الساحقة داخل الجزيرة العربية ، وخشي من امتداد الفتوح الإسلامية إلى بلاده ، وهو في وضع لا يمكنه من الدفاع أو المقاومة كما أنه لا يجب أن يدخل في حرب تنجلي عن قتل كثير من رعاياه ومن ثم كانت دبلوماسية في إظهاره للإسلام وإرسال الهدايا وإنقاذ بلاده وحمايتها من التعرض للغزو والفتح. ويدعم صاحب هذا الرأي تفسيره بأن الحبشة، من بين سائر بلاد الشرق الأوسط، استطاعت أن تحتفظ بنصرانيتها بعد حكم أرماح(٧٥)

وعلى ذلك يمكن أن يؤرخ لدخول الإسلام في الحبشة بالهجرة الأولى وإظهار النجاشي أرماح (أصحمة) للإسلام وكثر توافد المسلمين بعد ذلك للأهداف التجارية ، بعد أن دانت لهم بلاد العرب ، وأضحوا يتحكمون في طرق القوافل داخل الجزيرة العربية ولاسيما بين عدن وصنعاء ، كما أسهموا بنشاط كبير في التجارة الشرقيـــة بين مصر والهند عن طريق البحر الأحمر . وعبرت مجموعات قليلة من تجار العرب إلى الساحل العربي للبحر الأحمر ، كما اخترق عدد من هؤلاء ، الحدود الحبشية وأسسوا

---

(٧٣) الطبري جـ ٢ ص ٢٩٤ ؛ ابن خلدون جـ ٢ ص ٣٧ ؛ الجواهر الحسان ص١٣-١٤؛ أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر جـ ١ ص ١٤٢ ؛ صبح الأعشى جـ ٥ ص ٣٢٢ ؛ رفع شان الحبشان ورقة ٥١ ـ ٥٤

(٧٤) الخميس جـ ١ ص ١٤٢ ؛ صبح الأعشى جـ ٥ ص ٣٢٢ ؛ السيوطي : أزهار العروش في أخبار الحبوش (مصور عن نسخة بالأسكوريال ميكروفلم رقم ٢٧ تاريخ بدار الكتب) ـ غير مرقم الصفحات .

(٧٥) Budge, p. 273

لهم مراكز استقرار بالتدريج ، بل إن العرب المسلمين استطاعوا بنشاطهم أن يتحكموا في ميناء عدوليس (Adulis) وهو ثغر الحبشة ، فأدى ذلك إلى حرمان الحبشة منه ، وإلى قطع صلاتها بالعالم الخارجى إلا عن طريقهم ، فلم يعد هناك مخرج للمنتجات الحبشية ، مما أدى فى نهاية الأمر إلى القضاء على تجارة الحبشة الخارجية ، وإلى قلة عدد التجار الأجانب من غير العرب بدولة أكسوم(٧٦) فضعف العنصر الإغريقى وزالت اللغة الإغريقية التى كانت لغة الثقافة بالعاصمة وذبلت بزوالها الحضارة الهللينية ويقال إن آخر كتاب ترجم عن اللغة الإغريقية إلى لغة الجعز هو كتاب المسائل الدينية وذلك عام ٦٧٨م كما تركت دراسة الآداب القديمة ، وقل بناء الكنائس ولم تعد تضرب عملة جديدة. وآخر عملة ضربت فى أكسوم تحمل اسم جرسم (Gersem) وحاتاز الثانى (Hataz) ويرجع تاريخ هذه العملة إلى الفترة بين بداية القرن الثامن والقرن العاشر الميلادى . اقترن هذا التدهور العام بضعف السلطة المركزية وقيام الحكام المحليين بمنافسة بعضهم البعض والتوسع على حساب جيرانهم؛ ويعتبر أولئك الحكام أتباعا أو أفصالا ، (Vassals) للملك لا يخضعون له إلا إذا كان قويا قادرا على بسط نفوذه عليهم . هذا وقد ضعف أمر العقيدة المسيحية نفسها برجوع كثير من سكان المناطق الجنوبية والجنوبية الشرقية عن المسيحية والعودة إلى اعتناق الوثنية القديمة(٧٧) .

وفى وسط هذه الغمرة التى انحطت فيها مملكة أكسوم كان الإسلام يسير بخطى واسعة من الساحل إلى الداخل وتكونت للمسلمين مراكز استقرار على طول الساحل الشرقى لإفريقية امتدت من سواكن على ساحل البحر الأحمر إلى مقدشو ومركا وبراوا وممبسا وزنزبار وكلوه على المحيط الهندى .

امتزج المسلمون بالوطنيين وصاهروهم ، فأخذ الإسلام ينتشر تدريجيا ، واعتنقته

(٧٦) Ibid, p. 274

(٧٧) Budge, p. 274; Trim., pp. 47-8

عناصر الساهو والعفر شرق الحبشة ، كما أنه امتد إلى مناطق السيدامو وشوا الشرقية جنوب الحبشة ، وسرعان ما تأثرت به القبائل الصومالية بعد ذلك(٧٨) .

وربما كان أول احتلال رسمى لبعض المناطق الاستراتيجية فى البحر الأحمر تجاه الساحل الإفريقى ماحدث عام ٨٣هـ (٧٠٢م) على عهد الخليفة سليمان بن عبد الملك الأموى (٦٥ـ ٨٦هـ=٦٨٥ ـ ٧٠٥م) كان ذلك حين تعرضت سواحل جزيرة العرب وتجارة العرب لنهب القراصنة الأحباش ، فقد سطا هؤلاء على ميناء جدة واستباحوها فى ذلك العام ، مما أدخل الرعب والفزع فى قلوب سكان مكة ، وحينئذ اضطر الخليفة إلى العمل على الضرب على أيديهم بوسائل فعالة ، واستقر الرأى على احتلال مجموعة جزائر دهلك تجاه ميناء مصوع ، وتتكون هذه المجموعة من عدة جزائر أهمها : دهل وحرات وكبارى ودركه ونوره ونقره وكران ، والأخيرة أكبر هذه المجموعة(٧٩). ورغم أن الاحتلال العربى الإسلامى قد تم فإن هذا لم يحل دون تكرر هجمات القراصنة من ذلك هجومهم على ثغر جدة عام ١٥٣هـ (٧٧٠م) فاضطر الخليفة أبو جعفر المنصور إلى إرسال جيش لتفريق شملهم (٨٠) ..

أما منطقة البجة ، فالمعروف أن أول اتصال بها كان يوم هادنهم عبيد الله بن الحبحاب السلولى، وكتب لهم كتابا فرض عليهم به جعلا إذا نزلوا بريف مصر تجارا غير مقيمين كما اشترط عليهم ألا يقتلوا مسلما أو ذميا ؛ فكثر المسلمون فى بلادهم وشجعهم على ذلك غنى منطقة البجة بمعادن الذهب والزمرد والفضة والنحاس والرصاص والحديد،امتزج المسلمون بالبجاويين وصاهروهم وكان من نتيجة هذا دخول كثير من أهل البجة فى الإسلام ولو أن إسلامهم كان ضعيفا كما أنهم لم يكفوا أذاهم عن المسلمين وهذا ما حمل الخليفة عبد الله المأمون على إرسال جيش لتأديبهم ، قام هذا

(٧٨) المسعودى : مروج الذهب ج ١ ص ٥١ ؛ Trim., pp. 51,60

(٧٩) الإلمام ص ٢٢ ؛ بوصيلى ص ٧ ـ ٨ ؛ Trim. 46-7

(٨٠) الجواهر الحسان ص ١٥

الجيش بقيادة عبد الله بن الجهم وقمعهم ثم وادعهم بكتاب كتبه لملكهم كنون بن عبد العزيز المقيم فى هجر وذلك عام ٢١٦ هـ (٨٣١م) ومما جاء فى هذا الكتاب ...«هذا كتاب كتبه عبد الله بن الجهم مولى أمير المؤمنين .. لكنون بن عبد العزيز عظيم البجة بأسوان ... أن يكون سهل بلدك وجبلها من منتهى حد أسوان من أرض مصر إلى حد ما بين دهلك وباضع ملكا للمأمون..وأنت وجميع أهل بلدك عبيد لأمير المؤمنين...وعلى أن تؤدى إليه الخراج فى كل عام، على ما كان عليه سلف البجة وذلك مائة من الإبل أو ٣٠٠ دينار ..» ثم حذرهم من الاعتداء على المسلمين ، وإن دخل أحد من المسلمين تاجرا أو مقيما أو مجتازا أو حاجا فهو آمن فيكم كأحدكم حتى يخرج من بلادكم .. ولا تمنعوا أحدا من المسلمين الدخول فى بلادكم للتجارة فيها براوبحرا ... لا تهدموا شيئا من المساجد التى ابتناها المسلمون بصيحة وهجر وسائر بلادكم طولا وعرضا .

غير أن غاراتهم لم تنقطع فتجددت على عهد المتوكل الذى أسرع بإرسال جيش بقيادة محمد بن الله القمى عام ٢٤١ هـ (٨٥٥م) قمعهم به وصالحهم وتضمن كتاب الصلح عدم التعرض لأحد من المسلمين يريد العمل فى استغلال المعادن .

تزايد عدد المسلمين المهاجرين والمقيمين فى منطقة المعادن بالبجة وأشهر القبائل العربية التى استقرت بها قوم من ربيعة وقحطان إلا أن قبائل ربيعة كانت أقوى العناصر حتى سادت وغلبت على من جاورها من العرب القحطانيين بحيث لم يأت القرن الرابع الهجرى إلا وكان صاحب مناجم الذهب وغيره من المعادن هو بشر بن مروان بن إسحاق بن ربيعة وازدادت قوته حتى كان يركب فى ثلاثة آلاف من ربيعة وأحلافها من مضر واليمن(٨٢)

---

(٨١) المقريزى : الخطط حـ ١ ص ١٩٤-١٩٥

(٨٢) مروج الذهب حـ ١ ص ١٨٩ ؛ صبح الأعشى حـ ٥ ص ٢٧٣-٢٧٤

ومن حيث العناصر البجاوية ومدى انتشار الإسلام بينها فالواضح أن العنصر السائد فى منطقة هجر هو عنصر نقيس البجاوى ومن فروع نقيس الحدارب وهؤلاء الأخيرون هم الذين أسلموا وعاونوا العرب المشتغلين بالمعادن. وهناك من يقول إن الحدارب من العرب ، وهم يتحكمون فى سواكن ولهم اتصال بسلاطين مصر من المماليك ، ويعرف زعيم الحدارب لدى أولئك السلاطين باسم الحدربى[٨٣] أما الفروع الأخرى لنقيس أمثال عماعر ومناسة ، والزنافج ، فقد بقيت على الوثنية مع مسالمتها للعرب[٨٤] .

ومن المراكز الإسلامية التى تأسست فى منطقة شوا الشرقية مملكة يحتمل أنها قامت حوالى نهاية القرن الثالث الهجرى ونهاية القرن التاسع الميلادى (٢٨٣-٨٩٦) بزعامة أسرة عربية تنتسب إلى قبيلة مخزوم القرشية ، وهى التى ينسب إليها خالد بن الوليد ، يقال إن أسلاف هذه الأسرة هاجروا عبر البحر الأحمر على عهد خلافة عمر بن الخطاب[٨٥] كذلك قامت مشيخات إسلامية أخرى فى تلك المنطقة وما يليها شرقا فى عدال (Adal) ومورا (Mora) وهوبات (Hobat) وجيدايا (Jidaya) غير أن هذه جميعا لم تعمر طويلا نظر للخلافات والتنافس فيما بينهما فضلا عن أن عنايتها كانت منصبة على شئون التجارة ولاسيما تجارة الرق، فسرعان ماطوتها أقوى الإمارات الإسلامية فى الوطن الحبشى وهى أمارة أوفات[٨٦] .

ولعل الفترة البارزة فى التوسع الإسلامى فى إفريقية الشرقية ، تقع بين القرنين العاشر والثانى عشر الميلاديين ، فهذه فترة التوسع المنظم للإسلام دينا ودولة من ناحية نشر العقيدة الإسلامية وتدعيم سلطان الممالك الإسلامية ولو على حساب بعضها البعض،

---

(٨٣) صبح الأعشى حـ ٥ ص ٣٧٤

(٨٤) مروج الذهب حـ ١ ص ١٨١ ؛ اليعقوبى حـ ١ ص ١٥٥ ؛ خطط حـ ١ ص ١٩٦ — ١٩٧ ؛ Trim., pp. 50-51

(٨٥) Trim., p. 58

(٨٦) انظر ما يلى :

داخل الوطن الأثيوبى ، فمثلا تحولت منطقة جوبا إلى الإسلام حوالى عام ١١٠٨م ، وامتد سلطان المسلمين حتى منطقة البحيرات العظمى (٨٧) .

والملاحظ أن الرقعة الإسلامية بإفريقية الشرقية عامة، قد أحاطت بالحبشة من الناحية الشرقية « وتقابل اليمن فى الجزيرة العربية». ومن أجل هذا الوضع الجغرافى نعتها المؤرخون بمنطقة « الطراز الإسلامى » لأنها على جانب البحر كالطراز له (٨٨) .

اشتهر فى هذا الطراز إمارات سبع أو ممالك سبع وهى : أوفات، دوارو وأرابينى وهديه وشرخا وبالى وداره (٨٩) وهذه عدا المشيخات الإسلامية الممتدة على الساحل مثل عوان ومقدشو وكلوه وغيرها .

وقبل أن نتناول الحديث عن كل منها تفصيلا نقرر بعض الملاحظات الهامة : إن تكوين هذه الممالك قد اتسم بالطابع السلمى التجارى أو الاقتصادى بصفة عامة إذ امتلك المسلمون ناصية التجارة الداخلية والخارجية (٩٠) ولم تكن فى نشأتها وتوسعها عسكرية أو سياسية « فى أول أمرها على الأقل » . ويرجع ذلك إلى أن الحبشة هى موطن الهجرة الإسلامية الأولى « حيث أصاب المسلمون الدار والقرار » فلم تكن دار جهاد .

ثم إن هذه الممالك ارتبطت بالعالم الإسلامى الخارجى وتوطدت صلتها به عن طريق التجارة والحج وانتقال طلاب العلم للدراسة فى المدينة المنورة ودمشق والقاهرة . وصار لرواد الثقافة الإسلامية أروقة خاصة بهذه المراكز فهناك رواق أهل الزيلع بالمسجد الأموى بدمشق. « يقول ابن بطوطة » وفى شرقى المسجد مقصورة كبيرة فيها صهريج

(٨٧) Trim., p.62

(٨٨) صبح الأعشى جـ ٥ ص ٣٢٤

(٨٩) العمرى : مسالك الأبصار جـ١ ص١١ـ١٢ ، النسخه المخطوطه جـ٢ ق٣ ورقه ١٨٤

(٩٠) بوصيلى ص ٨ـ٩

ماء وهى لطائفة الزيالعة السودان[٩١] . وكذلك أفرد رواق لهؤلاء بالأزهر ، يعرف برواق الجبرتية .

ورغم هذه الصلة والارتباط ، فإنها كانت فيما بينها مفككة الأوصال ، لم يجمع بينها سوى الرباط الروحى ، فكثرت المنافسات واشتد النزاع حتى فى داخل الإمارة الواحدة مما أضعفها جميعا . . يقول عبد الله الزيلعى « لو اتفقت هذه الملوك السبعة واجتمعت ذات بينهم قدروا على المدافعة أو التماسك ولكنهم مع ما هم عليه من الضعف وافتراق الكلمة ، بينهم تنافس ومنهم من يترامى إلى صاحب أمحرة ويميل إليه بالطباع[٩٢] . وبجانب هذه المنازعات تعتبر إماراتهم فقيرة من حيث الموارد الطبيعية رغم تحكمها فى التجارة » وفى هذا الصدد يقول المقريزى — « وكلها ممالك ضعيفة قليلة المتحصل »[٩٣] .

أما الوضع السياسى لهذه الممالك فهى خاضعة لملك الحبشة ، ويعد المؤرخون أمراءها من جملة التسعة والتسعين الذين هم تحت يده ، وهو بهم تمام المائة . ورغم أن الملك فى هذه الإمارات وراثى فى أسر معينة[٩٤] إلا أن أمراءها لايتولون العرش إلا بأمر من الحطى وموافقته ، فإذا مات أحدهم وكان من أهل بيته من يصلح للملك ، توجه إلى الحطى متزلفا إليه ، ومن ثم فجميع أمراء هذه الممالك لا يخرجون عن كونهم نوابا له[٩٥] .

وعلى هذه الممالك ضرائب معينة فى كل سنة تدفع لملك الحبشة من القماش والحرير والكتان مما يجلب إليها من مصر واليمن والعراق[٩٦] ، وتنفرد إمارة هدية بجزية من

(٩١) ابن بطوطه : تحفة النظار ج ٢ ص ٧٣

(٩٢) صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٣٢ — ٣٣٣ ، مسالك الأبصار (مخطوط) ج ٢ ق ٣ ورقه ٤٧٧

(٩٣) الإلمام ص ٦

(٩٤) انظر سلطنة بالى .

(٩٥) الإلمام ص٨ ، صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٣٢

(٩٦) صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٣٣

نوع خاص ، وهى تقديم بنت من بناتها المسلمات فى كل سنة ينصرها الحطى لنفسه ، وقد جرت هذه العادة بمقتضى معاهدة . يقول أهل هدية : « وحكم علينا . . ونطيعه مخافة أن يقتلنا ويخرب مساجدنا ، وإذا أرسل إلينا الذى يتقبل البنت والمال ، أخرجنا له البنت على السرير ونغسلها ونكفنها بثوب ونصلى عليها ونحسب أنها ميتة ، ونعطيها له ، فإنا وجدنا آباءنا وأجدادنا يفعلون ذلك »(٩٧) وهذا رغم ماهو معروف عن هدية بأنها أكثر الإمارات الإسلامية خيلا ورجالا ، ولعل أرجح تفسير لهذا التقليد هو ماهم عليه من ضعف الدين(٩٨) .

أما نظم الحكم ومظاهره فى هذه الممالك فهى متشابهة من حيث إن الملوك يتصدون للحكم بأنفسهم وإن كان لديهم القضاة والعلماء ؛ وجرت العادة أن يجلس الملك على كرسى من حديد مطعم بالذهب وحوله أكابر الأمراء جلوس فوق مقاعد أقل ارتفاعا من مقعد الملك ، وبقية الأمراء وقوف ، ولهم مواكب تقدمها الحجاب والنقباء لإفساح الطريق ويدق بالطبول أمام الملك وهذه الطبول معلقة فى أعناق الرجال وتسمى الواحدة منها بالوطواط وأعظم هؤلاء الملوك ملك أوفات. إذا مشى توكأ على يدى رجلين. ونظام الأعطيات للجند ، ليس كما هو فى سلطنة المماليك المعاصرة لهم ، من حيث الإقطاعات أو الجوامك أو نحوها . وإنما لجنود هذه الممالك دواب سائمة ، ومن شاء منهم الزراعة فليزرع واستغل الأرض دون اعتراض ، وجرت عادة الملك أن يوزع على جنوده وأمراء جيشه بقراً فى كل عام وأكثر مايعطى للأمير الكبير ٢٠٠ بقرة »(٩٩) .

ومن حيث زى هذه الممالك الإسلامية : جرت العادة أن يعصب الملك رأسه بعصائب من حرير تدور برأسه مع بقاء وسط رأسه مكشوفا ، أما الجنود والأمراء فلهم عصائب

---

(٩٧) عابدين ص ١٥٧–١٥٨

(٩٨) انظر ما يلى

(٩٩) صبح الأعشى جـ ٥ ص ٣٣٤–٣٣٥ ، مسالك الأبصار جـ ٢ ق ٣ ورقه ٤٨١

من قطن ، ويلبس الفقهاء العمائم ، ويلبس العوام الكوافى البيضاء ويركبون الخيول بغير سرج ، وإنما توضع قطع من الجلد على ظهورها وسلاحهم الحراب والنشاب[١٠٠].

وهذه الممالك عامة زراعية ، تعيش عيشة متوسطة ، ومساكنها متواضعة تبنى من الطين والاحجار والخشب ؛ وربما لخص القريزى مظاهر أمرائها بقوله : « لافخامة لأمورهم »[١٠١] ومن ناحية أخرى نلاحظ أن أهلها يحافظون على دينهم وعندهم المساجد والجوامع حيث تقام الجمع والجماعات ؛ ومع وجود العلماء والفقهاء والزهاد فليس لديهم مدارس أو خانقاهات أو ربط أو الزوايا على النحو المعروف فى مصر المعاصرة . والمذهب السائد فيها جميعا هو المذهب الحنفى باستثناء أوفات فإن غالب أهلها على الشافعية مع وجود الأحناف[١٠٢] .

أما التعامل فى سائر هذه الممالك فهو بالمقايضة سوى أوفات التى تجرى فيها العملة المصرية ، ودوارو حيث يوجد نوع من العملة وحدتها قطعة من الحديد تسمى الحَكُنة وجمعها حَكُنات ، وهى كما يصفها العمرى والمقريزى ، طول الإبرة فى عرض ثلاث إبرات ويبلغ ثمن البقرة مثلا بهذه الحكنات من ٧٠٠ ـ ٥٠٠٠ حكنة ورأس الغنم بثلاثة آلاف وهكذا[١٠٣] . وربما كانت الحكنة معروفة فى سائر الممالك الإسلامية بالحبشة ومعترفا بها إلا فى أوفات[١٠٤] . ووحدة الكيل مكيال يسمى الرابعية ويعادل الويبة بالكيل المصرى كما وإن وحدة الموازين هى الرطل وزنته اثنتا عشرة أوقية ، كل أوقية عشرة دراهم وأسعارها بصفة عامة رخيصة حتى قيل إن باستطاعة الإنسان أن يشترى حمل بغل من الحنطة بدرهم ، وأما الشعير فلاقيمة له[١٠٥] .

نعرض بعد ذلك لهذه السلطنات كل سلطنة على حدة[١٠٦] :

---

(١٠٠) صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٣٣ـ٣٣٤

(١٩١) الإلمام ص ٦

(١٠٢) صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٢٤ ، الإلمام ص ٧

(١٠٣) صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٣١ ، الإلمام س ٧

(١٠٤) مسالك الأبصار ج ٢ ق ٣ ورقة ٤٩١ ؛ صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٣١

(١٠٥) المصادر السابقة .

(١٠٦) انظر الخريطة .

سلطنة أوفات: تعتبر أقوى سلطنة إسلامية قامت فى الحبشة، بسبب تحكمها فى الطريق التجارى الذى يربط الداخل بميناء زيلع، وقد أسسها قوم من قريش من بنى عبد الدار أو من بنى هاشم من ولد عقيل بن أبى طالب، قدم أولهم من الحجاز واستوطن مدينة أوفات أو لوفات، وقد اشتهر قوم منهم بالصلاح، وظهر من بينهم رجل يسمى عمر ويلقب «ولشمع»؛ حكم مدينة أوفات وأعمالها واعترف بسلطان النجاشى الذى ولاه لما نبه ذكره؛ ظل على ذلك حتى قوى أمره؛ ومدينة أوفات هى جبرة أو جبرت من أكبر مدن الحبشة وتقع غربى زيلع.

ويبدو أن تاريخها لم يتضح إلا حوالى عام ٧٠٠ هـ (١٣٠٠ م) حين أورث عمر هذه السلطة لأولاده الأربعة أو الخمسة الذين تولوا عرشها واحداً بعد آخر وذلك بموافقة ملك الحبشة. ومن هؤلاء الورثة وسلالتهم من بعدهم من خرج على طاعة الحطى، ومنهم من سار وفق إرادته وأوامره، وأول من خرج منهم على سلطان ملك الحبشة: على، حفيد عمر ولشمع، لكنه لم يلبث أن عاد لطاعته حين عزت أنصاره. كما أن أول من استبد بالأمور وحارب ملك الحبشة فعلا وأسر الكثير من عساكره وغنم من أمواله: حق الدين الذى استطاع أن يجمع حوله الناس وأن يهزم جيوش الملك الحبشى سيف أرعد (١٣٤٤ ـ ١٣٧٢ م). ثم إن حق الدين هذا أول من خرج على أهله وحاربهم فقد اشتهر فى أول أمره بالصلاح والتقوى ثم ما لبث أن رأى انصراف جده عنه، وكراهية عميه له وهما: ملا أصفح وأبو بكر. انتهى أمره بإخراجه من مدينة أوفات ليقوم بجباية الضرائب ببعض النواحى التابعة لها، وهناك عمل على تدعيم قوته وتكوين عصبة قوية من الأتباع، استطاع بهذه العصبة أن يحارب عمه أبا بكر ويقتله، فاستنجد العم الآخر ملا أصفح بسيف أرعد لكنه انتصر عليه، وقتل هذا العم. وأخيراً هجر حق الدين مدينة أوفات العاصمة، وأمر الكثير من أهلها بالهجرة معه إلى عاصمة أخرى أسسها فى منطقة شوا، وسماها وحل، حيث سكن وأسكن من

هاجر معه من أوفات ، ومنذ ذلك الوقت انحطت مدينة أوفات وتخربت ولم تعد دار ملك[١٠٧] .

والمعروف أن مدينة أوفات هي جبره أو جبرت ، وغلب اسمها على المنطقة المحيطة بها ، فيقال أوفات أو جبرت[١٠٨] ويقصد بذلك جميع المنطقة بما فيها ميناء زيلع[١٠٩] ، وتعتبر هذه الإمارت أقرب الإمارات الإسلامية فى الحبشة ، إلى السواحل السامتة لليمن وإلى مصر . وسلطان هذه الإمارة أقوى السلاطين المسلمين المجـاورين له ، فـكانوا يدينون له بالإحترام والتقدير ، بل إن الجميع كما يقول القلقشندى : « منقادون إليه »[١١٠] .

تبلغ قوة هـذا السلطان العسكرية نحو ١٥ ألف فارس وأكثر من ٢٠ ألف راجل[١١١] وتتبعه إمارتان إسلاميتان صغيرتان هما : مورا (Mora) وعدال (Adal) ورغم أنه ليس من المعروف بدقة ، الوقت الذى اعتنق فيـه رعايا أوفات الإسلام ، إلا أنه من أوفات وماحقاتها أخذ الإســلام يتسرب وينتشر فى منطقة شوا المحاذية غربا[١١٢] .

أما الأحوال العامة لهذه السلطنة ، فهى خصبة التربة موفورة الماء من المطر ولها نهر صغير يجرى فيها ، ومن منتجاتها قصب السكر والفاكهة والخضروات والحبوب مثل الحنطة والشعير والذرة . وتعتبر من حيث الأسعار رخيصة حتى إن عرجون الموز الذى يضم نحو ١٠٠ موزة يباع بربع درهم ، كما يبـاع طابق اللحم بدرهم ونصف ، وزنة الطابق ٣٠ رطلا[١١٣] . وتجرى المعاملة فى أوفات بدنانير مصر ودراهمها الواصلة

(١٠٧) الإلمام ص ٩ — ١١ ، ٢٦ ؛ مسالك الأبصار جـ ٢ ق ٣ ورقة ٤٧٨ — ٤٨١

(١٠٨) صبح الأعشى جـ ٥ ص ٣٢٥

(١٠٩) الإلمام ص ٦

(١١٠) صبح الأعشى جـ ٥ ص ٣٣٢

(١١١) مسالك الأبصار جـ ٢ ق ٣ ورقة ٤٧٧ ؛ المصادر السابقة .

(١١٢) Trim., p. 67

(١١٣) الإلمام ص ٦

إليها صحبة التجار ، وكذلك تتعامل بالذهب الذى يجلب إليها من منطقتى داموت وسحام وتساوى الأوقية منـه من ٨٠ ـ ١٢٠ درهما على قدر جودة الذهب . أى أنه ليس لأوفات سكة مضروبة ، لأنه لو ضربت إحدى هذه الإمارات سكة فى بلادها لم ترج فى بلاد غيرها ويتكلم أهل أوفات العربية والحبشية ودينهم الإسلام على المذهب الشافعى مع وجود بعض الأحناف بينهم(١١٤) .

وسلطنة أوفات هى التى تزعمت حركة الجهاد ضد الحبشة ، ولو أنها خضت فترة من الزمن لمملكة داموت الوثنية ، ولكن هـذا الخضوع لم يدم طويلا ، إذ وقع فى مطلع تكوينها على عهد مؤسسها ولشمع ، ثم لم تلبث أن استعادت سيادتها واستقلالها بل واستطاعت أن تستقل عن الحبشة(١١٥) .

سلطنة بالى: جنوب سلطنة دارة ويحدها شمالا نهر ويبى ومن الجنوب نهر جرانا إلى دوريا، وبهذا الوضع الجغرافى تتحكم فى وداى الصومال ، والعنصر الغالب فى سكانها عنصر السيداما ويسكن جنوبه فريق من عنصر الجالا ، وتعتبر هذه السلطنة أكثر بلاد الزيلع خصوبة وتختلف عن شقيقاتها الإسلامية فى أن الملك فيها لم يظل كغيرها ، محفوظا فى أسرة معينة ، بل حدث فى القرن الثامن الهجرى والرابع عشر الميلادى أن انتقل الحكم إلى رجل ليس من بيوت الملك ، وذلك بمساعدة ملك الحبشة(١١٦) . وفى بقية المظاهر ، تقترب هذه السلطنة من السلطنات الإسلامية وتسير المعاملة فيها بالتبادل ، وأهلها على المذهب الحنفى(١١٧) .

---

(١١٤) مسالك الأبصار جـ ٢ ق ٣ ورقة ٤٨١ ؛ الإلمام ص ٧

(١١٥) Trim., p. 67

(١١٦) صبح الأعشى جـ ٥ ص ٣٢٩ ، ٣٣٢

(١١٧) مسالك الأبصار جـ ٢ ق ٣ ورقة ٤٨٣ ؛ الإلمام ص ٨ ؛ Trim., pp. 67-68

سلطنة هدية: تقع غرب السلطنات الإسلامية وتجاور أرابيني ، وتشغل مساحة واسعة بين نهري حواش وجيبي وليست حدودها معروفة بدقة شأنها كشأن باقى الولايات الإسلامية وتتكون من ٨ مقاطعات[١١٨]، ورغم أنها دون أوفات فى المساحة والإمكانيات إلا أنها أقوى الممالك السبع وأكثرها خيلا ورجالا ، فيقال إن عدة جنود سلطانها بلغت نحواً من ٤٠ ألف فارس سوى الرجالة الذين يبلغون ضعف هذا العدد[١١٩] تقريبا. ومع أن الطبقة الحاكمة فيها إسلامية ، إلا أن أغلب رعاياها على الوثنية ، وهؤلاء الرعايا من السيداما والجوارجى والشابو وهذا الأخير خليط من العنصرين الأولين[١٢٠] وتقترن شهرة هدية بتجارة الخصيان الذين يجلبون إليها وهؤلاء يعرفون فى مصر باسم الطواشية ، وقد حظر ملك الحبشة هذه العملية الوحشية ، غير أن اللصوص مافتئوا يسطون على العبيد ويأتون بهم إلى بلدة وشلو القريبة من هدية وسكان وشلو هذه همج متبربرون ، يخصى العبيد عندهم لدرايتهم بالخصى ، وهذا هام لتجار النخاسة ، إذ أن الخصى أرفع ثمنا من غيره ، وبعد إتمام عملية الخصى يحمل هؤلاء إلى هدية حيث يعالجون مرة أخرى حتى يبرأوا نظراً لأن مجرى البول يكون قد انسد بسبب القيح عند الخصى ، ولأهل هدية دراية بعملية العلاج والتطبيب ، ومع ذلك فإن العدد الذى يموت من الخصيان بسبب هذه العملية أكثر من الذى تكتب له الحياة ليباع مصدراً من هدية[١٢١] .

---

(١١٨) Beckingham and Huntingford, op. cit pp. LXIII-LXIV

(١١٩) صبح الأعشى جـ ٥ ص ٣٢٧ — ٣٢٨

(١٢٠) Trim., pp. 66

(١٢١) مسالك الأبصار جـ ٢ ق ٣ ورقة ٤٨٢ — ٤٨٣ ؛ الإلمام ص ٧ — ٨ ؛ صبح الأعشى جـ ٥ ص ٣٢٧ — ٣٢٨ ؛ أعلام الطراز المنقوش ورقة ٣ ؛ التعريف ص ٣٠

سلطنة دارة : تقع على حدود أوفات الغربية وشمالى شرق هدية فى منطقة السيداما . وتعتبر أضعف أخواتها حالاً وأقلها خيلًا ورجالاً ، ولكنها تستطيع أن تقيم جيشاً يعدل فى قوته جيش أوفات إذا عنيت بهذه الناحية . ولا تختلف كثيراً عن غيرها من الإمارات الإسلامية ، فأهلها مسلمون على المذهب الحنفى ومعاملتها بالمبادلة(١٢٢) .

أما الإمارات الإسلامية الأخرى : دوارو وأرابيني وشرخة ، فهى إمارات صغيرة ، قليلة الأهمية ، ولم يذكر عنها سوى أن أهلها مسلمون أحناف ، وأن عدة عساكر الأولى تقرب من قوة أوفات فى الفارس والراجل وفرسان الثانية نحو عشرة آلاف غير الرجالة ، بينما لا تتجاوز قوة الأخيرة ثلاثة آلاف فارس سوى الرجالة(١٢٣) .

مشيخات الساحل : وبجوار هذه الإمارات ، نجد عددا من المراكز والمشيخات الإسلامية الساحلة للبحر الأحمر والمحيط الهندى منها : عوان المقابلة لتهامة(١٢٤) ومقدشو وبراوا وسيو وبيت ولامو ومالندى وكليفى وممبسا وزنزبار ومافيا وكلوة وموزمبيق وسوفالا آخرها وهذه كلها مطلة على المحيط الهندى . وكانت سوفالا زمن المسعوى المركز الذى تنتهى إليه السفن العمانية فى بحر الزنج . كذلك قامت مراكز استقرار عربية إسلامية على مر الزمن فى جزائر كومورو . وعلى طول الساحل الغربى لمدغشقر نفسها نشأ مثل هذه المراكز(١٢٥) .

---

(١٢٢) مسالك الأبصار جـ ٢ ق ٣ ورقة ٤٨٣ ؛ صبح الأعشى جـ ٥ ص ٣٢٩ ؛ الإلمام ص ٨ ، Trim., p. 67

(١٢٣) صبح الأعشى جـ ٥ ص ٣٢٦ — ٣٢٨ ؛ الإلمام ص ٧ — ٨ ؛ مسالك الأبصار جـ ٢ ق ٣ ورقة ٤٨٢ — ٤٨٣

(١٢٤) صبح الأعشى جـ ٥ ص ٣٣٦

(١٢٥) ذكرت هذه المراكز مرتبة من الشمال إلى الجنوب ، وآخرها سوفالا فى أقصى الجنوب وتقع قرب مصب نهر ريفى جنوب نهر زمبيزى
Coupland (R.): East Africa and Its Invaders pp. 22-25

فأما مقدشو ، فهذه يرجع تأسيسها إلى قرامطة البحرين حوالى عام ٩٢٠م ويسكنها عنصر الجـالا وقد ظلت فترة من الزمن أقوى مدن الساحل(١٢٦) ، ويحكمها سلطان وراثى يرد نسبه إلى عرب القحطانية . زارها ابن بطوطة عام ١٣٣١م وسلطانها يومئذ أبو بكر بن الشيخ عمر من أصل صومالى يتـكلم لغة مقدشية ـ اهلها صومالية ـ كما كان يعرف العربية ، ويلقب بالشيخ . وقاضيها المعاصر يومئذ ابن البرهان المصرى . وصفها ابن بطوطة بقوله : ـ « إن أهلها معروفون بالـكرم وتشتهر بالثياب المنسوبة إليها ، ولها نيل عظيم يشبه نيل مصر فى زيادته فى الصيف »(١٢٧) وأما كلوه (Kilwa) فقد(١٢٨) أسست بعد مقدشو على يد فريق من المهاجرين الجدد من ساحل الخليج الفارسى . وتقع مدينة كلوة جنوب جزيرة مافيا ، وسلطانها عند زيارة ابن بطوطة هو أبو المظفر حسن(١٢٩) .

بهذه الطريقة ظهر عدد من المدن العربية على طول الساحل الشرقى من خليج عدن حتى مدار الجدى ومابعده ، على حافة ما كان جغرافيو العرب فى العصور الوسطى يطلقون عليه أرض الزنج(١٣٠) .

والملاحظ على هذه الشيخات الساحلة للبحر ، أنها كانت مراكز توسع على نحو ما كانت عليه صور قديما ، أو سنغافورة أو هونج كونج حديثا ، فقد عملت على توسيع رقعة نفوذها براً وبحراً ، وكل مركز من هـذه المراكز قد أقيم بحيث يستطيع أن

---

(١٢٦) أرنولد : الدعوة إلى الإسـلام (ترجمة الدكتور حسن إبراهيم والدكتور عابدين والأستاذ النحراوى) ص٢٨٧؛ Trim., p. 62 ؛ Coupland, op. cit., pp. 22-23

(١٢٧) رحلة ابن بطوطة جـ ١ ص ١٩٦ ـ ١٩٧ ؛ الإلمام ص ٢٥ ؛ صبح الأعشى جـ ٥ ص ٣٣٦

(١٢٨) انظر الخريطة .

(١٢٩) من أمراء كلوة : الحسن بن سليمان ، وسليمان بن الحسن ، وعلى بن الحسن . (زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى ـ ترجمة الدكتور زكى محمد حسن والدكتور حسن محمود والدكتورة سيدة الـكاشف ـ جـ ١ ص ١٣٨ ؛ الدعوة إلى الإسلام ص ٢٨٧ ؛ رحلة ابن بطوطة جـ ١ ص ٢٠٠ ـ ٢٠١ ، Trm., p. 62)

(١٣٠) الدعوة إلى الإسلام ص ٢٨٧ ـ ٢٨٨

بعد نفوذه ويحمى نفسه ، فكانت المدن مسوّرة محصّنة ؛ وبنيت منازل العرب بها من الحجر . ومنذ تحول الساحل كله إلى الإسلام فى القرن التاسع أو العاشر الميلادى ، صار لكل مدينة مساجدها الخاصة ، وزينت هذه المساجد أحيانا بالزخارف الفارسية الجميلة . واحتفظ المستعمرون فى هذه المدن بعاداتهم وتقاليدهم فى الحياة ، وأبرز ظاهرة ميزتهم ، ظاهرة النزاع الداخلى حول ولاية الحكم فى هذه المدن ؛ إذ كانت كل مدينة عبارة عن دويلة قائمة بذاتها (City-State) تشبه فى وضعها السياسى والإدارى المدن الإغريقية القديمة ، هذا وهناك النزاع والتخاصم بين المدينة والأخرى حول السيادة التجارية أو السياسية ، ولم توضح لنا التآريخ المحلية لهذه المراكز تفصيلات عن الأسر الحاكمة ، وإنما أفاضت فى النزاع بين المدن المختلفة وسيادة إحداها على الأخرى . أما اتحادها فيما يشبه أمبراطورية عربية ، فلم يتم شىء من هذا فى ذلك الوقت . فمثلا استطاعت ممبسا أن تتحكم فى جزء من الساحل خلال القرن الثانى عشر ، وكذلك سادت مشيخة بيت (Pate) فترة من الزمن وانتصرت مع ما جاورها من المشيخات الساحلية حوالى عام ١٣٣٥ م وبسطت نفوذها وسيادتها على طول الساحل من مدينة مالنــدى Malindi حتى كلوة باستثناء زنزبار ؛ كما أن مقدشو Mogadishu وبمبا Pemba وزنزبار ، تحكم كل منها فى عدد من المدن الأخرى . غير أن أهم من هذا كله هو ما يتعلق بسيادة كلوة وبروزها فى ميدان القوة وسعة النفوذ ، فقد تمكنت مشيختها من بسط سيادتها على طول الساحل والجزائر المحيطة به بما فيها جزر كومورو ؛ وعند ما وصل البرتغاليون إلى إفريقيا الشرقية لأول مرة فى نهاية القرن الخامس عشر ، كانت كلوة لا تزال المشيخة الحاكمة فى تلك المنطقة ؛ وحينما وصل داجاما إلى موزمبيق ، كان بها ممثل لسلطان كلوة ، كذلك كانت سيادة كلوة مبسوطة على المنطقة الساحلية فى جنوب موزمبيق وبها من المدن أنجوش Angoche وكويليمين Quilimane وسوفالا Sofala . أما فى شمالى كلوة ، فلم يكن لها من النفوذ الفعلى أو التحكم السياسى كما هو الشأن فى جنوبها ، إلا أنه كان لها بعض النفوذ

والتأثير ، نظراً لارتباط الأسرتين الحاكمتين فى كل من كلوه وممبسا ، إذ كان سلطان ممبسا متزوجا من ابنة سلطان كلوه .

الخلاصة لم تكن هناك سيادة عامة مستمرة لإحدى تلك المشيخات الساحلية ، وإنما وجدت سيادات مؤقتة فى بعض الفترات، تحققت عن طريق القوة أو الدبلوماسية أو المصاهرات ؛ ويمكن القول أن الذى غلب على علاقة هذه المشيخات بعضها ببعض هو التنافس والنزاع ، ولعل أقوى ما وقع من خصام ونزاع هو ما كان بين ممبسا ومالندى ، وظل هذا حتى قدوم البرتغاليين .

ومن ناحية أخرى ، يلاحظ أن المجتمع الذى نشأ ونما حول المستعمرات العربية فى ساحل إفريقية الشرق ، لم يكن عربيا بحتا، فقد ظل العرب كغيرهم من المستعمرين فى إفريقية وغيرها من القارات ، يكونون طبقة أرستقراطية ، ويعيش بجوارهم الهنود، لكنهم لا يشتركون معهم فى الحكم ، والمعروف أن صلة الهنود بذلك الساحل صلة قديمة كصلة العرب أنفسهم، ولهم نشاط ملحوظ فى الأعمال المالية والتجارية (١٣١) .

تكونت إذن عدة إمارات ومراكز إسلامية فى الوطن الحبشى ، وهى مستقلة داخليا وتدفع الجزية أحيانا لملك الحبشة ، وتحاربه أحيانا كثيرة ، وكانت الكنيسة القبطية فى مصر تكلف مبعوثيها فى بعض الأوقات ، بمراعاة مصالح المسلمين فى الحبشة، فمثلا تدخل بدر الجمال وزير المستنصر الفاطمى (٤٢٧_٤٨٧هـ ١٠٣٥_١٠٩٤م) فى تعيين أسقف معين للحبشة هو الأب ساويرس ، وذلك عام ٤٧٣هـ ـ ١٠٨٠م)واشترط عليه رعاية جانب المسلمين والاهتمام ببناء المساجد والإكثار منها ، ولما نفذ الأسقف ما اتفق عليه مع بدر الجمالى ، ثار المسيحيون ضده بالحبشة ، فحاول تهدئة هذه الثورة بقوله : إن هذه المساجد لا لشىء سوى استعمال تجار العرب ، وإنها لا تضر فى شىء وإننى إذا رفضت البناء ربما أدى ذلك إلى اضطهاد الأقباط بمصر » ورغم هذا القول فقد أمر ملك الحبشة بسجنه كما أمر بهدم المساجد السبعة التى تم بناؤها كما أصدر

---

(١٣١) Coupland, op. cit., pp. 26-27

عدة قيود على نشاط التجار المسلمين ، مما كان من بين نتائجه قطع العلاقة بين مصر والحبشة(١٣٢) .

يتضح من هذا أن هناك عاملين قويين سيطرا على سياسة ملوك الحبشة هما : العامل السياسى والاقتصادى للحد من نشاط المسلمين التجارى والاستيلاء على بلادهم لتوسيع مملكتهم ، وثانيا العامل الدينى ، لكن ربما كان أساس النزاع سياسياً أكثر منه دينيا .

وليس هذا بغريب إذا علمنا أن الأراضى التى يسيطر عليها المسلمون فى الحبشة تفوق فى مساحتها أرض مملكة الحبشة وأن هذه الرقعة الإسلامية كانت تحوطها من الجنوب والشرق ، فضلا عن إحاطة الإسلام بها من ناحية السودان من الشمال والغرب ، وقد أدى هذا إلى عزل مملكة الحبشة عزلا تاما عن العالم الخارجى ولاسيا بعد استيلاء المسلمين على ميناء عدل قرب مصوع ، وهو ثغر دولة أكسوم ومخرج أثيوبيا الوحيد إلى البحر الأحمر مما أدى إلى تدهور أحوال الحبشة . يقول جيبون (Gibbon) لقد رقدت أثيوبيا فى سبات عميق زهاء الألف عام ، نسوا فيها العالم الذى نسيهم .

غير أنه لما وليت الأسرة السليمانية عرش الحبشة عام ١٢٧٠م وأول ملوكها هو يكونو أملاك (Yekuno Amlak) ١٢٧٠ـ١٢٨٥(١٣٣) ، اتخذت هذه الأسرة خطة حاسمة لتدعيم سلطان الحبشة وتوسيع ملكها على حساب جيرانها المسلمين ذلك أن السليمانيين وجدوا المسلمين يسيطرون سيطرة تامة على التجارة كما أن الموانى فى أيديهم

---

(١٣٢) Trim., pp. 62,65

(١٣٣) ذكر كولبو Coulbeaux أن سنوات حكم هذا الملك هى من ١٢٦٨ إلى ١٢٨٣ ، وذكر بَدْج Budge فى اسم الملك أنه ليس اسماً وإنما هو جملة أو عبارة قصيرة معناها : سوف يسود أو سوف يحكم ، وأن هذه الجملة كانت تقال له أو عنه بواسطة بعض رجال الدين ، ويحتمل أن رجل الدين تكلاهايمانوت هو الذى قالها ، إذ كان معروفاً بالنبوءات ، أما اسمه الذى عرف به عند تعميده فهو : تاسفا إياسوس Tasfa Iyasus ؛ ويقول البعض إن اسمه حنا . (Budge , p, 258 ; Coulb., pp . 284-286 , Trim,, pp . 65,72; Encyclo, of Islam, Art : Hamites and East Africa)

مما جعل أثيوبيا وعلاقتها الخارجية تحت رحمة المسلمين فذبلت المدن الأثيوبية التى كانت مزدهرة ، ومنها مدينة أكسوم العاصمة التى فقدت أهميتها ، وحلت بالبلاد أزمات اقتصادية نتج عنها قحط(١٣٤) .

اتخذ يكونو أملاك مدينة تجولات بمنطقة أمحره عاصمة له ، وأبقى على أكسوم لتكون عاصمة دينية حيث يتوج الملوك(١٣٥) . ولما كانت مملكة الحبشة من غير أسقف منذ نهاية الأسرة الزغوية ، فقد استهل هذا الملك حكمه بالاتصال بالسلطان الظاهر بيبرس فى مصر عام ١٢٧٤/١٢٧٥م ، وذلك عن طريق سلطان اليمن ، لكى يعمل بيبرس على تعيين أسقف للحبشة ، بشرط استيفاء هذا الأسقف لشروط النزاهة والتفرغ للشئون الروحية ، ولا يجعل همه منصبا على جمع المال . ومما جاء فى رسالة يكونو أملاك إلى بيبرس قوله: « أقل المماليك يقبل الأرض وينهى بين يدى السلطان الملك الظاهر خلد الله ملكه..فنحن ماجاءنا مطران مولانا السلطان ، ونحن عبيده فيرسم مولانا السلطان للبطريرك أن يجهز لنا مطرانا يكون رجلا جيدا عالما لا يحب ذهبا ولا فضة .. ثم تمضى الرسالة وتشير من طرف خفى إلى معنى التهديد ... وعندى فى عسكرى مائة ألف فارس مسلمين وأما النصارى فكثير لا يحصون والكل غلمانك وتحت أمرك ...(١٣٦) وربما أراد الحطى أن يستحث بيبرس لإرسال المطران ، فأوضح له أن لديه عددا كبيرا من المسلمين تحت أمره يستطيع أن يوقع بهم إذا رفض طلبه ، ومن ناحية أخرى عبارات التزلف هذه لم تخف على المعاصرين والمؤرخين ، فيعلن القلقشندى بأنه إذا لم تكن لملك الحبشة حاجة إلى مطران يعينه بطريرك الإسكندرية ، لما أظهر هذه العبودية(١٣٧) .

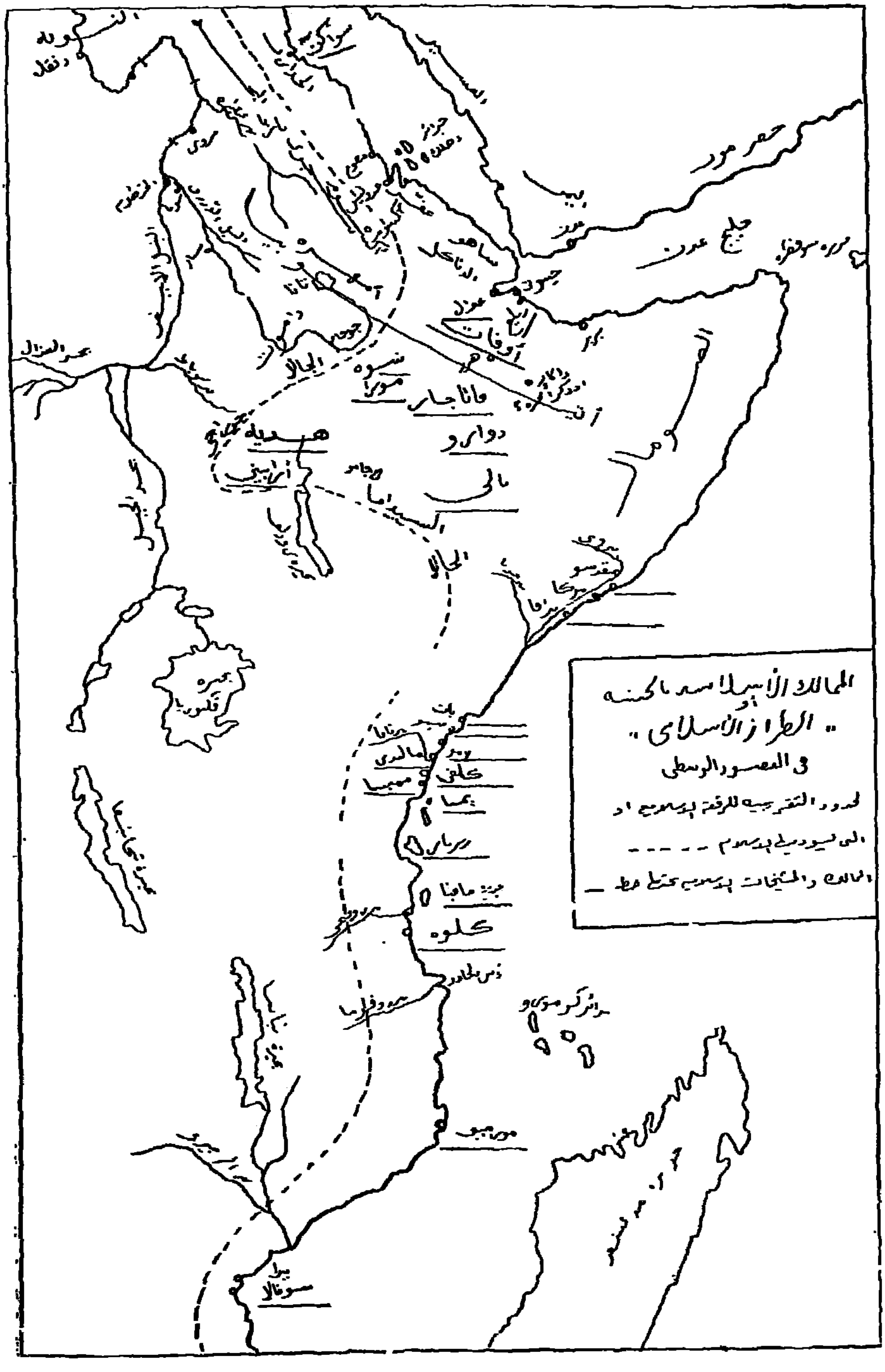
---

(١٣٤) بوصيلى ص ١٠–١١

(١٣٥) Trim., pp. 65,72; Coulb., pp. 285-7

(١٣٦) صبح الأعشى جـ ٨ ص ١١٩–١٢٠

(١٣٧) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك — نشر وتحقيق الدكتور زيادة — جـ ١ ص ٦١٥–٦١٦ وحاشية ١ ؛ صبح الأعشى جـ ٨ ص ١١٩–١٢٠


الممالك الإسلامية بالحبشة
أو
" الطراز الإسلامي "
في العصور الوسطى
الحدود التقريبية للرقعة الإسلامية أو
التي تسود فيها الإسلام - - - - -
الممالك والمشيخات الإسلامية تحت خط ــ
خليج عدن
هدية
دوارو
بالى
أوفات
كلوه
سوفالا
مقدشو
زنجبار
ممباسا
مالندي
موزمبيق

جرت مفاوضات بهـذا الصدد ولـكن سلطان المماليك رفض تعيين أسقف ، محتجا بعدم وصول رسول خاص من قبل ملك الحبشة ، ولعل السبب الحقيقى راجع إلى أن بيبرس يعلم حق العلم كراهية هذا الملك الشديدة نحو مسلمى الحبشة فضلا عن اتخاذه تدابير قاسية ضدهم ، دليلها قيامه بتحصين الحدود المتاخمة لهم(١٣٨) ومما ورد فى إجابة بيبرس « . . . فأما طلب المطران فلم يحضر من جهة الملك أحد حتى كنا نعرف الغرض المطلوب . . . وأما ماذكره من كثرة عساكره وأن من جملتها مائة ألف فارس مسلمين ، فالله تعالى يكثر فى عساكر الإسلام ... »(١٣٩) ويدل الشطر الأخير من هذه الرسالة على كياسة السلطان المملوكى وأنه أجاب فعلا على ماتضمنه كتاب الحطى من تهديد(١٤٠) ولـكى يرد ملك الحبشة على صلة الممالك الإسـلامية الحبشية بالعالم الإسلامى الخارجى ، اتصل بالامبراطورية البيزنطية وذلك بإرسال هدايا من الزراف إلى الإمبراطور ميخائيل الثامن باليولوجوس (١٢٦١ ـ ١٢٨٢)(١٤١) .

***

ولما كانت مملـكة أوفات الإسلامية أقوى الممالك الإسلامية بالحبشة ، فقد تزعمت حركة الجهاد ضد الحبشة وانضوى تحت لوائهـا بعض الولايات الإسلامية المجاورة ، بل إن جميع ملوك هـذه الممالك ، متفقون على تعظيم صاحب أوفات منقادون إليه ،

---

(١٣٨) Trim., p. 69

(١٣٩) صبح الأعشى جـ ٨ ص ٣٩

(١٤٠) رغم ما هو معروف عن الـكراهة المتبادلة بين ملوك الحبشة وسلاطين المماليك ، فإن ذلك لم يحل دون تبادل عبارات التمجيد والصداقة ونحو ذلك مما هو مألوف عادة فى العرف الدبلوماسى ، وذلك لأهداف سياسية غير خافية ، من ذلك أن مكاتبة سلاطين مصر إلى ملوك الحبشة ، كانت تصدر دائما بعبارة : « أطال الله بقاء الحطى ... (أو) أطال الله بقاء الحضرة العالية الملك الجليل الهمام الضرغام ، الأسد الغضنفر ... العادل فى مملـكته ، المنصف لرعيته ... عز الملة النصرانية ... ركن الأمة العيسوية ... حافظ البلاد الجنوبية ، متبع الحواريين والربانيين والقديسيين ، معظم كنيسة صهيون ، أوحد ملوك اليعقوبية ، صديق الملوك والسلاطين . . . » (صبح الأعشى جـ ٨ ص ٤٠ ـ ٤١ ؛ التعريف ص ٣١) .

(١٤١) Budge, p. 285

وذلك على حد قول القلقشندى[١٤٢]. ومن ثم أخذت هذه المملكة تركز قوتها وتستعد لمقابلة الأخطار التى تتهددها من جانب مملكة الحبشة .

برزت هـذه الأخطار بشكل واضح على عهد خليفة يكونو أملاك وهو ابنه ياجبعاصيون (Yagbea Seyon) « ١٢٨٥–١٢٩٤ »[١٤٣] بدأ هذا النجاشى بشن حملة حربية ناجحة ضد إمارة عدال (Adal)[١٤٤] وهى تابعة لسلطنة أوفات . ويرجع سبب هذه الحملة المباشر إلى أن ياجبعاصيون كان قد أرسل مبعوثاً دينيا إلى القدس ، حيث يوجد دير حبشى ترعاه مملكة الحبشة ، وخلال مرور هذا المبعوث الحبشى ببلاد عدال الإسلامية ، حاول سلطانها تحويله إلى الإسلام ، فلما أبى أجبره على الختان ، ويقال إن إمارتين إسلاميتين عاونتا ملك الحبشة فى هـذا الهجوم الظافر الذى انتهى بنهب عدال وعقد هدنة بين الطرفين ، أعيـد بعد الهدنة فتح الحدود للتجار المسلمين لممارسة نشاطهم ، مما عمل من جانب آخر على إنعاش الحركة التجارية بالحبشة ذاتها[١٤٥] .

حاول ياجبعاصيون إعادة الكرة فى طلب أسقف مصرى ، فأرسل سفارة إلى السلطان قلاوون عام (٦٨٩ هـ – ١٢٩٠ م) أوضح فيها أنه لن يتخذ سياسة والده وقد نجحت السفارة وعين الأسقف[١٤٦] .

على أن مملكة الحبشة قد مرت بعد ذلك فى فترة اضطرب بسبب كثرة أبنـاء ياجبعاصيون وتنازعهم ، فضلا عن رغبة الملك نفسه قبيل وفاته فى أن يدعم الأمور

---

(١٤٢) صبح الأعشى جـ ٥ ص ٣٣٢

(١٤٣) يلاحظ كذلك فى اسم هذا الملك ، أنه ليس علما ولكن جملة معناها: سوف يبعث الله صهيون ؛ أما الاسم الذى عمد به فهو سليمان — Budge, p. 287

(١٤٤) مدينة عدال ثغر على رأس خليج تاجورا قرب جيبوتى الحاليـة (انظر الخريطة ؛ Encycl. of Islam, Art. «Adal»

(١٤٥) Trim. pp. 69-70

(١٤٦) عابدين ص ١٧٤ ؛ Trim., p. 69

بينهم بحيث يجعل لكل واحد منهم نصيبا فى الحكم ، ولذلك قرر أن يحكم أبناؤه الخمسة(١٤٧) على التوالى بحيث يتولى كل منهم الحكم لمدة سنة واحدة ويليه الآخر وهكذا على أن يتمتع كل منهم خلال السنة التى يحكم فيها بكل معانى السلطة الحقيقية حكم الأربعة الأول السنوات الأربع المقررة لهم بحسب النظام الذى أقره أبوهم ، غير أن الخامس لم يطق أن يصبر حتى ينتهى أجل حكم الرابع ليتولى بعده ، فدبر مؤامرة للقبض على الأخ الحاكم وإخوته الآخرين لينفرد بالحكم من بعدهم ، ولكن مؤامرته قد كشفت وانتهى الأمر بسجنه ومن والاه ، استغرقت هذه الفترة خمس سنوات من ١٢٩٤ إلى ١٢٩٩ م استطاع المسلمون خلالها تقوية أنفسهم وتدعيم سيطرتهم على الساحل الحبشى(١٤٨) كما أنه حدث خلال تلك الفترة أن قام أحد المسلمين ويسمى الشيخ محمد أبوعبدالله وأعلن أنه قدأوحى إليه بجمع جيش جرار لفتح الحبشة والقضاء عليها ، فقام عام ٦٩٨ هـ (١٢٩٨ ـ ١٢٩٩ م) وحشد حوله طائفة كبرى من عناصر الجالا والصومال وأعدهم للجهاد وغزا الحبشة فاضطر ملكها إلى التنازل للمسلمين عن بضع ولايات على الحدود وذلك بمقتضى معاهدة نظير اعتراف المسلمين بسيادة ملك الحبشة العليا ويبدو أن هذه الحادثة إحدى حلقات النزاع بين مملكة أوفات الإسلامية أوغيرها من الإمارات وبين الحبشة(١٤٩) وازدادت قوة المسلمين على عهد الملك ودم أرعد (Wedem Arad) (١٢٩٩ ـ ١٣١٤م) الحبشى الذى لم يستطع أن يدفع هجماتهم أو يتخذ أى إجراء لمدافعتهم فقد وجد أن جميع الساحل الحبشى فى قبضة العرب وهو عبارة عن سلسلة متصلة الحلقات من إمارات ومراكز إسلامية ، يحكمها خليط من العرب والزنوج مع وجود بعض الوثنيين . وحين تحققت سلطنة أوفات أو عدل من

---

(١٤٧) هؤلاء الأبناء الخمسة هم : صنفا أرعد Senfa Ared ؛ حزبه أسجد Hezba, Asgad ؛ قدمه أسجد Kedma' Asgad ؛ جين أسجد Djin' Asgad سابا أسجد Saba' Asgad (Budge, p. 287)

(١٤٨) Budge, p. 287

(١٤٩) الشاطر بوصيلى ص ١٢ ؛ Trim., p. 70

ضعف الملوك السليمانيين وعجزهم عن ملء مراكزهم رأت أن الوقت قد حان للقيام بحركة جدية لإعــلان استقلالها وانفصالها عن السيادة الاسمية التى يفرضها ملوك الحبشة ووجدت هذه السلطنة تشجيعاً من جميع المسلمين ولاسيما من المهتمين بشئون التجارة البحرية الذين يهدفون إلى وضع أيديهم على موطن العاج والجلود والفيـلة والصمغ والبهار والذهب ، فهم يعتقدون أن هذه السلع توجد بكميات لاتقدر فى هضبة الحبشة ومن ثم بدأت هجمات المسلمين ضد الأحباش وقد استمرت هذه الهجمات نحو ثلاثة قرون بعد ذلك مما أدت فى نهاية الأمر إلى تدمير مملـكة الحبشة تقريباً . والمعروف عن ودم أرعد وهو ابن يكونو أملاك أنه بعث برسالة إلى البابا كليمنت الخامس فى أفنيون بفرنسا ، ولـكن ليس من المعروف هدف هذه الرسالة هل كانت لغرض روحى بحت أو لطلب المساعدة المادية ضد المسلمين(١٥٠) .

وإذا كانت مملـكة الحبشة قد انحطت على عهد الملوك السليمانيين الأول فإنها لم تلبث أن قويت وازدهرت خلال حكم عمداصيون الأول (Amda Soyon I) (١٣١٣ / ١٣١٤ – ١٣٤٣ / ١٣٤٤) ويلقب بجبرامسقل (Gabra Maskal) أى عبدالصليب أو خادم الصليب وهو الاسم الملـكى له لـكنه كان يدعى دائماً عمداصيون بمعنى عموداً أودعامة صهيون(١٥١) وهو ابن ودم أرعد ؛ ونظراً لما أحرزته مملـكة الحبشة من قوة وازدهار على يديه ، فقد اعتبر فى نظر المؤرخين المؤسس الحقيقى للدولة الحبشية(١٥٢) .

---

(١٥٠) الشاطر بوصيلى ص ١٣ ؛ Budge, pp. 287-8

(١٥١) يقول القلقشندى نقلا عن العمرى إن اسمه عمد سيون، وكان هذا الملك يعاصر العمرى ومعنى اسمه كما يشرح صاحب صبح الأعشى: ركن صهيون ، وصيون هذه بيعة قديمة بالإسكندرية معظمة عندهم . صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٢٢ Budge, p. 288

(١٥٢) يذكر عن عمد صهيون أنه ارتـكب جريمة الزنا مع محظيات أبيه ، وحتى مع أخته ، مما أدى إلى تحمس الأب هو نوريوس وحرمانه من الـكنيسة، فـكانت النتيجة أن انقلب الملك ضد رجال الدين ، فشتت الرهبان ، وعذب هذا الأب فى شوارع المدينة، حتى سالت دماؤه على الأرض، ولما اشتعلت النيران بالمدينة، فى أمسية ذلك اليوم، اعتقد الملك أن رجال الدين هم الذين دبروا الحريق فازداد فى اضطهادهم وتشتيتهم حتى هرب الـكثير منهم إلى أماكن نائية... (Budge, pp. 288-9)

لابهمنا صدر حكمه الذى قضاه فى اللهو والفجور وما أدى إليه من انقسام تام ، بينه وبين الكنيسة ورجال الدين فى دولته وإنما الذى يعنينا فقط هو علاقته مع المسلمين فى الوطن الحبشى وصدى هذا فى العلاقة مع مصر .

كان يعاصره فى مصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، والمعروف أنه تسلم احتجاجاً شديد اللهجة من عمد صهيون فى عام ١٣٢٥ م ينعى على السلطان الناصر اضطهاده للأقباط فى مصر ويهدد باتخاذ إجراءات مماثلة ضد العرب المسلمين فى الحبشة وتحويل مجرى النيل إلى الصحراء ليجيع مصر ، غير أن الناصر لم يعبأ بهذا الاحتجاج وطرد السفارة الحبشية(١٥٣) .

بدأت أعمال عمد صهيون الحربية ضد الإمارات الإسلامية بالحبشة على أثر السياسة التى أنتهجتها سلطنة أوفات الإسلامية للاستقلال عن الحبشة بل والتوسع فى أملاكها للاستيلاء على مواطن العاج والمنتجات الإفريقية ، فقد تقدم السلطان حق الدين وتوغل فى أملاك الحبشة فغزا الولايات المسيحية وأحرق كنائسها وأجبر المسيحيين على الدخول فى الإسلام ، كما قبض على سفير حبشى عائد من القاهرة ، ولما فشل فى إقناعه لاعتناق الإسلام ذبحه ، فأثار بذلك ثأرة عمداصيون ومن ثم خرج ملك الحبشة عام ١٣٢٨ م وهجم على مملكة أوفات من جميع جوانبها حتى فرق شمل الدفاع الإسلامى وأسر حق الدين ووضع يده على مملكته وكذلك مملكة فاتاجار الإسلامية وجعلهما ولاية واحدة وعين عليها صبر الدين وهو أخو حق الدين بشرط الاعتراف بسيادة الحبشة(١٥٤) .

غير أن صبر الدين لم يطق صبراً على هذه التبعية ، وكون حلفا إسلاميا من إمارتى هدية ودوارو ، كما استعان باليهود من عنصر الأجاو فى مناطق : وجرا ودمبيا ويجاندر وعهد إلى أولئك اليهود بالقيام بمناورات ضد الحبشة بينما يقوم المسلمون بهجومهم

(١٥٣) Budge, pp. 70-71 ; Trim., pp. 70-17

(١٥٤) Trim., p. 71

الكاسح(١٥٥) تقدم صبر الدين وغزا الحبشة واستولى على كثير من الغنائم كما قتل الكثير ، وبدا فى نظر نفسه أنه كملك الحبشة حتى أخذ يعين الولاة والحكام على المناطق والمدن بل على أماكن لم يرها وأخذ يتهدد عمداصيون معلنا أنه سوف يذبح عبدالصليب، وأنه سوف يستخدم مانجاشا زوجته فى طحن الحبوب وصنع الخبز له(١٥٦) ولما سمع عمداصيون بهذه التهديدات خرج على رأس جيشه وهاجم الأحلاف منفردين مبتدئاً بمملكة هدية وحطمها قتلا وأسراً ونهباً وأخرجها من الحلف وحمل ملكها أسيراً مع رعاياه إلى عاصمته ، ثم أرسل فرقة عنيفة من جيشه ، هى أقرب ماتكون إلى الفرق الانتحارية أو الفدائية ، وتسمى فرقة الذئاب ، وصلت هذه الفرقة إلى قصر صبر الدين ونهبته ، وكانت مقدمة لجيشه الذى تبعها ودمر المدينة ونهب معسكر المسلمين. تقدم عمداصيون إلى فاتاجار واستولى عليها وكذلك مملكة دوارو وملكها حيدرة ، ولما علم صبر الدين بهزيمة جيشه ، يقال إنه كتب رسالة إلى ملك الحبشة ينبئها فيها أنه سوف يحضر بنفسه ويعلن خضوعه للنجاشي ولما حضر انتهى الرأى فيه بالقتل بناء على رغبة الجيش الذى أوعز للملك بأنه ماجاء خاضعاً إلا لأنه آمن على نفسه بسبب الطلاسم والتعاويذ التى يحيط نفسه بها فيقال إن هـذه التمائم والتعاويذ والأحجبة قد وجدت حول ذراعيه وفى وسطه(١٥٧) .

ومعنى هذا انتهاء استقلال وسيادة الممالك الإسلامية فى أوفات وهدية وفاتاجار ودوارو ، وجعل من الثلاث الأول مملكة واحدة ، أسند الحكم فيها إلى جلال الدين أخى صبر الدين إذ قبل أن يكون تابعاً لملك الحبشة وأن يدفع له الجزية فاتسعت مملكة الحبشة وأضيفت إليها ولايات جديدة ، وضعف أمر المسلمين ولاسيما بين عنصر السيداما الحديث عهد بالإسلام(١٥٨) .

Ibid 1 (١٥٥)

Budge, p. 290 (١٥٦)

Budge, pp. 290-1 (١٥٧)

Trim., pp. 71-2 (١٥٨)

اجتمعت كلمة المسلمين في الفترة مابين عامى ١٣٣٢ ، ١٣٣٨ م على إرسال سفارة إلى سلطان مصر الناصر محمد برئاسة عبد الله الزيلعى ، ليتدخل السلطان فى الأمر لحماية مصالح المسلمين فى الحبشة فطلب الناصر محمد من البطريق ، بالاسكندرية أن يكتب رسالة إلى ملك الحبشة فى هذا الصدد(١٥٩) .

يقول القلقشندى ، « وقد كان الفقيه عبد الله الزيلعى قد سعى إلى الأبواب السلطانية بمصر عند وصول رسول سلطان أمحرا إلى مصر فى تنجز كتاب البطريرك إليه بكف أذيته عمن فى بلاده من المسلمين وعن أخذ حريمهم وبرزت المراسيم السلطانية للبطريرك بكتابة ذلك ، فكتب إليه عن نفسه كتاباً شافياً بليغاً فيه معنى الإنكار لهذه الأفعال وأنه حرم هذا على من يفعله ، بعبارات أجاد فيها(١٦٠) . غير أن عمداصيون لم يكف عن مهاجمة المسلمين بالحبشة ، وهؤلاء لم يكفوا عن انتهاز الفرص للثأر منه ، من ذلك أن سكان أوفات انقضوا على الحامية الحبشية وأبادوها عن آخرها ، كما ثارت إمارة عدل ومورا فداهمهما عمداصيون بالذبح والنهب . حدث بعد ذلك أن كلّ رجال النجاشى من هذا الكفاح المتواصل واستأذنوه فى العودة إلى بلادهم محتجين بأن موسم الأمطار قد حل بهم ، أبى عليهم ماطلبوا بحجة أن المسلمين مافتئوا يهددونه وأمرهم ألا يفاتحوه فى مثل هذا الأمر مرة أخرى . وحينئذ تكون حلف إسلامى قوى جمع شتات المسلمين تقريبا بالحبشة ، التأم هذا الحلف من : عدل ومورا وطيقو وباجوما ولبا كالا وراجا وحبلة . وجعل خطته القضاء على الحبشة وملكها وبدا بعمليات الكر والفر فى جنح الظلام ، والملك لايفتأ يطاردهم ويعود إلى معسكره لكنه عند ما عسكر فى مورا الإسلامية تقدمت إليه امرأة مسيحية وأفضت إليه بخطة المسلمين ضده وتتلخص هذه الخطة فى انتهاز فرصة هبوب العواصف العاتية التى تجتاح هذه المنطقة — وهى عواصف الهبوب — وفى حالة اضطراب المعسكر الحبشى ينقض المسلمون عليه ،

(١٥٩) مسالك الأبصار جـ ٢ ق ٣ ورقة ٤٧٧.

(١٦٠) صبح الأعشى جـ ٥ ص ٣٣٣

وقد نفذ المسلمون هذه الخطة التي استعد لها ملك الحبشة وتعقب المسلمين حتى حدود مملكة عدل ، ولما اشتد الضيق بالمسلمين ، استعان امبرامورا وعدل باحد أشراف مكة وهو الشيخ صالح أو الإمام صالح وله نفوذ روحي كبير في منطقة هرر ، كما اجتمع رجال الدين المسلمون مع أمرائهم على جهاد الحبشة ، ويقال بأن عدد أمراء المسلمين وحدهم بلغ نحو ٢٧٢٢ أميراً وبلغ عدد جيوشهم نحو ١٢٠٠٤٨ جنديا . وفي ذلك الوقت ثار جمال الدين واتصل بأمير عدل ، ووحد جهوده معه . وتذكر المراجع أن ملك الحبشة حين علم بهذه الجموع الزاخرة ، كان يعاني مرضاً نفسيا ، ومعظم فرقه القوية بعيدة عنه ، مثل فرقة «الذئاب» وفرقة «عيون الأبر» — لعلها فرقة الجواسيس وأن زوجتيه كانتا بجانبه تتضرعان له بالإقلاع عن الحرب وهو يجيبهما : «هل أموت كما تموت المرأة ؟ إني أعلم كيف أموت في ساحة الوغى ؟ » وصلى إلى الله وصلى له رجال دينه ، والجميع يتضرعون طالبين النصر ، وعمدوه بماء مقدس فدبت في نفسه الشجاعة والقوة .

وبينما هذا يجري في معسكر عمداصيون كانت جحافل المسلمين تتقدم ، وهي تسد الفضاء لكثرتها ، وتصورها المراجع تصويراً شعريا ، بأن الوحوش كانت تفر أمامها لاجئة إلى معسكر ملك الحبشة وخرج عمداصيون في حفنة قليلة من رجاله وقاتل بشجاعة حتى عاد إليه بقية رجاله الذين هربوا من هول المنظر ودامت المعركة ست ساعات انتهت بانتصاره وقتل الشريف صالح وتفرقت جموع المهاجمين ، وتبع ذلك بالتقدم في الأراضي الإسلامية ناهبا جميع المدن التي مر بها مثل تاراك ودابي وزاسي التي قتل حاكمها عبدالله ، إلى أن وصل إلى مدينة عدل حيث قبض على سلطانها وذبحه مع جميع رجاله فتقدم أولاد السلطان الثلاثة إلى ملك الحبشة مظهرين خضوعهم ، وأرسلوا عدة رسائل إلى ملوك وحكام المسلمين الذين كانوا في حلف مع أبيه ، وطلبوا إليهم الكف عن القتال وأن الأولى بهم الحضور لتقديم فروض الطاعة للنجاشي غير أنهم رفضوا ، فاستأنف النجاشي تخريبه وتدميره وقتاله في بلاد المسلمين ، حيث دافعت النساء مع

الرجال وأمر بتدمير المساجد وحرق المدن الإسلامية ونهبها واستباحتها ، وعند وصوله إلى مدينة بيكولزر الإسلامية هدد حاكمها وتوعده إن لم يسلم إليه من ترك المسيحية ودخل فى الإسلام . فلما حضر هؤلاء إليه وكان من بينهم القسيس والشماس والجندى ، عذبهم الحطى ، وأعقب هذا بالقبض على حاكم المدينة المسلم ، وتابع تخريبه ومذابحه ، وتبودلت المذابح القاسية بين الطرفين وانتصر عمدا صيون ، لكن ليس معنى انتصاره أن الحرب قد وقفت رحاها أو أن المسلمين استكانوا لما أصابهم ، بل تجددت أكثر من مرة واستمرت سجالا . ونظراً لما اقترن به كفاح النجاشى من ظفر ، علا صيته ، وأضحى يحكم عدداً من الإمارات الإسلامية ، عليها حكام وراثيون يوليهم بأمره . ويشبه عمدا صيون فى رأى بعض الكتاب ، ما كان يقوم به الفراعنة فى حروبهم ، ورمسيس الثانى بصفة خاصة ، حين قاتل أولا بحفنة قليلة من رجاله أمام قادش ، كما يشبه ملوك النوبة فى نباتا ومروى (١٦١) .

وفى عهد خليفته وابنه سيف أرعد الملقب بسفينة المسيح أو دعاء المسيح (١٣٤٣/١٣٤٤ـ١٣٧٢/١٣٧٣ م) (١٦٢) حدث أن قبض على عدد من التجار المصريين والمسلمين بالحبشة وأعدم بعضهم وأرغم البعض على اعتناق المسيحية وأرسل فرقة من رجاله لاعتراض طريق القوافل بين القاهرة والحبشة ، فأضر بالتجارة بين مصر والحبشة ، برا وبحرا ، وكان هذا رد فعل لما قام به الأمير شيخو خلال سلطنة الناصر حسن (المتوفى عام ١٣٦١ م) نحو بطريق الاسكندرية مرقص إذ سجنه عام ١٣٥٢ م بسبب امتناع البطريق عن دفع الضرائب التى طلبها الأمير ، تدخل السلطان حسن بنفسه وأطلق سراح البطريق وطلب إليه التوسط لدى ملك الحبشة لإعادة طرق التجارة كما كانت ، فأرسل البطريق بعثة من الأساقفة إلى سيف أرعد الذى استبقى الأساقفة عنده (١٦٣) .

---

(١٦١) Budge, pp. 291-8; Trim., p. 72; Kammerer, pp. 353-4

(١٦٢) يلقب سيف أرعد بعبارة Newaya Krestos ومعناها « تابع المسيح » (Budge, p. 298)

(١٦٣) Trim., pp. 73.4; Budge p. 299

وكانت سلطنة أوفات قد انتابها بعض الفتن الداخلية ، بسبب النزاع بين أعضاء الأسرة الحاكمة وانتهى هذا النزاع بانفراد حق الدين الثانى وإعلان استقلاله عن الحبشة ، وحارب سيف أرعد[١٦٤] وهزم جيوشه التى أرسلها ليساعد بها منافساً له على العرش[١٦٥] ، وظل على خطة الجهاد ضد الحبشة على عهد خليفتى سيف أرعد وهما ولداه: ودم الملقب بتابع مريم[١٦٦] (١٣٧٢–١٣٨٢م) وكذلك داود الأول (١٣٨٢–١٤١١ م) . ويذكر المقريزى أنه وقع بين حق الدين وداود الأول هذا بضع وعشرون وقعة فى مدة ٩ سنوات آخرها أنه سار إلى الحبشة وهاجمها عام ٧٧٦ هـ (١٣٧٤ م) واستشهد فى أرض شوه وضاعت جثته بين القتلى[١٦٧] .

على أن أخاه سعد الدين وكنيته أبو البركات تولى زعامة حركة الجهاد من بعده وكان ذلك على عهد داود الأول الذى اتسمت الحرب خلال حكمه بطابع العنف والاستماتة من الجانبين ودحر سعد الدين الجيوش التى أرسلها ملك الحبشة تباعا بقيادة أمن مرقى وزلن حسق وأسر وغنم ، ومن مغانمه من منطقة زلان ، مابلغ سهمه شخصيا نحو ٤٠ ألف بقرة ، وزعها بين الفقراء والمساكين وكذلك العسكر حتى لم يجد ما يأكله ، وحصل لسليم بن عبان زوج ابنته ١٢ ألف بقرة ، فأمره أن يخرج زكاتها. يذكر المقريزى أن سليما لم يمتثل لأمر السلطان فى تزكية سهمه من الغنيمة ، فسلط الله عليه الكفرة فأخذوه ومامعه ولم يفلت منهم سوى زوجته ابنة سعد الدين بحيله[١٦٨] . استولى سعد الدين بعد ذلك على زمدوه وبالى وتوغل فى أرض أمحره ، وهى مملكة النجاشى وكان قد بدأ المعركة بالوضوء والصلاة مع رجاله ، وتكلل جهاده بالنصر ، ومن قواده البارزين أسد الذى دحر زلن حسق قائد ملك الحبشة[١٦٩] . . .

---

(١٦٤) الإلمام ص ١١

(١٦٥) Budge, p. 299

(١٦٦) يلقب ودم أرعد بعبارة Newaya Maryam أى تابع مريم (Budge, p. 299)

(١٦٧) الإلمام ص ١٢

(١٦٨) الإلمام ص ١٢–١٣

(١٦٩) الإلمام ص ١٢–١٣ ؛ Trim., pp. 73-4 : Budge, p. 300

استمر النضال وخسر المسلمون أميراً منهم هو الأمير محمد الذى استشهد فى القتال ومن معه ولم ينج سوى فارس واحد. وأرسل النجاشى داود على قائده بازوا ، فتصدى له سعد الدين بنفسه وجمع معه الفقهاء والفقراء والفلاحين وجميع من قدر على حمل السلاح تحالفوا على الموت فى سبيل النصر ، ووقعت الواقعة ، وقتل أكثر المسلمين، وبلغ عدد القتلى من المشايخ الصلحاء ٤٠٠ شيخ ، فاضطر سعد الدين إلى الالتجاء إلى جزيرة زيلع حيث حوصر وقطع الماء عنه ، إلى أن دل أحد الخائنين العدو على صبر الدين الذى قاتل فترة من الزمن حتى خر صريعاً ، وذلك عام ٨٠٥ هـ (١٤٠٢ م) .

ويعتبر احتلال الأحباش لزيلع نهاية سلطنة أوفات فلم نعد نسمع شيئاً عن هذه السلطنة إذ ضعف أمر المسلمين وأمعن الأحباش فى تخريب بلادهم وهدم المساجد وبناء الكنائس وظلوا على ذلك نحو ٢٠ عاماً يقتلون ويأسرون ويسبون ما لا حصر له من أهلها (١٧٠) .

تفرق أولاد سعد الدين وهم عشرة ، كان أكبرهم صبر الدين الثانى ، وهاجروا إلى بلاد العرب ، حيث نزلوا فى جوار ملك اليمن الملك الناصر أحمد بن الأشرف إسماعيل فأجارهم وجهزهم لاستئناف الجهاد والنضال ضد الحبشة ، فعاد هؤلاء إلى إفريقية واستقروا فى موضع يقال له سيارة حيث انضم إليهم من بقى من جنود أبيهم الذين كانوا متفرقين فقوى أمرهم واستأنفوا الكفاح . واللاحظ أن أسرة ولشمع هذه لم تعد تعرف بهذا الاسم وإنما أخذت لنفسها تسمية جديدة هى « ملوك عدل » واختاروا لعاصمتهم الجديدة مدينة داكار أو ذكرا محره لبعدها عن تهديد الحبشة ، وتقع جنوب شرق هرر وأضحت مملكة أوفات تعرف منذ ذلك الوقت باسم بر سعد الدين أى أرض سعد الدين ، وذلك فى ذكريات الحروب المقدسة(١٧١) .

---

(١٧٠) المصادر السابقة

(١٧١) الإلمام ص ١٤ ؛ Encyc. of Islam, Art. «Adal» ; Trim., p. 74

أما علاقة الحبشة بمصر فى تلك الفترة فكانت ودية بدليل الهدايا التى أرسلها النجاشى داود الأول إلى السلطان برقوق بن أنص العثمانى فى عام ١٢٨٧م(١٧٢) وخلف داود ولداه : ثيودور الأول الملقب بابن الأسد ، لكن هذا لم يطل حكمه ، والثانى يسحاق الملقب بعبد الصليب (١٤١٤-١٤٢٩ م) وخلال حكمه فتحت صفحة جديدة من صفحات الكفاح بين المسلمين والأحباش فاستعد يسحاق بتدريب جيشه واستعان ببعض المماليك الجراكسة ممن كان يشغل وظيفة الزردكاش بمصر وقدم على يسحاق وعمل له زردخانات عظيمة تشتمل على آلات السلاح من السيوف والرماح والزرديات وغيرها وكانوا من قديم إنما سلاحهم الحراب يرمون بها ، - وذلك على حد قول المقريزى(١٧٣) . وفضلا عن ذلك ، فقد وفد مملوك آخر هو الطنبغا مفرق الذى نفى من مصر ، وعلم جيش النجاشى يسحاق كيفية استعمال النار الإغريقية(١٧٤) وكيفية الرمى بالنشاب واللعب بالرمح والضرب بالسيف فعرفت الحبشة وسائل الحرب الحديثة وقتئذ وذلك على حين كان بمملكة الحبشة قبطى مصرى يعرف باسم فخر الدولة ، جاء إلى الحبشة ورتب له المملكة - وجبى الأموال فصار ملكا له سلطان وديوان بعد ما كانت مملكته ومملكة آبائه همجا لا ديوان لها ولا ترتيب ، ولا قانون ، فانضبطت عنده الأمور وتميز زيه عن رعيته بالملابس الفاخرة بعد ما كان داود بن سيف أرعد يخرج عريانا وقد عصب رأسه بعصابة خضراء ، فصار يسحاق يمر فى موكب جليل بشارة الملك(١٧٥) .

وجاء استئناف النضال على أثر الانتصارات الساحقة التى أحرزها صبر الدين الثانى ، إذ أمعن فى بلاد العدو واستولى على عدة بلاد منها : سرجان . وبينما كان

---

(١٧٢) Trim., p. 75; Budge, p. 301

(١٧٣) الإلمام ص ٤

(١٧٤) الطنبغا مفرق من أمراء دولة الجراكسة، ترقى حتى وصل إلى امرة بعض بلاد الصعيد وقد فر إلى الحطى ، وكان نابغة فى أعمال الفروسية (الألمام ص ٤)

(١٧٥) الإلمام ص ٤-٥

صبر الدين يحرق الكنائس فى بلاد عدوه ويغنم ، كان يسحاق يفعل مثل ذلك فى رعاياه المسلمين وجرد صبر الدين أكثر من جيش مرة بقيادة أخيه محمد ومرة بقيادة أمير يسمى عمرو ، وتبودل القتل والأسر والتخريب من الجانبين وحرق صبر الدين قصر النجاشى وحاول السلطان برسباى يومئذ (٨٤٢هـ=١٤٣٨ م) أن ينتقم من الأقباط فى مصر ، غير أنه امتنع عن ذلك(١٧٦) .

وبعد وفاة صبر الدين الثانى عام ٨٢٥ هـ (١٤٢١–١٤٢٢ م) خلفه أخوه منصور (ت ٨٢٩ هـ = ١٤٢٥ م) وأهم ما يذكر عنه بصدد جهاده أنه هاجم جدايا الحبشة حيث وقع فى قبضته نحو ٣٠ ألف أسير نخيرهم بين الإسلام أو العودة إلى قومهم فأسلم منهم نحو عشرة آلاف وعاد الباقى(١٧٧) ، كما أن عهد جمال الدين أخى منصور بارز من حيث إن حرب جيوش أحد قواد النجاشى قد أسلم وصار من أكابر قواد جمال الدين ، ويرجع الفضل إلى هذا القائد فى قمع فتنة قام بها بعض رعايا جمال الدين ، كما انتصر على بالى والتقت جموع المسلمين مع جيش يسحاق الذى هزم ، ووزع جمال الدين أسراه على رعيته حتى خص كل فقير ثلاثة رءوس من الرقيق ، ولكثرتهم كان الرقيق الواحد يباع بربطة ورق وخاتم(١٧٨) .

وخلال تلك الوقائع قتل يسحاق نجاشى الحبشة عام (١٤٣٠ م) واضطربت أحوال مملكته لكثرة ماوليها من ملوك بعده حكموا مايقرب من خمس سنوات وبسبب الطاعون الذى استمر نحو سنة (١٤٣٣–١٤٣٤ م)(١٧٩) .

(١٧٦) الإلمام ص ١٤–١٥

(١٧٧) الإلمام ص ١٥

(١٧٨) الإلمام ص ١٦–١٧

(١٧٩) بعد مقتل يسحاق ، تولى ابنه أندراوس . وحكم نحو ستة شهور أوسبعة خلال عام ١٤٣٠ م ، ثم خلفه حزباناى الملقب بـ « نبات مريم » وهو ابن داود الأول ، حكم نحو ثلاث سنوات، ومن بعده محركانان الملقب بـ « دعامة عيسى » ، وحكم هذا نحوا من ثمانية شهور ، ثم بادل نان الذى لم تزد مدة حكمه عن حكم سالفه ، وتوفى عام ١٤٣٤ م (Budge, p. 303 الإلمام ص١٩ انظر جدول ملوك الأسرة السليمانية فى: Kammerer, op. cit. pp. 366-7)

بالعالم المسيحى الخارجى وذلك ليناهض اتصال الإمارات الإسلامية فى الحبشة بالعالم الإسلامى الخارجى والمعروف أن يسحاق قد حاول هذه الخطوة قبله ، حين كتب إلى ملوك الفرنجة يحثهم على معاونته لإزالة دولة الإسلام[١٨٣] .

وكان هناك تاجر فارسى يسمى الحاج نور الدين على يعمل واسطة بين يسحاق وبين ملوك الفرنجة خلال حملات المماليك على قبرص عام ١٤٢٥/١٤٢٦م ٨٢٩هـ ، كذلك كتب إلى الفونسو الخامس ملك أرغونة ١٤١٦ـ١٤٥٨م يقترح عليه التحالف ضد المسلمين الذين ينتسب إليهم مسلمو عدال المهددين لملكته[١٨٤] ... أجاب الفونسو مقترحا المصاهرة بين الأسرتين لتدعيم أواصر التحالف والصداقة ، ويستدل على وجود هذا التحالف من ذلك الخطاب الذى أرسله الفونسو إلى زرء يعقوب عام ١٤٥٠م يشير فيه إلى العلاقات السابقة[١٨٥] . أما هذا النجاشى فقد حملته الرغبة فى القضاء على الخطر الإسلامى الذى يهدده فى الحبشة إلى العمل على الاتفاق والارتباط بروما ، نظرا لاضطراد قوة المسلمين ورأى ربط كنيسة الحبشة بروما فى نظير مساعدة البابا روحيا ، ومساعدة بعض الدول الأوربية الكاثوليكية ماديا ، وقد وافق بطريق الإسكندرية على وجهة نظره ، ومن ثم قامت سفارتان من مصر إلى روما عام ١٤٤٠م إحداها برئاسة الارشمندريت ـ وظيفة كهنوتية ـ أندرو من دير القديس أنطون والأخرى برئاسة بطرس الشماس ، وفى نفس الوقت أرسل زرء يعقوب راهبين من الدير الحبشى بالقدس لحضور مجمع فلورنسة ١٤٣١ـ ١٤٤٥م المعقود برئاسة البابا ايوجين الرابع (Eugene VI) . ويقال إن زرء يعقوب أصدر قرارا بربط كنيسة الحبشية بكنيسة روما وإنه لهذا السبب سمح له البابا بإقامة دير حبشى فى روما[١٨٦] ومع أن الدلائل ليست كافية على وجود اتصالات قديمة بين البابا الإسكندر الثالث عام ١١٧٧م وبين نجاشى الحبشة ،

(١٨٣) المصدر السابق ص ٥ ؛ Trim.. p. 76

(١٨٤) Trim., p. 76

(١٨٥) المصدر السابق

(١٨٦) Trim., p. 76 ; Budge; p. 311 ; Coulb. II, pp. 19-24

أو أن هناك ملكين حبشيين أرسلا رسائل إلى البابا عام ١٢٩٧و١٣٠٥م مع قلة وجود الدليل القاطع على هذه الاتصالات القديمة فإنه يمكن القول أن النجاشى زرء يعقوب لم يكن الأول فى الاتصال بروما(١٨٧) .

ومن جانب آخر ، عمل زرء يعقوب على موادعة سلطان مصر يومئذ وهو جقمق العلائى الظاهرى (٨٤٢ـ٨٥٧هـ=١٤٣٨ـ١٤٥٣م) حتى لايضطهد الأقباط فى مصر ، فأرسل له كتابا باللغة العربية ومعه بعض الهدايا من الجوارى والرقيق وطشت وإبريق من ذهب مسقط ... ومما جاء فى هذا الكتاب .

« المحب الصادق زرء يعقوب المكنى قنسطنطين من نسل سيف أرعد من بنى سليمان بن داود عليهما السلام ، ملك سلاطين الحبشة وصاحب النواب بالمملكة النجاشية .... إلى الإمام الشريف العالى الأوحدى السلطانى الملك الظاهر جقمق سلطان المسلمين والإسلام بمصر والشام .

سيد الأنام ... أما بعد .. إنه قد اتصل إلينا جميل أخباركم ، وأنكم ، حفظكم الله تعالى ، أمرتم بإبطال المظالم من سائر العالم وردعتم القوم الظالمين ورفعتم أسباب المضرات من الرعايا بكل البلاد والأقاليم .. ولما بلغ إلينا ما أنتم عليه من الخير استنشقنا منه عرفا طيباً .. وقصدنا تجديد ماسبق من العهود من الملوك المتقدمين من بلادنا وبلادكم ، اتباعاً لآثارهم المشكورة ... وآخر ذلك ما كان فى أيام الشهيد الظاهر برقوق ونجله الناصر . .كانو قائمين بالعدل خصوصاً إخوتنا النصارى متوصين ويرجعوا عنهم القوم الرائدين هدم كنائسهم والقتل على من كان فيها من الأقسسة والرهابين أو ذلك بما يحققون من مناصحتهم فى خدمتهم ، ومن كان منهم يموت يدفن من غير تعرض أحد ، ومن كان لاوارث له وخلف شيئاً من الموجود يتولى أمره أبونا البطريرك ليستعين به على كلف الواردين والمنقطعين وقد بلغنا الآن هذه القواعد قد تغيرت . . . . وأنتم ، حفظكم الله .. عارفون مايلزم الراعى من النظر فى حال الرعية وأن الله يطالبه بذلك ،

---

(١٨٧) Budge, p. 311

وأبونا البطريرك وإخواننا النصارى الذين هم الآن تحت عز سلطانكم ومملكتكم الشريفة نفر قليل جداً ضعيف الحال مساكين فى كل الجهات ، ولا يمكن أن يكونوا قدر قيراط من المسلمين القاطنين بإقليم واحد من بلادنا وأنتم حفظكم الله ليس يخفى عليكم ما فى بلادنا الواسعة من المسلمين تحت حكمنا ، ونحن لهم ولملوكهم مالكون ولم نزل نحسن إليهم فى كل وقت وحين ، ومن تقدم من آبائنا وأجدادنا لم يزالوا بهم متوصين ولأنفسهم وأموالهم حافظين ، سامعين لأقوالهم ، رادعين من يتعرض إليهم ونحن على ما كان عليه آباؤنا سالكون فى طريقهم غير متعرضين لإقامة مساجدهم ولا إلى أيام أعيادهم وأيام مواسمهم . وملوكهم عندنا بالتيجان الذهب ، راكبون الخيول المسومة وعامتهم فى أسبابهم آمنون .. ولا نأخذ منهم جزية ولا شيئا قليلا ولا كثيراً . وإن كنتم فى شك من ذلك فاسألوا التجار والمترددين إلى بلادنا . . ومن نقل إليكم غير ذلك فهو من الكاذبين الذين يقصدون رمى الفتن التى هى أشد من القتل . وليس يخفى عليكم ولا على سلطانكم أن بحر النيل ينجر إليكم من بلادنا ، ولنا أماكن فوقانيه ينصرف فيها إلى أماكن أخرى قبل أن يجىء إليكم ، ولا يمنعنا عن ذلك إلا تقوى الله تعالى والشفقة على عباد الله ، وقد عرضنا على مسامعكم ماينبغى إعلامه فاعملوا أنتم بما يلزمكم .. ولم يبق لكم عذر تبدونه . . وليكن حبل المودة ممتداً بغير انصرام ـ وستعلمون صحة كلامنا ، واسألوا الجبرتية الذين هم يقيمون بالجامع الأزهر . كم لهم سلطان من المسلمين ... »

ورغم هذا فإن زرء يعقوب لم يكف عن اضطهاد المسلمين وحربهم وكان السلطان جقمق على علم تام بكذب ما فى هذا الكتاب من ادعاءات ، وما عند الأحباش وملكهم من « الزور والبهتان . . . » فضلا عما هناك من تهديدات واضحة ، وذلك بجانب أن « نصارى الديار المصرية قد كثر تعديهم واستطالتهم بالمبالغة فى البناء ولإحداث الكنائس . . . » إزاء هـــذه الحقائق رفض السلطان ماجاء برسالة النجاشى وأجاب بكتاب وهدية أرسلهما على يد قاصد سلطانى هو يحيى بن أحمد بن شاد بك ،

غير أن زرء يعقوب لم يرتض هذا الجواب وعوق القاصد السلطانى بعض الوقت ، حتى أجهز على سلطان عدل، شهاب الدين أحمد بدلاى ، وأرسل مندوب جقمق ليرى السلطان المقتول حتى يكون ذلك أنكى للمسلمين .

كانت إجابة جقمق على هذه الأحداث استدعاء البطريرك وضربه وتهديده بقتل جميع النصارى لأنهم سبب ذلك ، وأمره بإرسال كتاب بخطه ومن قبله إلى النجاشى ليرد القاصد السلطانى مكرماً ، وعاد يحيى بن أحمد بعد مضى نحو أربع سنوات . . .(١٨٨)

وبوفاة الملك زرء يعقوب عام ١٤٦٨ م ، ينتهى الدور الأول فى تاريخ الأسرة السليمانية بالحبشة ، وهو دور الفتح والتوسع ، فقد اقترن عهد خلفائه المباشرين بتغيير جوهرى فى الأحوال الداخلية والأوضاع الخارجية .

أما الجانب الداخلى فهناك اضطرابات بعضها دينى وبعضها سياسى؛ بل إن بواكر هذه الاضطرابات قدبدت أواخر عهد زرء يعقوب حين وفد على الحبشة عدد من الرهبان المصريين والسوريين بعد مجمع فلورنسة الدينى الذى انتهى عام ١٤٤٥م ، وأخذوا ينشرون بعض الهرطقة التى تنكر تجسدالمسيح ، فثار رجال الدين فى الحبشة وعقدوا مجلسا قرر بطلان مادعا إليه أولئك المهرطقون ، وهذا بجانب النزاع على العرش لكثرة أبناء زرء يعقوب ، ووقوع بعض المؤامرات(١٨٩) .

حقيقة استطاع ابنه بئيد مريم(Baed Mariam)[١] ومعناه بيد مريم الذى ولى العرش ١٤٦٨م(١٩٠) أن يحقق نوعا من الهدوء وأن يبسط سيادته على ملوك عدال فترة من الزمن ، إلا أن هذا لم يدم طويلا فسرعان ما تلاحقت هزائمه على يد المسلمين وأنكاها ماوقع لجيشه عام ١٤٧٨م حين أباده المسلمون ومزقوه شر ممزق ، حتى إن

(١٨٨) السخاوى : التبر المسبوك ص ٦٧—٧٢ ، عابدين ص ١٨٣—١٨٤

(١٨٩) Budge, pp. 319-20

(١٩٠) Kammerer, pp. 360-1

الحطى اعتقد أن نقمة السماء قد حلت به ، فوزع بعض الصدقات ، وتابع ابنه إسكندر (١٤٧٨ــ١٤٩٢م) الملقب بقسطنطين الثانى ، سياسته وبالغ فى تدمير المساجد والمنازل فى داكار وهى قاعدة ملوك عدال الإسلامية واستبقى كوفيلهام Covilham رسول جون الثانى ملك البرتغال ليعمل مستشارا له ، غير أن اسكندر لم يعمر طويلا فقدقتل عام١٤٩٢ وخلفه ابنه الطفل عمدا صيون الثانى(١٩١) ومات هذا الطفل بعد حكم دام نحو ٧ أو ٨ شهور وجاء بعده عمه ناؤود (Naod) أخو اسكندر ١٤٩٤ــ١٥٠٨ ولم يقصر فيما استنه أسلافه من مداومة الضرب على أيدى المسلمين بل استطاع أن يهزم جيش بالى الإسلامية ورغم قائدها على المسيحية ويونيه بالى من قبله ، إلا أن هذا القائد لم يلبث حتى انتقم لنفسه ولدينه وهرب أمام جيش الحبشة ، فانتقم له محمد ملك عدال وشتت جيوش الحبشة(١٩٢) .

وعهد الحطى الملقب بلبنا دنجل (Lebna Dengel) أى بخور العذراء أو لبان العذراء، عهدبارز فى تاريخ العلاقات الحبشية الإسلامية لأنه هو العهد الذى بدأت فيه الأوضاع السياسية والعسكرية تتبدل فيما حوله وترجح فيه كفة المسلمين على الأحباش ومن والاهم(١٩٣) . ولذا يمكن أن يقال إن هذه الفترة التى تبدأ من عهد لبنا دنجل أو حتى منذ وفاة جده زرء يعقوب كانت فيما يتعلق بالجانب الإسلامى على النقيض من الفترة السابقة فبينما كانت الفترة السابقة فترة ضعف وتدهور تميزت الفترة اللاحقة ببروز قوة المسلمين وانتصارهم ، بل اتسعت رقعة الممالك الإسلامية فى الحبشة بحيث أضحت تضم نحو ثلاثة أرباع مملكة الحبشة وفى نفس الوقت ازداد انتشار الإسلام بازدياد قوته السياسية وذلك بينما انحطت قوى الأحباش وتدهورت ولم يكن باستطاعتهم عمل شيء سوى التزام جانب الدفاع . .

ظهر فى أفق هذه الفترة الجديدة التى يؤرخ لها بنهاية القرن الخامس عشر الميلادى وأوائل السادس عشر عامل جديد يتمثل فى ظهور الأتراك العثمانيين وقيام حركة

---

(١٩١) أخفت الملكة رمانه مقتل بئيد مريم نحو ثلاث سنوات حتى لاتضطرب أمور الحبشة

(١٩٢) Budge, pp. 320-8

(١٩٣) Chronique du Regne de Menelik II, p.39

الكشف الجغرافى ، فتقدم العثمانيون والبرتغاليون ، كل يناصر الفريق الذى التمس العون منه ، كذلك دخلت أسلحة جديدة لم يعرفها مسلمو الحبشة أو الأحباش فى نضالهم السابق .

كشف البرتغاليون الطريق إلى الشرق أواخر القرن الخامس عشر الميلادى وضرب فاسكودى أجاما ميناء مقدشو الإسلامى بالمدافع عام ١٤٩٩م كما أسس البرتغاليون عام ١٥٠٧م نقطة ارتكاز لهم فى جزيرة سقطرة قرب مدخل البحر الأحمر . أدت هذه إلى اتحاد قوى الإسلام المحيطة بالبحر العربى لصد الخطر البرتغالى واشترك قانصوه الغورى سلطان المماليك فى مصر بإرسال حملة بحرية فشلت مع أحلافها عام ١٥٠٩ أمام البرتغاليين عند جزيرة ديو على الساحل الغربى للهند. استمر البرتغاليون فى التوسع وتدعيم مراكزهم الشرقية الجديدة وإتلاف بعض الموانى الإسلامية المطلة على البحر الأحمر وخليج عدن من ذلك مافعله القائد البرتغالى لوب سوارز (Lope Suarez) حين أحرق ميناء زيلع عام ١٥١٧م ، كما أن قائدا برتغاليا آخر هو سلادانها (Saladanha) نهب ميناء بربرة(١٩٤) .

بهذا الوضع بدأ البرتغاليون يواجهون قوة إسلامية كبرى ، هى قوة العثمانيين . ومنذ فجر القرن السادس عشر الميلادى أخذ العثمانيون يبسطون سيادتهم على بلاد الشرق الأدنى ، واستولوا على سواكن وجزيرة زيلع وأنشأوا علاقات مع المسلمين فى مصوع التى يحتلها البرتغاليون وأسسوا فى كل منهما ديوانا للجمارك لتنظيم تجارتهم ، وجاء استيلاء العثمانيين على هذه المناطق فى الساحل الإفريقى مصدر قلق وخطورة على المسلمين والأحباش على السواء ، فى أثيوبيا ، فقد عرفت القوتان المتناحرتان أن الغزاة الجدد يتسلحون بأسلحة نارية ومدافع لن تستطيع إحداها مقاومتهم ، غير أن المسلمين وجدوا عاملا هاما للارتباط مع الفاتحين الجدد ، وهو عامل الاتفاق فى الدين فضلا عن ترحيب العثمانيين بهذا الارتباط الدينى بجانب الأهداف التجارية ، ولدى المسلمين

---

(١٩٤) Trim., p. 77

بالحبشة معلومات وافية عنها[١٩٥] أما الحبشة فكان الأمر مختلفا بالنسبة إليها فهى مسيحية متعصبة لمسيحيتها وليس هناك أدنى احتمال لإمكان استعداء الأتراك على المسلمين الأعداء ، إذن لابد من محاربة مسلمى الحبشة وأحلافهم الجدد ، لكن أسلحة الأحباش لم تزل حتى ذلك الوقت هى القوس والنشاب والسيف والاعتماد على الشجاعة والفروسية ونحو ذلك ، وهذه لاتجدى فتيلا أمام الأسلحة الحديثة آنئذ ؛ إذن لابد من عون خارجى يتفق فى التسلح والنظام مع العدو الأقوى كما يتفق مع الأحباش فى العقيدة .

حينئذ رأت الملكة هيلانه أو إلينى (Eleni) العجوز الوصية على لبنادنجل (١٥٠٨ـ١٥٤٠)[١٩٦] أن المخرج الوحيد هو الاستعانة بالدول الأوروبية استعانة جدية فعالة ، فحين سمعت بانتصارات البرتغال فى المحيط الهندى ، طلبت مساعدتهم ، ومن ثم توالت البعثات الحبشية إلى أوروبا : منها ما كان للبرتغال ومنها ما كان للبابا فى روما[١٩٧] .

على هذا النحو أضحى النضال الإسلامى الحبشى داخل إفريقية صدى للنضال العثمانى البرتغالى أو النضال العثمانى الأوروبى فى حوض البحر الأحمر ثم البحر الأبيض بعد ذلك ، أو قل إن نضال الممالك الإسلامية بالحبشة ضد الحبشة صورة من صور النضال المزمن بين الشرق والغرب ، وهو من جانب آخر امتداد لذلك النضال القديم بين فارس والروم وصداه داخل شبه الجزيرة العربية .

إبراهيم على طرخان

---

(١٩٥) Budge, p. 330 ; Trim., p. 78 Coulb. II, pp. 97-123

(١٩٦) عابدين ص ١٨٨ . Trim., pp. 82 Budge, pp. 319, 322,326
Kammerer, pp. 363-4

(١٩٧) Bugde, pp. 330-332, Coulb. II. pp. 56-88
Trim., pp.77-78 ؛ الشاطر بوصيلى ص ١٣ـ١٥ .

امتداد الإسلام والعروبة إلى وادى النيل الأوسط

« مملكة علوة »

مملكة علوة هي إحدى الممالك النوبية الثلاث، التى قامت فى شمال السودان ووسطه على أنقاض مملكة مروى التى أخذت فى الانهيار منذ منتصف القرن الرابع الميلادى ذلك أن غزو مملكة أكسوم الحبشية لجهات حوض النيل الأوسط بقيادة الملك عيزانا أدى وقتذاك إلى انقسام مملكة مروى إلى إمارات صغيرة تحت حكم رؤساء وطنيين. وظلت هذه المملكة مدة قرنين على الأقل، مسرحا للاضطرابات والحروب الداخلية، حتى استطاع بعض أمرائها أن يتوسع على حساب البعض الآخر، فنشأت على أثر ذلك ثلاث ممالك مستقلة بشئونها، هى التى استقبلت الدعوة المسيحية رسميا، فى منتصف القرن السادس الميلادى. أما هذه الممالك النوبية المسيحية ـ حسبما ورد فى المراجع السريانية(1) ـ فأولاها مملكة النوباديين Nobadae أى نوباديا Nobadia وعاصمتها بخراش « فرس »، وتمتد من مدينة أسوان إلى قرية عكاشة، جنوبى الشلال الثانى. وثانيتها مملكة الماكوريين Makoritae، أى مقرة، وعاصمتها دنقلة، وتمتد من قرية عكاشة إلى بلدة الأبواب (كبدشية الحالية) . وثالثتها مملكة أطلق اليونانيون على سكانها اسم Alodiae وهى علوة، تمتد جنوبى مقرة حتى بلدة القطينة على النيل الأبيض، وعاصمتها سوبا. وتشمل هذه المملكة بعض جهات الأتبرا والنيل الأزرق شرقا حتى حدود الحبشة، وبعض جهات كردفان ودار فور غربا(2). وما بين سنتى ٥٨٠ـ٦٥٢م

---

(1) Cf. John of Ephesus : Ecclessiastical History, part II, tr. by R. Payne Smith, London 1860. p. 319.

(2) Villard, Ugo Monnert de : Storia della Nubia Cristiana, Roma 1938, p. 156.

اتحدت المملكتان الشماليتان ــ نوباديا ومقرة ــ فى مملكة واحدة عرفت باسم مقرة أو النوبة كذلك . كما عرف جزؤها الشمالى « نوباديا » ، باسم مريس(٣).

وورثت هاتان المملكتان ما خلفته دولة مروى من مظاهر حضارية هى فى الواقع مزيج من ثقافات مختلفة، مصرية ويونانية ورومانية (مصدرها مصر بطبيعة الحال) فضلا عن ثقافات حبشية سبئية، ولا سيما فى ناحيتى الدين والفن وهى لا تخلو من آثار بدائية محلية.وعلى الرغم من استقلال هذه المنطقة سياسياعن مصر فى العصورالوسطى إلا أن المؤثرات الثقافية والبشرية،ظلت تشق طريقها من مصر إلى هذهالمنطقة جميعها ولاسيا جزءها الشمالى «مقرة» وذلك لقربه من مصر.فالمسيحية على مذهب الكنيسة المصرية مثلا ــ شأنها شأن الحضارة المصرية القديمة ــ دخلت السودان من الشمال . هذا فضلا عن انتشار اللغة القبطية فى النوبة الشمالية «مقرة»، واستخدامها فى الوثائق الرسمية وفى كثير من الأغراض الدينية كذلك(٤).

ويتصف الدور المسيحى من تاريخ النوبة ، بطابع حضارى خاص، يبدو واضحا فى نظمها السياسية والإدارية وحياة أهلها الاجتماعية والدينية . وإذا كانت معلوماتنا عن الحضارة النوبية فى مملكة علوة ، قليلة ــ بالقياس إلى جارتها مقرة فى الشمال ــ لضياع معظم آثار علوة ، إلا أن الكثير من مظاهر حضارتها ــ فيا يبدو ــ كانت تشبه ــ إلى حد بعيد ــ مظاهر الحضارة فى مملكة مقرة. والواضح من دراسة النظم السياسية والإدارية ، فى مملكة علوة ، أنها حكمت حكما ملكيا مطلقا . فكبيرها عرف باسم ملك علوة وعاصمته سوبا. وهو الذي يملك الأرض ومن عليها.واتبع ملوك علوة نظام

(3) Cf.Kirwan, L.P. : Nates on the topography of the Christian Nubian Kingdoms. Jour. Egypt. An. XXI, 1934, p. 57.

(4) Griffith, F. Ll. : «Christian Documents from Nubia». Proc. British Academy XIV, 1928, pp. 17-18. Griffith, F. Ll. Oxford Ex. in Nubia. p. 53.

الأمومة فى وراثة العرش[٥]. كما قضى نظام حكم الأقاليم، بتقسيم المملكة إلى ولايات أو ممالك صغيرة ، على رأس كل منها ملك . ولعل ملك إقليم الأبواب ، أعظم أولئك الملوك الإقليميين خطرا وأعلاهم مقاما ، وهو الذى عرف باسم الرحراح[٦].

وللمجتمع النوبى خصائص معينة انفرد بها . إذ أنه يشكل نوعا من الإقطاع ، غريبا فى تركيبه ؛ ولم يعرف له نظير فى الإقطاع الشرقى أو الغربى . فالأسرة المالكة وفروعها فى الأقاليم ، تمثل الطبقة الأرستقراطية، التى مارست وحدها حقوقا سياسية ودينية . أما الشعب كله ، فيمثله طبقة العبيد الكادحة فى الأرض ، التى لا يملكون منها شيئا . إنما تملكهم عليها ، تلك العبيد العاملين فيها لصالح سادتهم . فهم جميعا عبيد الملك ، يباعون ويشترون ، ويهدى بهم ويقومون مقام العملة[٧]. وبين هاتين الطبقتين ، قامت فئة الموظفين القليلة العدد ، التى تولت معظم الوظائف الملكية فى العاصمة والأقاليم .

واتجهت مملكة علوة فى زعامتها الروحية،إلى الكنيسة المصرية،التى كانت تمدها بالأساقفة المصريين . وظلت الطقوس الدينية فى كنائس علوة ، تؤدى باللغة اليونانية حتى القرن الثامن الميلادى ، حين ترجمت هذه الطقوس إلى اللغة النوبية ، التى لم تصبح لغة مدونة إلا فى حوالى منتصف القرن التاسع الميلادى[٨] .

تلك هى الأسس التى قامت عليها الملكية المسيحية فى النوبة . ويلاحظ أن مملكة علوة ، ظلت متمتعة باستقلالها فى ظل هذه النظم مايقرب من عشرة قرون . ومرجع ذلك فى الغالب ، أن الدولة الإسلامية فى عز أيام توسعها ، لم تجنح إلى ضم مملكتى النوبة عنوة إلى أملاكها . وإذا كان العرب ـ بعد فتح مصر ـ جردوا حملتين لغزو النوبة الشمالية « مقرة » ، بقصد تأمين حدود مصر الجنوبية ، وتأكيد

(٥) ابن حوقل : كتاب صورة الأرض ص ٥٦

(٦) المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار جـ ١ ص ١٩٣ ـ طبعة بولاق .

(٧) المقريزى : نفس المصدر ص ١٩٣

(٨) Cf. Griffith, Fl.l. : Christian Documents from Nubia, p.14

حقوقها التجارية فى النوبة ، إلا أنهم لم يحتلوها بقواتهم ، على الرغم من النصر الحربى الذى أحرزوه فى حملتهم الثانية عليها بقيادة عبد الله بن سعد بن أبى السرح سنة ٦٥٢م ودخولهم دنقلة العاصمة. بل عقد القائد العربى لأهل مقرة عقدا يضمن استقلال بلادهم ويحقق للمسلمين الاطمئنان على حدودهم من ناحية الجنوب ، وفتح النوبة للتجارة ، والحصول على عدد من الرقيق فى خدمة الدولة الإسلامية ، وحفظ مصالح المسلمين وحريتهم الدينية فيها(٩) . هذا ولم يتعرض المسلمون لمملكة علوة ولم يفكروا فى احتلالها . ويبدو أن العرب أدركوا — منذ البداية — أثر الاتصال البشرى والثقافى الطبيعى بين مصر وهذه البلاد ، فى تغذيتها بالدماء العربية ونشر الثقافة الإسلامية فيها . فلم يهتموا باحتلالها . فعلى الرغم مما نص عليه عقد عبد الله بن سعد لأهل مقرة من عدم السماح للمسلمين بالدخول إلى بلادهم إلا للتجارة . فإن الجماعات العربية بالصعيد الأعلى لم تتقيد بهذا الشرط . بل أخذت فى التسرب التدريجى إلى بلاد النوبة السفلى « مريس »(١٠) وظلت هذه المنطقة ، وما جاورها شرقا فى أوطان البجة ، تستقبل كثيراً من القبائل العربية ، ولا سيما بعد أن فقد العرب نفوذهم القديم ، بقطع العطاء عنهم ، منذ عهد الخليفة المعتصم بالله العباسى ، وضغط الولاة الأتراك عليهم فى مصر ، منذ منتصف القرن التاسع الميلادى . واختلط العرب بالنوبيين والبجة ، واعتنق كثير منهم الإسلام ولم يعد لملوك النوبة « مقرة » فى منطقة مريس سوى نفوذ إسمى ، ثم إن اشتراك كثير من القبائل العربية فى مصر فى الحملات المملوكية على مقرة ، لم يؤد إلى إخضاعها للسلطنة المملوكية فحسب ، بل أدت إلى استقرار معظم هذه القبائل العربية فى مقرة ، وعدم العودة إلى مصر صحبة الجيوش المملوكية(١١) .

ومما لاشك فيه ، أنه كان لاستقرار كثير من القبائل العربية فى مقرة الأصلية (Maqurra proper) بعد أن أضحى الطريق ممهدا لانسيابها جنوبى الشلال الثانى —

(٩) راجع عقد عبد الله بن سعد للنوبيين فى المواعظ والاعتبار للمقريزى ج ١ ص ١٩٩

(١٠) المسعودى : مروج الذهب . نشر دى مينار ج ٣ ص ٤١

(١١) مصطفى مسعد : ممالك النوبة المسيحية — اضمحلالها وسقوطها. رسالة لم تنشر ص ١٨٠

أثر واضح فى صبغ هذه البلاد وسكانها بصبغة عربية . ولعل بنى كنز كانوا أقوى هذه العناصر ، التى أتيح لها أن تشارك فى حوادث هذه الدولة ، باشتراكهم فى معظم هذه الحملات المملوكية على مقرة ، ثم مكنوا لأنفسهم فيها بمصاهرة البيت المالك النوبى فى دنقلة . فادعى أميرهم بحقه فى ملك مقرة ، عن طريق وراثة الأم[١٢] . واستعان بنو كنز بالعرب المهاجرين والنوبيين المتوطنين فيها ، فانتزع أميرهم كنز الدولة ، ملك مقرة ، وأعلن استقلاله عن السلطنة المملوكية سنة ١٣٢٣م . ويبدو أن العرب كانوا من القوة والكثرة العددية ، بحيث تمكنوا من التغلب على بيوت الإمارة النوبيــة القديمة فى مقرة ، فضلا عن تحدى السلطان المملوكى والاستقلال عنه . فما كان يفيد كنز الدولة فى كثير أو قليل حقه المشروع فى ملك مقرة ــ عن طريق وراثة الأم ــ لولا ما اجتمعت إليه من قوة العرب المهاجرين ، والنوبيين المتوطنين ، الذين تأثروا بهم وامتزجت دماؤهم بدمائهم . ولم يقتصر دور العرب الذين استقروا فى مقرة ، على القضاء على البيت الملكى بها ، بل إن اختلاطهم بالنوبيين فى مريس ، منذ القرن التاسع الميلادى ، ثم فيما يليها جنوبا منذ منتصف القرن الثالث عشر الميلادى على الأقل ، أدى إلى انتشار الإسلام بين النوبيين ، الذين يقول عنهم ابن خلدون « إن الجزية انقطعت بإسلامهم[١٣] ، ولم تشر المراجع إلى اسم ملك مسيحى لمملكة مقرة ، بعد كنز الدولة ، والراجح أن خلفاءه جميعا ، إما أنهم كانوا عربا ، أو نوبيين مستعربين » .

لم تستقر أحوال هذه المملكة ، بعد سقوطها فى أيدى بنى كنز . بل أضحت مسرحا للاضطرابات ، التى كانت من عمل بنى كنز ، أو غيرهم من القبائل العربية ، التى استقرت فى مملكة مقرة ، مثل بنى جعد وبنى عكرمة ، والهوارة ، وبنى هلال وغيرها ، بسبب التنافس على السلطة[١٤] . وفى القرن الخامس عشر الميلادى ، تم اختلاط هؤلاء

(١٢) النويرى ــ نهاية الأرب فى فنون الأدب ــ مخطوطة جـ ٣٠ ــ ورقة ٩٥
المقريزى ــ السلوك لمعرفة دول الملوك ــ نشر زياده جـ ٢ ــ القسم الأول ص ١٦١

(١٣) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ــ جـ ٥ ص ٤٢٩

(١٤) Quatremére, E. : Memoires geog. et hist. sur l'Egypte et sur quelques Contreés voisins, II, pp. 120-122.

وأولئك جميعا بالنوبيين ، من أسوان حتى دنقلة . وانتشر الإسلام وتكونت المجموعات النوبية المستعربة ، التى لا تختلف فى صفاتها الطبيعية وملامحها عن النوبيين الحاليين وهم : الكنوز ، والفديجة ، والسكوت ، والمحس ، والدناقلة .

لم يمض أقل من قرن على سقوط مملكة مقرة المسيحية ، حتى سقطت جارتها فى الجنوب « علوة » . فقد كان لقطع العلاقات الدينية بين الكنيسة المصرية وكنائس علوة ، وتوقف إرسال الأساقفة المصريين إلى بلاد النوبة ، منذ منتصف القرن الثالث عشر الميلادى أثر خطير فى حياة النوبيين الدينية ، فأهملت الطقوس الدينية ، وهجرت الكنائس النوبية وضرب معظمها . وقدحفظ قسيس برتغالى يدعى ألفارز ، الذى زار الحبشة بين سنتى ١٥٢٠ـ١٥٢٧م ، صورة عن أحوال النوبيين (أهل علوة)الدينية ، أوائل القرن السادس عشر الميلادى بقوله « ... إن أولئك النوبيين يجهلون دينهم ، فلاهم بالمسيحيين ولاهم بالمسلمين أو اليهود . ويقال إنهم كانوا على النصرانية ، غيرأنهم فقدوا دينهم ، ولم تبق لهم عقيدة . ويأملون أن يكونوا مسيحيين » . ويبدو من قول الفارز ، أن النوبيين فشلوا فى الحصول على قساوسة من كنيسة الإسكندرية ، فبعثوا إلى نجاشى الحبشة سنة ١٥٢٢م ، ليرسل إليهم من يرشدهم فى دينهم . غيرأن النجاشى اعتذر عن تلبية هذه الرغبة ، إذ أنه يعتمد على البطريرك فى بلاد المسلمين فى إرسال « أبونا » ، فكيف يعطيهم من يتفضل بهم عليه غيره . ومما زاد فى عزلتهم سقوط مملكة مقرة فى الشمال ، واعتناق أهلها الإسلام . وذكر الفارز نقلا عن بعض الأحباش أنه منذ وفاة أسقف النوبة (علوة) من أمد بعيد ، لم يخلفه غيره ، بسبب الحروب بين القبائل العربية فى بلاد النوبة الشمالية (مقرة) . فتركت كنائسهم دون رعاية رجال الدين ، فنسوا كل شىء عن المسيحية. وثمّ دليل على هجر النوبيين كنائسهم وتخريب معظمها ، ماذكره الفارز كذلك نقلا عن حنا السورى الذى زار علوة قبل ذلك بقليل حيث يقول « إنه كان بها ١٥٠ كنيسة قديمة تحمل جدرانها صور السيد المسيح والعذراء »(١٥).

(15) Father Francisco Alvarez : Narrative of the Partuguese Embassy to Abyssinia. p. 65, p. 352.

وهذا عدد قليـــل بالقياس إلى ما عرف عن عدد كنائس علوة ، حوالى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى ، والتى بلغ عددها ـ على قول أبى صالح ـ حوالى ٤٠٠ كنيسة(١٦) .

أما الروايات التاريخية الوطنية ، فأجمعت على أن نهاية مملـكة علوة وسقوطها ، أوائل القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) تمّ على يد جماعة من العرب والفونج . ويعنى هــذا أن العرب وحلفاءهم ، استطاعوا أن يسقطوا هذه المملـكة ، بفضل كثرتهم العددية ، أو أن أحوال هذه المملـكة كانت اضمحلالية ، بحيث لم تقو على مواجهة ضغط هذه القبائل. وإذا سلمنا بصحة هذه الروايات التاريخية ، فيما يتعلق بدور العرب وحلفائهم ضد هذه المملـكة المسيحية ، فإن هذا يدعونا إلى الاعتقاد بأنه سبق سقوطها، وصول جماعات عربية فى أعداد وفيرة ، حتى تسنى لها طبع هذه البلاد وسكانها المسيحيين بطابع مخالف ، هو الطابع العربى الإسلامى .

وإذ أشار المؤلفون المسلمون إلى هجرة بعض القبائل العربية ، من مصر ، إلى بلاد النوبة الشمالية (مقرة) ، وأوطان البجة ، فإن أحدا من أولئك المؤلفين ـ على ما نعلم ـ لم يشر إلى مثل هذه الهجرات العربية إلى بلاد علوة . بل إن أخبار هذه الهجرات ، واستقرار القبائل العربية وبطونها المختلفة فيها ، جاء من مصادر سودانية . وهى عبارة عن أوراق النسبة التى يحتفظ بها كثير من الأسرات السودانية فى الوقت الحاضر(١٧) .

فضلا عن ذلك ، فإن بعض الروايات التاريخية ، تشير إلى هجرة بعض الجماعات العربية عبر البحر الأحمر ، سواء أكان هذا قبل الإســلام أو بعده ، على أثر وقوع أحداث هامة فى بلاد العرب . ومن بين هــــذه الأحداث ، تخريب سد مأرب ، واضطهاد قريش للمسلمين ، وحروب الرِّدّة ، والنزاع على الخلافة بين الأمويين

(١٦) أبو صالح ـ تاريخ الشيخ أبو صالح الأرمنى ـ نشر إيفت . ص ١٢٠

(١٧) جمع ماك ميكل معظم أوراق النسبة العربية فى السودان ونشرها فى مؤلفـــه الضخم المعروف باسم A History of the Arabs in the Sudan II.

والعلويين ، وسقوط الدولة الأموية كذلك . فالمعروف أن عدداً من المهاجر العربيـة استقرت فى جهات متفرقة فى منطقة النيل الأزرق والأتبرا والحبشة(١٨) . وإذا كانت هذه الهجرات السابقة للإسلام، قليلة العدد ، محدودة الأثر ، فلا شك فى أن أعدادها، زادت زيادة واضحة عقب الفتح العربى لمصر ، حتى سمح للعرب ـ المهاجرين أو المترددين على علوة للتجارة وغيرها ـ ببناء مسجد فى سوبا(١٩) .

وموضع الأهمية هنا، هل ظلت الجزيرة العربية، هى المصدر الوحيد لتلك الهجرات العربية الإسلامية ، إلى حوض النيل الأوسط ، عبر البحر الأحمر مباشرة ، أو كانت هنالك مصادر أخرى شاركت، أو انفردت بتعريب هذا الجزء من حوض النيل ؟ إن ثم رأيا يقول : هناك ثلاثة أبواب ، دخلت منها الدماء العربية ، ومعها الثقافة العربية إلى السودان ـ فالباب الشرقى من السودان كان واحدا من هذه الأبواب ...... والباب الثانى هو الباب الشمالى، فى وسط السودان، الذى يفضى إلى مجرى النيل .... أما الباب الثالث فهو الطريق الشمالى الغربى، أو الطريق الليبى ..... ولعل هذا الباب لم يكن مصدرا للثقافة العربية إلا بعـد الإسلام (٢٠) . ويعنى هذا أن كلا من الجزيرة العربية ومصر ، كانا مصدرا للهجرات العربية ، التى حملت معها الثقافة الإسلامية ، إلى حوض النيل الأوسط . ومع تسليم الدكتور محمد عوض محمد بأهمية مصر ، كمصدر للثقافة العربية فى وادى النيل الأوسط ، إلا أنه لم يقلل ، من أهمية الجزيرة العربية ، كمصدر مباشر للهجرات العربية ، التى قامت بنصيبها فى نشر العروبة فى هذا الإقليم .

غير أن هنالك من يرى أن الجزيرة العربية كمصدر مباشر للهجرات العربية، إلى حوض النيل الأوسط عبر البحر الأحمر مباشرة ، وبالتالى كمصدر للثقافة الإسـلامية فيه كانت قليلة الأهمية ، ضعيفة الأثر ، بالقياس إلى المصدر الشمالى وهو مصر . فيقول

---

(١٨) انظر ـ ممالك النوبة المسيحية ـ اضمحلالها وسقوطها . ص ١١٣، ١٢٣

(١٩) أرنولد ـ الدعوة إلى الإسلام ـ ص ١٠٠

(٢٠) محمد عوض محمد ـ السودان الشمالى ـ سكانه وقبائله ص ١٥٩ ـ ١٦٠ الطبعـة الأولى .

الأستاذ عمار : إذا نحن استثنينا تلك الجماعات العربيه القليلة التى وصلت إلى السودان رأسا ، عبر البحر الأحمر ، سواء أكان ذلك قبل الإسلام، أم زمن التوسع الإسلامى أم كانت هجرات حديثة كالتى أوصلت قبائل الرشايدة ، إلى حيث ينزلون الآن ، فى الشمال الشرقى للسودان ، فإن تعريب السودان فى الواقع إنما تم عن طريق مصر — إذ لا يسجل التاريخ — فى أى عهد من عهوده ، وصول موجات هامة، أو هجرات عنيفة إلى السودان،عن طريق غير طريق مجرى النيل من الشمال إلى الجنوب[٢١] ونجد للرأى الأخير تأييدا ، فيما ذكره ماك ميكل، إذ يقول: إن بعض القبائل العربية فى السودان تدعى أن أجدادها، وصلوا من جزيرةالعرب مباشرة،إلى السودان، عبر البحر الأحمر، لتأييد دعواهم فى الانتساب إلى أصل شريف، أموى أو عباسى ، أو أنهم سلالة بعض صحابة رسول الله . ومع التسليم بوصول بعض الأسر العربية ، من حين إلى آخر، عبر هذا الطريق ، إلى السودان ، إما للتجارة ، أو اتخاذه مكان هجرة ، أو بحثا عن المراعى كما فعلت قبيلة الرشايدة حديثا ، فإن التاريخ لم يسجل وصول هجرات واسعة ، عبر هذا الطريق ، مثلما سجل عن هجرة هذه القبائل العربية إلى مصر[٢٢] .

وكيفما كان الأمر، فالمعروف، أن كثيرا من الجماعات العربية انتقلت من مصر جنوبا، حيث استقرت فى بلاد النوبة الشمالية، وأرض البجة، عقب الفتح العربى لمصر واختلطت الجماعات بعضها ببعض ، اختلاطا كان يغذيه وصول القبائل وسكناها بين النوبيين والبجة، حينا بعد حين، ولاسيما بعد منتصف القرن التاسع الميلادى. وزادت جموع العرب المهاجرين ، من مصر جنوبا زيادة واضحة، عقب قيام السلطنة المملوكية فى مصر ، فى منتصف القرن الثالث عشر للميلاد ، ثم سقوط مملكة مقرة المسيحية ،

---

(٢١) عباس عمار : وحدة وادى النيل : أسسها الجغرافية ومظاهرها فى التاريخ . ص ٨٠

(٢٢) Hamilton, J. A. de C· ed : The Anglo Egyption Sudan from Within· «The coming of the Arabs in the Sudan» by Mac-Michael pp. 46-47.

بعد ذلك في يد العرب ، أوائل القرن الرابع عشر الميلادى. ومرجع ذلك فى الغالب ـ على قول ماك ميكل ـ أن أولئك العرب لم يطب لهم المقام فى مصر ، ولا سيا بعد أن فقدوا ميزاتهم القديمة . وأصبح ينظر إليهم كعنصر غير مرغوب فى بقائه . فاستبدلوا بقوات حربية نظاميـــة مدربة لأنهم لا يجيدون سوى شن الإغارات للحصول على الغنائم ، فضلا عن مماطلتهم فى دفع الضرائب وإثارة القلاقل. وفى القرن الرابع عشر أصبح ينظر إليهم على أنهم خارجون على القانون . ثم إن رغبة العرب فى العيش عيشة البداوة والحرية ـ التى تعودوها فى بيئتهم الأصلية والبحث عن مراع واسعة تناسب حياة الإبل والأغنام ، والتى لا يتوفر وجودها فى مصر ـ دفعت بالعرب إلى الهجرة جنوبا ، حيث البيئة الرعوية، التى تشبه بعض جهاتها البيئة الأصلية فى الجزيرة العربية هذا فضلا عن رغبتهم فى الحصول على الرقيق (٢٣). ثم إن السلطنة المملوكية سمحت لأولئك العرب بالرحيـل من مصر ، وأكثر من هذا ، أنها أمعنت فى مطاردتهم جنوبى مقرة ذاتها ، بدليل ما ذكره النويرى أن حملة مملوكية جردها السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٦١٧ هـ (٣١٧ م) ، ضد العرب الذين يسكنون حول عيذاب ، لاعتدائهم على بعثة أرسلها ملك اليمن بهدية إلى السلطان المملوكى . وأوغلت هذه الحملة جنوبا حتى سواكن ، واتجهت غربا إلى التاكه ، وإلى جهة الأبواب ، ثم عادت إلى مصر عن طريق دنقلة (٢٤).

والواضح تماما ، أن سقوط مملكة مقرة المسيحية أوائل القرن الرابع عشر الميلادى أدى إلى ازدياد موجة الهجرات العربية ، ولاسيا بعد أن بات السابقون من العرب فى شغل بمنازعاتهم الداخلية عن المهاجرين الجدد . وربما كان أشد هذه الهجرات الجديدة عنفا هجرة جهينة التى أشار إليها ابن خلدون (٢٥)، وهى واحدة من خليط هائل من

(٢٣) Hamilton, ed : op. cit. 47-50.

(٢٤) النويرى ـ نهاية الأرب مخطوطة جـ ٣٠ ـ ص ٩٦ـ٩٧ ـ المقريزى : السلوك جـ ٢ القسم الأول ص ١٦٢

(٢٥) ابن خلدون : العبر جـ ٥ . ص ٤٢٩

القبائل العدنانية والقحطانية وبطونها المختلفة ، التى تجمعت فى أنحاء النوبة الشمالية . ونشأت على أثر ذلك بعض المهاجر العربية قرب سنار الحالية . والراجح أن معاينة هذه الجماعات للمراعى الغنية ، ترامت أخبارها إلى ذويهم فى الشمال، فاندفعت جموعهم جنوبا ، ولاسيما أولئك الذين حافظوا على بداوتهم بعد أن ضاقت بهم مهاجرهم فى النوبة الشمالية ، بسبب فقر بيئتها وندرة مراعيها(٢٦).

لكن كيف شق أولئك المهاجرون طريقهم نحو الجنوب ؟ هل اضطروا إلى شن الإغارات على الوطنيين ، والدخول فى حرب ضد مملكة علوة المسيحية ؟ يقول ابن خلدون : « وانتشروا (أى جهينة) ، ما بين صعيد مصر وبلاد الحبشة ، وكاثروا هنالك سائر الأمم، وغلبوا على بلاد النوبة، وفرقوا كلمتهم، وأزالوا ملكهم، وحاربوا الحبشة فأرهقوهم إلى هذا العهد»(٢٧). والمفهوم من هذا ، أنه بعد سقوط دنقلة فى يد العرب ، أضحت المنطقة الممتدة من حلفا الحالية إلى شمال غربى الحبشة مسرحا لأعمال النهب والتخريب مدة لا تقل عن ثلثمائة عام(٢٨). وأن العرب فى تقدمهم جنوبا ، قتلوا كثيرا من النوبيين ، وأسروا بعضهم، حتى اضطر كثير من النوبيين إلى الهجرة غربا إلى تلال نوبا فى جنوب كردفان ، وجبل حرزا وكاجا وغيرها فى شمال كردفان(٢٩) . غير أنه يبدو أن العرب ، لم يقابلوا فى تقدمهم جنوبا إلى جهات علوة وغيرها مقاومة عنيفة ، لعجز ملوكها عن دفعهم . وإذا كانوا اضطروا أحيانا إلى استخدام العنف ، فإن الطابع العام لهذه الهجرات ، كان طابعا سلميا . ونجحوا فى تحقيق مآربهم ، لا بحد السيف بل بالاختلاط والتزاوج من بنات النوبيين وملوكهم . ويقول

(٢٦) Triminghn, J. s : Islam in the Sudan, p. 71.

(٢٧) ابن خلدون — نفس المصدر ج ٢ . ص ٢٤٧

(٢٨) Walkely, C. E. J. : «The story of Khartoum», Sudan Notes and Records. Part II, 1935, p. 124.

(٢٩) Sager, J. W. Notes on the history, religion, and customs of the Nuba. Sudan Notes and Records, V, part, III, p. 139

ماك ميكل « إن الدلائل تشير إلى أن النصر ـ باستثناء أقاليم معينة كإقليم جبال النوبة حيث لايزال العرب يمتلكون السهول ، على حين يسكن الزنوج التلال ـ قد تم غالبا بالاتفاق والتزاوج أكثر مما اكتسب بقوة السلاح . ويمكن القول إن الظاهرة الأساسية فى التاريخ الجنسى لشمال السودان ووسطه ، منذ أواخر القرن الثالث عشر الميلادى ، كانت ظاهرة الاندماج التدريجى بين العرب والسود»[٣٠].

لاشك أن لهذا الرأى وجاهته ، فهو يتفق وما ذكره ابن خلدون فى صدد هجرة جهينة إلى بلاد النوبة (علوة) . فيقول ابن خلدون ، « ... ثم انتشرت أحياء العرب من جهينة فى بلادهم ، واستوطنوها ، وملكوها ، وملئوها عبثا وفسادا . وذهب ملوك النوبة (فى علوة) إلى مدافعتهم ، فعجزوا ، ثم صاروا إلى مصانعتهم بالمصاهرة[٣١] » . أما عن اضطراب الأمن فى بلاد النوبة وأوطان البجة حتى الحدود الحبشية ، فكان بسبب النزاع بين القبائل العربية ذاتها لسبب أو لآخر . وتشير بعض الروايات التاريخية ، إلى وجود مثل هذا النزاع ، بين قبيلتى جهينة ورفاعة أواخر القرن الثالث عشر الميلادى قرب عيذاب . ولعل فى إشارة ابن خلدون إلى انقسام العرب على أنفسهم ، مايزيد فهمنا لما صار إليه هذا الجزء من حوض النيل ، أوائل القرن الخامس عشر الميلادى . إذ يقول « واستولى أعراب جهينة على بلادهم (أى النوبيين فى علوة) ، وليس فى طريقه شىء من السياسة الملوكية ، للآفة التى تمنع انقياد بعضهم إلى بعض . فصاروا شيعا لهذا العهد[٣٢] » . أما ماذكره بعض المؤرخين من التجاء بعض العناصر النوبية إلى جبال جنوب ووسط كردفان ودارفور ، هربا من مذابح العرب ، فليس هنالك مايؤيده . والراجح كما يقول ماك ميكل ، أن أولئك المهاجرين ، من بلاد النوبة الشمالية ، عقب سقوط دنقلة ، إلى جهات كردفان ودارفور ، لم يكونوا نوبيين خلصا ، بل كانوا يمثلون خليطا من العرب والنوبيين (النوبيين المستعربين) .

(٣٠) Hamilton, ed : op. cit. p. 59

(٣١) ابن خلدون : نفس المصدر جـ ٥ ـ ص ٤٢٩

(٣٢) المصدر السابق

ومن هؤلاء سكان جبل ميدوب فى شمال دارفور والتنجور والبرقد كذلك(٣٣) .

أما عن الطرق والمسالك التى سلكتها الجماعات العربية المختلفة ، إلى حوض النيل الأوسط ، فمن بينها الطريق الذى يتجه جنوبا بشرق من أسوان وكرسكو عبر أوطان البجة ، الموازية للبحر الأحمر . غير أن أهمية هذا الطريق ، محدودة بالقياس إلى الطرق الأخرى ، لقلة الماء وفقر المرعى . والغالبية العظمى من العرب المهاجرين ، من مصر إلى حوض النيل الأوسط سلكت الطريق الذى يتبع مجرى النهر إلى منطقة دنقلة . وإذا كانت بعض القبائل آثرت أن تستقر على جوانب النهر ، فإن منها من انتقل غربا بطريق وادى القعب ، ونزل الأراضى المحيطة به . وسلك الآخرون الطريق الذى يبدأ من كورتى على طول وادى مقدم ، وعبر الدية على طول وادى الملك إلى كردفان ، حيث تتفرع الهجرات على شكل المروحة . فمنها مايتحرك إلى دارفور ، ومايليها غربا وجنوبا ، ومنها مايسير على جوانب النهر الأعظم ، وعبر صحراء بيوضة وأعلا الأتبرا ، والنيل الأزرق فى اتجاه جنوبى شرقى إلى حدود الحبشة(٣٤) .

وثمة رأى آخر يقول : إن الجماعات العربيـة التى هاجرت من مصر جنوبا إلى السودان ، بطريق النيل ، لم تلازم النهر فى كل جزء منه . بل سلكت طريقاً يتابع النهر من جنوب أسوان إلى كرسكو ، أو قبلها . ثم يخترق صحراء العشمور مباشرة إلى أبو حمد ، حيث يتابع النهر مرة أخرى ويلازمه نحو الجنوب(٣٥) . غير أن هـذا الطريق ، إذا صح وسلكته بعض الجماعات العربية ، فلابد وأن يكون هذا حدث قبل سقوط دنقلة ، أوائل القرن الرابع عشر الميلادى ، لمنع العرب أو غيرهم من غير النوبيين ، التقدم جنوبى الشلال الثانى إلا للتجارة . وبسقوط دنقلة ، انفتح الباب

---

(٣٣) Mack Micheal, H. A. : «Nubian elements in Darfour», Sudan Notes and Records, I, part, I, 1918, p.44.

(٣٤) Hamilton, ed· : op. cit. p. 55.

(٣٥) محمد عوض محمد ـ السودان الشمالى . ص ١٦٠ ـ ١٦١

أمام الجماعات العربية المختلفة للانسياب جنوبا على طول النهر ، الذى كان دائما الطريق الطبيعى للهجرات منذ فجر التاريخ ، وذلك لإحاطته بصحراء قاحلة جرداء . على حين أن واديه الضيق يسمح بمرور القطعان ، حيث يوجد الماء والعشب كذلك[٣٦] .

اشتملت الجماعات العربية التى هاجرت إلى حوض النيل الأوسط على المجموعتين العربيتين : وهما مجموعتا العدنانيين والقحطانيين ، ويمثل العدنانيين فى الوقت الحاضر الكواهلة والمجموعة الجعلية ، وبعض القبائل الصغيرة الأخرى كالرشايدة . ويمثل القحطانيين ، المجموعة الجهنية . إذن متى دخلت هذه الجماعات العربية حوض النيل الأوسط . وكيف تم انتشارها على هذه الصورة ؟ إن أول إشارة إلى بنى كاهل وردت فى رحلة ابن بطوطة إلى عيذاب وسواكن ، فى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى (١٣٥٣ م) . فذكر أن أولاد كاهل يسكنون المنطقة الممتدة من عيذاب إلى سواكن. وهم مختلطون بالبجة عارفون بلسانهم[٣٧] . وليس من المعروف تماما ، متى استقر أولاد كاهل بين البجة . والراجح أن هجرتهم إلى هـــذا الإقليم سابقة لهذا التاريخ (منتصف القرن الرابع عشر الميلادى) ، بدليل معرفتهم لغة البجة .

ويقال إن الكواهلة ينتسبون إلى كاهل بن أسد بن خزيمة . وأنهم جاءوا إلى السودان من جزيرة العرب مباشرة ، عبر البحر الأحمر ، واستقروا فى الإقليم الساحلى ، بين سواكن وعيذاب[٣٨] . غير أنه لا يوجد من الدلائل ما يؤيد هذه الصلة المباشرة بالجزيرة العربية . والأرجح أن هجرة أولاد كاهل كانت عن طريق مصر . إذ تقول روايات العبابدة ، أنهم ينتسبون إلى عباد من نسل الزبير بن العوام . وأن جدهم عبادا قدم من جزيرة العرب إلى مصر ، فى القرن الثالث عشر الميلادى ، ثم مات ودفن

---

(٣٦) Firth, C. M. : The Archaelogical Survey of Nubia, Report 1910-11. p. l.

(٣٧) ابن بطوطة ـ تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار . جـ ١ ص ١٥٤

(٣٨) محمد عوض محمد ـ السودان الشمالى . ص ١٤٣

فى وادى عباد قرب أدفو . وأن عباداً هذا جد كاهل[٣٩] . ومن ذريته أولاد كاهل الذين أشار إليهم ابن بطوطة . واختلط أولاد كاهل بالبجة ، عن طريق المصاهرة ونالوا مراكز الزعامة فيهم . وعلى الرغم من أن كثيراً من الجماعات العربية اختلطت بالبجة ، وتصاهرت معهم ، منذ القرن التاسع الميلادى ، حتى اعتنق كثير منهم الإسلام ، فإن البشاريين والأمرار وبنى عامر ، ينتسبون كذلك إلى كاهل، مما يدعونا إلى الاعتقاد ، أنه كان لبنى كاهل الأثر الأكبر فى نشر الإسلام والثقافة العربية فيهم[٤٠] .

ومن المؤكد أن أولاد كاهل ، عاشوا زمنا فى الأقاليم الساحلية الشرقية ، والمناطق التى تليها ، واشتغلوا بالتجارة وتنظيم القوافل ، بين النيل والبحر الأحمر . ثم انتشروا انتشارا تدريجيا نحو الغرب ، وعرف هؤلاء جميعا باسم الكواهلة . ويمكن تقسيم هذه الحركة كلها إلى مراحل ، تمثل الأولى منها نزولهم فى الساحل واستقرارهم فيه فى القرن الثالث عشر الميلادى، حيث رآهم ابن بطوطة ، مختلطين بالبجة فى منتصف القرن الرابع عشر . وتمثل المرحلة الثانية ، انتقال شُعَب منهم إلى جهات أتبرا والنيل الأزرق ، فى القرن الخامس عشر الميلادى، واحتشدوا فيه . وتمثل المرحلة الثالثة ، انتقال جماعات منهم آتية من الشرق ، ونزحت إلى جهات النيل الأبيض ، ثم إلى كردفان فى أزمنة متعاقبة . وبهذا أضحى للكواهلة أوطان ثلاثة : أولها فى منطقة الأتبرا والنيل الأزرق ، والثانية فى منطقة النيل الأبيض ، والثالثة فى كردفان . والواضح أن معظم هذه الأوطان، التى استقروا فيها، منذ القرن الخامس عشر الميلادى، على الأقل ، كانت جزءاً من مملكة علوة المسيحية وعاصمتها سوبا . غير أنه لم يصلنا شىء عن تاريخ هذه المرحلة من تاريخهم . ومع هذا فإن القليل الذى عرف عن رواياتهم وقصصهم فى وقت متأخر (القرنين السابع عشر والثامن عشر للميلاد) — ولاسيما شعبة النيل الأبيض — يدل على أنهم استعملوا الحيلة أحيانا والحرب أحيانا أخرى ،

(٣٩) Hurray, G. W. : Sons of Ismail, p. 30.

(٤٠) محمد عوض محمد — السودان الشمالى . ص ١٤٤

لتوطيد أقدامهم . وتدل الأمثلة السائرة عند بعض شعبهم ، أنهم اتبعوا سياسة يبدو أنها متأصلة فى بنى كاهل ، وهى أن ينزلوا غرباء ، ويدفعوا لأصحاب البلاد أجراً عن الأراضى التى يحتلونها . حتى إذا كثر عددهم ، ادّعوا الحق فيها ، والتجأوا إلى القوة لإثبات حقهم(٤١) .

أما المجموعة الجعلية ، فتركزت على النيل الأعظم ، من جنوب الخرطوم الحالية ، حتى دنقلة . وتمثل هذه الشقة من النهر المركز الرئيسى ، الذى انتشرت منه فى شعب وفروع نحو البطانة ، والنيل الأزرق ، والنيل الأبيض جنوب الخرطوم ، ونحو الغرب إلى كردفان . وفى الشمال حيث يعيش بعضهم ، مثل الجوابرة والركابية وسط الجماعات النوبية .

وليس من المعروف تماما ، متى بدأت هجرة هـــذه الجماعات ، إلى حوض النيل الأوسط ، ومن الجائز استنادا على بعض الروايات الوطنية ، أن تـكون بدأت هجرتها من مصر ، إلى هذا الإقليم ، منذ حوالى أواخر القرن العاشر الميلادى(٤٢) ، سالـكة طريق العتمور ، لتجنب مملـكة مقرة المسيحية . ثم لحق بها عدد كبير فى العهد المملوكى ، ولا سيما بعد سقوط دنقلة ، سالـكين طريق النيل من الشمال إلى الجنوب ، حيث استقروا فى أوطانهم الحالية ، على النيل الأعظم .

ويقال إن الجعليين ينتسبون إلى إبراهيم الملقب بجعل ، من نسل العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم . وترجع أسباب هذه التسمية إلى أن إبراهيم هذا ، كان جوادا مضيافا . وأنه كان يقول للوطنيين وغيرهم من العرب « إنا جعلناكم منا(٤٣) » ، أى أصبحتم منا .

---

(٤١) المصدر السابق ص ١٥٠ وانظر Reid, J. A. «Some Notes on the Tribes of White Nile Province» Sudan Notes and Records, XIII, part II, pp. 149-210

(٤٢) Mac. Michael, H.A. : A Hist. of the Arabs in the Sudan, II, p. 348.

(٤٣) Ibid : op. cit. I, p. 197.

وتدل هذه العبارة وكثرة ترديدها ، أن التوغل العربي في هذه المنطقة ، كان توغلا سلميا ، مبنيا على التودد إلى السكان الوطنيين . ويقول ماكمايكل إن انضواء كثير من الجماعات العربية ، وغيرها من الوطنيين تحت لوائه ، جعل ذريتهم من هـذا الخليط يدعون جميعا النسب إلى العباس(٤٤) .

والراجح أن الجعليين ، لم يكونوا أول الأمر قبيلة واحدة ، بل مجموعة قبائل ذات نسب متقارب . وهاجرت على دفعات وعلى مدى قرون ، وبسطت نفوذها على هذه الجهات قطرا بعد قطر ، إلى أن نشأت بينهم أسرة قوية ، تولت الزعامة ووحدت القبيلة ، فضلا عن إدماج المجموعة كلها بعضها فى بعض ، وإدماج السكان الأصليين فى المجموعة العربية(٤٥) .

وتشتمل المجموعة الجعلية على عدد كبير من القبائل ، منها الجعليون الأصليون الذين ليس لهم اسم آخر . وتمتـد مواطنهم من خانق سبلوقة إلى الأتبرا ــ والميرفاب إلى شمال الأتبرا ، حول بربر ــ والرباطاب من بربر إلى أبو حمد ــ والمناصير من أبو حمد إلى آخر الشلال الرابع ــ والشايقية ، من الشلال الرابع إلى إقليم الدبة ــ والجوابرة (بنى جابر) ، بين الدناقلة والمحس ــ والركابية ، ويشك فى نسبتهم إلى الجعليين ، وهم من العرب الشماليين ، ومواطنهم وسط بلاد المحس ــ والجموعية وأتباعهم شمال وجنوب أم درمان إلى حدود الـكواهلة ــ والبديرية وبعضهم فى النوبة والبعض الآخر فى كردفان . هـذا فضلًا عن قبائل أخرى مبعثرة بين كردفان والنيل الأبيض والبطانة(٤٦) .

وثمت ظاهرة توجب الالتفات ، وهى أن الإقليم الذى تحتله المجموعة الجعلية على النيل من جنوب الخرطوم حتى دنقلة ، غلبت عليه الصبغة العربية والثقافة العربيـة ،

---

(٤٤) Ibid. S. N. R., I, 1918, p. 13.

(٤٥) محمد عوض محمد ــ نفس المصدر ص ٢١١

(٤٦) المصدر السابق ص ١٦٨

مما يدل على أن هذه الجماعات التى هاجرت إلى هذا الإقليم ، على مدى القرون ، كانت قوية كثيرة العدد ، حضرية لا تميل إلى حياة البداوة . ولهذا فضلت الاستقرار فى مدن على طول النيـــل . على حين أن غيرها من الجماعات التى حافظت على بداوتها ، انتشرت غربا وشرقا وجنوبا فى طلب حاجات الرعى .

والمجموعة العربية الثانية ــ فى حوض النيل الأوسط ، بعد الجعليين من حيث عدد القبائل والبطون ــ هى المجموعة الجهنية التى تدعى الانتساب إلى عبد الله الجهنى . وإذا كان يشك فى صحة هــذه النسبة ، فإن جميع الشواهد تدل على نسبتها إلى قبيلة جهينة القحطانية ، التى عاشت حول ينبع من حوالى ١٣٠٠ سنة . ومن هذا المركز توالت هجراتها إلى مصر . ثم توالت هجراتها جنوبا إلى بلاد النوبة ، وأوطان البجة ، منذ منتصف القرن التاسع الميلادى . وانتشرت جماعات من جهينة فى أوطان البجة حتى وصلت سواكن فى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى . بدليـــل ما أشار إليه المقريزى ، من نشوب نزاع بينها وبين رفاعة ســنة ٦٨١ هـ (١٢٨١ م) ، قرب سواكن[٤٧] . ثم انتشروا جنوبا إلى أرض الحبشة . ولابد أنها كانت من القوة بحيث يقول عنها ابن خلدون ، إنها حاربت الحبشة وأرهقتها حتى هذا الحين ، وهو أواخر القرن الخامس عشر الميلادى .

أما الجماعات الجهنية التى انتقلت إلى أرض مقرة ، فإنها احتشدت فيها ، حتى إذا كان منتصف القرن الرابع عشر ، أخذت فى الانتشار جنوبا متتبعة مواقع الغيث. ويدل هذا على أن جهينة سلــكت فى تقدمها جنوبا مسالك مختلفة ، أهمها الطريق الشرقى عبر أوطان البجة ، والآخر طريق النيــل . ومنها احتلت أقاليم موزعة بين الأتبرا والنيل الأزرق شرقا ، إلى أقاصى دارفور غربا .

وتنقسم القبائل الجهنية فى حوض النيل الأوسط إلى ثلاث مجموعات رئيسية : الأولى وتشمل رفاعة (ومعها أقرباؤها من القواسمة والعبداللاب والمركين وغيرهم) ــ

(٤٧) المقريزى ــ السلوك جـ ١ القسم الثالث ص ٧٠٠

والمحويين ـ والحلويين ـ والعـواصرة ـ والخوالدة ـ والشكرية . ومواطنهم جميعا فى أقاليم النيـل الأزرق والبطانة ، أى فى النصف الشرقى من السودان . وتشتمل المجموعة الثانية على دار حامد ـ وبنى جرار ـ والزيادية ـ والبزعة ـ والشنابلة ـ والمعاليا . ويطلق النسابون على هذه المجموعة اسم فزارة . ويعيشون فى المنطقة الوسطى والشرقية من كردفان . أما المجموعة الثالثة فتشتمل على الدويحية ـ والمسلمية ـ والبقارة ـ والحاميد ـ والماهرية ـ والـكبابيش ـ والمغاربة (الذين جاءوا من المغرب) ـ والحمر . وهم منتشرون فى كردفان ودارفور[٤٨] .

ومن الضرورى أن نشير هنا إلى أن هذا الانتشار الواسع ، لم يتم دفعة واحدة ، بل استغرق عدة قرون . وأن هذه الجماعات استقرت على شكل مجموعات متفرقة تحت سلطان ملوك علوة ، محافظة على نظامها القبلى[٤٩] . ثم اشتد ضغط أعراب جهينة ، على ملوك علوة الذين حاولوا دفعهم أو صدهم ـ على قول ابن خلدون ـ ولما لم يستطيعوا لهم دفعا استمالوهم إليهم بالمصاهرة . فانتقل الملك إلى أبناء جهينة من بنات ملوك علوة ، حسبما يقضى به نظام الوراثة المعروف عند النوبيين جميعا ، « فافترق ملـكهم حتى هذا العهد » : (أى القرن الخامس عشر الميلادى) .

والمعروف أن مملـكة علوة المسيحية تألفت من عدة ممالك صغيرة خاضعة للملك الـكبير فى سوبا . وهذه الممالك الصغيرة ، هى التى انتقل سلطانها ـ دون سلطان الملك الـكبير ـ إلى أبناء جهينة . ويذكر الدمشقى (١٢٥٦ـ١٣٢٧م) أن ملك علوة يسكن مدينة تسمى كدسة[٥٠] ، لا مدينة سوبا العاصمة القديمة . وليس من المستبعد أن يكون ملك علوة ، اضطر أمام ضغط الجماعات العربية المختلفة ـ ومن بينها جهينة ـ إلى نقل مقر ملـكه ، فى القرن الرابع عشر الميلادى ، على الأقل ، إلى مدينة كدسة

(٤٨) محمد عوض محمد ـ نفس المصدر . ص ٢١٢ ، ٢١٤ ، ٢١٥

(٤٩) Morie, L. G. : Histoire de l'Ethiopie, La Nubie, Tome 1ere, p. 413.

(٥٠) الدمشقى ـ كتاب نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ص ٢٦٨

فى الغرب ، واتخذها عاصمة جديدة له وبهذا تكون سوبا فقدت مركزها القديم كعاصمة لمملكة علوة . فاضمحل شأنها وخربت دورها .

وعلى الرغم من انتقال العاصمة من سوبا إلى كدسة، واستيلاء القبائل العربية على معظم أقاليم علوة، فإن هذا لا يعنى سقوط تلك المملكة ، حتى القرن الخامس عشر الميلادى — على الأقل . ذلك بأن العرب لم ينشئوا حكومة مركزية تخضع لها سائر الأقاليم ، لأسباب واضحة ، منها : « عدم انقياد بعضهم إلى بعض ، فصاروا شيعا لهذا[٥١] العهد » .

والواضح تماما أن قبائل جهينة لم تكن الوحيدة التى أفادت من تداعى مملكة علوة وانحلالها . بل شاركتها القبائل العربية الأخرى ، التى استقرت فى جهات متعددة من مملكة علوة . وعلى هذا نشأت فى جوفها عدة إمارات عربية مستقلة . ويذكر القلقشندى أن من بين الإمارات التى نشأت فى أوطان البجة حتى الحدود الحبشية ، وبلاد النوبة كذلك ، ثمانى إمارات ، كان بين أمرائها والسلطنة المملوكية فى مصر مراسلات فى القرنين الثامن والتاسع للهجرة (الرابع عشر والخامس عشر للميلاد)[٥٢] . غير أنه ليس من الواضح تماما إن كانت هذه الإمارات ، يقع بعضها فى إحدى جهات علوة ، أو قريبا منها .

وكيفما كان الأمر ، فالمعروف أنه منذ القرن الخامس عشر الميلادى ، على الأقل، ظهرت عدة ممالك ومشيخات إسلامية فى حوض النيل الأوسط[٥٣] ، وكان لظهورها أثر خطير فى تطور الحياة الاجتماعيـــة والسياسية كذلك ، مما ساعد على زوال بعض الأسس التى قامت عليها الملكية المسيحية فى علوة . ذلك أن اختلاط العرب المهاجرين بالسكان الوطنين ، ساعد على إزالة بعض التقاليد الاجتماعية القديمة ، ولاسيما بعد اختفاء معظم بيوت الإمارة القديمة . فنال الفرد حريته فى ظل التقاليد القبلية العربية،

(٥١) ابن خلدون — نفس المصدر جـ ٥ ص ٤٢٩

(٥٢) القلقشندى — صبح الأعشى جـ ٨ ص ٥ — ٦

(٥٣) نعوم شقير — تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته . جـ ٢ ص ١٠٣—١٠٧

وأضحت الأرض ملكا للجماعة القبلية، بعد أن كانت ملكا خاصا للملك. وصارت الأرض توزع على الجماعة ؛ يقومون على استغلالها ودفع الضريبة عنها لشيخ القبيلة أو زعيم الدار . ويعنى هذا الدور من التطور ـ الانتقال من مرحلة الإقطاع المطلق ، إلى نظام يعطى للفرد نصيبا من جهوده .

وثم تطور آخر ، طرأ على الحياة السياسية . وذلك أن الحكم أضحى وراثيا فى بيت شيخ القبيلة أو الدار . وتكونت من مجموعات القبائل ـ فى الإقليم الذى اتخذته دارا لها ـ زعامات إقليمية تولاها شيخ المشايخ . وهو عادة شيخ أقوى قبيلة فى المجموعة. وعرف باسم الملك أو المانجل(٥٤) . وبهذا اختفى نظام الوراثة القديم ـ أى نظام الأمومة .

ولعل أهم أثر لقيام هذه المشيخات الإسلامية فى حوض النيل الأوسط ، هو ازدياد انتشار الإسلام بين كثير من أهل البلاد . وذلك أنه لما رأت القلة التى بقيت على النصرانية أن لا أمل لها فى قيام حركة للإصلاح فى مجتمعهم ، بسبب انقطاع علاقاتهم الدينية بكنيستهم الكبرى فى الإسكندرية ، كان من الطبيعى أن ينشدوا ما يسد رمقهم الروحى فى الدين الإسلامى ، الذى دل بين أتباعه منهم على قوة وحيوية .

وعلى الرغم من تطور الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية فى هذا الجزء من وادى النيل ، فإن هذا لم يؤد إلى استقرار الأحوال فيه ، بسبب اختلال الأمن ، والنزاع بين القبائل العربية حول مواطن الرعى من ناحية ، وبينها وبين الوطنيين من ناحية أخرى(٥٥) مما أدى إلى تدهور الأحوال الاقتصادية . وزاد الأمور تعقيدا ، تعطيل التجارة بين هذه البلاد وبين مصر ، واختلال سير القوافل بينهما ، بسبب اضطراب الأحوال فى منطقة النوبة الشمالية . ولهذه الأسباب ظهرت الحاجة إلى إنشاء حكومة مركزية تخضع لها شتى الجماعات والقبائل المتنازعة ، لإقرار الأمن وحماية طرق التجارة القديمة ، وتذكر

---

(٥٤) الشاطر بصيلى عبد الجليل ـ معالم تاريخ سودان وادى النيل ص ٥١

(٥٥) نعوم شقير ـ نفس المصدر جـ ٢ ص ٧٢

المراجع الوطنية ، أن عماره دونقس زعيم الفونج ، جمع رجاله فى جبل مويا . ثم تحالف مع عبد الله جماع شيخ عرب القواسمة من جهينة وأصحابه الآخرين ، على إخضاع ملك الفنج وملك الغرب . ودارت فى أربجى ، معركة . سنة ٩١٠هـ (١٥٠٥م) ، انتصر فيها الحليفان ، وفر الفنج إلى جبال فازوغلى وكردفان ، ومن بقى منهم اختلط بالغزاة واعتنق الإسلام(٥٦) .

أما الفونج ، فاختلف المؤرخون حول أصلهم . ورأى البعض أنهم شعبة من الشلك ، مستندين فى هذا على ماذكره بروس الرحالة الإسكتلندى الذى زار سنار سنة ١٧٧٢م(٥٧) ، وقيل إنهم قوم أتوا من الغرب ، ويحتمل أن يكونوا فرعا من الأسرة المالكة فى مملكة برنو(٥٨) . وثم رأى ثالث يقول إنهم هجرة عربية دخلت السودان من الحبشة بطريق النيل الأزرق(٥٩) . أما الفونج أنفسهم ، فيقولون إنهم من ذرارى الأمويين ، الذين لجأوا إلى ملك الحبشة ، فرارا من بنى العباس(٦٠) .

وكيفما كان الطريق الذى سلكه الفونج إلى جزيرة النيل الأزرق ، أو درجة الصحة فى انتمائهم إلى العرب عامة ، أو بنى أمية خاصة ، فوضع الأهمية فى الواقع ، فى هذه المرحلة من تاريخ الفونج ، أن أولئك القوم — سواء هبطوا أرض الجزيرة من الشمال أو الجنوب أو الشرق أو الغرب — عرضوا أنفسهم على قاعدة أنهم عرب ، ووافقهم الناس على نسبتهم هذه ، لاسيما وأنهم لم تكن لهم لغة سوى العربية ، أو يدنيون بدين سوى الإسلام .

وتدل شروط الحلف بين الحليفين، عمارة وعبدالله، أيكون عمارة هو المقدم على زميله

---

(٥٦) أحمد كاتب الشونة — تاريخ ملوك السودان . ص ٢

(٥٧) Arkell, A. J. : «Fung Origins» SNR, XV, II, pp. 208-243

(٥٨) Arkell, A. J. : A Hist. of the Sudan, p. 206.

(٥٩) Chatway. J. O. P. : «Notes on the Hist. of the Fung». SNR. XIII, II, pp. 247-257.

(٦٠) Mac. Michael. H. A. : A Hist. of the Arabs in the Sudan, II, B. A., pp. 36-37

فى الزعامة وحمل لقب ملك . وأن يحل عبد الله محله مدة غيابه . أى أنه كان بمثابة نائب ملك ، وحمل لقب شيخ . وظل هذا النظام ، الذى وضع أساسه الحليفان ، إلى أولادهما من بعدهما .

اتخذ عبد الله مدينه قرى (قرب خانق سبلوقة) مقرا له ، واختط عمارة مدينة سنار ، لتصبح عاصمة مملكة الفونج ، التى امتدت مساحتها من سواكن شرقا إلى النيل الأبيض غربا ، ومن أقصى جبال فازوغلى جنوبا ، إلى الشلال الثالث شمالا أى أنها اشتملت على معظم النوبة العليا (علوة) وقسم كبير من بلاد النوبة الشمالية (مقرة) . وأضحت مدينة أربجى (قرب المسلمية) الحد الفاصل بين نفوذ عبد الله ، الذى امتدت سلطته على جميع الوحدات القبلية حتى حنك (شمال دنقلة) على حين أن سلطة عمارة امتدت على مايلى هذه الأقاليم جنوبا . هذا ولم يباشر ملوك سنار ، أو حلفاؤهم فى قرى سلطاتهم على مملكة الفونج بصفة مباشرة . بل عن طريق المكوك (شيوخ القبائل) ، الذين تمتعوا بشىء من الاستقلال ، على أن يدفعوا الضرائب المقررة لخزانة الملك فى سنار . واحتفظ ملوك سنار وحلفاؤهم فى قرى ، بحق تنصيب الملك أو المانجل ، من بين أفراد أسرة الملك المتوفى(٦١) .

وفى أيام عمارة ، امتد النفوذ العثمانى إلى الشام ومصر . وقام العثمانيون بعملية تأمين الحدود الجنوبية ، على غرار مافعل جميع السابقين . غير أن الامتداد العثمانى ، اهتم بالناحية البحرية ، لأن استيلاء العثمانيين على مصر ، كان مختلطا فى عوامله ودوافعه بما لمصر من سيطرة على تجارة البحر الأحمر . وكانت تلك التجارة مهددة تمام التهديد من ناحية البرتغاليين . وهذا هو تفسير اهتمام العثمانيين بالناحية الجنوبية ، مما جعلهم يقيمون قواعد فى سواكن ومصوع سنة ١٥٢٠ م . وخشى عمارة من هذا الامتداد العثمانى من ناحية البحر . فبعث إلى الباب العالى ، يذكر له أن دولته إسلامية ، وأن رعيته عرب بادية ، لا يملكون ما يصلح لدفع الجزية للسلطان . وعزز عمارة

(61) Jackson, H. C. : Tooth of Fire. p. 90

هـذه الرسالة بكتاب يحوى أنساب قبائل العرب فى مملكته . جمعه له السمرقندى ، أحد علماء سنار . ويقال إن السلطان العثمانى ، اقتنع بصحة ما تضمنته هذه الرسالة ، فعدل عن حرب سنار (٦٢) .

هكذا تم ميلاد هذه الدولة الإسلامية ، أوائل القرن السادس عشر الميلادى، على أنقاض مملكة علوة المسيحية . غير أن المعروف أن هـذه الدولة اشتملت على عناصر مختلفة ، عربية وحامية وشبه زنجية ، فضلا عن خليط منها جميعا . وهى ذات ثقافات مختلفة ومختلطة كذلك . ويصف صاحب الطبقات حال هؤلاء وأولئك جميعا ، عقب تأسيس مملكة الفونج بقوله : « اعلم أن الفونج ملكت أرض النوبة ، وتغلبت عليها أول القرن العاشر ، سنة عشر بعد التسعمائة (١٥٠٥م) ، وخطت مدينة سنار ، ولم تشتهر فى تلك البلاد مدرسة علم ولا قرآن . يقال إن الرجل يطلق المرأة ، ويتزوجها غيره فى نهاره من غير عدة »(٦٣)

تصور هذه الحالة، التى وصفها صاحب الطبقات، نوع الثقافة، التى سادت جهات حوض النيل الأوسط ، أوائل القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) وهى تدل دلالة واضحة، على اختلاط الإسلام بالعقائد والعادات الوطنية فشارك المهاجرون أهل البلاد الأصليين،فى الجهل بقواعد الإسلام.ومرجع هذا فى الغالب، إلى أن الدعوة الإسلامية لم تكن تهتم حتى هذا الوقت بشرح تفاصيل الأسس التى يقوم عليها الإسلام بل كانت هذه الدعوة مجملة مبسطة ، ليسهل على دعاتها ، نشر عقيدتهم بين أهل البلاد من ناحية ، وبسط نفوذهم عليهم من ناحية أخرى . هذا والمعروف أن معظم أولئك المهاجرين ، كانوا على حاله من البداوة ، فنسوا الكثير من تعاليم الدين ، لبعد صلتهم بمواطن العلم والعلماء .

(٦٢) نعوم شقير ــ نفس المصدر . جـ ٢ ص ٧٣ ــ ٧٤

(٦٣) محمد ضيف الله ــ طبقات ود ضيف الله ــ نشر إبراهيم صديق ص ٥

(٦٤) عبد المجيد عابدين ــ دراسات سودانية . ص ٣

غير أن بعض المصادر الوطنية تشير إلى وجود نوع من النشاط الثقافى ، فى بلاد النوبة ، قبل قيام السلطنة السنارية . ومن الأمثلة على هذا ، ما تذكره إحدى الوثائق أن غلام الله بن عايد اليمنى الأصل، هبط أرض دنقلة،أواخر القرن الرابع عشر الميلادى، واستقر فيها ، لأنها كانت فى غاية الضلالة والحيرة ، لافتقارها إلى العلم والعلماء . فعمر غلام الله المساجد ، وعلم أبناءه وتلاميذه من أبناء المسلمين تلاوة القرآن ، وعلمهم كذلك بعض العلوم الأخرى (٦٥) . ثم ظهر فى نواحى أبى حليمة على النيل الأزرق — قبل قيام السلطنة السنارية — أولاد عون السبعة، وتولى أحدهم ويدعى الضرير،منصب القضاء فى زمن الفنج. وليس من المستبعد أن يكون من أحفاد غلام الله من انتقل من دنقلة إلى جهات النيل الأزرق ، أواسط القرن الخامس عشر ، حيث أنشأوا المساجد للعبادة والتدريس .

وإذا استثنينا بعض الحالات التى استخدم فيها العنف لنشر الإسلام بين الجماعات الوثنية ، والقضاء على العادات القديمة ، فإن أساليب الدعوة الإسلامية زمن الفونج ، كانت سلمية خالصة (٦٦). وتميزت هذه المرحلة من تاريخ الدعوة، بظهور طبقة من الفقهاء ورجال الصوفية الذين تعهدوها بأساليب جديدة،قامت أساساعلى شرح تفاصيل الدعوة ومبادئها للناس، ونهيهم عما يتعارض من عاداتهم ومعتقداتهم مع الإسلام . والواضح مما ذكرته بعض المراجع السودانية المختلفة أن هذه الحركة العلمية مصدرها مصر،والحجاز وبلاد المغرب والعراق وغيرها. ويرجع هذا فى الغالب، إلى هجرة أفراد أوأسرات مثقفة من هذه الدول الإسلامية،إلى جهات وادى النيل الأوسط، لينزلوا فى كنف ملوكها رغبة فى عطائهم وإكرامهم ، أو ليعيشوا فى خيراتها وأراضيها الواسعة ، أو لينشروا دين الله والعلم والتصوف ، أو ليتخذوه مأوى جديدا بعد أن ضاقت بهم أوطانهم (٦٧)

---

(٦٥) Mac. Michael, H. A. : op. cit., II, manusc. B.A. p. 36

(٦٦) Jackson, H. C. : op. cit. p. 21.

(٦٧) عبد العزيز عبد المجيد — التربية فى السودان ج ١ ص ٥٥

وفضلا عن هؤلاء فإن كثيرا من أبناء مملكة سنار، كانوا يرحلون إلى مصر لتلقى العلم بالأزهر ، ثم يعودون إلى بلادهم. ومنهم من كان يحج إلى بيت الله الحرام ويأخذ العلم عن أحد فقهائها، أو يأخذ الطريقة عن أحد مشايخ الطرق فى الحجاز. وهؤلاء وأولئك جميعا كان لهم أثر واضح فى نشر الثقافة الإسلامية فى مملكة سنار .

ومن الأمثلة الدالة على هذا ، ماتذكره المراجع بصدد هجرة السناريين إلى مصر لتلقى العلم أوائل القرن السادس عشر الميلادى . ومن بين هؤلاء محمود العركى ، الذى أخذ العلم عن ناصر الدين اللقانى وأخيه شمس الدين. ثم عاد إلى وطنه فأسس سبع عشرة مدرسة ، ما بين أليس (الكدة) والحسانية (توتى) . ويعد محمود العركى أول من طبق أحكام الدين الإسلامى فى هذه المنطقة بتفقيه الناس وأمرهم بالعده(٦٨) .

وامتاز النصف الثانى من القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) بازدهار الثقافة الإسلامية فى مملكة سنار . إذ أن عدداً من السناريين ارتحلوا إلى مصر لطلب العلم بالأزهر . ومن بين هؤلاء أولاد جابر الأربعة . فأكبرهم إبراهيم المعروف بالبولاد ، تفقّه على الشيخ محمد البنوفرى إمام المالكية فى مصر ، وأخذ عنه الفقه والأصول والنحو ، ثم عاد إلى ترنج مسقط رأسه فى أرض الشايقية . وكان أول من درس مختصر خليل فى مملكة الفونج . « وتخرّج على يديه أربعون إنسانا صاروا كلهم أولياء وأقطابا » . ومن إخوة إبراهيم ، عبد الرحمن الذى نهج نهجه ورحل إلى الأزهر وتتلمذ على الشيخ البنوفرى . ومنهم من تردد على مصر من وقت إلى آخر، للاتصال بعلمائها كما فعل الأخ الثالث إسماعيل ، الذى أجازه الشيخ البنوفرى كذلك . وغدت بلاد الشايقية ، مقصد الطلاب من أنحاء مختلفة فى مملكة الفونج فى منتصف القرن السادس عشر الميلادى(٦٩) .

وحوالى سنة ٩٥٠ هـ (١٥٤٣ م) قدم من مصر الشيخ محمد القناوى المصرى

(٦٨) طبقات ود ضيف الله . ص ٥ ، ١٦٣

(٦٩) طبقات ود ضيف الله ص ٦

الأزهرى الثقافة ، تلميذ الشيخين سالم السنهورى ، ويوسف بن عبد الباقى الزرقانى - ودخل بربر وأربجى وسنار ، غير أنه فضل سكنى بربر ، وبنى بها مسجداً لتدريس الرسالة والعقائد والنحو وسائر العلوم ، وولى القضاء فباشره بعفة ونزاهة . وتخرّج على يديه عدد من أبناء بربر وغيرهم ، منهم حفيده الشيخ الضوى المصرى ، والشيخ محمد بن عيسى سوار الذهب من أهل دنقلة(٧٠) .

ومن العلماء المصريين ، الذين قدموا إلى مملكة سنار فى النصف الثانى من القرن العاشر الهجرى كذلك ، الشيخ محمد بن على بن قرم الكيمانى المصرى . وهو شافعى المذهب ، وتلميذ الخطيب الشربينى . فأقام فى بربر ودرس المذهب الشافعى فى بربر وأربجى . ومن تلاميذه ابنة الشيخ الشكاك والقاضى دُشين قاضى أربجى ، فى عهد الشيخ عجيب المانجلك وغيرهم كثير(٧١) .

ثم وفدمن الحجاز أحدأئمة الصوفية ، ويدعى تاج الدين البهارى البغدادى ، وهو خليفة الطريقة القادرية الجيلانية . واستقر تاج الدين فى أرض الجزيرة سبع سنين تمكن فيها من إدخال الطريقة الجيلانية ، بعد تسليك خمسة من المريدين ، منهم الشيخ محمد الهميم . ثم تولى هؤلاء تسليك غيرهم ، بعد عودة شيخهم إلى الحجاز(٧٢) .

وفى هذا الوقت أيضا (أى النصف الثانى من القرن العاشر الهجرى) قدم التلمسانى المغربى ، على الشيخ محمد بن عيسى سوار الذهب وسلكه طريق القوم ، وعلمه علم الكلام ، وعلوم القرآن من تجويد وروايات ونحوها . وانتشر علم التجويد والتوحيد فى مملكة سنار . وممن أخذ عنه عبد الله الأغبش من بربر(٧٣) .

وتمتع أولئك المشايخ بنفوذ واسع فى مملكة سنار. فأقطعوا الإقطاعات الواسعة،

(٧٠) المصدر السابق ص ١٦٥
(٧١) المصدر السابق ص ١٦٩
(٧٢) المصدر السابق ص ٤٤ ، ٤٥ ، ٣٥
(٧٣) المصدر السابق ص ٥

ولم يرد لهم طلب عند الحكام والملوك ، ومن استجار بهم فهو آمن غضب السلطان ، مما شجع أولئك المشايخ على الإقامة ونشر الدين والثقافة الإسلامية فى هذه البلاد .

والواضح من دراسة حياة أولئك الرواد ، أن مصر هى المصدر الأساسى للثقافة الإسلامية ، التى ظهرت فى مملكة سنار فى القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) . ومن الملحوظ هنا أن الأثر المصرى يتميز عن غيره بأنه ذو طابع علمى فى معظمه . فإن أولئك الذين أخذوا عن علماء الأزهر « بالمباشرة أو الواسطة » ، اتجهوا إلى تعليم الناس الفقه والتوحيد وغيرها من العلوم . على حين أن الطابع الصوفى ، أو الصوفى العلمى معا كان غالبا على تعليم الثقافة الحجازية والمغربية والعراقية(٧٤) .

ومن الملحوظ هنا كذلك ، أن الطابع العلمى الذى تأثر به السناريون ، اتجه إلى حصر الانتباه فى العلوم النقلية ، التى سادت العالم الإسلامى منذ القرن العاشر الهجرى ، بعد أن تغيرت أساليب التربية الإسلامية على يد الأتراك وغيرهم ، وانصراف العلماء إلى التأليف والتحرير ، لا إلى الاجتهاد والتخريج ، وميل معظم علماء هذا العصر إلى اختصار ينقصه الشرح والتعليق(٧٥) .

أما عن المذاهب الدينية ، فالسناريون غلب عليهم مذهب مالك ، بسبب اتصالهم بأهل صعيد مصر ، الذين غلب عليهم هذا المذهب . وأما الدراسة العلمية لهذا المذهب ، فقد ظلت مزدهرة بالأزهر إلى جانب المذاهب الأخرى . وانتقلت دراستها إلى مملكة سنار على يد خريجى الأزهر سناريين ومصريين ، مثل الشيخ إبراهيم البولاد والشيخ محمد القناوى المصرى وغيرهما .

وعلى الرغم من أن انتشار المذهب الشافعى كان محدوداً ، إلا أن القليل من علماء الشافعية الذين تخرجوا فى الأزهر وتلاميذهم كان لهم أثر واضح فى نشر تعاليم الإسلام.

---

(٧٤) عبد المجيد عابدين — تاريخ الثقافة العربية فى السودان ص ٥٦ — ٥٧

(٧٥) عبد العزيز عبد المجيد — التربية فى السودان . ج ١ ص ٥٢

ومن هؤلاء محمد بن قرم الـكيانى المصرى ، وتلاميذه عبد الله العركى والقاضى دشين الشافعى قاضى أربجى وعبد الرحمن ولد حمدتو والشيخ إبراهيم الفرضى وغيرهم(٧٦) .

وانتشرت علوم القرآن فى مملـكة سنار ، أواخر القرن العاشر الهجرى . ويقال إن الشيخ محمد سوار الذهب من دنقلة ، تلقى علوم القرآن على التلمسانى المغربى ، كما تلقاها من قبل، على الشيخ محمد القناوى المصرى فى بربر . وليس من المعروف تماما أيهما كان أقوى أثراً . غير أن انتشار قراءة ورش فى دنقلة ، وأبى عمرو فى معظم جهات مملـكة سنار — وهما القراءتان الشائعتان فى بلاد المغرب — يدل على تأثر السناريين ببلاد المغرب فى علوم القرآن أكثر من تأثرهم بمصر .

وإلى جانب الثقافة العلمية ، ظهرت فى مملـكة سنار ، منذ القرن العاشر الهجرى، بوادر ثقافة صوفية كذلك ، وهى الثقافة التى كانت شائعة ؛ ذلك الحين ، فى بلاد العالم الإسلامى مثل الحجاز والعراق ومصر وبلاد المغرب . ومنها تسربت إلى مملـكة سنار على يد بعض الدعاة أو المواطنين الذين اتصلوا بمنابعها . وللسناريين صلات غير منقطعة بالحجاز ، ولاسيا فى موسم الحج، لطلب العلم على علماء الحرمين . ثم إن بعض قادة الصوفية فى الحجاز وبلاد المغرب قدموا إلى مملـكة سنار ، حيث طاب لهم فيها المقام ، لترحيب السناريين بهم وتشجيع ملوك الفونج لهم . ولقيت الطرق الصوفية فى مملـكة سنار منبتا خصبا ، ويرجع هذا فى الغالب ، إلى أن كثيراً من المشايخ أظهروا من الصفات ، ما جعل الناس يتهافتون عليهم ويتخذونهم ملاذا فى ساعات الضيق والعسرة . كما أن الحروب والانقسامات الداخلية — التى سبقت عصر الفونج — أورثت فى نفوس السناريين فى هـذا العهد ، رغبة شديدة فى حياة مستقرة ، مما دعاهم إلى الاستجابة لدعوة أولئك المشايخ ، الذين ظهروا مع قيام مملـكة الفونج للانتظام فى سلك العبادة .

(٧٦) طبقات ود ضيف الله ، ص ١٦٩

ويقال إن الطريقة الشاذلية ، دخلت السودان قبل قيام مملكة الفونج ، على يد الشريف حمد أبى دنانة سنة ١٤٤٥ م . ثم رسخت دعائمها زمن الفونج ، على يد الشيخ خوجلى عبدالرحمن المتوفى سنة ١٧٤٣م ، والذى كان أول أمره قادريا ثم تحوّل شاذليا(٧٧) .

ويظهر أن هاتين الطريقتين، عند ما دخلتا بلاد سنار ، لم يكن لهما هيئة مركزية منظمة ، تضم الشيخ الأكبر وخلفاءه ومريديه ، بل كانت الطريقة تسلك على يد شيوخ كثيرين منتشرين فى أنحاء البلاد ، مستقلين عن بعضهم ، إلا من حيث الرباط الروحى ، الذى يربطهم جميعاً باعتبارهم من أتباع طريقة واحدة . ولم يدخل التنظيم على هذه الطرق إلا فى القرن التاسع عشر الميلادى .

ومن الملحوظ هنا ، أن بعض الفقهاء السناريين ، أصبحوا شيوخا صوفية ، ومن هؤلاء الشيخ عبد الله العركى . على أن أغلب رجال الصوفية – فى هذا العهد – (القرن العاشر الهجرى) كان من غير العلماء . ومن هؤلاء خليل بن على الصاروى ، الذى كان فى أول أمره خمارا شرابا(٧٨) .ومنهم الشيخ محمد الهميم، الذى كان من أكبر قادة الصوفية فى مملكة سنار ، « مع كونه أميا لم يقرأ إلا لغاية الزلزلة »(٧٩) . وقد يكون بعض السبب فى هذا راجعا إلى أن الناس فى هذا الوقت (القرن العاشر الهجرى) ، كانوا لا يزالون فى مستوى ثقافى لم يتوافر فيه التعرف على حقيقة التعاليم الإسلامية ، وتدبر أصول الدين ، مما جعلهم لا يميزون بين ما هو من أصل الدين وما هو بدعة ، فيسهل التأثير فيهم ، ويتملكهم كل شىء طريف غير مألوف ، كالتحدث بالغيب والكرامات ، وادعاء الطب الروحانى ، ولا سيما إذا جاء هذا عن طريق الدين .

وكيفما كان الأمر ، فإن أثر الطرق الصوفية يبدو واضحا فى التقريب بين الجماعات

---

(٧٧) Trimingham, J. S. op. cit. pp. 196-197

(٧٨) طبقات ود ضيف الله،ص ٨٤

(٧٩) المصدر السابق ص ١٥٠

الجنسية ، لأنها تعمل على إضعاف العصبية القبلية ، وإيجاد نوع من التعاون بين الجماعات المختلفة[٨٠] . من ذلك أن التجمع الصوفى كان نواته شيخ الطريقة ، يجتمع إليه الناس ويصبحون تحت لواء الشيخ طريقة واحـدة ، تجمع الدعوة شملهم على اختلاف قبائلهم وسلالاتهم .

وهكذا يمكن القول ، إن القرن السادس عشر الميلادى ، كان عهد انتقال من المسيحية المتهدمة ، إلى الإسلام البدوى، على أيدى جماعة من العلماء الذين وفدوا من البلاد المجاورة ، أو من الوطنيين الذين أخذوا العلم عن أولئك العلماء الوافدين ، وإلى هؤلاء وأولئك جميعاً يرجع الفضـل فى وضع الأسس التى قامت عليها النهضة العلمية والصوفية ، التى ازدهرت فى مملـكة سنار منذ القرن السابع عشر الميلادى .

مصطفى محمد مسعد

---

(٨٠) محمد عوض محمد ـ السودان الشمالى ص ١٧ــ١٨

دولة حبشية فى اليمن

دولة بنى نجاح
(٤١٢ ـ ٥٥٤ هـ) (١٠٢١ ـ ١١٥٩ م)

تواجه الحبشة الجزيرة العربيـــة ولا يفصلهما إلا البحر الأحمر الهادئ الضيق ، ويعمن فى الضيق حتى ليكاد شاطئاه يلتقيان كلما اتجهنا نحو الجنوب ؛ فمن الطبيعى أن تقوم العلاقات بينهما منـــذ أقدم الأزمنة . طالما عرف ساكنو الشواطئ الملاحة البحرية وأتقنوها . وتذكر الأساطير الحبشية قيام حضارة فى الحبشة تجمع بينها وبين اليمن ونحن وإن كنا لا نستطيع تحقيق هذه الأساطير على وجه يبعث على الطمأنينة إلا أنها تدل على قيام هذه العلاقة . وقد اتخذت هذه العلاقة مظاهر شتى مثل الغزو ، والصداقة والتجارة والهجرة .

ولدينا من النقوش الكثيرة ما يسجل هذه الفترات والعهود التى كانت فيها بلاد اليمن والحجاز عرضة لغزوات أثيوبية متوالية(١) نقرأ خلالها لأول مرة اسم حَبَشان الذين ربمـا يكون قد تسلسلوا من حبشة المذكورين فى بعض النصوص الهيروغليفية ويبدو أنهم كانوا مستقرين فى غرب اليمن قرب جبل حبشى . وكان شعبا قويا وربما يكون هو الذى هاجر فيما بعد إلى الحبشة ونقل إليها لسانها وحضارتها .

كما يذكر لنا السائح البيزنطى كوزموس Cosmos أنه شاهد فى أكسوم فى القرن الخامس الميلادى نقشا طويلا بالإغريقية محفورا على عرش من الحجر مهدى إلى آلهة مدينة أدوليس يذكر فيـه صاحبه أنه غزا شعوب الجعز والأحابى وغيرها وكلها تقطن أجزاء جبلية صعبة ترويها مياه حارة . ثم أرسل جيشاً آخر إلى أرحابيتس Arrhabites التى تسكن الناحية الأخرى من البحر وأخضع ملوكهم وأرغمهم على

(١) L'Empire du Prêtre-Jean T. I. p. 44

دفع الجزية . ولكنه ترك لهم أرضهم[٢] كما ترك لهم حرية الملاحة وتسيير القوافل ومن أجل ذلك قدم الشكر إلى الإله العظيم أرس الذى وهبه النصر فجعله ينتصر بنفسه على الشعوب التى تسكن الغرب كما انتصر قواده بالحملات الأخرى التى أرسلها بواسطة البحر . ومن أجل هـذه الحملات الأخيرة يقدم الشكر إلى الإله بوزيدون إله البحر الذى كتب لسفنه السلامة .

كما تدلنا النقوش التى عثرت عليها البعثة الألمانية فى أكسوم سنة ١٩٠٥ على قيام الملك عيزانا فى سنة ٣٢٥ م بحملاته المتعددة التى كان من نتائجها أن وصف هذا الملك نفسه بأنه (عيزانا ملك أكسوم وحمير وريدان وأثيوبيا وسبأ وصالحين وسيامو وبيجا وكاسو ، ملك الملوك وابن الإله غير المقهور أرس)[٣] وكانت حملته إلى جزيرة العرب أولى هذه الحملات. وقد كتب هذا النقش باللغات الحبشية والإغريقية والسبأية. وكتابة النص بالحبشية طبيعى فهى لغته، والأغريقية تدل على اهتمامه بإيصال هذا النص إلى العالم الإغريقى الذى كان يتصل به عن طريق أدوليس التى كانت ميناءه على البحر الأحمر ويتردد عليها كثير من تجار الإغريق ، أما السبأية فهى تدل على كثرة رعاياه فى الناحية الأخرى من البحر الأحمر وهم الذين يعنيه أن يقرأوا هـذا النص كذلك . وإنهم كانوا يكوّنون جزءًا من رعاياه لا يقل من حيث الأهمية عن الجزء الحبشى . كما نجد النص السبأى يزيد عن النصين الحبشى والاغريقى فقرة يلعن فيها الملك من يحطم ما أقامه ويبارك من يحترمها . كما يرجو من الناس أن يقصُّوا أخبار ما فعله وكذلك أخبار عظمة أكسوم[٤] .

ويبـدو أن عيزانا هذا لم يكن مُهمًّا فى التاريخ الأثيوبى بسبب هذه الغزوات وبسبب إدخاله الديانة المسيحية على المذهب السكندرى إلى الحبشة ممـا جعل الامبراطور البيزنطى قسطنطين الثانى يحاول تحويله عن هذا المذهب الأريوسى

(2) Ibid 116-118

(3) Budge; History of Ethiopia VI. p. 245

(4) Ibid p. 246

فأرسل إليه تيوفيل Theofile الهندى يحمل كتاباً يطلب منه هذا الطلب ويصف له اتناسيوس Athenasius بطريرك الاسكندرية بأنه مضلل لايجد له مكانا يستقر فيه. ولكن يبدو أن هذه المحاولة انتهت بالفشل ولم يتنازل غيزانا بالرد عليه ، ولكن هذا لم يمنع قسطنطين من أن يحتفظ بعلاقاته الحسنة مع الحبشة بسبب موقعها من اليمن ذات الأهمية الاستراتيجية بسبب الحروب الرومية الفارسية التى كانت ناشبة آنذاك.

وليس لدينا فى هـذا النقش ما يفيد إقامة حكم حبشى هناك يستند على حكام من الأحباش . بل كل ما عرفناه من هذا النص أن أجزاء من بلاد اليمن خضعت لملوك أكسوم فكوّنت جزءًا من امبراطوريته وإن لم تستمر خاضعة له إلا إلى أكثر من سنة ٣٧٩م حين استطاع ملكى كرب أن يستقل باليمن بعيداً عن النفوذ الحبشى (٥) على أن الحكام الأحباش ظهروا فى الغزوة الحبشية التالية التى قام بها الملك الأصبها فى سنة ٥٢٤م ثم الغزوة التى تلتها أيضا التى شنها الملك كالب لنصرة مسيحيى نجران حين اضطهدهم ذو نواس فقدم هـذا الملك وهزم ذا نواس وأقام أبرهة نائباً عنه وكان ذلك فى بداية القرن السادس الميلادى (٦) وقد ظل النفوذ الحبشى فى اليمن وظل الولاة الأحباش يحكمون هذا الجزء من الامبراطورية الحبشية إلى أن استنجد اليمنيون بالفرس حين فشل الأحباش فى غزو الحجاز فجاء الغزو الفارسى سنة ٥٧٥ م ووضع حدًّا للحكم الحبشى ، وقد أفاضت المصادر العربية فى ذكر هذه الغزوة .

أما علاقات الصداقة فقـد بدأت منذ أقدم الأزمنة أيضا فقد أرسل الأمبراطور جستنيان إلى كل من الملك كالب وأبرهة أمير اليمن مقترحا تكوين حلف يقف أمام الخطر الفارسى (٧) وكان ذلك عشية ظهور الإسـلام ، وعند ما ظهر الإسلام وأنزل المشركون الأذى بالمسلمين نصح النبى أنصاره بالهجرة إلى الحبشة (٨) لأن بهـا ملـكا

---

(٥) L'Empire du Prêtre-Jean T. I. p. 245

(٦) L,Empire du Prêtre-Jean T. I. p. 464

(٧) L'Empire du Prêtre-Jean T. I. p. 164

(٨) الكامل فى التاريخ لابن الأثير جـ٢ ص ٢٩

لا يظلم عنده أحد . وهاجر المسلمون إلى الحبشة هجرتين قادهما فيهما عثمان بن عفان وزوجتاه ابنتا رسـول الله . ولقى المسلمون كل ترحيب من النجاشى الذى رفض تسليمهما فى المرتين وإعادتهما[٩] وإن احتواء وفدى الهجرة على عدد من النساء يدل على تأكد المسلمين من موافقة الرحلة لهن ولم يكن هذا التأكد إلا نتيجة تردد المسلمين على هذا الطريق أكثر من مرة ووثوقهم من شعور الصداقة والود الذى سوف يلقونه فى الحبشة ساعة وصولهم . وكان هذا الشعور صحيحا إذ مكث المهاجرون فى الحبشة يلقون كل ترحاب طيلة ست عشرة سنة . ومن أجل هذا ظلت العلاقات الحسنة تربط كلا من النجاشى والنبى طيلة حياتهما . فتبادلا الهدايا أكثر من مرة[١٠] وكان النبى يحمل كثيراً من الود بل من الحب للأحباش ويؤكد أن من أدخل بيته حبشيا أو حبشية أدخل الله فى بيته رزقا[١١] .

وإذا كان المسلمون قد قاموا بعد ذلك وبدأوا حركة فتوحهم الـكبرى فأطاحوا بعرش كسرى وقضوا على الامبراطورية الفارسية . واقتطعوا من الدولة الرومانية أجزاء كبيرة كالشام ومصر وشمال إفريقية حتى انتهوا إلى المحيط الأطلسى فإنهم لم يقربوا الحبشة غازين ولا فاتحين . رغم قرب هذه البلاد منهم ورغم ما بها من مظاهر الإغراء كالمرعى الغنى والتربة الخصبة والثروة الدافقة .

ولـكن إذا كان المسلمون لم يقصدوا الحبشة غازين أو فاتحين فإنهم قصدوها ودخلوها دخولا سلميا حيث استقروا وعملوا وظهر فى تاريخ الدولة الإسلامية الجديدة من العوامل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ما دفع بالمسلمين إلى هـذه البلاد يتخذون منها مقاما ومستقراً . فقد أبت كثير من القبائل العربية غير القرشية أن تخضع لسيادة قريش عليها . ورأت فى هذه الخلافة الإسلامية الجديدة مظهراً من مظاهر

---

(٩) ابن جرير الطبرى ج ٢ ص

(١٠) الجواهر الحسان ص ٩٦

(١١) أعلام الطراز المنقوش فى محاسن الحبوش ورقة ٥ ــ ١

هذه السيادة[١٢] فأخذت طريقها نحو بلاد لا تكون خاضعة لهذه السلطة الجديدة التى حولتها قريش إلى مافيه عصبيتها ومنافعها. كما أبى الشيعة أن يخضعوا لسلطان الأمويين بعد أن أشاعت مذبحة كربلاء بينهم شعوراً بالفزع والهلع[١٣] كما أشاع الأمويون مثل هذا الشعور فى أهل الحجاز بعد نجاحها فى سحق ثورة ابن الزبير حين قتلوا أغلب من بقى فيه من المهاجرين والأنصار وانتهكوا حرمة الأماكن المقدسة[١٤] ففر أهل المدينة لينجوا بحياتهم إلى الأقطار النائية. كما كان إهمال الأمويين للحجاز ورميهم لأهله بكل طاغية جبار يمعن فى إذلال القوم[١٥] داعيا لإسراع الخراب إلى هذه البلاد[١٦] التى كانت مهبطا للوحى ومصدراً للنور. وسكن هؤلاء القادمون أقرب الأجزاء إلى بلادهم وهى الأجزاء الشرقية من الحبشة حتى كونوا على مدى الزمن شريطا من البلاد الإسلامية يشتغل أهلها فيما يعود عليهم بالنفع والخير.

وإذا كان كثيرون من هؤلاء المهاجرين قد احترفوا الرعى كما كانوا يحترفونه فى شبه الجزيرة أو أقبلوا على الاشتغال بالزراعة إلا أن أكثرهم قد أقبل على احتراف التجارة. ولم يكن هذا جديداً على هذا الركن من العالم. فقد كانت العلاقات التجارية بين جزيرة العرب والحبشة أو بين هذه الأخيرة والعالم الخارجى عن طريق شبه الجزيرة العربية منتعشة منذ القدم. فقد كانت بلاد بنت، بالنسبة لسكان مصر، الأرض المقدسة التى ترى أشجارها مرسومة على جدران هياكل مصر. كما كان البطالمة يرسلون السفن الضخمة لتحمل الأفيال الحية من أجل احتفالاتهم فى ممفيس. وظلت صناعة العاج صناعة نامية فى الاسكندرية لعصور كثيرة قبل الميلاد واستوردتها منهم الدولة البيزنطية والعالم الهلينى كله[١٧] حتى إذا أنشئت مدينة أدوليس على الساحل جاءتها

(١٢) الفتنة الكبرى ج ١ ص ٣٧
(١٣) تاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص ٤٢١
(١٤) الكامل فى التاريخ ج ٤ ص ٥٦
(١٥) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٢٣
(١٦) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٣٠٠
(١٧) L'Empire du Prêtre-Jean T. I. p. 100

جموع الأحباش يحملون تجارتهم من العاج والحنطة والجلود والقرود والرقيق يبادلون بها الملابس والأقمشة البيضاء والملونة التى يحملها إليها التجار العرب آتين من الشام وفارس. وكانت تجارة الرقيق تجد سوقا رائجة فى الجزيرة العربية وكذلك فى الدولتين الفارسية والرومية وانحدر التجار جنوبا على طول الشاطئ الإفريقى حيث وجدوا خليجا مملوءا بالجزر كان يطلق على مدخله اسم باب إزيس الذى أخذ يتحرف شيئاً فشيئاً حتى صار عصب[١٨] وكانت قوافل العرب قبل الإسلام تسافر رحلتى الصيف والشتاء لتحمل إلى اليمن منتجات الشام من الحرير والملابس الحريرية والقطيفة المطرزة بالذهب وكذلك الرخام وتبادل بها منتجات اليمن والحبشة والهند من الزمرد والذهب والعاج والحبوب[١٩] على أن أكثر مواد التجارة تداولا بين التجار المسلمين الذين سكنوا الحبشة بعد الإسلام كان الرقيق. فقد اتخذ هؤلاء التجار منه حرسا لقوافلهم خلال سفرها الطويل. ويبدو أن إقبال الخلفاء والوزراء والأمراء والأغنياء على اقتناء الرقيق وصل حداً عاليا منذ قيام الدولة العباسية. فقد كان فى بغداد شارع يسمى شارع الرقيق[٢٠] وكان هذا الرقيق أنواعا مختلفة منهم السود من السودان والحبشة ومنهم البيض من الأتراك والصقالبة[٢١] ويبدو أن الإقبال على الحبشيات لم يكن ضعيفاً رغم ما عرف عنهن من عدم إتقانهن للرقص والغناء لأنهن كن قويات الخلق وموضع الثقة وأهلا للاعتماد عليهن[٢٢] ولكنا نقرأ أنه كان من بين هذا الرقيق رجال من الأحباش أسرف حكام هذه الأجزاء فى طلبهم من أجل استخدامهم فى القتال. فقد كوّن أحمد بن طولون كما كوّن محمد بن طفج الأخشيد فى مصر فرقاً كاملة منهم. بل اتخذ أحدهم مؤدباً لولده لم يلبث أن أصبح

(١٨) L'Empire du Prêtre-Jean T. I. p. 103

(١٩) Ibid p. 172

(٢٠) ضحى الإسلام جـ ١ ص ٨٥

(٢١) نفس المصدر ص ٨٧

(٢٢) نفس المصدر ص ٨٨

صاحب الكلمة العليا فى مصر كلها هو كافور الإخشيدى . وكذلك فعلت الدولة الفاطمية ولم يكن شأنهم فى اليمن أقل من ذلك بل ربما كان أكثر فقد اتخذ منهم بنو زياد ولاة اليمن من قبل العباسيين جنداً اعتمدوا عليهم حين فتحوا حضرموت والشحر وعدن والتهايم ومخلاف جعفر والمعافر وصنعاء ونجران بل وصلت فتوحهم إلى الحجاز أيضا[٢٣] بل استطاعوا أن يكونوا دولة موطدة الأركان كان الجند الحبشى عدتها . ويبدو أن تجار الرقيق قد وزعوا أعمالهم توزيعا عادلا عاد عليهم بأكبر النفع فقد كانوا يتصيدون من الحبشة والسودان الرجال والنساء . فيرسلون بالأولين إلى اليمن[٢٤] ومصر بينما يرسلون بالأخريات إلى أسواق بغداد . ووصل بعض الأولين إلى مراكز عالية . لما اشتهر عنهم من أمانة وشجاعة فائقة فقد قال فيهم الشاعر العربى :

لو لم يكن فى الحسان الحبش نافلة ‏ ‏ ‏ إلا شجاعتهم والعزم والبـــاس
لكان ذلك كاف فى محبتهم ‏ ‏ ‏ فكيف ذاك وهم من أجمل الناس[٢٥]

ولكن ليس معنى ذلك انعدام وجود النساء الحبشيات فى اليمن أو الرجال فى العراق بل كن قلة فى اليمن ومصر بالقياس إلى الرجال وعكس ذلك فى العراق . فقد اتخذ أبو الجيش إسحق بن إبراهيم بن زياد وزيرا له عبدا حبشيا يسمى رشيدا . حتى إذا مات أبو الجيش ترك ولدا صغيرا هو عبد الله تولت كفالته أخته هند وأشركت معها فى تربيته رشيدا وزير أبيها . ولكن هذا الأخير لم يلبث أن مات فورثه فى منصبه ابنه حسين وكان عفيفا شهما حسن السيرة تولى كثيرا من الأعمال فى حياة أبيه[٢٦] فظل موضع الثقة والتقدير من هند وأخيها حتى كان تصريف أمور الدولة كلها فى يده فكان هو الدافع الوحيد عن مملكة بنى زياد[٢٧] فقاد الحملات إلى كل من خرج

(٢٣) تاريخ اليمن ص ٩٣
(٢٤) تاريخ اليمن ص ١١٦
(٢٥) أعلام الطراز المنقوش ورقة ٥
(٢٦) اللطايف السنية ورقة ١١ ب
(٢٧) المختار من تاريخ ثغر عدن ورقة ٢٧٥

عن طاعتهم حتى دانوا جميعا وحملوا إليهم الخراج . وإذ مات الحسين كان عبد الله ابن زياد قد مات أيضا وترك ولدا صغيرا كفلته عمته وأشركت معها فى الحكم عبدا حبشيا آخر من عبيد الحسين هو مرجان ومن ذلك ندرك مبلغ ماوصل إليه الرقيق الأحباش فى اليمن من مكانة ونفوذ حتى أصبح بقاء الدولة أوخرابها بيدهم وحدهم .

وكان الشيعة من أنصار على بن أبى طالب قد لقوا منذ أيام كربلاء من كل من الدولتين الأموية والعباسية كل اضطهاد فقد أمعن خلفاء كل من الدولتين فى تتبعهم وإنزال الأذى بهم حتى لقد لجأوا إلى الفرار إلى الأقطار البعيدة فلقى شمال إفريقيا[٢٨] كما لقيت شواطئ شرق إفريقيا[٢٩] واليمن[٣٠] كثيرين منهم أخذوا فى نشر مذهبهم والتف الناس حولهم فى اليمن ينصرونهم . يدفعهم إلى ذلك إيمان بهذا المذهب من تأثير الثقافة الفارسية التى كانت منتشرة هناك منذ أيام الغزو الفارسى من ناحية . وشعورهم بإهمال الدولة الإسلامية لبلادهم واهتمام الخلفاء بجمع المال منهم[٣١] أكثر من اهتمامهم بإنماء موارد البلاد والنظر إلى مافيه مصلحة الأهالى من ناحية أخرى . فظهر فى اليمن أئمة كثيرون مثل القاسم بن على الزيدى . وجعفر بن الإمام . ثم ابنه هلال بن جعفر . وكذلك قاسم بن حسين الزيدى . ثم محمد بن القاسم وأخوه الحسن بن القاسم وأخوه الآخر حسين بن القاسم . ويوسف بن يحيى . وكلهم يتخذ الدعاة ويدعو إلى نفسه فى ناحية من نواحى اليمن مما أشاع فى البلاد جوا من الاضطراب[٣٢] وزاد من هذا الاضطراب ما كان عليه ولاة العباسيين من بنى زياد من كبر السن والضعف . فقد استطال حكم إبراهيم بن محمد بن زياد إلى قرابة أربعين سنة كما استطال حكم ولده إسحق إلى أكثر من ثمانين سنة خرج فى أثنائها الولاة على أسيادهم وانضموا إلى الشيعة كما فعل عبدالله

---

(٢٨) ابن خلدون ج ٦، ٧

(٢٩) الدعوة إلى الإسلام ص ١٣٥

(٣٠) اللطايف السنية ورقة ١١ ب

(٣١) قرة العيون ورقة ٣٨ ـــ ا

(٣٢) المختار من تاريخ ثغر عدن ورقة ٢٧٩ ا

ابن قحطان بن يعفر أمير صنعاء سنة ٣٧٩هـ حتى إذا أرسل إليه أبو الجيش اسحق ابن إبراهيم جيشا يرده إلى الطاعة أوقع به الهزيمة ثم دخل زبيد حاضرة بنى زياد وقطع الخطبة للخليفة العباسى وأقامها للعزيز بالله الفاطمى(٣٣) وبذلك أصبحت القوة السياسية تساند الدعوة الدينية . وأنصارها يزدادون عددا ويقابل ذلك ازدياد نشاط دعاة الشيعة بعد أن زال عنهم التضبيق الذى كانوا يلاقونه من بنى زياد . فوجد الموالى من الأحباش أن الإغضاء على هذه الحالة فيه ضياع لسلطانهم خصوصا وقد مات القائم من بنى زياد وترك ولداً صغيراً كفلته عمة له يساعدها الوزير الحبشى مرجان وأصبحت صنعاء كالكرة بين اللاعبين يتداولها الولاة مما أسرع بخرابها فرحل سكانها وهجرت دورها ولم يبق بها سوى ألف دار ومائة مسجد واثنى عشر حمّاما بعد أن بلغت فى أيام هارون الرشيد وابنه المأمون مائة وعشرين ألف دار(٣٤) وغلبهم على عدن ولحج وحضرموت بنو معن وعلى التعكر والدملوه بنو الكريدى. وانقسم اليمن الأعلى بين آل يعفر وآل الضحاك وآل أبى الفتوح وكلهم علويون(٣٥) فلم يجد هذا الوزير بدًّا من أن يعمل فأغرى عبداً له يسمى نفيس فقبض على الأمير الطفل وعمته وقتلهما وأعلن نفسه سلطانا على زبيد سنة ٤٠٧ هـ واتخذ مظاهر الملك . وأخذ فى إخضاع البلاد . ولكنه كان غشوما ظلوما . فلم تلبث أن تكتلت معارضة قوية التفت حول زعيم حبشى آخر يسمى نجاح كان يحكم الأقاليم الشمالية فقدم إلى زبيد بجموع عظيمة ودارت بينهما الوقائع التى انتهت بقتل نفيس على باب زبيد . ودخل نجاح منتصراً بعد أن قتل من الفريقين أكثر من خمسة آلاف وبدأ نجاح فى سنة ٤١٢ هـ الدولة التى حملت اسمه ولقب بالمؤيد ناصر الدين . وبدأ عمله بأن قبض على الوزير مرجان وقتله .

---

(٣٣) قرة العيون ورقة ١٧ ــ ا

(٣٤) اللطايف السنية ورقة ١٣ ا .

(٣٥) نفس المصدر ورقة ١٣ ب .

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية

ومن الطبيعى أن يكون أول عمل له هو القضاء على الأمراء الذين استقلوا بأجزاء اليمن المختلفة من أجل توطيد سلطته. ولم يكن هذا العمل سهلا إذ قضى فيه أغلب مدته وقد طالت إلى أربعين سنة .

بدأ نجاح بأن أخضع أمراء تهامة شمالا فوصل إلى عسير التى يبدو أنها كانت آخر حدود دولته شمالا . ثم انحدر إلى صنعاء حيث كان بها بنو همدان ثم أمعن جنوبا حيث بنو معن فى عدن ثم سار إلى الشرق حيث أخضع حضرموت وبذلك دانت له اليمن كلها . بل بلغ من سطوته أن اضطر دعاة الشيعة إلى التخفى . وأظهر له كبير دعاتهم سبأ بن أحمد الصليحى الطاعة . وأخذ يتودد إليه بل أرسل له الهدايا (٣٦) ولكن ذلك لم يكن ليثنيه عن عزمه وهو نشر الدعوة لأسياده من الشيعة . فقد كان المستنصر بالله الفاطمى يوالى إرسال المال له . ولكن يبدو أن نجاحا كان به ميل إلى النساء ولهن تأثير شديد عليه إذ لم يتردد فى قبولهن كهدايا رغم كبر سنه الذى امتد إلى أكثر من ثمانين فكانت هذه الوسيلة هى التى لجأ إليها الصليحى للقضاء عليه فأهداه جارية دست له السم فمات سنة ٤٥٢ وترك ثلاثة أولاد وبنتين كلهم صغار فكان صاحب السلطة مولى حبشيا لهم يسمى كهلان ولذا لم يطل أمرهم أكثر من ثلاث سنوات أكمل فيها الصليحى عدته فسار إليهم فى زبيد فهربوا إلى دهلك (٣٧) .

وكانت دهلك قد دخلت فى حوزة الدولة العربية منذ أيام الأمويين واتخذوا منها قاعدة لمراقبة القرصان الذين كانوا يكثرون من الإغارة على شواطئ الحجاز وأيضا لمراقبة الشيعة الذين هربوا إلى الحبشة وأخذوا يساعدون أولاد الزبير فى ثورتهم حتى إذا انتهت ثورة الزبير ألحقت دهلك بإمارة اليمن فتركوها لأهلها على أن يدفعوا لوالى اليمن ضريبة سنوية هى ألف رقيق من الأحباش نصفهم من النساء (٣٨)

---

(٣٦) المختار من تاريخ ثغر عدن ص ١٢٧ ا

(٣٧) قرة العيون ورقة ٤٠ ب

(٣٨) الجواهر الحسان فى تاريخ الحبشان ص ١٦

فكانوا يرسلون بأغلب النساء إلى بغداد ويحتفظون بالرجال ويتخذون منهم جندا .

وحكم الصليحى اليمن نائبا عن المستنصر بالله الفاطمى فعمل على إحياء المذهب الشيعى ونشر له الدعوة لا فى اليمن فحسب بل فى الحجاز أيضا حتى إذا توطد له الأمر هناك سافر للقيام بفريضة الحج سنة ٤٥٩ ومعه زوجته وجميع آل الصليحى[٣٩] مستخلفا ولده المكرم أحمد بن علىّ ، ولكنه لم يكد يمعن فى رحلته شمالا حتى نزل سعيد الأحول أكبر أولاد نجاح فى ساحل تهامة وتتبعه إلى مكة ولحقه قبل أن يدخلها فدارت بينهما معركة انتهت بقتل الصيلحى وكثير من أهله وأنصاره وأسر زوجته فظلت فى أسره ثمانية أشهر اتصلت خلالها بولدها المكرم وأثارته ليأخذ بثأر أبيه فخرج إليه فى ثلاثة آلاف فارس ونجح فى هزيمة سعيد رغم ما كان معه من جيش كبير بلغ عشرين ألفا[٤٠] وفر الأحول من جديد إلى دهلك . بينما عاد المكرم إلى صنعاء ومعه والدته واستمر يحكم عشرين سنة كان سعيد وأخوه جياش فى أثنائها يعيشون فى دهلك يكملان ثقافتهما[٤١] ولم يلبث سعيد أن بدأ يدبر المؤامرات ضد حاكم دهلك وجياش أخوه يمنعه من ذلك حفظاً لحق الصداقة . وخرج سعيد مغضباً إلى زبيد حيث عاش متنكراً يراقب الأحوال . حتى إذا تبين له أن الفرصة قد حانت كتب إلى أخيه ليلحق به .

وفى التاسع من ذى القعدة سنة ٤٧٣ أظهر سعيد وأخوه دعوتهما فأرسلت لهما والدة المكرم ـ بمعاونة أخيها أسعد بن شهاب أمير زبيد قوة بلغت خمسة آلاف كلهم من الأحباش فتمكن سعيد من استمالتهم فانقلبوا على الصليحيين ودخل سعيد زبيد وأرسل إلى دهلك يشترى من الرقيق الأحباش من يستزيد بهم من قوته[٤٢] .

(٣٩) اللطايف السنية ورقة ١٧ ب

(٤٠) اللطايف السنية ورقة ١٨ ب

(٤١) Kay p. 81

(٤٢) Ibid p. 87.

ولكن المكرم ومعه أمه استطاعا أن يستردا عرشهما ويقتلا سعيدا وكان أنصاره قد بدأوا يتألبون عليه لما أظهره من التكبر والصلف فهرب جياش إلى الهند. ولكن غيبته لم تطل وعاد بعد ستة أشهر وأقام متنكراً فى عدن وينشر الإشاعات أنه قد مات فى الهند ليبعث الطمأنينة فى نفوس الصليحيين.

ويبدو أن حكم الصليحيين لم يكن ناجحا فقد غلبهم كثير من دعاة الشيعة واستقلوا بأجزاء كثيرة من اليمن كما فعل الشريف الفاضل وأخوه الأمين الملقب بذى الشرفين حين نزلا حصن شهارة وشنا الحرب وحاصرا صنعاء حتى أضعفوا أعوان الصليحى واستقلوا بصعدة. ثم سارا إلى الجوف سنة ٤٦٨ وخضع لهما أهلها ولما مات الشريف الفاضل استقل أخوه بالأمر وفتح عدن وأدّب أهلها وظل يحكمها دون منازعة من الصليحيين حتى سنة ٤٦٩ حين مات وورثه ابنه محمد بن جعفر.

كما لم يهتم الصليحيون بالنظر فى أحوال البلاد من أجل تحسينها رغم استمرار حكمهم مدة استطالت إلى عشرين سنة فقد كان المكرم مريضا فلم يباشر الأمور بنفسه بل تركها إلى زوجته سيدة التى لقبت بالسيدة الملكة الصليحية(٤٣) فكان يدعى لها على المنابر بعد اسم زوجها(٤٤) كما عكف المكرم رغم مرضه على اللذات ينتهبها أينما وجدت فأحاط نفسه بجميع أسباب الرفاهية حتى إنه حين سافر إلى مكة حاجًّا أخذ معه خمسمائة نجيب عليها مراكب الفضة وخمسين هجينا عليها أكوار الذهب مما أشاع السخط بين أنصاره وأقاربه. كما لم يكن حكم القاطعات للأكفاء بل كان يعطى لمن يدفع فيها أغلى ثمن(٤٥) ولابد أن نتيجة هذا كله لم تكن سوى إجحاف الولاة بالشعب ليستردوا ما دفعوا فليس بغريب أن ينتشر السخط بين الناس وخاصة الجند(٤٦) حتى إذا عاد جياش من الهند أدرك سخط الناس من حكم الصليحيين

---

(٤٣) المختار من تاريخ ثغر عدن ورقة ٤٢

(٤٤) نفس المصدر ورقة ١٤٠

(٤٥) نفس المصدر ورقة ١٣٨

(٤٦) نفس المصدر ورقة ٢٥٨

فاتصل بعليّ بن القم الذى كان وزيرا للأسعد بن شهاب ومنه عرف سوء الحال . واستعداد هذا الأخير لمناصرته فكشف له عن شخصيته واتفقا على الوثوب على الصليحيين بعد أن أعلمه باستعداد الأحباش لنصرته وأنه قد أعد منهم خمسة آلاف محارب حول زبيد (٤٧) وخمسة آلاف دينار للصرف على قضيته وأنه كاتب إمبراطور الحبشة فأمده بقوة أخرى (٤٨) . ولم يطل الأمر فقام جياش ودعا الناس لنصرته بضرب الطبول ونفخ الأبواق فثارت معه عامة أهل المدينة وكلهم ساخط على الصليحيين بل انضم إليه كل قادر على حمل السلاح فبلغوا عشرين ألفا، فلم يسع اسعد بن شهاب سوى التسليم فاستقام الأمر لجياش ولقب بنصير الدولة وبذلك عادت دولة آل نجاح سنة ٤٨١ بعد أن غابت عشرين سنة ومات المكرم فى ذى جبلة سنة ٤٨٤ فورثه ابنه وكان صغيراً فنازعه ابن عمه سبأ بن أحمد مما فت فى عضد أحزاب الشيعة فانضم حمزة بن ذى الشرفين إلى آل نجاح حين دارت الحرب. وكانت تهامة سرحها. وتداولها الفريقان أكثر من مرة ولكن لم يلبث سبأ أن مات سنة ٤٩٢ فاستقام الأمر لجياش. وكان شجاعا (٤٩) فعرف كيف يسوس الأمور فى حزم وشجاعة فقد كان الموقف يستلزم هذا النوع من الرجال لإخضاع الزعماء الذين طال بهم الاستقلال من جراء ضعف الصليحيين . فانتهز فرصة اختلاف بنى ذريع وقد ملكوا عدن فأخضعهم (٥٠) وأبقاهم فيها معترفين برئاسته عليهم كما أخضع بنى القم فى صنعاء وأبقى لسيدة، والدة المكرم الصليحى منطقة تعز فظلت تحكمها معترفة بسلطة آل نجاح إلى أن ماتت سنة ٥٣٢ (٥١)

ومات جياش فى ذى الحجة سنة ٤٩٨ بعد أن حكم اثنين وثلاثين سنة وطد فيها

(٤٧) اللطايف السنية ورقة ٢٠ ب

(٤٨) L'Empire du Prêtre Jean. V. I p. 20.

(٤٩) المختار من تاريخ ثغر عدن ورقة ٢٦٣

(٥٠) اللطايف السنية ورقة ٢١ (٥١) قرة العيون ورقة ٤٣ ا

أركان دولته إلا أن أولاده عبد الواحد وفاتك وإبراهيم اختلفوا ولكن لم يطل اختلافهم فقد ظفر فاتك وهرب عبد الواحد بينما خضع إبراهيم وعاش مع أخيه مخلصا له .

وإذا ما انفرد فاتك بن جياش بالأمر أكمل عمل أبيه فى إخضاع الأمراء فاستكثر من الجند الأحباش وأسبغ عليهم. وتمتع فاتك بحكم هادئ أمن فيه الناس على أموالهم وحياتهم لما اشتهر به من علم وعدل وتقريب للعلماء وتشجيع لهم(٥٢) حتى مات سنة ٥٠٣ تاركا ولداً صغيراً يدعى منصورا . فانتهز إبراهيم الفرصة وقدم يريد الظفر بالعرش ونجح فى ذلك فاتجه منصور إلى الفضل بن أبى البركات الحميرى صاحب التعكر والسيدة الحرة الصليحية فأكرما مثواه وبذلا له المساعدة لقاء أن يترك لهما ربع ما يجبيه (٥٣). كما التف حوله عبيد أبيه من الأحباش وتمكنوا جميعا من استرداد العرش سنة ٥٠٤ هـ

وفى أيامه إشتدت الدعوة الشيعية وظهر كثير من دعاتها وتقبلها كثيرون وكانت أقاليم صعدة ونجران والجوف أسرع الأقاليم استجابة لهؤلاء الدعاة وربما كان ذلك لبعدها فى الشمال . إلا أن السلطان عرف كيف يتغلب عليهم منتهزاً فرصة اختلافهما وعدم إجماعهم على إمام واحد وتفرق الناس بين الأئمة المختلفين فقد كانت الحروب التى دارت بينهم أكثر من الحروب التى دارت مع السلطان .

وخلف منصوراً ولده فاتك الثانى فدانت له البلاد فظل يحكمها على أحسن ما يكون الحكم متتبعا سياسة أبيه فى تتبع دعاة الشيعة والقضاء عليهم حتى سنة ٥٣١ فقضى على الشريف غانم السليمانى وقد ثار فى المهجم كما قضى على عمه محمد بن فاتك بن جياش حين ثار فى زبيد منتهزاً فرصة خلوها من الجند وسحق الداعى سبأ بن أبى السعود .

وكان من جراء هذه الحروب الكثيرة المتوالية أن اضطر إلى الإكثار من الجند من الأحباش فزاد نفوذهم حتى أصبحوا أصحاب السيادة فى الدولة . فإذا مات

---

(٥٢) نفس المصدر ورقة ٤٢ ب (٥٣) Kay p. 94.

السلطان دون أن يترك ولداً أجمع رؤساء الجند على اختيار ابن عمه فاتك بن محمد بن منصور بن فاتك بن جياش وكان ضعيف العزم قليل النظر فى السياسة منهمكا فى اللهو واللعب والفساد فكان الأمر كله فى يد الجند يسيرونه وفق أهوائهم فكانوا هم الذين يولون الوزراء ويعزلونهم (٥٤) وفى سنة ٥٣١ أجمع الجند على أن يجعلوا فى الوزارة قائدهم سرور وكان عبداً حبشيا أمهريا تربى فى قصر السلطان وما زال يرتفع حتى أصبح صاحب الكلمة العليا فى القصر . فكان — وإلى جانبه الملك الضعيف المنصرف إلى اللهو — صاحب السلطة الفعلية لعشرين سنة قبض فيها على البلاد بيد من حديد . فكان من جراء هذه الشدة أن انكمش دعاة الشيعة فى أسفل الوادى . ولم يعودوا يزاولون نشاطهم إلا معتمدين على نسكهم وتمسكهم بالعبادة . كما كان يفعل السيد على بن المهدى وأبوه حين أقاما فى قرية تسمى العنبرة بأسفل وادى زبيد (٥٥) مسالمين فوثق بهم سرور وترك لهما خراجا مكنهما من البذل وشراء الأنصار (٥٦) . وحاول الثورة فى سنة ٥٤٠ حين اجتمع له أكثر من أربعين ألفا . وهجم على حصن الكورا وبها مرزوق السحرى من قبل آل نجاح إلا أنه هزم . فانسحب عائدا إلى حيث كان وقد أيقن أن طريق الشدة لن يجديه نفعا فلجأ إلى المؤامرات يدبرها من أجل قتل سرور إذ أيقن أن طريق الإمارة مسدود أمامه بل أمام جميع الثائرين طالما هذا القوى يهيمن على الأمور ويدبّرها . فتمكن من الاتصال بواحد من أنصاره يسمى محرما وأغراه بالمال فانتهز هذا الأخير فرصة سجود الوزير وهو يصلى فانقض عليه وقتله وقبض على القاتل وقتل فى ساعته .

وبقتل سرور ضعف أمر الأحباش إذ اختلفوا وانقسموا أحزابا يلتف كل فريق حول زعيم وكان سخط الناس قد بلغ الذروة من جراء هذا التطاحن . ومن جراء ما كان يأتيه السلطان من فجور فاق كل حد . ومن الطبيعى أن يكون هذا سبباً

---

(٥٤) قرة العيون ورقة ٤٥ ب (٥٥) نفس المصدر ورقة ٤٧ ا

(٥٦) اللطايف السنية ورقة ٣٣ ب

فى تفكير الناس فى الخروج عن طاعة هذه الأسرة خصوصا إذا قورن ما كان يأتيه السلطان بما كان يمارسه زعماء الشيعة وعلى رأسهم على بن مهدى من نسك وتعبد. فاغتنم الفرصة ابن مهدى وهبط من الجبال سنة ٥٥٢ وزحف بجنوده على زبيد وتفرق الناس عن آل نجاح ومواليهم من الأحباش حتى إذا أتى زبيداً وحاصرها قاومه أهلها مقاومة عنيفة ضرب بها المثل فصدوا هجمات ابن مهدى وقد بلغت اثنتين وسبعين هجمة وصبروا على الضر حتى أكلوا الميتة (٥٧). واستنجد أهلها بالإمام أحمد بن سليمان المهدى صاحب صعدة فأنجدهم طمعا فى الملك بعد أن اشترط عليهم قتل سلطانهم فقتلوه. ولكنه عجز عن نصرتهم فارتد قبل أن تدور الدائرة عليه. وأخيرا عمل طول الحصار — وقد امتد قرابة العام — عمله فى الأهالى فاستسلموا فى الرابع عشر من رجب سنة ٥٥٤ فكانت نهاية دولة بنى نجاح بعد أن دامت قرنا ونصف قرن. وانتهى بانتهائها نفوذ الحبشة فى اليمن.

ولاشك أنها كانت دولة حبشية بكل ماتعنى هذه الكلمة من معان. حبشية بسلاطينها. حبشية بوزرائها. حبشية بجنودها وعدتها. حبشية بنظمها وتقاليدها فيمكننا أن نعدها استمرارا للدويلات الحبشية التى قامت فى اليمن فيما سبق من الزمن والتى كان آخرها دولة أبرهة التى أقامها كالب فى القرن السادس الميلادى. ولا تختلف عنها إلا فى كونها دولة إسلامية بينما كانت الدويلات الحبشية السابقة وثنية أو مسيحية. وهى فى هذه الناحية تشبه تلك التى قامت فى نفس الوقت فى شرق هضبة الحبشة وهى دولة شوا الإسلامية التى قامت فى القرن الرابع الهجرى والعاشر الميلادى واستمرت حتى نهاية السابع الهجرى وأواخر الثالث عشر الميلادى (٥٨) ولكنها تختلف عنها فى أنها كانت سنية بينما كانت أختها فى الحبشة شيعية ولذا لم تقم بينهما علاقة رغم تجاورها. ولكن ربما كان هؤلاء الدعاة الشيعيون الذين ظهروا فى اليمن خلال حكم آل نجاح مرسلين من قبل آل مخزوم فى الحبشة من أجل القضاء على النفوذ السنى فيها وضمها إلى بلادهم. وهذا رأى مازال محتاجا إلى تحقيق.

(٥٧) قرة العيون ورقة ١٤٧

(٥٨) Rassegne di studi Etiopici No. I.

نظام الحكم: ما إن تولى السلطة نجاح بعد أن قتل نفيس وتغلب على مرجان حتى كاتب الخليفة العباسى وبذل الطاعة ففوض له النظر فى أمر الجزيرة اليمنية[٥٩]. وبذلك أصبح السلطان صاحب السلطة العليا فى البلاد باعتباره نائبا عن الخليفة فى حكم اليمن. بل قلده الخليفة حق تقليد القضاة وهو أمر كان بيد الخليفة وحـــده باعتباره صاحب السلطة الدينية وأمير المؤمنين. ونزول الخليفة عن هذا الحق للسلطان جعل السلطان يملك القوتين المدنية والدينية. وبذلك أصبح السلطان مطلق التصرف فى جميع أمور البلاد. فهو الذى يعين الوزراء، وأمراء الجيش وولاة الأقاليم والقضاة ويعزلهم، ويقتلهم إذا خرجوا عليه أو خلعوا يمين الطاعة[٦٠]. وكان إلى جانبه مجلس ينزل عند حكمه[٦١] ولا نعرف تماما كيف يتكون هذا المجلس ولا مدى سلطته. ولكن يبدو ـ على أغلب الظن ـ أنه كان يتكون من العلماء الذين يطلق عليهم اسم الاستاذون[٦٢] وهم علماء المذاهب السنية المختلفة. ولابد أن مهمتهم كانت ـ على الأقل ـ فحص أوامر السلطان وتحقيق مدى انطباقها على الشريعة، وربما كانوا يستشارون فى الأمور الكبيرة مثل تعيين الوزراء وذوى المناصب الهامة فى الدولة[٦٣].

وقد جرت عادة السلطان على تقسيم البلاد إلى أجزاء ثم إعطاء كل قسم إلى أمير أو زعيم يحكمه لقاء ما يحمله هذا الأمير إليه كل عام من الخراج والأموال[٦٤] بل كان لابد له أن يدفع مقدما بعض الأموال التى يقدرها السلطان وفق مايرى[٦٥].

وإذا كان سلاطين آل نجاح قد رضوا بهذه التبعية للخلافة فى بغداد إلا أنها فى الواقع كانت تبعية اسمية فلم يكن هناك من مال يحمله السلطان إلى الخليفة بعكس

---

(٥٩) قرة العيون ورقة ٤٠ ا

(٦٠) نفس المصدر ورقة ٤٤ ا

(٦١) Kay p. 96

(٦٢) قرة العيون ص ٤٦ ا

(٦٣) نفس المصدر والصفحة.

(٦٤) اللطايف السنية ورقة ١١ ب

(٦٥) المختار من تاريخ ثغر عدن ص ١٣٨

ما كان الحال أيام بنى زياد الذين حرصوا على أن يحملوا إلى الخليفة العباسى كل عام الأموال والهدايا النفيسة(٦٦). بل تمتع السلاطين من آل نجاح بكل مظاهر الاستقلال كالركوب بالمظلة — وكانت مظهرا من مظاهر الخلافة . وكذلك سك العملة باسمهم(٦٧) وذكر اسمه فى الخطبة بعد اسم الخليفة(٦٨) بل اتخذ سلاطين اليمن تقليدا لم يجر العمل به فى أية ولاية من الولايات التابعة للعباسيين وهو تعيين الوزير فقد كان هذا المنصب خاصا بالخلافة فى بغداد ، وربما كان هذا أثرا فارسيا بقى فى اليمن منذ احتلال بلادهم بواسطة الفرس قبيل الإسلام . وكان من حق السلطان أيضا أن يحتفظ بأبناء بعض الولاة أو أقاربهم ليعيشوا فى قصره ضمانا لولاء الولاة . بل كان إذا خرج للحج أخذهم معه . وكان يأخذ أيضا بعض الولاة ممن كان يشك فى إخلاصهم(٦٩) وهذا تقليد حبشى حمله آل نجاح معهم من بلادهم(٧٠) .

ويعيش السلطان فى قصر هو فى نفس الوقت قلعته(٧١) التى يتحصن فيها وكان يبنى على مشارف الجبال ليشرف على كل شىء فى الوادى . ويعج القصر بالنساء(٧٢) وكلهن جوار وإماء . ولكن بينهن واحدة هى أم ولى العهد ويطلق عليها اسم السيدة الحرة(٧٣) ويحيط بالسلطان حرسه الخاص وهو صاحب الأمر فيهم وهو مكوّن من العبيد الذين اشتراهم وسلحهم(٧٤) .

ويلى منصب السلطان فى الترتيب منصب الوزير وكان السلطان هو الذى يعينه فيصبح صاحب السلطة الفعلية فى تدبير أمور الدولة بعد الرجوع إلى السلطان. وكانت الوزارة فى الواقع وزارة تقليدية تمتد سلطة الوزير إلى كل فروع الإدارة(٧٥) ماعدا الجيش ولكن قد يغلب قواد الجيش السلطان فى تعيين الوزير(٧٦). وقد ظل منصب الوزارة طول

(٦٦) قرة العيون ورقة ٣٨ ا
(٦٧) نفس المصدر ورقة ٤٠ ا
(٦٨) اللطايف السنية ورقة ١٢ ا
(٦٩) تاريخ اليمن ص ٩٥
(٧٠) سيرة الحبشة ص ٦٢
(٧١) قرة العيون ورقة ٤٦ ا
(٧٢) نفس المصدر ورقة ٤٤ ا
(٧٣) نفس المصدر ورقة ٤٣ ا
(٧٤) نفس المصدر والصفحة .
(٧٥) قرة العيون ورقة ٤٣ ب
(٧٦) تاريخ اليمن ص ١٠٧

حكم بنى نجاح محصوراً فى الأحباش ولم يخرج من يدهم أبدا. فقد كان مرجان وزيراً لنفيس الذى قتل آخر سلاطين بنى زياد . وإذا ما نجح فاتك فى استرداد عرش أبيه إستوزر أبا سعيد خلف بن أبى الطاهر الذى شاركه أيام محنته (٧٧) وحارب معه حتى استرد عرشه . ويعود أكبر الفضل فى نجاحهما إلى جهاده مع مولاه . ثم أطلقت يده فى كل أمور الدولة حتى لقد سمى قسيم الملك ، ونجحا معا فى إرساء قواعدها .

وإذا ما تولى العرش فاتك بن جياش استوزر أنيسا الفاتكى واستبد هذا الأخير بالأمر حتى لقد قلد مولاه الركوب بالمظلة وضرب السكة باسمه . مما أوغر عليه قلب سيده فما زال به حتى قتله وصادر كل ممتلكاته (٧٨) واستوزر بعده أبا الفضل من الله الفاتكى الذى تقول المصادر عنه إنه كان أكرم الناس وأكثرهم شجاعة . وكان له الفضل الأكبر فى إرساء قواعد الدولة بعد أن عصفت بها ثورة نجيب الدولة بعد أن هجم على زبيد وكاد يستولى عليها . ولم تتحقق هزيمته إلا بعد أن قتل من أصحابه ثمانمائة فى أواخر سنة ٥١٨هـ . ويبدو أن أبا الفضل قد أصبح صاحب السلطة العليا . بل جاوزت سلطته سلطة السلطان فعمل الأخير على أن يدفع بآخرين كى يزاحموه فما كان منه إلا أن قضى على هؤلاء المزاحمين بل قضى على السلطان نفسه حين شعر بتعضيده لهم . وقد استعان الوزير فى مؤامرته بجارية السلطان وزوجته وكان ثمن هذه المساعدة إجلاس ابنها فاتك على العرش بدلا من أبيه وكان صغيراً

وكان ترأس الوزير لهذه السلسلة من المؤامرات ونجاحه فيها سببا فى ازدياد نفوذه حتى أصبح لا يقف أمامه شىء مطلقا. فأمعن فى التجبر فوصل إلى حد الفجور حتى تاقت نفسه إلى معاشرة بنات مواليه الأبكار فتآمرن عليه ومعهن زوجة مولاه الأول ووالدة السلطان الجديد ونجحن فى قتله (٧٩) .

وكان خلفه فى منصب الوزارة حبشيا أيضا هو رزيق الفاتكى إلا أنه كان ضعيفا

---

(٧٧) اللطايف السنية ورقة ٢٠ ا (٧٨) قرة العيون ورقة ٤٤ ا

(٧٩) قرة العيون ورقة ٤٤ ا

فغلبه على أمره رجال من الأحباش آخرون أكثر قوة منه وأقرب إلى قلب السلطان ووالدته فلم يجد الوزير بدًّا من ترك منصبه قبل أن يقتل . وكان خليفته ضعيفا مثله فلم يستمر طويلا وغلبه إقبال الفاتكي الذى نجح فى قتل السلطان فحقد عليه قواد الجيش فعزلوه وولوا مكانه قائد الجيش سرورا الفاتكي .

وبذلك أصبح منصب الوزارة موضع التنافس بين الأنصار ولم يعد التنافس يدور حول منصب السلطان .

ولعل هذه الحالة تشبه إلى حد كبير ما حدث فى مصر فى نهاية الدولة الفاطمية فى هذا الوقت حين غلب الحافظ (٥٢٤ ـ ٥٤٤) (١١٣٠ ـ ١١٤٩) الوزير أحمد ابن الأفضل بن بدر الجمالى(٨٠) فدبر الخليفة قتله ونجح وقلد الوزارة لبهرام الأرمنى الذى طغى كسلفه فثار عليه رضوان بن الولخشى وطرده . ولم يكن ابن الولخشى أقل من سلفه تجبراً فلم يملك الحافظ إلا أن يستقدم بهرام من جديد ليقتل ابن الولخشى بعد حرب طويلة . وتكررت الصورة فى عهد الظافر(٨١) حين دارت الحرب بين ابن السلار ومنافسه ابن مصال . وكانت نتيجة هذه المنافسة قتل الظافر نفسه . وإذا ما قدم طلائع بن رزيق لينجد الفاطميين فى أيام الفائز دبرت ضده المؤامرات ونجحت فى قتله وبذلك كان الخلاف حول منصب الوزارة فى اليمن سبباً فى زوال سلطة آل نجاح كما كان سبباً فى إزالة سلطان الفاطميين فى مصر .

ويبدو أن أكبر ما أهل سرورا لمركز الوزارة ـ إلى جانب شجاعته فى الحرب ـ هو إخلاصه الشديد لوالدة السلطان وتركه مقاليد الأمور إليها ـ وله فى الظاهر ـ لتتصرف فيها وفق ما تريد .

وإلى سرور يعود الفضل كل الفضل فى إعادة حكام الأقاليم إلى الولاء لآل نجاح بعد أن خرج أغلبهم ، كحاتم بن أحمد صاحب همدان الذى سار إلى صنعاء ودخلها فى سبعمائة فارس ، والإمام أحمد بن سليمان صاحب صعدة ، وعلى بن مهدى الحميرى بالعنبرة

---

(٨٠) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٣٧٩ (٨١) مصر فى العصور الوسطى ص ١٢٣

فى أسفل وادى زبيد كما تحصن الوزير السابق مفلح فى قلعة الكرش وشن الغارات على تهامة . واجتمع إليه عالم كثير بلغ أربعين ألفاً ، فخرج إليهم سرور ومازال ينفرد بكل منهم واحداً بعد الآخر حتى أخضعهم جميعا وأعاد لسلاطين بنى نجاح هيبتهم ومكانتهم (٨٢) وكانت آخر الثورات ثورة محمد بن فاتك بن جياش اخو السلطان حين انتهز فرصة خروج سرور لإخضاع الشريف غانم السليمانى الذى انضم إلى مفلح ودخل إلى زبيد واستولى على دار الإمارة وأعلن نفسه سلطانا فلم يملك السلطان سوى التحصن فى إحدى حجرات القصر فما إن عرف سرور بذلك حتى ترك المهمة التى ندب إليها وأسرع عائداً إلى زبيد واقتحمها وتسلق إلى القصر بالحبال . وكان ظهوره فى القلعة بمثابة الطلسم الذى حول الجنود فانضموا إليه ومعهم بقية الحاشية فلبسوا الدروع والسيوف وما إن رآهم حراس الأبواب حتى فتحوها لهم فهجموا على محمد وأنصاره وما زال يطاردهم حتى قتل منهم مقتلة كبيرة واسترد للسلطان عرشة المفقود . وشعر السلطان ووالدته بفضل سرور فأحلوه مكانا مرموقا حتى كانت أم السلطان تنزل عن سريرها لتستقبله (٨٣) وظل سرور قائما على حراسة الدولة مخلصا لآل نجاح . فلا غرابة إذا شعر الراغبون فى الثورة إن هذا الرجل لو أزيح عن طريقهم لانهارت الدولة من أساسها وكان هذا ماحدث فعلا فقد دس له ابن مهدى من قتله وهو يصلى فى مسجد كان قد بناه فى مدينة زبيد . فكان هذا إيذانا بظهور التنافس بين موالى بنى نجاح كل منهم يريد أن يحظى بمركز الوزارة (٨٤) الذى هو مركز السلطة الحقيقية وأخيراً فاز ابن مهدى وكان فى ذلك القضاء الأخير على دولة بنى نجاح .

ويلى منصب الوزارة فى الأهمية منصب قائد الجيش وهو الذى يتولى حماية السلطان (٨٥) والذب عن الدولة والقضاء على الثورات . وهو لم يزد عن كونه مملوكا اشتراه السلطان ولذا كان اسم السلطان يضاف دائما

---

(٨٢) اللطايف السنية ورقة ٢٥ ا
(٨٣) قرة العيون ورقة ٤٦ ب
(٨٤) قرة العيون ورقة ١٤٨ .
(٨٥) تاريخ اليمن ص ١١٧

إلى اسم القائد ليدل على أنه هو الذى اشتراه وربّاه . ولابد أن الشجاعة والولاء للسلطان كانا الوسيلتين للترقى فى سلك الخدمة العسكرية . وكان ولاء سرور الفاتكى للسلطان ووالدته هو الذى أهله لأن يكون صاحب أكبر قوة فى الدولة . ولابد أن رئاسته للجند كانت تعطى صاحب هذا المنصب قوة تجعله الرجل الثانى فى الدولة بعد الوزير. وقد يجمع قائد الجيش بين منصبه ومنصب الوزير إذا رفعه بقية القواد إلى هذا المنصب(٨٦) وفى هذه الحالة لن تقف قوة أمامه خصوصاً إذا قرن ذلك بالولاء للسلطان.

ولابد أن صاحب هذا المنصب هو الذى كان يتولى شراء العبيد وضمهم إلى الجيش وتزويدهم بالسلاح والملابس وتعيين من يدربهم على الحرب . ولابد أن إدارة كبرى للجيش كانت تحت إدارته مهمتها شراء العبيد وتجهيز الجيش وشراء الخيول وتدريبها وإعدادها بكل ما يلزمها . وأخيراً هناك قواد دونه فى الرتبة يتولون قيادة الألوية الصغيرة التى يتألف منها الجيش المحارب ويبدو أن أغلبهم كان من الفرسان .

مركز المرأة : لم يكن من التقاليد الإسلامية أن تبرز المرأة لتساهم فى الأمور العامة. فلم تظهر أيام الخلفاء الراشدين أو بنى أمية أو بنى العباس واحدة ذات مكانة فى المجتمع أو أسهمت برأى وخاصة فى الأمور السياسية . كما كان الأمر كذلك فى اليمن . ولكننا نجد الأمر مختلفاً عن ذلك أيام بنى زياد وبنى نجاح . وإذا عرفنا أن دولة بنى زياد كانت عربيـة السلطان ، حبشية فيمن اعتمدت عليهم من الوزراء ورجال الجيش ، أمكننا أن نقول إن بداية للتقاليد الحبشية ظهرت ممثلة فى ظهور المرأة على مسرح الحوادث وإصرارها على أن تلعب دوراً مهمًّا فيه . فقد مات أبو الجيش إسحق ابن إبراهيم بن زياد سنة ٣٩١ وترك ولدا صغيرا اسمه عبد الله كفلته أخته هند بنت أبى الجيش . ولم يكن دورها يقف عند حد الكفالة إذ يحدثنا نفس المصدر أن الحسين

---

(٨٦) قرة العيون ورقة ١٤٥ .

ابن سلامة كان وزيرا لولد أبي الجيش وأخته . مما يقطع أنها كانت صاحبة سلطة حقيقية فى دولة بنى زياد[٨٧] وإذا ما مات السلطان انتقل الأمر إلى طفل آخر من بنى زياد كفلته عمة له . وإذا ما قام أنيس بالقضاء على دولة بنى زياد لم يكتف بقتل السلطان بل قتل أيضا عمته الكافلة[٨٨] مما يدل على خوفه من أن يتجمع أنصار بنى زياد حولها ويكونون سبباً فى فشل محاولته . كل هذا يدل على أن المرأة كانت تلعب دورا هاما فى الحياة السياسية خلال حكم دولة بنى زياد . ومرد هذا الأمر لم يكن تقاليد عربية مرعية إنما هى تقاليد حبشية حملها إلى اليمن هؤلاء الذين كانوا عصب الدولة وعدتها .

وقد عنى جميع المؤرخين الذين كتبوا عن هذه الفترة من تاريخ اليمن بذكر السيدة الحرة سيدة بنت أحمد بن جعفر بن موسى الصليحى التى كانت مثقفة . تقول الشعر وتروى التاريخ[٨٩] وقد تربت فى حجر أسماء زوجة أسعد بن شهاب ثم تزوجت المكرم بن على بن محمد الصليحى فكانت هى المدبرة الحقيقية لجميع أمور الدولة . بعد أن انصرف زوجها إلى انتهاب اللذات . فدعى لها على المنابر بعد زوجها وهى التى خرجت على رأس جيش إلى ذى جبلة لاستردادها بعد أن استولى عليها سعيد ابن الأحول . بل هى التى دبرت قتل هذا الأخير[٩٠] وإذا ما مات زوجها أرسل إليها الخليفة الفاطمى هدايا كثيرة يحملها وفد يلح عليها فى أن تتزوج داعيته سبأ بن أحمد بعد أن رفضته نخاطبها الوفد بألقاب الملك[٩١] .

والدولة الصليحية وإن كانت عربية إلا أنها كانت كذلك بالاسم فقط إذ كانت حبشية فعلا القيام هؤلاء بكل أمورها . فظهور المرأة لم يكن إلا تقليدا حبشيا نشأ وانتشر بظهور الأحباش على مسرح السياسة اليمنية وتصريفهم جميع الأمور فيها .

(٨٧) اللطايف السنية ورقة ١١١ .
(٨٨) قرة العيون ورقة ٣٩ ب
(٨٩) Kay, yamen p. 39
(٩٠) Kay, yamen p. 41
(٩١) قرة العيون ١٤٥

وإذا ماقامت دولة بنى نجاح ظهرت المرأة على مسرح الحوادث ظهورا لم يسبق له مثيل فى دولة إسلامية أخرى . اللهم إلا فى دولة بنى مخزوم التى قامت فى شوافى نفس الوقت[٩٢] .

فإذا ما تولى منصور ابن جياش . كانت زوجته علم صاحبة الأمر كله . بل ظلت كذلك ستا وعشرين سنة . فكان التقرب إليها هو وسيلة السلطة وكانت هى التى تعين الوزراء أوتعزلهم . وكان غضبها على وزيرها مفلح الفاتكى حين منعها من الحج كافيا لإثارة نفوس الأحباش جميعا على هذا الوزير . ولم تهدأ نفوسهم إلا حين عزل الوزير وسارت هى إلى الحج مجهزة بالمال والرجال . وكان الناس ينتهزون فرصة حجها ليسيروا فى ركابها ليأمنوا على أنفسهم[٩٣] .

وكانت هى التى عينت رزيق الفاتكى ثم سرورا قائدا للجند ثم وزيرا[٩٤] . وكان يخرج للغزو ثم يعود فيقدم لها فروض الطاعة والولاء . ويعفر خده بين يديها فى الأرض[٩٥] ولا يرفع رأسه إلا إذا أمرته . بل كان يحرص على لقائها كل يوم ليستشيرها فى كل أمر من أمور الدولة[٩٦] . وكتب إليها ابن مهدى يستعطفها ويطلب منها الصفح فوهبته إياه رغم نصيحة جميع رجالها برفضه ولكنها إذا أمرت به ارتضى الجميع حكمها[٩٧] . بل وهبته خراج أرضه رغبة فى استمالته فأقسم لها يمين الولاء بدوره . ولكن بموتها سنة ٥٤٥ رأى نفسه وقد تحلل من هذا اليمين . فثار للمرة الثانية ونجح فى ثورته . وربما يعود بعض نجاحه لا إلى قوته فحسب بل إلى موت الحرة علم ، التى كانت بمثابة اللواء يجتمع حوله الأنصار دفاعاً عن دولتهم ، حتى إذا فقدوه لم يجدوا أمامهم ما يستحق الدفاع . فتخاذلوا وهزموا .

---

(٩٢) Cesulli, Rassegne V. I
(٩٣) قرة العيون ورقة ٤٤ ا
(٩٤) نفس المصدر ورقة ٤٤ ب
(٩٥) نفس المصدر ورقة ٤٦
(٩٦) تاريخ اليمن ص ١٢٠
(٩٧) قرة العيون ورقة ٤٧ ب

الحالة الاقتصادية: لم تذكر لنا المصادر على وجه صريح شيئاً عن حرفة الأهالى وحالة البلاد الاقتصادية ولكن طبيعة البلاد ومطرها الموسمى يؤهل أهلها لاحتراف الزراعة فى الوديان[٩٨] وكان المطر وسيلة ريهم. حتى إذا انتهى لجأوا إلى الآبار[٩٩]. وقد اختزن القدماء ماء المطر فى خزانات حفروها فى سفوح الجبال بالقرب من القمة. أو وراء سدود أقاموها فى بعض الوديان وكان أشهرها سد مأرب وما زالت بقايا هذه الخزانات موجودة حتى الآن ويستعمل اليمنيون الحاليون بعضها.

وقد أينعت الزراعة وانتعشت لنشاط اليمنيين وكان الحكام يجمعون منها خراج الأرض[١٠٠] وكان كثيرا. سمح لأحد الحكام أن يحمل إلى السلطان كل سنة ستة ألف ألف دينار بعد المؤن اللازمة[١٠١] وكان غانم السليمانى صاحب مخلاف طرف يحمل إلى سيده كل عام ستين ألف دينار[١٠٢] وكذلك الوزير سرور كان يحمل إلى بيت مال مولاه مثل هذا القدر[١٠٣] وإذا ماقتل سعيد بن الأحول بن نجاح على الصليحى غنم منه ألفى فرس بعددها وثلاثة ألف جمل بعددها[١٠٤].

ويبدو أن السلاطين قد تركوا لهؤلاء الحكام أمر فرض الضرائب وجبايتها على أن يصرفوا منها على ولاياتهم وعمارتها ما شاءوا ويحملوا الباقى إليهم. فيصبح مالهم الخاص يصرفونه وفق ما يريدون. وقد أتاح لهم هذا أن ينعموا بوافر الثراء. حتى إذا تجهز الصليحى للحج سار فى أبهة عظيمة وبين يديه خمسمائة فرس بالسروج الذهب[١٠٥] كما ترك منصور بن فاتك حين توفى ألف سرية[١٠٦]

---

(٩٨) تاريخ اليمن ص ٦٣
(٩٩) قرة العيون ورقة ٣٨ ب
(١٠٠) نفس المصدر ورقة ٤٧ ب
(١٠١) اللطايف السنية ورقة ١١٧
(١٠٢) قرة العيون ورقة ٤٥ ب
(١٠٣) تاريخ اليمن ١١٩
(١٠٤) نفس المصدر ص ٩٦
(١٠٥) اللطايف السنية ورقة ١٧ ب.
(١٠٦) قرة العيون ورقة ٤٤ ب.

كما سارت الحرة علم، إلى الحج بعد أن جهزت نفسها بثلاثين ألف دينار (١٠٧) بل سمح لهم أيضاً أن يبتنوا (الحصون الباذخة والمعاقل المنيعة والمساكن الرفيعة)(١٠٨) وكذلك الجوامع الكبار والمنابر الطوال فقد بنى الحسين بن سلامة ستين جامعا على طول المسافة بين حضرموت ومكة فى كل مرحلة جامع(١٠٩). بل كان كل منهم يكثر من العبيد والأتباع حتى وصلت قوة الواحد إلى عشرة آلاف بل عشرين ألف محارب كاملى العدة(١١٠). وإذا ما أراد الخليفة الفاطمى أن يرغم الحرة سيدة بنت أحمد على أن تتزوج من داعيته سبأ، عين لها مهرا قدره مائة ألف دينار نقدا وخمسين ألفا من الهدايا والعطور(١١١) وكان هذا الخراج يجبى مرتين كل عام(١١٢) .

ولكن هذا النشاط الزراعى لا يقاس شيئا إلى جانب نشاطهم التجارى فقد كانت تجارتهم برية وبحرية . تسير الأولى إلى الحجاز والعراق كما تسير الثانية إلى دهلك والحبشة والهند . وقد هرب أولاد نجاح إلى دهلك لا لأنها كانت مركز تجارة الرقيق فحسب بل لأن الرحلة إليها كانت سهلة ميسورة . كما هرب جياش إلى الهند لنفس السبب . وكان قصر مدة إقامته بالهند دليلا كذلك على كثر السفن التى كانت تتردد على موانى البلدين . وقد أقام جياش متنكراً بذى جبلة فى زى فقير هندى(١١٣) مما يجزم إنه كانت هناك جالية هندية كبيرة تعيش فى هذا المركز حتى إن ظهوره فى زيهم ومظهرهم لا يثير ريبة أحد ولابد أن ذى جبلة هذه كانت ـ علاوة على كونها مركزاً حصيناـ مركزاً تجاريا للتجارة الهندية يتردد عليها التجار الهنود يقيمون فيها مراكزهم التجارية وهذا يؤيد ماذكره Kamerer(١١٤) من أن اليمنيين والحضارمة كانو للمحيط الهندى مثلما كان البنادقة والجنويون للبحر المتوسط وكان هؤلاء التجار يدفعون عن تجارتهم المكوس سواء سافروا بطريق البر أو البحر(١١٥)

(١٠٧) نفس المصدر ورقة ١٤٥ ا .
(١٠٨) نفس المصدر ورقة ٣٧ ب
(١٠٩) نفس المصدر ورقة ٣٨ ب
(١١٠) Kay, p.92.
(١١١) Ibid p. 47.
(١١٢) اللطايف السنية ورقة ٢١ ا
(١١٣) قرة العيون ورقة ٤١ ا .
(١١٤) Kamerer Tom II, p. 297
(١١٥) قرة العيون ورقة ٤٤ ا

وكانت الرياح الموسمية المنتظمة تساعد سفنهم على السير فى أمان. وكانت وحدة العقيدة بينهم وبين القرصان الذين كانوا يعملون فى البحر الأحمر تسهل عليهم مهمتهم. أو تسهل عليهم الاتفاق على مبلغ معين يدفعونه إليهم لقاء عدم التعرض لسفنهم. وكانت سفنهم تسير إلى زيلع أوإلى عيذاب وقد زار ابن جبيرالمدينة الأخيرة فى هذه المدة. فقال عنها إنها من أحفل مراسى الدنيا (١١٦). عاش فيها كثير من اليمنيين يحترفون نقل التجارة بالجمال (١١٧) بل كان منهم كثيرون فى قفط (١١٨) التى كانت هى الأخرى من أنشط مدن مصر تجارة مع اليمن.

وكان هؤلاء التجار يحملون إلى مصر التوابل من الهند والجواهر من سيلان. والقرنفل وخشب الصندل من الصين الهندية. والفلفل من ملبار. والنحاس من كابانا والمسك والكشمير من السند والحرير من الصين واللبان والبخور وسن الفيل من الحبشة.

وقد اشتهرت اليمن فى ذلك الوقت بالصناعة أيضا وكانت أكثر الصناعات رواجا: مستلزمات الرحلات البحرية من سفن وحبال وأشرعة، أو الرحلات البرية. فقد ذكر ابن جبير أيضا: « أن أحسن مايستعمل عليها ـ الإبل ـ الشقاديف وهى أشباه المحامل. وأحسن أنواعها اليمانية لأنها مجلدة متسعة. يوصل منها الاثنان بالحبال الوثيقة وتوضع على البعير. ولها أذرع قد حفت بأركانها. يكون عليها مظلة فيكون الراكب فيها مع عديله فى كن من لفح الهاجرة ».

وكان للأحباش عامة ولرجال دولة بنى نجاح خاصة أثرهم فى انتشار العمران ومظاهر الثقافة الإسلامية والعربية فى اليمن. فقد بنى حسن بن سلامة وزير الصليحيين كثيرا من الجوامع الكبار. كما جدد جامع عدن (١١٩) وأكثر من هذا اختط مدينة الكوراء (١٢٠) التى أصبحت مدينة كبيرة بين مدن اليمن. كما بنى أنيس الفاتكى دارا

(١١٦) رحلة ابن جبير ص ٤٢ — (١١٧) نفس المصدر ص ٣٩

(١١٨) نفس المصدر ص ٣٧ — (١١٩) قرة العيون ورقة ٣٨ ب

(١٢٠) اللطايف السنية ورقة ١١ ب

عظيمة عرض كل قاعة منها ثلاثون ذراعا[١٢١] حين استأثر بالأموال . ولم يقتصر على دار واحدة بل ابتنى عددا من القصور العظيمة الواسعة[١٢٢] ولم يكن سرور آخروزراء بنى نجاح أقل من غيره التفاتا إلى بناء المساجد والقصور[١٢٣] رغم الحروب الطويلة التى انهمك فيها من أجل المحافظة على سلامة الدولة وكان أشهرها جامع زبيد الذى قتل فيه .

واشتهر سلاطين الدولة ووزراؤها بثقافتهم الواسعة وتعمقهم فى الدرس وتشجيعهم وإجلالهم للعلم والعلماء . فقد كان جياش بن نجاح متصفا بالعلم فقد عكف عليه حتى برع فيه[١٢٤] وكان له شعر رائق[١٢٥] وقد شاهد عمارة اليمنى ديوان هذا الوزير ضخما مجلدا . كما شاهد مؤلفاته فى تاريخ ملوك زبيد[١٢٦] ولابد أن تدوين مثل هـــذا المجلد الضخم استلزم عددا من النساخ . كان السلطان يستخدمهم ويصرف عليهم ، لا فى نسخ مؤلفاته فحسب بل فى نسخ مؤلفات بقية العلمـــاء الذين أسبغ عليهم السلطان عطفه وتشجيعه[١٢٧] وعنى جياش بتعليم أولاده فـكان يخصص لهم العلماء والمؤدبين وكان يشرف على تربيتهـــم بنفسه ويسأل المؤدبين عن أولاده ويوجههم بإشاراته التى تدل لاعلى اهتمامه فحسب بل على تحديد أهدافه من وراء هذا التعليم[١٢٨]. وابتنى المنصور ابن فاتك فى زبيد مدارس كثيرة . كما كان أبو الفضل من الله الفاتـــكى وزير منصور ابن فاتك يجل الشعراء ويجيزهم ويأتنس برأيهم . بل كان فقهاء المذاهب موضع الرعاية منه ، فـكان لاينى عن بذل العطاء لهم كى يعيشوا فى بحبوحة من العيش[١٢٩]. كما كان مفلح الفاتـــكى من أهل الخبرة فى الفقه والأدب حتى كان الناس يقولون عنه أنه لو جمع إلى ذلك نسبا قرشيا لاستحق الخلافة[١٣٠] وكان مسرور إذا عاد من الحرب

(١٢١) تاريخ اليمن ص ١٠٢

(١٢٢) قرة العيون ورقة ٤٣ ب

(١٢٣) نفس المصدر ورقة ٤٦ ب

(١٢٤) تاريخ اليمن ص ٩٢

(١٢٥) قرة العيون ورقة ٤٢ ا .

(١٢٦) تاريخ اليمن ص ٣٥

(١٢٧) قرة العيون ورقة ٤٢ ب

(١٢٨) نفس المصدر ورقة ٤٢ ا

(١٢٩) تاريخ اليمن ص ١٠٣

(١٣٠) نفس المصدر ص ١٠٧

خرج الناس لاستقباله فيحييهم وهو راكب جواده ، إلا إذا وصل إلى الفقهاء ترجل لهم . ولم يكن يترجل لغيرهم(١٣١) وكان يصرف عليهم ألف دينار كل شهر(١٣٢) .

ولم تكن هذه الثقافة ولا هذا التعليم أو تشجيع العلماء المتوالى سواء من السلاطين أو الوزراء إلا نتيجة سياسة مستقرة ثابتة ترمى إلى الإكثار من المدارس والمكتبات ودور العلم التى يقبل عليها الطلاب من أجل التعلم والتثقف على يد أساتذة تخصصوا فى هذه العلوم ولقوا من وراء اشتغالهم بالعلم كل رعاية من الدولة . ولم تقف الثقافة عند حد الرجال بل كانت أسماء بنت شهاب مثقفة . وهى التى تولت تربية سيدة بنت أحمد حتى جعلتها تجيد الشعر ورواية التاريخ(١٣٣) . ولم تذكر لنا المصادر شيئا عن ثقافة الحرة علم ولكن إجلالها للعلماء وتقدير رجال الدولة لها . وقبضها على أزمة الأمور تديرها طيلة ست وعشرين سنة ينم ولا ريب عن ثقافة واسعة وبعد نظر بل عن تفهم دقيق لمقتضيات الظروف والأحوال .

وإذا كان انتهاء دولة بنى نجاح يشبه إلى حد كبير انتهاء دولة الفاطميين فى مصر من حيث ازدياد سلطة الوزراء وتكالب القواد على هذا المنصب حتى أدى الأمر إلى انتهاء أمرهم . إلا أنها تشبه فى مظاهر أخرى كثيرة دولة المماليك التى قامت فى مصر فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى فقد كان القائمون بالأمر فيهما من العبيد الذين اشتراهم أسيادهم بالمال من أسواق الرقيق من أجل اتخاذهم سندا لهم ، ودربوهم على القتال . وانتهى بهم الأمر إلى تآمرهم على هذه الدولة التى جلبتهم حين سنحت الفرصة المناسبة . وكان كل منهم أجنبيا عن البلد الذى أتى إليه يتكلم لغة أجنبية ويعتنق ديانة مخالفة . ولكنهم تعلموا اللغة العربية واعتنقوا الدين الإسلامى . وأخلص كل منهما لهذه اللغة وهذا الدين بل تحمس كل منهم لهما حماسة أدت بهم إلى العمل على

---

(١٣١) نفس المصدر ص ١١٨ (١٣٢) نفس المصدر ص ١١٩

(١٣٣) Kay p. 93

اتخاذ هذه اللغة وهذا الدين أساس للحكم فى وطنهم الجديد وعملوا على نشر الثقافة العربية وخدمة الدين الإسلامى ببناء المساجد وفتح المدارس وتشجيع العلم الإسلامى والعلماء المسلمين وعمل رجال كل من الدولتين أيضا على المحافظة على وحدة البلاد وإعلاء كلمتها .

زاهر رياض

بعض معالم عهد شارلمان

بعد سقوط روما فى يد المتبربرين سنة ٤٧٦م ، أصبح أباطرة القسطنطينية يعتبرون أنفسهم الورثة الشرعيين للأباطرة الرومان فى الغرب ، فاعتبروا شبه جزيرة إيطاليا من أملاكهم ، ورابطت جنودهم فى البندقية واستريا ونابولى وصقلية وكالابريا ورافنا ، وكان للامبراطور البيزنطى نائب (أرخون) فى رافنا وممثل فى روما ذاتها .

على أن سيادة بيزنطة فى هذه الجهات تعرضت للنزاع من قبل قوى وسلطات أخرى ، منها اللومبارديون ، وهم آخر موجه من الموجات الجرمانية المتدفقة على الامبراطورية الرومانية ، وقد استغلوا ماحل بالقوط الشرقيين فى إيطاليا من كارثة خطيرة ، وما أصاب البلاد من الخراب ، نتيجة حروب جستنيان ، فتوغلوا بقيادة ملكهم البوين فى إيطاليا ، ولم يلبثوا أن استقروا بها سنة ٥٦٨ وامتد ملكهم إلى جنوبها . واعتنق هؤلاء اللومبارديون المسيحية على المذهب الأريوسى شأنهم فى ذلك شأن معظم المتبربرين ، واشتهروا بحقدهم على الكنيسة الرومانية ، وكراهية الخضوع لسلطانها ، فضلا عن نزعتهم العلمانية وشدة تماسكهم وتجانسهم فى أصولهم ومصالحهم. أما القوة الثانية فتتمثل فى الرومان بجنوب إيطاليا (كالابريا) ، الذين حرصوا على أن يحافظوا على استقلالهم ، بما أنشبوه من نضال ضد اللومبارديين ، وبما تلقوه من مساعدة من قبل الدولة البيزنطية على حين أن البابوات الذين صار إليهم حكومة دوقية روما ، أسهموا فى التعلق بطيف السلطة الإمبراطورية ، فأرخوا وثائقهم بسنوات حكم الامبراطور البيزنطى ، واعتبروا نائب الامبراطور فى رافنا وليا لهم ونصيرا ، وبلغ من شدة تعلقهم به ، أنهم ظنوا أنهم لا يأمنون على منصبهم ، إلا إذا أقر انتخابهم .

ثم حدث فى القرن الثامن الميلادى ما أدى إلى انفصال العنصر اليونانى ، عن العنصرين اللاتينى والجرمانى . فحدث أول الأمر الانشقاق الدينى نتيجة ما جرى

فى القسطنطينية من ظهور حركة مناهضه عبادة الصور المقدسةIconoclasm ، التى لم تجد قبولا فى روما أو عند البابا ـ يضاف إلى ذلك أن نيابة رافنا أضحت فريسة سهلة للملك اللومباردى فى باڤيا . غير أن ماحدث من إمعان الملك اللومباردى ايستولف فى التوسع على حساب بيزنطة وروما ، أدى إلى أن يستنجد البابا (زكريا) بملك الفرنجة پيين القصير ، فبادر پيين باسترداد المدن التى استولى عليها الملك اللومباردى ، غير أنه بدلا من أن يعيدها إلا الامبراطورية البيزنطية ، أعطاها هبة ومنحة للبابا. وترتب على ذلك أن منحه البابا لقب بطريق الذى لا يمنحه سوى الامبراطور ، وبذلك تعرضت العلاقات السياسية بين الامبراطورية البيزنطية والبابوية للانهيار .

وإذ أنقذت هــذه الحوادث روما والبابوية من الخضوع والإذعان لأية سلطة بشرية ، صار لزاما عليهما أن يقوما بتوجيه غرب أوربا فيما يقع من المشاكل العامة . فإلى جانب ما اشتهرت به روما قديما من الأمجاد ، مثل نشر السلام الرومانى ، وبسط السيادة على البحر المتوسط ، وأنها مثوى القديس بطرس ، وأنها أسهمت فى نشر المسيحية فى سائر أنحاء أوربا ، ازداد سلطانها بفضل أسطورة قنسطنطين والبابا سلفستر ، وبمقتضى هبة قنسطنطين ، انتقل للبابا ما للامبراطور من زعامة وسيادة على إيطاليا والغرب ، وليس لأية سلطة علمانية أو كنسية أن تقوم فى الغرب إلا بموافقة جمهورية روما التى يمثلها البابا ورجال الدين وأهل روما . وكانت هــذه النظرية من من أقوى العوامل فى العلاقات السياسية فى القرن الثامن الميلادى .

والواقع أن سنة ٧٥٠م تعتبر خاتمة مرحلة طويلة من مراحل الحياد ، وبداية مرحلة جــديدة من مراحل النضال فى سبيل الوصول إلى السيادة . ويعتبر البابا هو المسئول عن هذا التغيير . إذ تدخل الكارولنجيون لنصرة البابا ، فأسهموا بذلك فى قيام الإمارة البابوية .

أما مملكة الفرنجة فإنها تألفت فى القرن الثامن الميلادى من ثلاث ممالك صغيرة ترتبط فيما بينها بنوع من التحالف . وهــذه الممالك هى استراسيا ، التى اشتملت

على وادى نهر الميز والجزء الأدنى من إقليم الراين ، ثم نوستريا ، ويحكم ملكها ما هو معروف باسم جزيرة فرنسا Ile de France ونرمنديا ، ولم تكن سلطته على أكيتانية قوية . والمملكة الثالثة ، وهى برجنديا تشمل الأراضى الواقعة بين نهر الرون وجبال الألب . ولم تكن الحدود بين هذه الممالك ثابتة . واحتفظت كل مملكة ببلاط يعتبر مركز حكومة إدارية بسيطة . وارتبطت طبقة النبلاء فى كل منها بروابط المصاهرة ووحدة المصالح ، وبالكراهية لكل دخيل أجنبي .

وارتقى بيت أرنولف الذى ينتمى إليه الكارولنجيون إلى السلطة فى استراسيا ، حينما أضحى ببين لاندن حاجبا لبلاط استراسيا ، بعد أن اتحدت مع نوستريا زمن لوثير الثانى ملك الفرنجة ، وذلك سنة ٦١٤ . وظلت سلالته تتولى الحجابة للميروفنجيين ، وتتصرف فى كل أمور البلاد ، لما بلغه ملوك الفرنجة من الضعف الشديد ، إلى أن حانت الفرصة سنة ٧٥٢ ، بعد نهوض ببين لمساعدة البابا زكريا ضد اللومبارديين ، إذ أرسل ببين يسأل البابا عما إذا كان من الصواب أن يصبح الحاكم الفعلى ببلاد الفرنجة حاكما رسميا كذلك ؟ ولما كانت البابوية حريصة على الحصول على مساعدة الفرنجة ضد بيزنطة واللومبارديين ، وكان لببين أثره فى إصلاح كنيسة غاله وتنظيم الكنيسة الجرمانية ، فإن البابا زكريا أفتى بأنه يصح له شرعا أن يخلع الميروفنجيين وأن يتخذ التاج لنفسه . وعمل پبين بتلك الفتوى ، وتوّجه المبشر الانجليزى بونيفاس ملكا على الفرنجة فى كاتدرائية سواسون سنة ٧٥١ م ؛ ثم قام البابا نفسه ، بتتويجه مرة أخرى ، مع ولديه شارل (الكبير) وكارلومان ، فى يوليه ٧٥٤ وأشار إلى أن الكرسى الرسولى أمر جميع الأمة بألا تنتخب ملوكها منذ الآن من أية أسرة أخرى ، وجعل القطع والحرمان لمن يخالف الأمر . وعلى هذا النحو ظهرت الأسرة الكارولنجية ، بعد أن مضى على ولادة شارل عشر سنوات ، وقبل أن يتولى الحكم بستة عشرة سنة .

ومنذ سنة ٧٥٤ التى تم فيها تتويج ببين ، دخلت عوامل جديدة فى السياسة

الكارولنجية ، فما أنكره بيت أرنولف من أفكار تيوتونية ، لأنها استترت فى ثوب نوسترى ، لم تلبث أن لقيت قبولا ، حينما تقدمت بها روما والبابوية . ولم يعد البيت الكارولنجى جرمانيا خالصا فى كل ما يجرى فى الحياة اليومية ، وفى تفاصيل العمل الإدارى ، والمحافظة على التقاليد القديمة ، إذ أصبح للدولة القبيلية مطامع ضخمة ، وآمال مسيحية استعمارية ، فاستمدت من كل ذلك حياة جديدة . وترتب على ذلك أن الفرنجة بدأوا منذ سنة ٧٥٤ يلعبون دوراً ملحوظاً فى تاريخ العالم ، فالتزموا بأن ينشروا فى أوربا حضارة اتحدت فيها المؤثرات القبيلية القديمة بالعوامل الجديدة ، فقهروا أوربا وحكموها بوسائل تشبه من جهة ما يجرى فى بيزنطة وما يشتهر به أباطرتها من المهارة السياسية ، وتتصل من جهة أخرى بكلوفيس وسياسته الدينية ، وما عند التيوتون من قوانين قبيلية ، وأمدتهم الكنيسة بحوافز جديدة ، فبفضل نفوذ المبشرين ونفوذ البابا ، توافرت القوة المحركة التى تجعل الارستقراطية الفرنجية تتنزه عن المطامع الشخصية وتؤيد شارلمان . على أنه يصح أن نضيف عاملا جديدا سخر كل هذه القوى ، ووجهها وفق ما يريد ، وهذا العامل يتمثل فى شارلمان ذاته .

شارلمان : والواقع أنه كلما أمعنا النظر فى دراسة حياة شارلمان ، كلما ازداد إدراكنا لتلك السياسة التى اتخذها . فلم ينكر شارلمان ما لأبيه من أثر فى توجيه سياسته ، فكان يصرح بأن الامبراطورية إنما ترتكز على الأسس والقواعد التى وضعها ببين . وما كان يفتقر إليه ببين هو الروح الملتهبة والشخصية القوية التى أكسبت شارلمان ما حدث من تعلق قومه به ، بل تعلق الشعوب المغلوبة على أمرها به أيضاً .

أحب شارلمان ما للفرنجة من الملابس ، واحتقر كل ما هو أجنبى عنها ، وتعلق بلغة إقليمه استراسيا وأناشيده ؛ واشتهر شارلمان بالنشاط الوافر ، والإرادة الحديدية، والتمسك الشديد بالنظام والعدالة ، والشعور الدينى العميق . أنكر عليه بعض معاصريه شدة صلابته ، على حين أنه كلما ازدادت معرفة الناس به ، كلما ازداد حبهم له.

وليس ثمت ما هو أقوى وأشد من حكم السكسون الذين توافر لديهم من الأسباب ما يكفى لـكراهيته ، ومع ذلك فإن شارل كان عندهم خير الرجال على وجه الأرض ، وأشجعهم ، إذ أقام العدالة والإيمان وحافظ عليهما .

ومن الواضح أن شارلمان أفاد من البابوية والـكنيسة أكبر فائدة فى سياسته الخارجية . فما قام به من الحملات ضد اللومبارديين والباڤاريين والسكسون ، وما ترتب عليها من تنظيمات كنسية ومرسومات ، إنما يتضح فيها أثر توجيه البابوية والـكنيسة القومية . وطالما أدركنا من شارلمان الشعور العام بالمسئولية ، باعتباره قيِّما على مجتمع مسيحى كبير ، وهذا الشعور إنما استمده من البابا هادريان ، الذى كتب إليه يحضّه على الفتح والتبشير والإصلاح . وعلى الرغم من أنه قلما رجع إلى رأى البابا فيما قام به من تنظيم الـكنيسة القومية ، فإنه أفاد من البابوية فى أمرين : الأول ما يتعلق بنحلة التبنى التى نبتت فى أسبانيا ، التى تجعل المسيح مخلوقا انبثق من الأب ، فهو بذلك أدنى منه مرتبة، فتقرر استنكارها بموافقة البابا . أما الأمر الثانى فيتعلق بعبادة الصور التى أعادها مجمع نيقية سنة٧٩٢ ، فعلى الرغم من أنها لا تختلف كثيراً عما هو معروف فى كنيسة روما ، فإن شارلمان ومستشاره الـكوين ، اعتبراها أنها ليست إلا عبادة للأوثان والأصنام ، ويرى بعض المؤرخين « دولنجر » أن ما اتخذه شارلمان من قرار إنما يمهد به إلى اتخاذ اللقب الامبراطورى ، وأبدى البابا استعداده لمهاجمة قسطنطين (السادس) وأمه أيرين والحط من قدرهما لأنهما حازا دون سند شرعى أملاكا تابعة للقديس بطرس (البابوية) .

فـكرة الامبراطورية : يؤكد اينهارت أن ما حدث سنة ٨٠٠ من تتويج شارلمان امبراطورا ، إنما جاء مفاجأة للشخص الذى لا يهم الأمر سواه . فيشير إلى أن شارل كان منذ أول الأمر راغبا عن اتخاذ اللقب الأمبراطورى ، وأصر على أنه لو علم بنية البابا (ليو الثالث) ، ما دخل الـكنيسة فى ذلك اليوم ، على الرغم من أنه من الأعياد الـكبيرة .

والواقع أن تتويج شارلمان إنما جاء نتيجة لما وقع من الحوادث والمؤامرات والمنازعات فى روما والقسطنطينية ، التى لا ترجع فى تاريخها إلى أبعد من سنة ٧٩٨ ذلك أنه حينما مات البابا هادريان سنة ٧٩٥ ، تقرر اختيار ليو مكانه . والمعروف أن ليو خدم بالدار البابوية زمنا طويلا ، واشتهر بالدهاء السياسى . ولعل هذه الصفة الأخيرة هى التى جعلت رجال الدين وأهل روما ينتخبونه ، لما لمسوا فيه من القدرة على المحافظة على دوقية روما والمقر الرسولى ، على أن ما اشتهر به ليو من سوء الخلق ، وما جرى اتهامه به من السيمونية والحنث بالأيمان والتزوير والزنا ، كان مادة خصبة استغلها فى مهاجمته أعداؤه بروما ، ومنهم جماعة من أسرة هادريان تتطلع إلى أن يتولى البابوية رجل يمثل مصالحهم . يضاف إلى ذلك أن ما لجأ إليه ليو من التدخل فى إدارة المدينة أدى إلى سخط الناس وتذمرهم . واشتد قلق الناس حينما لم يُسفر تحقيق هذه الاتهامات عن نتيجة حاسمة . فأخذوا يتساءلون ماذا تكون النتيجة لو تبيّن أن البابا مذنب ، من ذا الذى يستطيع شرعا أن يعزل البابا ؟ وإذا تم عزل البابا ، فما أثر ذلك على هذا المنصب ؟ وإلى من يتوجه المسيحيون ليهديهم ؟ أليس ثمة سلطة أخرى تُصْلِح تلك التى ثبت أنها ليست معصومة من الخطإ ؟ وأخذ الاعتقاد يرسخ ، بأن ما حصلت عليه البابوية من استقلال ، وما نعمت به من عدم المسئولية ، لم يؤد إلا إلى ما حل بالعالم المسيحى فى الغرب من فوضى الديانة والتفكك .

أيرين وقسطنطين : لو أن الأحوال كانت عادية ، لكان الحل الواضح أن يعود الأمبراطور إلى سابق مكانته من الزعامة ، فعلى الرغم من أن قسطنطين نبت من أسرة مكروهة ، فإنه ما زال شابا صغير السن فإذا تحرر من وصاية أمه أيرين ، فإنه ربما عاد إلى الطريق المستقيم ، وإذا رجع إلى الصواب ، صار له الحق فى أن يشرف على البابا فى الغرب . غير أن الافتراض جاء متأخرا ، لأن قسطنطين السادس وقع فعلا ضحية طموح أمه التى لم تتردد ، فى سبيل تحقيق رغبتها فى الانفراد بالحكم ، فى تحريض الجند على مهاجمته والقبض عليه وسمل عينيه وذلك فى سنة ٧٩٧ ، فظل فى الحبس حتى قضى نحبه .

والنتيجة التى ترتبت على ذلك ، أن العرش أضحى شاغرا . وعلى الرغم من أن رعاع الملعب هللوا لأيرين التى صارت امبراطورة ، فإن عملها لقى سخطا شديدا فى الأقاليم وعند العقلاء من الرجال .

أما أثر الجريمة فى الغرب ، فإن شارل لم يعلم بخبرها إلا أواخر سنة ٧٩٧ ، حينما جاءت رسل إيرين إلى آخن ، ولم تلبث أخبارها أن ذاعت فى أنحاء الغرب بعد طرد البابا ليو من روما سنة ٧٩٧ . وكأن الحادثين وقعا فى وقت واحد ، وكان لوقوعهما معا أهمية كبيرة . فالبابوية والامبراطورية هويتا سويا ، وإذا تلطخت سمعة البابوية بالعار ، حل بالإمبراطورية الدمار .

لم يقبل الفرنجة مطلقا أن يتولى عرش الأباطرة امرأة ، تعتبر زعيمة المتهرطقين. لم يرد فى المراجع مايشير إلى رد شارلمان على رسالة إيرين ، غيرأن رعاياه اعتقدوا أن البيزنطيين فقدوا ما كان لهم من حق قديم فى الانتخاب ؛ وأن ماجرى من الحوادث ليس إلا نذيرا ودليلا على غضب الله . واستبد اليأس بالناس فى مستقبل الكنيسة ، وتفككت عرى السلطان ، وتهدد العالم المسيحى الانحلال .

خاف الناس أن يحل ببيزنطة الدمار ، وأن تقع غنيمة فى يد المسلمين ، فكل أوربا كانت وقتذاك تتحدث عن شهرة هارون الرشيد وفخامة بلاطه فى بغداد ، وأنه لم يعد ثمة مايحول دون توغل جيوشه فى أوربا لتلتقى بالجيش الأموى من قرطبة ، فيتم بذلك سحق الأمم الغربية . وأحس الناس فى آسيا الصغرى بشىء من هذا الخوف . أما بطريرك بيت المقدس ، فإنه فقد كل أمل فى أن تتولى القسطنطينية حمايته ، فدعا شارل لينهض إلى مساعدته ، وأرسل رهبانه إلى إيطاليا بمفاتيح القبر المقدس .

كتب الكوين : أن ثمت ثلاث قوى فى العالم (المسيحى) : البابا والامبراطور والملك : وإذ أصاب البابا والامبراطور الفشل ، فلابد أن يضطلع بأعبائهما أقوى الملوك . ورأى شارل أن تسوية هذه الأزمة المزدوجة إنما تتم باتخاذ إجراءين : الأول : هو أن يعيد الثقة فى البابوية ، والأمر الثانى ، هو أن المحافظة على هذه الثقة مستقبلا

تتطلب إعادة الامبراطورية . وعلى الرغم من أنه لم يرَ مايدعو إلى أن يتخذ مباشرة اللقب الامبراطورى ، وأنه توقع مقاومة عنيفة من قبل البيزنطيين ، وأنه تشكك فى شرعية العمل الذى اقترحه ، فإنه أعدَّ نفسه لأن يتخذ عاجلا أو آجلا الخطوة الحاسمة.

قدم شارل إلى روما فى ٢٤ نوفمبر سنة ٨٠٠ ، ثم أخذ يشرح فى المجلس الذى عقده بعد ثمانية أيام من وصوله الأسباب التى جاء من أجلها ، وتألف هذا المجلس من رجال الدين من الفرنجة والرومان، وبعد أن استعرض كل الأدلة والأسانيد، تبين له براءة ليو من التهم الموجهة إليه ، واطمأن رجال الدين إلى سلامة موقف البابا . انتهى من هذا القرار فى ٢٣ ديسمبر سنة ٨٠٠[١].

وبعد يومين ، أى فى ٢٥ ديسمبر ، ازدحم بكنيسة القديس بطرس بروما حشد كبير من الفرنجة والرومان لغرض مختلف تمام الاختلاف ، كان ذلك يوم عيد الميلاد . وبينما كان شارلمان ينهض من ركعته ، بعد اختتام الصلاة ، تقدم نحوه البابا ليو ، ووضع التاج الامبراطورى على رأسه ، فهلل المصلون ، وهتفوا بشارل أغسطس ، المتوج بفضل الله ، الامبراطور المعظم ، المحب للسلام ، اللهم هبه الحياة الطويلة والنصر، ثم ارتفع دعاء الحاضرين فى صوت جهورى يطلبون من القديسين أن ينصروا الإمبراطور الجديد وأبناءه ورعاياه » وهكذا بُعِثت الامبراطورية ، وصار لغرب أوربا امبراطور رومانى مرة أخرى.

على أن مظاهرة بلغت ما بلغت من هذه الدقة والنظام ، من العسير أن تحدث دون أن يكون ثمة اتفاق سابق . لم يكن شارل فيما يبدو قد أخذ على غرة ، كما يزعم اينهارت لأنه قبل فى هدوء وأناة وصبر ، أن يجرى إلباسه العباءة الامبراطورية . ويروى لنا مؤرخ بيزنطى ماكر ، أنه جرى مسح شارل بالزيت المقدس من قمة رأسه

(١) فى نفس اليوم وصل إلى روما راهبان من قبل بطريرك بيت المقدس ، يحملان مفاتيح وعلم القبر المقدس ، وجبل الجمجمة calvaire ومفاتيح المدينة المقدسة ذاتها ــ ولعل هذا الإجراء قد جرى تدبيره ليرفع ، قبيل الاحتفال بعيد الميلاد ، من شأن الملك الذى يتطلع الجميع إلى أن يتخذ لقب زعيم المسيحية

إلى أخمص قدمه ، ولم تـكن هذه الطقوس غير مألوفة فى تتويج الأباطرة ، وتشيرrواية أخرى إلى ماحدث من مراعاة كل الرسوم التقليدية فى تتويج الامبراطور ، وفى نفس الوقت ، تم أيضا تتويج الابن الأكبر كما يخلف أباه فى مملـكة الفرنجة .

والواضح أن التتويج قام به جماعة ، فلا نستطيع أن نتصور أن ليو يسير على غير هدى فلابد أنه كان متأكدا من حضور هذا الجمع ، وأن البطريق (شارلمان)سوف يكون حاضرا . وتفترق حوليات لورش عن رواية إينهارت فى الإشارة إلى أن ليو استشار فى ذلك رجال الدين وأعيان الفرنجة وأهل روما، فوافقوه على أن يتخذ شارل لقب أمبراطور ، لأنه لم يعد بالقسطنطينية امبراطور . وتضيف الرواية ، أن شارل تلقى هذا القرار بما يليق به من التواضع والرضى . وأعقب ذلك إجراء التتويج .

اعتبر شارل نفسه ، كما اعتبره رعاياه ، الوريث الشرعى لقسطنطين السادس الذى خلعته أمه عن العرش، ولم يكن من رأى شرلمان وجود امبراطوريتين رومانية وبيزنطية ، إذ يعتبر الأمبراطورية وحدة غير قابلة للانقسام ، أما البيزنطيون فاعتبروه مغتصبا للحكم ولم يعترفوا به امبراطوراً . على أن شارل أدرك ما فى موقفه من نواحى الضعف ، فحرص على أن يصل إلى اتفاق مع بيزنطة ، وقامت فكرته على أن يتزوج من ايرين ، غير أن ذلك المشروع لم يتم ، لسخط الشعب البيزنطى وعزل إيرين . ولما تولى نقفور الحـكم سنة ٨٠٢ م عرض شارل عقد اتفاق مع أخيه نقفور مثلما حدث زمن دقلديانوس ، بأن تبقى الامبراطورية متحدة من حيث الفكرة ، على أن يحكمها أكثر من امبراطور . ولما لم تلق عروضه استجابة من قبل بيزنطة ، استولى على دالماشيا والبندقية التابعتين للدولة البيزنطية.ومع ذلك لم يحصل على اعتراف الحـكومة البيزنطية بلقب الأمبراطور . إلا بعد حربين وبعد أن تنازل عن بعض أملاكه، وبعد مفاوضات طويلة ، وبعد أن تعرضت الامبراطورية البيزنطية لهزيمة ساحقة على يد البلغار ، لقى فيها نقفور مصرعه . والواقع أن شارل لم يكسب امبراطوريته إلا بفضل ماحل بالدولة البيزنطية من كوارث ، وهذا هو الذى حدث فعلا حين قدم فى ٤ أبريل

سنة ٨١٢ إلى آخن رســـل من قبل الامبراطور ميخائيل الأول لإجراء تسوية ، فخاطبوا شارل بالامبراطور الباسيليوس . والمعروف أن شارل أرسل إلى الامبراطور ميخائيل رسـالة يشير فيها إلى سروره لمـا حدث من الاتفاق بين الامبراطوريتين الشرقية والغربية ، غير أنه لم تجر فى المفاوضات أية إشارة إلى الامبراطورية الغربية ، فمعنى ذلك أن ما اتخذه شارل من لقب امبراطور إنما هو لقب شخصى ، ولا يرتبط بأنه امبراطور على إقليم من الأقاليم ، أو على أقل تقدير أنه لم يكن امبراطورا رومانيا . ومن الملحوظ أن شارل منذ هذا التاريخ أسقط من لقبه عبارة « الذى يحكم الامبراطورية الرومانية » ولعل ذلك يعتبر جانبا من الثمن الذى دفعه للوصول إلى هذا الاتفاق . ويشير بعض المؤرخين إلى أن سنة ٨١٢ لا ٨٠٠ تعتبر تاريخا هاما، بسبب ما حدث من انقسام الامبراطورية الرومانية إلى شطرين : الامبراطورية الشرقية والأمبراطورية الغربية وبذلك يظل تاريخ الامبراطورية الغربية مستمرا على أن ذلك ليس هو المقصود بالاتفاق ، لأن أحدا من الـكارولنجيين ، باستثناء لويس الثانى ، لم يفكر فى استخدام لقب « الامبراطور الرومانى » لأنه ليس من حقهم ، وليست الأمبراطورية الرومانيه من ممتلـكاتهم ، فالمقصود هـــو الأمبراطورية البيزنطية والأباطرة البيزنطيون الذين اتخذوا لقب أباطرة الرومان .

ثم أقدم شارل فى سنة ٨١٣ على اتخاذ خطوة جديدة ، إذ رشح ابنه لويس ليكون قسيما له فى الحـكم،غير أن ذلك لم يتحقق أيضا لأن شارل مات قبل التصديق على معاهدة سنة ٨١٢ . والخلاصة أن الناس لم يجمعوا على اعتبار شارل امبراطورا ، ولم يترتب على اتخاذ لقب الامبراطور الرومانى نتيجة من النتائج ، فلم يصبح شارلمان بسببه صاحب سلطان فى أسبانيا أو بريطانيا أو أفريقيا التى كانت كلها ولايات تابعة للامبراطورية الرومانية فى الزمن الغابر ، بل لم يجلب اللقب الأمبراطورى إلى شرلمان شبراً من أرض لومبارديا التى أخضعها وتملك عليها قبلا .

ومع ذلك فإن شرلمان نظر إلى امبراطوريته على أنها دولة مقدسة ، وأحس أن

العناية الإلهية نصبته حاكما على المسيحيين ، واعتقد أنه أقام مدينة الله التي يقصدها أغسطين ، على أنها نظام دنيوى لسد حاجات الناس الدنيوية بما يرضى الله ، ولإصلاح الحياة الدنيا وتهيئة الناس إلى حياة أفضل فى العالم الآخر . على أن أغسطين رأى أن المظهر المادى لمدينة الله إنما يتمثل فى الكنيسة الكاثوليكية. ولم يجد شرلمان فى ذلك تناقضا ، إذ اعتبر نفسه على رأس النظامين الكنسى والدنيوى ، وأن امبراطوريته تطابق ما لكنيسة الله من مملكة على الأرض .

وكأن شارل نقل إلى حكومة الفرنجة فكرة الحكومة التيوقراطية التى أضحت عاملا هاما فى تاريخ غرب أوربا ، غير أنه فى الوقت ذاته تسبّب فيما سوف يقع من نزاع بين الامبراطورية والبابوية .

العلاقات بين شارلمان والمسلمين : ننتقل إلى مناقشة موضوع العلاقات بين شارلمان والمسلمين ، فالمعروف أن الأوضاع السياسية فى العالمين الإسلامى والمسيحى وقتذاك هى التى أدت إلى قيام هذه العلاقات . وهذه الأوضاع تتمثل فيما يلى :

أولا ــ العداء المستحكم بين بيت أرنولف (الكارولنجيين) وبين الأمويين فى الأندلس .

ثانيا ــ النضال بين الأمويين والعباسيين فى الشرق ، وامتداده إلى الأندلس ، ومحاولة العباسيين انتزاع الأندلس من أيدى الأمويين .

ثالثا ــ الحروب المستمرة بين العباسيين والبيزنطيين .

رابعا ــ العداء بين البابوية والامبراطورية البيزنطية .

تعرض الأمويون ، عقب قيام الخلافة العباسية ، إلى الاضطهاد والتنكيل والتعذيب ، فهلك منهم عدد كبير ، ومن نجا منهم التمس طريقا للاختفاء أو الهرب ، ومن الذين فروا من هذا الاضطهاد عبد الرحمن الأموى من سلالة هشام بن عبد الملك ابن مروان ، حيث لجأ إلى أسبانيا . واستطاع عبد الرحمن ، بفضل اليمنيين أن يقيم له ملكا فى أسبانيا على أنه حدث فى السنوات السابقة على قدوم عبد الرحمن ، أن أعلن

أحد القرشيين وهو عامر بن عمرو نفسه واليا على أسبانيا من قبل الخليفة المنصور وذلك سنة ٧٥٣ . وفى تلك الأثناء تطلع والى برشلونة إلى بيبن ليساعده ضد اليمنيين ، فنشأت بذلك العلاقة بين بيبن والمسلمين فى أسبانيا ، ووقع فى تلك الأثناء أيضا من الثورات فى شمال إفريقيا مادعا العباسيين إلى أن يرسلوا حملات انتهت بالاستيلاء على القيروان سنة ٧٦١

وفى شمال البرانس حدث من الأحوال ما يماثل ذلك ، إذ لم تهدأ ثائرة جنوب غالة منذ أن نهض بالحكم حجاب البلاط ، وذلك لتغلب العنصر الرومانى بهذه الجهات ، ولما تمتع به الكونتات من استقلال يكاد يكون كاملا — وترتب على ذلك أن حاكم اكيتانيا المعروف باسم كونت أود Eudes ، حينما أحس بما يتعرض له من تهديد من قبل حجاب البلاط ، عمل على تأمين نفسه ضد شارل مارتل ، فزوج ابنته من والى الثغر المعروف باسم عثمان سنة ٧٣٠ ، بينما تنازل مورونتوس Maurontus كونت مرسليا لأمير أربونة (ناريون) عن آرل وأفينيون ومدن أخرى . ولما مات أود سنة ٧٣٥ ، انقض شارل مارتل على اكيتانيا ، فاحتل مدنها ، غير أنه لم يلبث أن ترك السلطة فى أيدى أمرائه ومقطعيه ، ولم يهاجم المسلمين الذين سيطروا وقتذاك على ساحل خليج ليون . وماوجهه شارل مارتل سنة ٧٣٩ من حملة حربية لم يقصد بها المسلمين ، بل وجهها ضد مورونتوس الذى لاذ بالهرب . ثم ازداد العداء ضد دوقات الجنوب ، بعد أن تم عزل شلدريك الثالث آخر ملوك الفرنجة ، وتولية الملك بيبن سنة ٧٥١ ، وعندئذ وجد عبد الرحمن الأموى فى وايفر دوق اكيتانيا حليفا قويا ضد خصمه الفرنجى ، على أن سقوط أربونة سنة ٧٥٩ فى يد بيبن أدى إلى أن تصبح أطراف مملكته مصاقبة لأملاك المسلمين (والى برشلونة) .

وما حدث فى السنوات الواقعة بين ٧٦٠ ، ٧٦٨ من هزيمة وايفر ، وتطور التحالف بين البابا والفرنجة لمقاومة الدولة البيزنطية ، يعتبر عاملا هاما فى تطور العلاقات بين الفرنجة والمسلمين . ذلك أن سياسة البابوية كانت ترمى وقتذاك إلى منع قيام تحالف بين ملك الفرنجة وقسطنطين الخامس الامبراطور البيزنطى .

ثم وقع من الحوادث ما جعل ببين يبعث بسفارة إلى بغداد وجدت ترحيبا من قبل الخليفة العباسى (المنصور) ، إذ أن العلاء بن المغيث الذى أرسله المنصور سنة ٧٦٣ لاسترداد الأندلس من الأمويين ، حلت به هزيمة ساحقة أدت إلى فشل سياسة المنصور ، ولعل هـذا الفشل هو الذى جعله يستقبل سفارة ببين ، يضاف إلى ذلك أن تأييد الفرنجة للسياسة البابوية ضد القسطنطينية[١] يعتبر أيضا من العوامل التى جعلت ببين يسعى إلى أن يلتمس صداقة الخليفة العباسى ، عدو الأمبراطور البيزنطى ، ففى سنة ٧٦٥ أرسل ببين سفارة إلى بغداد ، مكثت بها ثلاث سنوات ، ثم عادت يصحبها رسل من قبل الخليفة المنصور يحملون الهدايا إلى ببين ، فاستقبلهم ببين بالحفاوة ثم عادوا بطريق البحر إلى بغـداد ، وقد حملوا معهم هدايا ببين ، ولم يكن المقصود بسفارة ببين سوى إقامة حلقة من المحالفات ضد أمويى الأندلس[٢] والامبراطور البيزنطى .

مات ببين سنة ٧٦٨ ، وخلفه على الحـكم ولداه شارل وكارلومان ، وتولى هادريان البابوية سنة ٧٧٢ ، فبدأ التحالف بين شارل والبابوية . وفى السنوات الخمس التالية ، التى أمضاها شارل فى قتال السكسون واللومبارديين ، تعرض مركز عبد الرحمن الأموى للخطر ، نتيجة ارتباط الحزب العباسى بالأندلس بثورة قام بها البربر فى وسط اسبانيا ، وهـذه الثورة أعدها ودبرها ثلاثة ولاة : والى برشلونة ، سليمان بن يقظان العربى ، وعبدالرحمن بن حبيب الذى اشتهرت أسرته بعداوتها للأمويين ، وأبو الأسود

---

(١) أشاع البـابا فى سنة ٧٦٠ أن الإمبراطور البيزنطى أرسل أسطولا مؤلفا من ثلاثمائة سفينة لمهاجمة روما وفرنسا ، وحرص البابا على أن يقدم ببين إلى إيطاليا لمقاومته ؛ انظر :

Pierenne : Muhammad ad & Charlemagne p. 227.

(٢) رفض ببين إجراء محالفة مع أمير برشلونة ، ورأى أن يتحالف مع العباسيين أعـداء الأمويين بعد أن أخضع اكيتانيا ومد أطراف ملكه نحو الجنوب ؛ إذ كان يطمع فى مواصلة التوسع جنوبا انظر : (Cambridge Medieval History II. 604.)

يوسف (الحسين بن يحيى) الذى أمر عبد الرحمن الأموى بحبس أبيـــه ، وتضمنت خطتهم حشد قوات من البربر بإفريقية وقطع طريق الاتصال بين عبد الرحمن والبحر المتوسط، ولتدعيم مركزهم فى الشمال توجه سليمان وابنه يوسف إلى شارل فى بادربورن وعرضا عليه حمايتهم وحماية ممتلكاتهم ، مقابل الحصول على مواضع فى شمال أسبانيا.

على أن ذلك لم يكن السبب الوحيد الذى دفع شرلمان للقيام بمغامرته فى أسبانيا . لم يشر اينهارت إلا عرضا إلى أن شارل كان يأمل فى الاستيلاء على بعض المدن الأسبانية غير أن ما ورد فى قصة تيرين المزعوم التى ترجع إلى القرن الثانى عشر الميـلادى من أن القديس جيمس الرسول ، الذى يقع مشهده فى Comopostele بشمال غربى أسبانيا، تراءى لشارل أثناء النوم ودعاه للنهوض لاستخلاص جليقية من يد المسلمين، وهى التى يقع بها قبره . هـــذه الرواية إنما تدل على ما يكنه المسيحيون وقتذاك من الـكراهية للمسلمين الذين استولوا على بلادهم، ومن الدليل على ذلك أن ملوك أستوريس وأساقفة طليطلة ظلوا على اتصال مستمر بالمسيحيين فى مختلف البلاد ، فأثاروا عندهم الشعور العدائى ضد المسلمين . أما رجال الـكنيسة فصاروا يترقبون الساعة التى ينبغى أن تعود فيها قرطاجنة القديس أغسطين إلى حظيرة الصليب ، وأن تقوم المجامع الـكنسية بوضع قوانين اسبانيا على نحو ما حدث فى الزمن الغابر . يضاف إلى ذلك أن شارلمان تلقى من البابا هادريان أن فـكرة الحرب ضد الوثنيين هى رسالته التى اختص بها، فأعد شارل نفسه لخدمة الـكنيسة سواء على نهر الألب أو على نهر الإبرو. وربما رأى شارل أنه من الخير أن يقوم بتقوية الأطراف الأكيتانية ، وأن يمعن فى تخويف الغاليين باستعراض جيشه الضخم من الفرنجة ، وأن يجعل لهم عدواً آخر من غير الفرنجة يحاربونه . والواقع أن شارل كان يهدف إلى أن يجعل سلطانه يمتد إلى أقصى طرف، يتفق مع استقرار الأمور، وأن ينشر داخل تلك الحدود تلك الصورة من الإيمان والحضارة التى أعدها فى نطاق كنيسة الفرنجة .

وكيفما كان الدافع ، فإن شارل سار بجيوشه فى ربيع سـنة ٧٧٨ ، فعبر جبال

البرانس مجتازا مضيق روتسيفال، وفى بامپلونا أعلن البشكنس الخضوع له ، ثم توجه إلى سرقسطة ، وكان ابن العربى قد أشار بأن سرقسطة سوف تفتح له أبوابها ، غير أن ذلك لم يتحقق ، إذ امتنعت المدينة على شارل على الرغم من طول حصارها . ولما بلغ شارل نبأ اندلاع الثورة فى سكسونيا ، أمر برفع الحصار عن سرقسطة وانسحب بجيشه راجعاً إلى غالة ، وخرب أثناء مسيره أسوار بامپلونا . غير أنه أثناء اجتيازه مضيق روتسيفال ، تعرضت مؤخرة جيشه للهجوم من قبل البشكنس ، فأنزلوا القتل والنهب بجند شارل، وفى هذه المعركة لقى رولان مصرعه ، وهذه المعركة خلدتها قصيدة رولان ، التى سوف نتحدث عنها فيما بعد .

وما حدث لشرلمان من الهزيمة فى روتسيفال جعلته يفكر فى إقامة إمارة مستقلة فى داخل مملكة الفرنجة ، وهى مملكة اكيتانيا ، وجعل مهمتها الأساسية ملاحظة نشاط المسلمين فى منطقة الحدود ، ونصب على هذه المملكة ابنه لويس ، الذى تعلم من أبيه أن يعتبر المسلمين فى أسبانيا عدوه الطبيعى ، وأن نهر الإبرو هو الحد الطبيعى لمملكته، ووجد فى الدوق وليم أمير تولوز قائداً كفأ لتنفيذ سياسة حازمة على الحدود.

على أن ما حدث من الحروب بين قوات الفرنجة والقوات الأموية كان فى صالح الأمويين حتى سنة ٨٠١ ، حين سقطت برشلونة فى يد الفرنجة ، ثم استولى لويس سنة ٨١١ على طرطوشة ، وأعقب ذلك عقد هدنة مع الحكم استمرت قائمة حتى وفاة شارلمان . على أن الطرف الأسبانى لم يمتد إلى نهر الابرو، إنما وصل إلى خط يمتد شمال، وشمال شرق برشلونة ويسير موازياً لجبال البرانس . وفى سنة ٧٩٩ خضعت جزر البليار لحماية الفرنجة .

وما جرى فى الشرق من الأحداث ، إنما يدل على ما أحرزته الجيوش العباسية من انتصارات على البيزنطيين فى آسيا الصغرى زمن المنصور والمهدى ٧٧١ ، ٧٧٢ ، ٧٧٥ ، ٧٨١ ، فطلبت ايرين الصلح مقابل دفع الجزية .

ثم ازداد مركز ايرين حرجا بسبب افتقارها إلى التأييد من داخل البلاد ،

وما تعرضت له من عداوة الغرب، فحاولت أن تعقد محالفة مع شارل يزيدها قوة ومتانة الاقتراح بزواج ابنها قنسطنطين من ابنة شارلمان روترود ، وأحبت أن تجتذب البابا إلى جانبها فأعادت عبادة الصور المقدسة . غير أن البابا هادريان كان حريصاً على منع التحالف بين بيزنطة وآخن ، فعمد إلى إخطار شارلمان بما جرى من العلاقات بين ايرين والعباسيين ، وإلى مايقوم به البيزنطيون من التآمر فى إيطاليا ولاسيما بين الأمراء المقطعين من اللومبارديين فى الجنوب . ففى سنة ٧٨٧ أرسلت ايرين إلى أريقيس دوق بنيڤنتو خلعة البطرقية ، على أنه من أتباع قنسطنطين السادس ، وعلم شارل بذلك من البابا ، غير أن جريموالد الذى خلفه فى الدوقية لم يقبل عروض ايرين وابنها قنسطنطين السادس . فتعرضت بنيڤنتو للهجوم من قبل الحاكم البيزنطى فى صقلية ، فنهض شارلمان لمساعدته ، وأنزل الهزيمة بحاكم صقلية والبيزنطيين ، واستولى على أستريا ، غير أنه حدث من الأمور ما جعل شارل يسير شمالا لمواصلة الحرب مع الآڤار والسكسون فأغفل أمور الشرق .

وتعرضت أملاك البيزنطيين لغارات شديدة برا وبحرا من قِبلَ العباسيين ، وأشد هذه الحروب وأخطرها تلك التى وقعت سنة ٧٩٦ ، حين أوغل الرشيد بجيوشه فى آسيا الصغرى ، وفرض الصلح على إيرين ، مقابل دفع جزية كبيرة ، وفى نفس السنة أرسلت إلى شارل تعلن تنازلها عن دعاويها فى بنيفنتو واستريا ، والراجح أنها احتاجت إلى مساعدته ضد الأحزاب البيزنطية وهرون الرشيد ، وترتب على ذلك أن قَبِل شارل استئناف العلاقات الودية مع إيرين .

يشير بكلر إلى أن فكرة التحالف بين هرون الرشيد وشارل إنما ترجع إلى مادبره البيزنطيون من مؤامرات فى جنوب إيطاليا ، وإلى ماوقع من التخاصم بين أفراد البيت الأموى فى الأندلس على الحكم ، والاستنجاد بشارل للتدخل فى تسوية المشاكل الأسبانية . فتألفت سفارة شارل إلى هارون الرشيد من سجسموند ولنتفرد ، ومن يهودى اسمه إسحاق ليتولى الترجمة . ويبدو أن السفارة ارتحلت حوالى سنة ٧٩٧

ومكثت ثلاث سنوات ، مات أثناءها سجسموند ولنتفرد . والراجح أنهما ماتا بعد أن أنجزا مهمتهما ، لأن هارون أرسل مبعوثين ردا على هذه السفارة . ويزعم بكلر أن أغراض السفارة اشتملت على السعى لتحقيق هدف أو أكثر من الأهداف الآتية : وضع شارل فى أسبانيا وغرب البحر المتوسط باعتباره مسئولا عن مصالح العباسيين فى هذه الجهات . الهدف الثانى التحالف مع الرشيد وما يترتب على ذلك من التعاون المشترك ضد الأمويين بأسبانيا وضد البيزنطيين ، أما الهدف الثالث فينطوى على تيسير قدوم الحجاج المسيحيين إلى الأراضى المقدسة . ويشير إلى أن ما اتبعه شارل من سياسة هجومية فى أسبانيا أرضت الخليفة العباسى ، فاستولى على برشلونة ووشقة وبامبلونا ، وأقام حكومة الطرف الأسبانى ، ورد هجوم العرب على جزائر البليار سنة ٨٠٧ . وما حدث من هجوم فى البحر المتوسط من قبل الأغالبة بشمال إفريقية الذين يعترفون بالتبعية للرشيد ، يعتبر تأييدا من قبل حكومة بغداد لنشاط شرلمان . فى سنة ٨١٠،٨١٢ هاجم الأغالبة جزر قورسيقة وسردينية وصقلية ، وأعقب هذا الهجوم النزول بإيطاليا ذاتها سنة ٨١٣ ، ولعل كل ذلك هو الذى أرغم كلا من الإمبراطورين نقفور وميخائيل على تسوية الأمور بشأن تتويجه إمبراطورا .

أما مسألة الحجاج المسيحيين ، فالمعروف أن المسيحيين لم يتعرضوا لمعاملة سيئة من قبل المسلمين ، وأن عددا كبيرا منهم دخل فى خدمة الحكومة العباسية . غير أن الحركة الناهضة لعبادة الصور فى بيزنطة وظهور نحلة التبنى فى الغرب ، أدَّت إلى أن ينفصل عن القسطنطينية لا الغرب فحسب ، بل الكراسى الرسولية الأخرى روما ، والإسكندرية ، وبيت المقدس وانطاكية . وما أورده إينهارت من الإشارة أن هارون الرشيد قبل أن يكون لشارل السلطة والإشراف على الأماكن المقدسة ، ربما كان المقصود من ذلك التخلص من النفوذ البيزنطى فى بيت المقدس . وتشير الحوليات الملكية وهى المصدر الوحيد المعاصر ، والذى نقل عنه إينهارت هذه الرواية ، إلى ما قام به بطريرك بيت المقدس من إرسال مفاتيح كنيسة القيامة إلى شارل فى ٢٣ ديسمبر

سنة ٨٠٠ وماحدث سنة ٨٠٨ يدل على كراهية رجال الدين المحليين لرجال الدين فى بيزنطة ، إذ أن رهبان جبل الزيتون طلبوا إلى البابا أنهم يأملون فى حماية ملك الفرنج. منافس نقفور وحليف هارون الرشيد ، من ظلم البيزنطيين المتغطرسين .

الواقع أنه من العسير أن نتصور أن البطريرك والخليفة (الذى لم يرد له ذكر فى المصادر) اعترفا بشرلمان حاميا على الأماكن المقدسة . والراجح أن مفاتيح القبر المقدس وموضع صلب المسيح لم تكن إلا كالمفاتيح الصغيرة لكنيسة القديس بطرس بروما ، التى يهديها البابوات إلى كبار الشخصيات ، أو كالشارات والتعاويذ، وكذلك كان شأن مفاتيح المدينة وجبل صهيون ومدينة داود ، حيث حفلت الكنيسة الكبيرة بكثير من الذكريات المثيرة كالحلقة والعمود الذى صلب عليه المسيح، والموضع الذى هبط فيه الروح القدس على المسيح ، والموضع الذى به قبر العذراء مريم ، والحجر الذى تحجر عنده القديس إيتين . أما العلم فلم يكن إلا الصليب ذاته ، وجرت تسميته بهذا الاسم لأنه يشبه اللواء الذى انتصر به المسيح ، وهو عبارة عن قطعة من المعدن المذهب ، اشتملت على قطعة صغيرة من صليب الصلبوت . هذه المقدسات لم تكن لها أهمية سياسية ، وليست إلا شاهدا على مايقدمه رجال الدين فى بيت المقدس من الشكر لشارلمان ، أما البطريرك فاعتبرها من مظاهر التبريك .

إنما هل كان ثمة ما يدعو البطريرك لأن يبذل الولاء لشرلمان ؟ حدث فى شهر يونيه سنة ٨٠١ أن استقبل الامبراطور أثناء عودته من إيطاليا إلى فرنسا ، رسولين أحدهما من قبل هارون الرشيد والآخر من قبل إبراهيم بن الأغلب ، فأخبراه بأن السفارة التى أرسلها سنة ٧٩٧ إلى الرشيد نجحت فى مهمتها ، ووصل إسحاق سنة ٨٠٢ بهديه الرشيد ، ومن بينها الفيل الذى اعتبروه من الغرائب .

وما أرسله أميرا آسيا وإفريقيا إلى شرلمان من الهدايا إنما ترمز إلى ما يربطهما من علاقات المودة مع شارل . والراجح أنه لم يكن ثمة من التحالف الدبلوماسى بين هارون وشارل إلا ما كان من انقطاع الحروب بينهما . وفيما يتعلق بالأراضى المقدسة

لاتخرج المسألة عن أن مابدا من مظاهر النبل والشرف من قبل خليفة اشتهر بالتسامح وكفل الأمن والطمأنينة للمسيحيين فى بلاده ، وأتبع ذلك بما أرسله من هدايا نالت تقدير شارلمان ، ولم تكن المصالح المشتركة بينهما فى حاجة إلى أن يتنازل هارون الرشيد عن جانب من أراضيه أو سيادته إلى شرلمان . ويضاف إلى ذلك أن هدايا هارون الرشيد إلى شرلمان . التى أرسلها مع سفارته سنة ٨٠٧ لاتقل فى أهميتها عن الهدايا التى جاء بها من قبل ، فمنها منسوجات رفيعة رائعة الجمال ، ومنسوجات حريرية وعطور وشمعدانات ، وساعة من البرونز المطلى بالذهب ، تدق الساعات ، وحين تدق ساعة الظهيرة ، يخرج من وجهها اثنا عشر فارسا من اثنتى عشرة نافذة ، تغلق خلفهم .

هذه العلاقة الودية بين الملكين ترتب عليها نتائج طيبة للمسيحيين الذين جاءوا إلى الأراضى المقدسة أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع ، وورد ذكرها فى بعض الوثائق التى ترجع إلى مابعد وفاة شرلمان مثل رحلة الراهب الفرنجى برنارد التى قام بها إلى فلسطين ووفقا لهذه الشواهد ، ازداد اهتمام شرلمان بما فى بيت المقدس من أديرة وخانات ، يأوى إليها الحجاج القادمون من مملكته ، ففى جنوب كنيسة بيت القيامة شيد شرلمان خاناً اختص بالنزول فيه المسافرون الذين يتحدثون اللغة الرومانية ، وأهدى شرلمان كنيسة العذراء مكتبة ضخمة ، ووقف عليها بعض الحدائق والبساتين وشيد أيضا ديرا يتسع لسبعة عشر راهبا .

استمرت العلاقات بين الأمبراطور وبطريرك بيت المقدس ، ففى سنة ٨٠٩ بعث البطريرك إلى البابا ليو الثالث يطلب إليه التوسط عند الامبراطور للاهتمام بأمر اثنين من حجاج الفرنجة . وحوالى هذا الوقت تعرض الرهبان الفرنجة بدير جبل الزيتون للإهانة والرمى بالزندقة من قبل الرهبان اليونانيين بدير القديس سابا ، لأنهم اعترفوا بنحلة التبنى ، واشتد قلق هؤلاء الرهبان من الفرنجة ، لأنهم اعتبروا أنفسهم غرباء فى فلسطين ، وأرسلوا بشكواهم إلى البابا الذى رفعها إلى الامبراطور ، وهذا دليل على أن شارل لم تكن له السيادة على هذه الجهات .

يضاف إلى ذلك ما أورده اينهارت عن سياسة شارلمان إزاء المسيحيين ، إنما يدل على أن ما يقوم به شارل من العطف على المسيحيين فى سائر الجهات : فى مصر وتونس والإسكندرية وقرطاجنة ، إنما يتطلب إنشاء علاقات ودية مع الأمراء المسلمين الذين يعيش فى بلادهم عدد كبير من المسيحيين .

والخلاصة أن حماية شرلمان للأراضى المقدسة ليست إلا أسطورة ، يرتبط تفسيرها بالعلاقات بين شارلمان وهرون الرشيد . فى أثناء حكم شارلمان لم يعلم الناس شيئاً عما للأمبراطور من سلطان وسيادة : أيًّا كان هذا السلطان ، على الأراضى المقدسة . وظل الحال على هذا النحو مدة ٧٥ سنة أى حتى سنة ٨٨٣ ، ٨٨٧ ، أى حين ظهرت ملاحم شرلمان لراهب دير القديس جال ، وهـذا الراهب الذى اشتهر بسعة اطلاعه ، رأى فى سبيل تعظيم بطله أو رغبة فى إثارة خيـال الناس ، أن يضيف إلى ما تلقّاه شارلمان فعلا من الهدايا الواردة فى كتاب اينهارت والحوليات الملـكية ، كل منتجات الشرق ، بل إنه ذهب إلى أكثر من ذلك ، فاخترع محادثة جرت بين الخليفة ورسل الفرنجة حيث صرح لهم الخليفة بأنه على استعداد أن يكون نائباً عن شارل فى حكم الأرض المقدسة ، لأن أخاه شارل ليس فى استطاعته أن يجتاز البحر لحماية هذه الأراضى من المتبربرين .

ثم حدث فى سـنة ٩٢٥ أن ظهرت قصة أخرى يشير مؤلفها وهو أحد الرهبان إلى أن ما فى ديره من قطرات الدم المقـدس إنما هى من دماء المسيح ، جاء بها أحد المسلمين .

شارل والقصص : ما ألفه الفرنسيون من القصص عن شارلمان يفوق بكثير ما ألفه الألمان. ولابد أن نرجع إلى الشعر الفرنسى كيما نتعرف إلى قصص رولان وتبرين ومارسيلا ومانيلون والرحلة إلى بيت المقدس ، والاثنى عشر فارسا ، والحروب مع المسلمين بكل جهات أوربا . على أن الحقيقة تبدو غريبة على الذين يظنون أن المـانيا ، وليست فرنسا ، هى التى تدين بوجودها إلى شارلمان . والواقع أن ذلك لم يكن أمراً

غريبا ، لو أدركنا أن شارل أول ما ظهر عند الجرمان ، ظهر على أنه محارب شديد القسوة مجرد من الرحمة ، دمر ما يعتز به الجرمان من الانفرادية والذاتية . وأهم ما تذكروه من أعماله ، ماقام به من الانقضاض على أطراف بلادهم ، وقمع ثورتهم وانتزاع شبانهم وقذفهم فى الحروب فى جهات نائية . بينما يعتبر شارل عند غاله منقذاً وحامياً إذ رد عنها المسلمين والدانيين . واستمتعت غاله بهدوء نسبي ، على الرغم من الحروب المستمرة ، التى لم تنشب إلا من أجل مصالح غاله ، ونبتت من أفكار لم تتردد غاله فى قبولها .

على أن أصول أسطورة شارلمان ظلت مضطربة . وكل ما نستطيع أن نقوله عنها على وجه التحقيق أن أسسها ترجع إلى القرن التاسع وأوائل القرن العاشر . إذ أن قصصًا لا حصر له عن بيت أرنولف انتشر وذاع فى أنحاء فرنسا ، واتخذ الشعراء المنشدون الوقائع المثيرة مثل حصار بافيا وهزيمة رونسيفالا ، وألفوا منها مقطوعات قصيرة مثيرة ، اعتبرها السامعون لها موجزا لما وقع من الحوادث ، وتركزت حلقات من الأناشيد حول أسماء كبار الفرسان مثل اجهارد الصنجيل ووليم دوق تولوز ، وأريك دوق فريولى .

على أن المؤلفين لم يقنعوا بالحقائق المجردة ، بل أضافوا إليها حلقات من نسيج خيالهم ، أو من قصص تتعلق بالأبطال المتقدمين ، فجرت رواية القصص القديمة بأسماء جديدة ، وبذلك تطورت المأثورات الشعبية منفصلة ومستقلة عن المصادر الأدبية . فالأناشيد المعروفة بأناشيد المآثر تتيح لنا الإلمام بتواريخ البلاط ، والإلمام بكتاب اينهارت يوقفنا على حياة شارلمان .

على أن ما استمدته هذه الأناشيد والأغانى من هذه المصادر من المعلومات تعتبر بالغة الغموض والشيوع ، إذ تناولها من التغيير والتحوير ماجعلها تتناسب مع حاجات الشعر ومقتضياته .

على أن أعظم هذه القصائد وأشهرها ، هى أنشودة رولان . والأصل التاريخى كما

أورده اينهارت فى ترجمته لحياة شارلمان (حوالى سنة ٨٣٠) والذى سبقت الإشارة إليه عند الحديث عن روتسيفال ، إنما يتلخص فى أن مؤخرة جيش شرلمان تعرضت عند اجتيازها مضيق روتسيفال لخيانة البشكنس الذين نصبوا كمينا فى الغابات الكثيفة التى تغطى جانبي المضيق ، ثم انقضوا على مؤخرة الجيش فقضوا على كل رجالها ، ونهبوا ما معهم من الأمتعة ، وتفرقوا فى جنح الظلام ، فلم يعثر لهم على أثر . ويختتم اينهارت قوله : وفى هذا الحادث لقى مصرعه اجيهارد صنجيل الملك ، وأنسلم حاجب القصر ، ورولان دوق بريتانى ، وآخرون . وفى مخطوطة ترجع إلى القرن التاسع وردت مرثية بالشعر اللاتينى فى اجيهارد . وما زال شاهداً قبرى رولان واجيهارد قائمين ، وأهميتهما ترجع إلى الإشارة إلى تاريخ المعركة ١٥ أغسطس سنة ٧٧٨ ، وهذا الحادث أشار إليه مؤرخ آخر فى سنة ٨٤٠ ، إذ لخص رواية إينهارت وأضاف إلى ذلك أنه لا داعى لتكرار أسماء القتلى فى كتابه نظرا لأنها معروفة وقد جرى تسجيلها .

ثم ظلت قصة روتسيفال مطوية نحو مائتى سنة ، حتى إذا ظهرت من جديد طرأ عليها من التغيير ما يصح أن تدهش له ، لولا أننا نعلم أن هذا التغيير أمر مألوف فى هذا النوع من القصص . وترتب على ذلك أن الحادث التاريخى البسيط تضخم حتى أصبح ملحمة حافلة بأعمال البطولة ، وأضحى لها دلالة مثالية قوية . ذلك أن شارلمان الذى لم يتجاوز الثامنة والثلاثين من عمره ، عند قيامه بالحملة على أسبانيا ، أضحى رجلا وقوراً من رجال الدين ، يبلغ من العمر مائتى سنة ، صار ملكا ذا لحية فى بياض الثلج ، امبراطورا مقدسا ، بطل العالم المسيحى ضد المسلمين ، القائد المظفر الذى امتدت فتوحه فى أنحاء العالم المتمدين ، أضحت الحملة ذاتها حلقة كبيرة من حلقات النضال بين المسيحيين والمسلمين ، وتحول البشكنس المغيرون ، وتضاعف عددهم حتى أصبحوا جيشا كبيرا من المسلمين ، يبلغ عدده آلافا من الجند ، واختفى اسم كل من إجيهارد وأنسلم

من مؤخرة الجيش ، ولم يبق إلا رولان ، الذي أصبح ابن أخي الامبراطور ومساعده الأيمن ، وأعظم محارب فى العالم .

جاز قوة خارقة ، وصار بطلا قام بأعمال مجيدة لاحصر لهـا . صحبه صديقه الحميم أوليفر ، ورفاقه العشرة المختارون ، وهم فئة مختارة من أشجع الفرسان ، يعتبرون زهرة الفروسية الفرنسية . أما الـكمين الذى أدى إلى مصرعهم فلا زال يعتبر نتيجة للخيانة من قبل الفرنجة ، إنما أصبح مؤامرة محكمة اشترك فيها مارسيليون ملك المسلمين وكونت جانيلون أحد نبلاء فرنسا ، زوج والدة رولان . والغرض من كل المؤامرة هو القضاء على رولان ورفاقه الفرسان . وهـذه المؤامرة إنما نشأت بسبب مايكنه جانيلون من الـكراهية لرولان ، والخلاصة أن ما بدأ بهزيمة بسيطة لاتختلف عما يجرى فى التاريخ من الهزائم صار بعد مائتى سنة ملحمة من أروع الملاحم ، وهى قصيدة رولان .

وهذه القصيدة اتخذت صورتها النهائية ، فيما يبدو ، حوالى نهاية القرن الحادى عشر ، وليس من العسير أن ندرك السبب الذى جعل الملحمة تتخذ صورتها التى انتهت إليها ، وأنها نالت مانالته من الذيوع والانتشار . فالمعروف أن النضال اشتد بين المسلمين والمسيحيين فى أسبانيا حوالى نهاية القرن العاشر الميلادى ، وفى نفس الوقت ذاعت أساطير وأغانى البطولة والفروسية فى أنحاء أوربا على امتداد طرق التجار والحجاج ، وهذه الأساطير ارتبطت بأسماء الأبطال المحليين ، وارتبطت أيضا بالمدن والأديرة الهامة الواقعة على هذه الطرق . فطريق الحجاج المؤدى إلى مشهد القديس جيمس الرسول فى كومبوستيلا يمر بنفس المضيق الذى اجتازته مؤخرة جيش شارلمان ، وحلت به الهزيمة . فمن الطبيعى أن يتغنى المسافرون بصورة مجيدة لما حدث بهذا الموقع من مأساة . وشهد القرن العاشر أيضا ازدهار النظام الإقطاعى وتطور قانون الفروسية الذى ألزم التابع بأن يؤدى خدمات لسيده ، يضاف إلى ذلك أن الدعوة إلى الحرب الصليبية الأولى ألهبت حماس العالم المسيحى للحرب المقدسة ضد المسلمين .

ليس لدينا دليل واضح على أن قصيدة رولان ترجع إلى أعقاب الحرب الصليبية

الأولى كما يشير بعض الكتّاب. والراجح أن هذه القصيدة التي نعتبرها أيضا أسطورة، بدأت في وقت أكثر تبكيرا ، يجعلها بعضهم ترجع إلى الفترة بين الفتح النرمندي لانجلترا ١٠٦٦ ، وبين الحرب الصليبية الأولى ١٠٩٦ ، وذلك أن الشاعر في مستهل قصيدته يفترض أن سامعيه يعلمون كل شيء عن شرلمان وأمرائه ، وعن صداقة رولاند وأوليفر ، وعن جانيلون ، أي أنه يروي قصة وعتها أفئدة الناس وعقولهم .

والواقع أن دراسة هذه القصيدة تتطلب اهتماما خاصا للتعرف إلى المراحل التي تحوّل فيها التاريخ إلى أسطورة ، وتحوّلت الأسطورة إلى ملحمة . فرولان دوق بريتاني لابد أنه كان رجلا هاما ، غير أنه لم ترد عنه سوى إشارة تاريخية عابرة . ولماذا جرى اختياره ليكون بطلا دون غيره من الذين حاربوا معه ولقوا حتفهم مثله ؟ كيف تطورت القصة ؟ وفي أيّ صورة ؟

تعتبر قصيدة رولان أقدم الملاحم المدوّنة بالفرنسية القديمة والمعروفة بملاحم المآثر، فهي قصيدة قصيرة لا تزيد على ٤ آلاف بيت . جرى فيها نعت شرلمان بعدد من الصفات الأسطورية المرتبطة بمكانته على أنه أمبراطور. فما أحاط المنصب الامبراطوري من قداسة ، انتقلت إلى شارلمان من قسطنطين وجستنيان ، وجعلت الأسطورة عمره مديداً لا حدّ له .. وما اتصف به من لحية في بياض الثلج، وقوة لم تنل منها السنوات العديدة ، إنما ترمزان إلى القداسة والأبوّة . فهو يمثل الإله ، ومنشئ العالم المسيحي وتتحدث الملائكة مع شرلمان ...

ومن تحت هذه الشخصية التي تعبر في ضخامتها أكبر من الحياة ذاتها ، نلحظ شيئاً آخر . نلحظ صورة السلطان المثالي ، الذي اشتهر بالعدالة والحكمة والعظمة والإخلاص . وبذل الشاعر جهده في أن يصف لنا في شرلمان فكرة العصور الوسطى عن الملك ، بأنه لم يكن عجولا في الرد ، ولم يبادر بالقيام بعمل إلا بناء على نصيحة مجلسه ، وله الحق في الاعتراض على كل اقتراح قبل أن يُعْرَض للتصويت ، غير أنه إذا حاز الموافقة من المجلس ، تحتم تنفيذه . سواء أقر هو هـذا الاقتراح أو رفضه ،

ويقابل هذا بما يسلكه الأمراء الآخرون الواردة أسماؤهم فى الملحمة من انفرادهم بالعمل .

ثم يصف السلوك الشخصى لشرلمان ، من حيث مكانته ، ودماثته وإقدامه ، وقوته ، وشعوره الدينى المتأصل ، وصداقته ومحبته الزائدة لابن أخيه رولان وأقرانه ، وللشبان الذين يعتبرهم أبناءه ، فهو يركب ويحارب بين باروناته على أنه أعظم هؤلاء البارونات .

على أن الشعراء المتأخرين ازداد نزوعهم إلى تطوير هذه الأغراض على حساب الشخصية الأساسية (البطل) ، ومن هنا حدث فى فترة الحروب الصليبية أن دخلت الملحمة الأسطورية فى مرحلة جديدة من التطور ، إذ ساد الاعتقاد بأن شارلمان نهض من الموت ليقود أول حملة صليبية ، واستغل الشعراء هذه الناحية ، فأخرجوا ترجمة جديدة لحياة أول امبراطور غربى ، صوروه فى هيئة محارب صليبي ، ليست حياته الأولى إلا عبارة عن حروب متصلة ضد الكفار ، وأحكموا ابتداع قصة رحلة ، قام بها شارلمان إلى بيت المقدس ، وإلى القسطنطينية ، وعمدوا إلى تشويه الأناشيد القديمة التى تشير إلى الحروب القومية ضد الفرنجة فى إكيتانيا وبريتانى وسكسونيا ولومبارديا ، وأقحموا اسم المسلمين فى كل موضع من هذه المواضع .

السير الباز العربى

مفهوم الصحة العقلية فى التاريخ

لعله من الملائم أن نبدأ هذا البحث عن الصحة العقلية وعن مدلولها فى التاريخ بإيضاح لا غنى عنه ، وهو أن الصحة العقلية كتعبير اصطلاحى فى مفهومها اليوم وفى معناها الشائع بيننا إنما هى فكرة حديثة العهد ، قريبة الاستنباط ، ولعل أول ذكر للصحة العقلية فى مضمونها الذى يشمل فكرة قد تقرب مما تتضمنه اليوم من معان ، جاء فى كتاب لوامع الإشراق المعروف بأخلاق جلالى لجلال الدين محمد بن أسعد المتوفى عام ٩٠٨ هـ . ولذا سوف نجد من الضرورة تتبع هـــذه الفكرة واستقصاءها داخل نطاق الطب كجزء لا يتجزء منه ، إذ أنها لم يكن لها وجود مستقل بذاته ، هكذا كان الاتجاه قديما ولعله سوف يكون كذلك ، إلى حد ما فى المستقبل أيضا ، كما تشير الاتجاهات المعاصرة . ونسبة لذلك فهنالك مايبرر تاريخيا وواقعيا استعمال هذين التعبيرين أى : الطب والصحة العقلية كترادفين لأغراض البحث وفى مضمونهما ، إن لم يكن فى مجالهما .

كذلك لابد من إيضاح آخر ، وهو أنه وإن كان البحث سوف ينساق كما نأمل فى تسلسل تاريخى جغرافى ، بيد أن الناحية الاجتماعية لمكانتها من الأهمية قد تضطرنا أحيانا ــ لكى نتقصى أصولها ومقوماتها ونتائجها ــ لأن نسلك مسلكا فنيا بحتا لا صلة له بالزمن ، بل بالفكرة ذاتها ، زد على ذلك أن الصحة العقلية ، وكذلك المرض ، لا تنشأ بطبيعتها على أساس سبب واحد بل على جملة من الأسباب لا تقوم فى الأصل على صلات زمنية مقررة ، بل على تكامل أحداث وتجارب متفرقة تكون آخرها كالقشة التى قصمت ظهر البعير . وآمل ألا تدعو هذه الضرورة فى المنهج إلى خلط قد يؤدى إلى الغموض .

ونعود فنستهل بتقرير حقيقة أخرى ، وهى أن الفكرة التاريخية ضرورة لازمة

لكل بحث اجتماعى . قال تشرشل :

The longer you can look backward, the further you can see forward

أى « كلما أطلت بصرك إمعانا فى الماضى ازدادت بصيرتك خبرة بالمستقبل » والحق أن فلسفة التاريخ قد تسدى معونة صادقة فى جلى الحقائق وإدراكها ، وخلا ذلك فإنه للإلمام بفن التاريخ ومذاهبه ، ضرورة للطبيب ، لأن لمهنة الطب صلة تاريخية لازمة . فالمرض ظاهرة حية لها كيان تاريخى ينبغى تتبعه واستقصاؤه وفقاً لمنهج تاريخى سليم ، فالأطباء الذين يسلكون منهجا إخباريا فى التدوين ربما تفوتهم بعض الحقائق الهامة ، كذلك الذين ينصبون على تقصى الظواهر المرضية ، على أنها ظواهر منفصلة لها نشوء طبيعى يمكن قياسه دون اعتبار للمؤثرات السيكلوجية والاجتماعية ، أولئك وهؤلاء مثلهم كمثل الباحث فى التاريخ الذى لا يستنفد جميع ما لديه من مصادر .

وقد أسدى التاريخ فى مناهجه خدمات جليلة للطب وخاصة المدرسة الحديثة التى كان من روادها الأوائل الفليسوف الإيطالى بندتو كروشية Bendetto Croche والمؤرخ الإنجليزى كلنجوود Callingwood والتى تقول إن مهمة التاريخ لا تنحصر فى سرده وتفصيله للحوادث ولا فى تسلسله لها على نمط زمنى . كذلك لن تكون مهمته كاملة مستوفاة لأغراضه ، إلا إذا استطاع المؤرخ استيعاب الحوادث والوقائع ، وتمثيلها حتى تصبح جزءا من خبرته وتجاربه ، بل من كيانه الفكرى . لأن التاريخ فى تدوينه لا يقوم على جمع الحوادث وتوليفها ، ولكنه يقوم على نمط من التجارب العميقة التى يستلهمها المؤرخ والتى يعيش فى خضمها الزاخر على كونها صدى لتجربته . وهذا فى رأيى أبلغ ما أسداه التاريخ إلى المنهج الطبى ، لأن الطبيب الذى لا يستطيع أن يخلق من إدراكه للمرض تجربة شخصية له لا يستطيع قياس المرض . وقد وصف أبو الحسن أحمد بن محمد الطبرى فى القرن الرابع الهجرى فى كتابه المسمى بالمعالجات الأبقراطية ، وصف نوعين من الأطباء : « الطبيب الذى بفيلسوف » « والطبيب الذى ليس بفيلسوف » . فقال : إن الطبيب الذى ليس بفيلسوف هو الذى يقتصر عمله وهمته

على علاج الداء مع قلة المعرفة والبعد عن الفلسفة ، وأنه يأخذ المعرفة عن طريق التقليد ــ أما الطبيب الذى بفيلسوف فهو الذى يرتفع بعلمه وإدراكه إلى طلب الغاية، ولم يقتصر من كل صناعة على أقل ما يمكن ». والمقالة الأولى من الكتاب التى تحوى أصولا فى الفلسفة والتاريخ ، قال إنها لاغنى عنها للطبيب الذى بفليسوف. وقال القفطى فى كتابه إخبار العلماء بأخبار الحكماء عام ١٢٢٧م : ينبغى للأطبــاء أن يتفلسفوا فإنها (أى المهنة) لا يجب تعاطيها إلا لمن كان على سيرة اسقلبيوس Asculapius . واسقلبيوس إله الطب عند اليونان ، كان أبوه أبولو إلها للشفاء وطبيبا لآلهة الأولمب. وفى الأساطير أن أبولو وتوأمته ارتميس وهبا شطرا من علمهما الواسع إلى قنطروس زحل، فأصبح بفضل الآلهة ذا نباهة فى الموسيقى ودراية فى الجراحة ومعرفة تامة بأساطير الأولين فأوكل إليه أبولو أن يكون رائدا لأسقلبيوس . وأشاد ابن خلدون بفضل التاريخ ، وكان للمنهج الذى جادت به عبقريته فضل فى بحث التاريخ داخل الإطار الاجتماعى ، ومن ثم صار المجتمع عنصرا هاما فى أى بحث علمى .

مصر القديمة : والطب ، كمؤسسة إنسانية ، له ماض طويل . بيد أن تاريخه قصير ورغم ذلك نستطيع أن نتبين فى مصر الطلائع الأولى لمهنة الطب . وهنا تنبغى الإشارة إلى أن الطب كغيره من المؤسسات الاجتماعية لا يقوم بذاته فجأة وإنما يتطور وينمو مع غيره من المؤسسات الأخرى وفق قوانين اجتماعية ثابتة، وفى مصر القديمة نشأت العوامل التى تمهد لقيام مهنة الطب ففيها استيقظ الضمير الإنسانى لأول وهلة، وفيها قامت الشرائع الأولى ، وفيها مُجِّد الإنسان ، وفى أرضها نشأت الحكمة ، ومن ثم انبثق ضوء العلوم والمعارف ومن بينها الطب(١) . وعلى هذا فيصبح للطب صفة اجتماعية ذات طابع ديناميكى (أى متحول) ، وسنرى تبعا لذلك كيف يتبع الطب المجتمع كالظل للسارى. وفى مجال

(١) وقد رفع المصريون أمحتب طبيب الملك زوسر من ملوك الأسرة الثالثة إلى مصاف الآلهة وقامت عبادته فى سقارة تقديسا للمهنة وتدعيما لمكانتها فى المجتمع لأن القدرة العلاجية للطبيب لا تقوم على كفائته فحسب بل على كرامة مهنته وعلى مكانته المرموقة فى المجتمع .

الصحة العقلية فى مصر ، نستطيع تبين مايلى : أولا — أشار هيرودوتس إلى أن الطب فى مصر القديمة يمارس على مبدأ الاختصاص فالطبيب هناك يعالج مرضا واحدا لا جملة أمراض (هـذا هو النص). وأقول إن هنالك ما يدعو إلى الظن بأنه ربما قصد أن الطبيب يعالج عضوا واحداً لا مرضا واحدا كما سوف يتضح من بقية الحديث. واستطرد هيرودوتس يقول إن بعض الأطباء لأمراض الرأس ، وبعضهم للعيون ، وبعضهم للأسنان. ثم قال إن بعضهم للأمراض المجهولة التى ليس لها مكان معين (تاريخ هيرودوتس الجزء الثانى ترجمة رولنسون). والفقرة الأخيرة التى تشير إلى الأمراض المجهولة التى ليس لها مكان معين فقرة بالغة الأهمية لأنها تتفق مع ما أسماه العرب بالأمراض العامة المتنقلة أى التى تنتقل من عضو إلى عضو ، ومن مكان فى الجسم إلى مكان آخر، والتى ينطبق عليها وصف الكثير من العلل التى تنشأ من أثر العوامل النفسية وقد أطلق جانيه على هذه الظاهرة « Equivalence ». ونستطيع إذا ، على ضوء ماسبق ، أن نفسر القول بأنه كان فى مصر القديمة أطباء مختصون بعلاج العلل النفسية . وهـذا أول ذكر فى التاريخ لهذه الطائفة من الأطباء. ومن المؤسف أن هذه الحقيقة لم تسجل لمصر فى كتب تاريخ الطب لقصورها عن تفسير هذه العبارة. وثانيا نجد حقيقة أخرى لا تقل أهمية عما سبق ، وذلك أن مرض الهستيريا قد عرف فى مصر القديمة قبل أن يصفه أبوقراط بعشرة قرون. وهذا النوع من الاضطراب أى الهستيريا يتألف من مجموعة متباينة من الأعراض ليس لها طابع شكلى أو وظيفى مقرر وقد أوحى هذا التباين لابوقراط نظريته التى زعمت أن هذه الحالات تنشأ على أساس اضطراب فى الرحم قد يؤدى إلى التوائه ، وإلى ازدياد حركته أى أن الرحم قد ينطلق من عقاله وهذا هو أساس تسميتها بالكلمة المستعملة إلى اليوم هستيريا والتى اشتقت من أصل يونانى معناه الرحم . هذه الفكرة عرفت فى مصر القديمة قبل عام ١٥٥٠ قبل الميلاد. نقول ذلك لأننا نجد فى بردية كاهون Kahun أكثر من ثلاثين وصفة لجملة من الأعراض والاضطرابات المختلفة التى تصيب الجسم ، والتى عزاها الكاتب إلى ميـل

فى الرحم . ومن المعلوم أن أبوقراط زار مصر وعاش فيها فترة من الزمن تزود فيها بالمعرفة بين نهاية القرن الخامس وبداية القرن الرابع قبل الميلاد عند ما كانت مدينة الإسكندرية منارة العلم والمعرفة ، وكان يؤمها الطلاب من كل فج عميق . ولربما قامت النظرية على ملاحظات تشريحية لأن أطباء الإسكندرية وجدوا فى كنف البطالسة ما يمنع عنهم الأذى والعدوان لمن يقدم على تشريح الموتى ، حتى استطاع علماؤهم أن يسبقوا غيرهم إلى وصف بعض النواحى التشريحية والفسيولوجية ، أمثال هروفليس وأريز استراتوس . ولكن أشهرهم كان جالينوس ، ومن المؤكد أن جالينوس قد استمد من تجاربه بمعهد الإسكندرية أكثر ما حوته كتبه فى التشريح التى فقدت بعض أصولها وحفظتها الترجمة العربية . وعلى هذا فالمصريون هم الذين أنشأوا نظرية الهستيريا ، وليس أبوقراط الذى ما زالت تعزى إليه إلى اليوم . ثم نجد ذكر الأدوية المفرحة فى مصر القديمة . فقد جاء فى الألياذة « وصبت هيلين قطرات من طيب مذهب للأحزان فى كأس تلياك وكأس صاحبه ، لا يجد من يذوقها إلى الأسى من سبيل ، وهى قطرات عجيبة أهدتها الأميرة المصرية بولاندام » (ترجمة دريني خشبة) . ولهذه الأدوية تاريخ طويل عند العرب . وتوجد وصفات متعددة للأدوية المفرحة فى اقرباذين نجيب الدين السمرقندى المتوفى عام ٦١٧ هـ . وقد بُعِثَتْ دراستها بطريقة جدية عام ١٩٣٥ على يد جوتمان . وقيمتها العلاجية لاشك فيها فى بعض الحالات ، وخاصة فى بعث الخواطر وتداعيها فى مجال الفحص والتحليل النفسى .

وأخيراً ، نجد أن المصريين القدماء أدركوا أن النفس البشرية فى ظاهر اضطرابها وتباين حالاتها وتقلباتها لابد أن تحوى عناصر مختلفة فى جوهرها ، متضاربة فى غاياتها . ولا شك أن المتصفح للقصص التى جاءت فى أوراق البردى ، يدرك أن تقسيم النفس إلى « خات » التى ترمز للجسد الفانى ، وإلى « با » التى ترمز للروح ، وإلى « كا » ويرمز لها بذراعين قويين ، يدرك أن هذا لابد أن يدعو للاهتمام . ولا يتسع المجال

لذكر التقسيمات الأخرى التي لها أهمية في السحر وغيره مثل « رن » و « خيبت » و « ساه » وغيرها . وقد وصفت الكا على أنها تعني القرين Double . هكذا قال ماسبيرو ، وتبعه كذلك إرمان . غير أن والس بدج يقول إنه من الصعب تقرير ما هي هذه « الكا » ، وماطبيعتها ، لأنه مراراً ما يستنتج من صياغة النصوص أنها قد ترمز لأشياء مختلفة ، مثل الطابع الشخصي ، أو الخلق ، أو العقلي . غير أننا عند ما نتصفح مثلا قصة الرجل المكتئب الذي يلتمس الانتحار، التي جاءت في بردية برلين ، والتي نشرها ماسبيرو عام ١٨٧٤ ، ومن بعده إرمان ، نقول عند ما نتصفح هذه القصة ، يتضح لنا عن طريق « المناجاة » في القصة أن « البا » الذي يمثله الطائر المعروف بالأيبس Ibis يرمز لما نستطيع أن نسميه اليوم بالجزء من الانا Ego الذي يعرف عند يونج Jung وأتباعه بالبرسونا Persona . وهو الجزء الاجتماعي « للانا » الذي تتمركز فيه وظيفة الشعور ، كما أن «الكا» نجدها تمثل مخلوقا عنيفا في طبيعته . « فالكا » تطلق اسما للثور عموما ، وترمز كذلك للإله حورس الذي يمثل أحيانا في صور العجل[1] . كذلك نجد أن لفظة « كات » ، من الناحية اللغوية ، تعني العمل . واشتق منها كذلك اسم السحر « حكا »[2] . ولذا فإن الكا قد يرمز للقوى الغريزية للعقل الباطن . ومما يؤيد ذلك أن « البا » في هذه القصة كانت تغري اليائس بالحياة ، وتبث فيه الأمل . وتمنيه بالسعادة ، وتحذره من عواقب الطيش ، ومن غضب الإله إذا ما انتحر . فكانت تمثل « البرسونا » . وربما تضمنت جزءا من الأنا العليا المعروف بأل Super Ego . كما أن « الكا » في عنفه وبطشه واستهتاره يمثل جانبا

(١) من المدهش أن الثور الذي يرمز لحورس في مصر القديمة كثير الشبه بالفصيلة البقرية التي تستعمل اليوم في أسبانيا لأغراض المصارعة ، والتي تمتاز بالضراوة والشراسة ، وهم يرجعونها إلى أصول أفريقية Taurus Africanus

(٢) وحرف الحاء في اللغة المصرية القديمة يكتب على هيئة حبل فيه ثلاث عقد ولذا فإن «حكا» أي السحر معناها قوة العقد وصلة السحر بالحبل والعقد «والربط» معروفة .

من نزوات « الاد » Id أى العقل اللاشعورى . هـــذه القصة من أروع ما يقرأ . وهى تدل رغم بساطتها على عمق التأمل الفطرى فى تلك العصور السحيقة .

وقال حنين بن إسحق فى تاريخه (نقلا عن ابن النديم فى مقالته السابعة فى ابتداء الطب فى كتاب الفهرست) قال إن قوماً قالوا إن أهل مصر استخرجوا الطب ، والسبب فى ذلك أن امرأة كانت بمصر ، وكانت شديدة الحزن والهم ، مبتلاة بالغيظ ، والدرد ، ومع ذلك كانت ضعيفة المعدة ، وصدرها مملوءا أخلاطا رديئة ، وكان حيضها محتبسا ، فاتفق أن أكلت « الراسن » شهوة منها له فذهب عنها جميع ما كان بها . ورجعت إليها صحتها وجميع من كان به شيء مما كان بهـا استعمله فبرأ . واستعمل الناس التجربة على سائر الأوجاع . وأهميـة هذه القصة ، التى لا تخلو من خرافة ، تنحصر فى أنها أول قصة وصلتنا سَجَّلَتْ سيرة المرض (هكذا قال حنين) . والمريضة ينطبق مرضها على وصف المالنخولية ، كذلك لأن استعمالها «للراسن» وله خصائص التفريح فى أمراض الـكآبة ـ ذكره ابن البيطار فى كتابه ـ أذهب جميع ما بها . وأخيراً فإن هذا النص يشير إلى بداية التجربة فى الطب . ونقول ، على سبيل الاستطراد ، إن حنين بن إسحاق شيخ تراجمة القرن الثالث الهجرى ، كان يرى قيام الطب فجأة . وهذا بلاشك رأى له مايبرره فى ذلك الزمن ، لأن المجتمع لم تتبين بعد حقيقته وكنهه وبقيت كذلك إلى حين عصر ابن خلدون . ولهذه النقطة أهمية عملية . لأن وسائل العلاج ، وخاصة فى الصحة العقلية ، بدأت تقوم على أساس المجتمع . والطابع الجماعى يميز العلاج الدينى وأساليب السحر منذ أقدم عصور التاريخ . أما فى الطب ، فلم تبرز أهمية المجتمع ، ولم تستغل عمليا لغرض العلاج ، والتأهيل ، إلا منـذ عهد قريب . وقد مهد لذلك انحلال النظام الطبقى التقليدى وقيام « الطبقات الوسطى » الذى كان نتيجة حتمية لانتشار الفلسفة الاشتراكية .

. . .

وكان الطب (والصحة العقلية ضمنا) فرعا من فروع الدين . وهنا لا بد من إيضاح ، وهو أننا عندما نقول « الدين » يجب ألا يتبادر إلى الذهن خلو هذا المعنى

من وسائل أخرى تمت إلى السحر وإلى الوسائل التجريبية الطبية ، لأن الإشارة تقتصر بالضرورة إلى الطابع الغالب. على أننا لازلنا إلى اليوم نجد اتصالا وثيقا متبادلا بين الطب « وبين الدين والسحر» كما أن الدين مازال يستخدم فى وسائله بعض الطب وبعض الوسائل الغيبية ، وكذا نجد السحر تتصل وظيفته اتصالا وثيقا بالعلاج وبعظاهر العقيدة الدينية . وقد ذكر اسحق بن عمران ، الذى عاش بالقيروان فى القرن التاسع الهجرى خلال حكم الأغالبة ، فى مؤلفه المعروف بـ « المالنخوليه » (داء السوداء) أن بعضا ممن اختاروا المقام داخل الأربطة والزوايا والتكايا واستأثروا بالوحدة وانفردوا طلبا للتأمل والعبادة، كانوا سوداويين فى الأصل والواقع يؤكد ذلك. والحقيقة أن بعض الأمراض قد تختفى طبيعتها المرضية تحت ستار بعض الظواهر الاجتماعية وقد لا يستطيع الباحث إدراك حقيقتها الأصلية إذا كان اتجاهه شكليا (يبحث عن العرض دون الجوهر) وقد أدركت مما سمعته من الباحثة Dr. Fields عند لقائى بها فى الكونغو عام ١٩٥٧ كيف أن بعض أنواع المالنخوليه ظلت مستترة تحت مظاهر السحر Witchcraft أمدا طويلا .

وقد عرف الكهنة فى مصر القديمة الكثير من القيم النفسية فى العلاج وأدركوا مدى الطاقة السيكلوجية الكامنة فى العقار فضلا عن قوته الطبيعية . وكانوا يرددون الأناشيد التى تدخل الطمأنينة على النفس وتقوى العزم قبل مباشرة العلاج ، لأنهم كانوا يؤمنون بأن عملية العلاج الناجحة تعتمد فى وظيفتها على انتهاز الفرص الحاسمة ، لا على التطبيق على أساس عشوائى دون اعتبار لظرف الزمان ولصلة ذلك كله بنفسية المريض . ومن ضمن هذه الأناشيد ما جاء فى بردية أبر Eber (ترجمة إبل Ebell إلى الانجليزية) : لقد أتيت من مدينة الشمس ومعى شيوخ المعبد المالكون للشفاء والواهبون للأبدية، أتيت من صايص فى ركاب الأم المنجبة للآلهة الذين منحونى حماهم، أتيت وفى حقيبتى وصفات من الإله الأكبر تشفى من كل داء عضال أرادته الآلهة

أو الآلهات وتقى من كل سوء سببته أرواح الموتى . وبلاغة هذه الانشودة وأثرها السيكولوجى فى النفس لا يحتاج لتدليل .

ونستخلص مما تقدم أنهم كانوا يعتقدون أن المرض ينشأ إمامن غضب الآلهة أو من تأثير أرواح الموتى ومن الشاهد ان الفكرة الشيطانية Demonology لم تنبعث فى مصر إلى عصور متأخرة ولم تكن ذات أهمية واسعة لأن اعتقاداتهم فيما يتعلق بأرواح الموتى قد فسرت كل شىء ، وبالتالى أغنتهم عن تلمس نظريات تفسر لهم ما هم فى حاجة لتفسيره .

ولهذه النظرية آثار اجتماعيــة بعيــدة المدى ، نذكر على سبيل المثــال الطقوس الجنائزية التى كان من بعض أغراضها حماية الأحياء ، والتى نشأت نتيجة للرهبة القوية التى تثيرها أرواح الموتى ، لدرجة أنهم نقلوا مقابر موتاهم عبر النيل إلى الضفة الغربية. وكانت أسس العلاج على صلة وثيقة بهذه النظرية التى تبين «الأسباب للمرض» ولذا اتجه العلاج اتجاها روحانيا يقوم على مبدأ حيوية المادة Animism . هذه الرابطة بين نظرية المرض وبين صفة العلاج لهــا أهمية كبرى لأننا نجد دواما وفى كل عصور التاريخ ، فيما بعد ، أن سببية المرض تكيف طبيعة العلاج . وأكرر أن هذه الصلة صلة أساسية للغاية . وعندما نمعن النظر فى أوراق البردى الطبية نجد أن الكاهن كان المستنبط لسببية المرض ، وكان المؤلف لأسلوب العلاج على السواء ، كذلك نجد أن بعض الظواهر النفسية المرضية المتولفة الأعراض : Symptom Complexes ، التى تظهر لماما ثم تختفى ، كانت واسعة الانتشار كانتشار الهستيريا اليوم وفى هــذه الحالات نجد أدلة لايتطرق إليها الشك، أن الكهنة كانوا يتمتعون بكفاية وجدارة فى علاجها ومن العجيب أن حالات الهستيريا اليوم بين بعض طبقات المرضى لا تكاد تختلف فى تعبيرها عما كانت عليه منذ آلاف السنين ، كذلك نجد أن توليف هــذه الأعراض وقيامها كان من وحى هؤلاء الكهنة وإنشائهم ويمكننا القول تلخيصا لمــا سبق أن نظرية المرض لها أهمية فى تكييف العلاج وتقرير طبيعته ، وسوف نرى أن

لهذه النظريات أثرا لاينحصر فى العلاج فقط بل فى نشوب المرض أيضا لأن لها حدين كالسيف ورغم ذلك فقيام النظريات أمر ضرورى من العسير رفضه ويكفى أن جاليليو فى كتابه المسمى « بالحوار » عنـــدما وضع الأسس التجريبيـــة للبحث العلمى بدأ بالنظريات ثم مهد عن طريقها للوصول إلى النتائج ، فصار ذلك دستورا للمنهج العلمى فى الأبحاث ونجد أن التعبير اليونانى Iatrogeny الذى يتضمن معناه أن الطبيب قد يصبح أداة لا شعورية لبث المرض عن طريق قوة إيحائه اللاشعورى ، نجد أن هـــذا يعكس حقيقة واقعة وقد استطعنا فى دراسة قمت بها وزميلى الدكتور طه بعشر بالخرطوم استطعنا أن نعـــثر بين بعض « مدمنى شكوى المرض » المعروفين بالـ Hypochondriacs، استطعنا أن نعثر بينهم على طبقات متراكة من الأعراض لها نشوء تاريخى فى طوبوغرافية المرض ، أمكننا تتبع بدئها ونشأتها واستطعنا كذلك إرجاع هذه الطبقات المرضية إلى بواعث تمت إلى نظم المعالجة ، وإلى انطباعات لها صلة بفلسفة الطبيب المداوى ، وإلى اتجاهاته المهنية والعامة ، وهـــذه أمثلة لقوى إيحاء الآراء والأفـــكار Potency of ideas وهى ظاهرة لم تدرك قوتها على حقيقتها بعد بيننا معشر الأطباء لأن فلسفة التعليم الطبى لا تزال تقوم على توطيد الفكرة المـــادية دون إبراز أثر المجتمع فى الصحة والمرض ، ولعل بعض الأمثلة فى هذا الصدد توضح ما نحن بصدده فقد كنا نعتقد إلى عهد قريب ، بل نغالى فى اعتقادنا ، بأن العادة السرية قد تؤدى إلى أضرار جسيمة بالصحة ونتج عن هذا الاعتقاد الخاطىء أن كثيرا من المراهقين قد دفعهم الخوف من عاقبة ممارستهم لهذه العادة إلى براثن الوهم والمرض ، ولـــكن بعد تبين افتراء هذه النظرية التى قامت على أساس « دوافع خلقية» بعد أن تبين لهم ذلك نتيجة للأبحاث التى نشرها كنزى Kinzy ، لم نعد نرى منهم إلا العدد القليل، وانتشار الوهم بالسرطان بين العاكفين على التدخين على نطاق متزايد دليل جديد على أثر الإيحاء . ونتيجة لهذا ولمـــا سوف يجىء تاليا ، يمكننا القول بأن « القوة الفعالة » فى حدوث المرض النفسى قد تقوم على أسباب تتصل بقوة الفـــكرة

وإيحائها دون تدخل أى عامل يمكن تفسيره عضويا . وإذا كانت هذه طبيعة المرض فما هى طبيعة العلاج النفسى ؟ ما كنهه وما أصوله ؟ هل تقوم كفايته على حقائق نستطيع تعليلها عن طريق العلم ؟ هل هو ظاهرة تخضع لأصول اجتماعية ؟ هل له صفة علمية مقررة لازمة لنجاحه ؟ هل من المحتم أن نجد التعليل العلمى المنطقى لكل نتيجة ؟ وهل فى ذلك ضرورة للإقناع ؟ هل ينبغى أن تكون نظرتنا لكل شىء علمية بحتة لا أكثر ولا أقل ؟ إن هذه الأسئلة تكوّن مشكلة كبرى إذ أننا نستطيع أن نجزم بأن العلاج النفسى الناجح استطاع أن يقوم به فى كل حقب التاريخ رجال الدين ، وقام به السحرة والمدعون والمتجرون والمخرقون والبلهاء وغير العقلاء فضلا عن الأطباء ، وذلك لا يحتاج برهانه إلى أدلة تاريخية لأننا لا نزال نشاهده اليوم بيننا دون أن يكون فى ذلك تحقير لشأن العلم لأن العلم أداة نافعة من أراد استعمالها حملها .

ويمكننا أن نمثل المرضى من الناحية الاجتماعية فى قطاع يتألف من طبقات تمثل درجات متفاوتة من التطور الاجتماعى كما هو الحال فى واقع المجتمع اليوم ، يقابلها نظم من العلاج تمثل أطوارا من تجارب المجتمع فى تاريخه كله ، وتتلاءم كل منها ، اجتماعيا وثقافيا ، مع طبقة من المجتمع تماثلها من الناحية التطورية . ورغم أن هذا وصف تقريبى فإنا نجده حقا . مثال ذلك أن الطبيب الماهر المتخصص فى العلاج النفسى قد لا يستطيع أن يشفى مريضة قد يشفيها الدجال أو عابر السبيل[1] مثلا . وهذا يذكرنا بالكلمة البليغة التى قالها أدولف ماير « إذا ما اتفق الطبيب والمريض على كنه المرض وسببه بدأ التحسن فورا قبل مباشرة العلاج » . على ضوء هذه الحقائق يمكن القول بأن طبيعة العلاج النفسى وفعاليته لا تقوم على مبادئ ثابتة لها قوانين تخضع للأساليب العلمية النوعية ، ولكن ربما تقوم أركانه وطبيعته على ما يلى :

(١) ليست هذه دعوة للنكوص ولكن لابد من فهم الأمور على حقيقتها . ومعنى أن « الجاهل لأصول المهنة » قد يزيل مرضا لا يعنى بالتالى صلاحيته لممارسة المهنة لأن القدرة على الإشعار مهما كانت وسائلها لا تفى وحدها بالاشتراطات التى تحمى المجتمع : ولو طبقت مثل هذه القاعدة لاختلت النظم المهنية وحلت الفوضى فى كل مكان .

أولا ـ قيام نظرية توضح سببية المرض يبشر بها الطبيب ، ويقبلها المريض والمجتمع ثم قيام نظرية علاجية تحمل فى مضمونها نظرية السببية . ويمكننا حصر هذا فى ظاهرة واحدة هى قوة إيحاء الأفكار أى أثر الآراء المحكمة ذات الطابع التقليدى التى عبر عنها اسباينوزا Spinoza « بالآراء السديدة » Adequate Ideas. وعلى هذا ندرك لماذا كانت وما زالت تنجح أساليب العلم ووسائل الدين وطرق السحر والدجل؟ . ولماذا نجد أمثلة لمعجزات كبرى فى بطون التاريخ . كذلك ندرك لماذا تنجح على السواء طرق فرويد وادلر ويونج رغم تباينها فى الوسائل بين شيعتهم . وقد ذكر « تانزى » Tanzi العالم الإيطالى فى صدد وصفه للبرانويا (ذهان التعاظم) فى القرن الماضى ، كيف أن بعضا من هؤلاء المرضى ، فضلا عن ادعائهم للنبوات والألوهية ، قد حققوا معجزات صادقة فى العلاج . وكيف أن بعضهم قد قامت نبوته أصلا على معجزاته فى العلاج. وعلى هذا فليس هناك حاجة ماسة للبحث فى جدلنا عن أصول أولية أو نهايات أزلية للعلاج النفسى . ومما يزيد ذلك توكيدا أننا وجدنا فى جنوب هذا الوادى أن بعضا من المصابين بالقلق وغيره من الاضطرابات النفسية قد ينتكسون عند مايصبح فيضان نهر النيل وشيكا . وهذه حقيقة معروفة أصبحت مضرب الأمثال . وقد قمت بتقصى هذه الظاهرة التى أثبتت تجاربنا صحتها ولم نجد تعليلا لها يقوم على طبيعة من المرض أو على احتمال يمت إلى أسباب ترتبط بعوامل أخرى ، واستبان فى النهاية أن هؤلاء المنتكسين يعانون من الخوف من النكسة عند ما يصبح الفيضان وشيكا لاعتقادهم فى خرافات قديمة . وجلية الأمر أن هذا الخوف من الانتكاس قد يصبح سبباً للانتكاس . ولا غرابة فى ذلك لأن النيل ـ حعب ـ إله . ولا تزال بعض طقوس عبادته القوية متفشية بيننا. وليس من شك أنه من أقدم آلهة وادى النيل ونجد طابع القدم فى الأناشيد التى تشير إلى منبعه من « كرتاى » وهى مدينة كورتى الحالية بشمال السودان . وهذا مما يطابق وصف الجيولوجيين لنهر النيل القديم Protonile قبل اتصاله ببحيرة السد التى كانت قديما تنتهى فى « السبلوقة » شمال الخرطوم. وهنالك طقوس عديدة يتقربون بها إليه ، لا جلبا لنعمته ولكن دفعا لنقمته،

لاتزال لها قوة سيكلوجية . وكان النيل يمثل فى شخص رجل له ثديان Gynecomast يرمزان إلى نعمته وإخصابه . ورغم هذا فإنهم كانوا يتقربون إليه بإلقاء كاعب حسناء يحتضنها بين أمواجه . وكان يوصف النيل بأنه « أب للآلهة » . وأنه « خالق لكل شىء » . ويرجعون أصله إلى المستنقع الأزلى « نو » الذى تم فيه خلق « رع » كبير الآلهة . وذكر ماسبيرو أن رع بعد خلقه للكون قام بخلق المصريين ثم الليبيين من بعدهم ، وبعد أن فرغ من ذلك لم يجد ما يكفيه لخلق بشر جديد فاستمنى الإله الأكبر وخلق السودانيين ، فالسودانيون من نسل الآلهة . وتجب الإشارة إلى أهمية الطقوس المتصلة بالنيل فى الزار . وفى مخطوط معزو إلى الإمام جلال الدين السيوطى يسمى « مجموع الكواكب البهية فى نيل مصر الزهية » نجد خارطة تشبه ملامحها ما تخيله الجيولوجيون قديما كبحيرة السد . والقوة السيكلوجية لهذا النهر الخالد فى نفوس أبنائه لايزال لها بالغ الأثر . وربما تفسر لنا صعوبة المشاكل التى ترتبت على مياه النيل من الناحية الدولية والتى كان الوصول إلى حل لها معجزة .

ونسوق أمثلة أخرى لقوة الوهم فى نشوء المرض وفى علاجه أيضا . فى دراسة مقارنة قمنا بها لبحث العوامل الاجتماعية العامة لمعرفة مدى إسهامها فى خلق المشاكل والاضطرابات التى تصاحب معاقرة الخمر وإدمانها ، مستثنين حالات الإدمان المرضى التى تقوم على عوامل نفسية واضحة المعالم بالنسبة للمدمن ذاته ، أمكن فى النهاية وضع النتائج فى قطاع منحدر الوظيفة يمثل أبعاداً ثلاثة من الشرب تختلف اختلافاً ظاهراً فى مدى الآثار المترتبة على الشراب .

البعد الأول ــ يمثل الشرب بين بعض القبائل الإفريقية ، حيث يعتبر أن المشروب الكحولى غذاء أساسى ويمارس فعلا على أساس ذلك ، وحيث نجد أن الشراب فى بعض أوجهه وظيفة اجتماعية جماعية لها شعائر وطقوس وإلزام . وقد وجدنا أن هذا النوع من الشرب لايؤدى إلى مضاعفات على الإطلاق ، رغم أنه من الاستطاعة أن نجد بين هؤلاء من يبلغ إفراطه حداً يمكن اعتباره إدمانا حقيقيا ، ولكن حتى هؤلاء لانجدهم

يعانون آثارا نفسية شديدة بالنسبة لما يعانيه مدمنو الشراب فى المجتمعات الأخرى ، لا لأن النظام الاجتماعى يقر أو يحتمل الكثير من أنواع هذا الشذوذ، بل لأن المدمن لا يحس، ولا المجتمع كذلك يحس بأن الإدمان رذيلة اجتماعية ضارة فالخمر غذاء نافع . وقد دفعتنا الضرورة لتبسيط هذه المسألة ولكن رغم ذلك فهى تمثل الحقيقة الواقعة. وأذهب إلى أبعد من ذلك فأقول إن الذين لايعاقرونها على الإطلاق فى تلك المجتمعات ربما يكون بعضهم من طبقات الشواذ ، وتوضيحا لذلك أعيد ملاحظة سبق نشرها فى بحث آخر ، وهى أننا وجدنا فى السودان وبين قبائل البدو الرحل خاصة أن الطفل الذى يسرق من داخل داره يغلب أن يكون مجرما أكثر من الطفل الذى يسرق خارج داره . لأن السرقة خارج الدار من رواسب العادات القبلية التى كانت تمجد هذا الصنيع من الناحية الاجتماعية فى الماضى ، ولكن السرقة من الدار كانت فسادا خلقيا وهذا ما لاينطق على المجتمعات ذات الذاتية الجغرافية . ودراسة الصعاليك والصعلكة عند العرب قد تساعد على فهم طبيعة هذه المشكلة . هذا والطفل الذى يسرق خارج الدار يعيد فى تاريخه القصير تاريخ قبيلته الطويل كما يقول المبدأ البيولوجى المشهور Ontogeny Repeats Phylogeny وقديما كان الشاب الذى لايجرؤ على قطع الطريق يعد خائر الشكيمة ولا يجسر على مخالطة الفتيات فى قبيلته — والطفل الذى لا يسرق فى تلك المجتمعات لا يتمتع بالعوامل النفسية التى تسهم فى تكامله تكاملا تاما حسب القياس القبلى للصحة العقلية . وعودا على بدء ، نقول إن الذى لا يشرب فى تلك المجتمعات الإفريقية هو الشاذ .

والطرف الآخر لدراسة الخمر يمثل شرب الخفاء . يمثل الذين يعاقرونها سرا فى المجتمعات التى تحرمها أديانها وتقاليدها والتى لايزال الحكم الأخلاقى فيها قائما على أسس دينية — فى السودان مثلا — حصلنا على أمثلة من هذا النوع . ومما أدهشنا أن المضاعفات السيكلوجية التى تلازمها لا يمكن تفسيرها من حيث حدتها إلا على أساس ظاهرة اجتماعية . ومن العجيب أن فرض إجهار الشرب لامندوحة منه فى هـــذه

الحالات لكى ينجح العلاج ، وتلازم أكثر هذه الحالات شكاوى وأعراض تشبه الأعراض التى نراها بين مدمنى المرض Hypochondriasis . وبعض هؤلاء المدمنين قد ينجون من إدمان الشراب باللجوء إلى « التدين » حتى يصبحوا مدمنين بالفعل ، وطابع تدينهم ينحصر فى العبادات لا المعاملات ، وهؤلاء يدفعون ثمنا باهظا للنجاة من براثن الخمر وبعضهم يلجأ لإدمان المخدرات ، لأنهم فى تدينهم قد يخدعون أنفسهم بتشككهم فى تحريم المخدر لعدم وجود النصوص الصريحة . والتحول من إدمان إلى إدمان ظاهرة طبيعية نسبة إلى قيام هذه الظواهر جميعها على أساس سيكولوجى واحد . وقد يحل بعض أنواع الإدمان مشكلة أكبر من طبيعته ، كما وجدنا فى التدخين ؛ وقد يوقع الإقلاع من إدمانٍ إلى نوع من الإدمانٍ أشد أثرا ، كما وجدنا فى بعض أنواع القمار . وفى حالات قليلة قد يكون إدمان الخمر علاجا لمشكلة أشد خطرا . وقد يكون محاولة يائسة للاحتفاظ بالبقية الباقية من اتزان العقل . والمشاكل الاجتماعية التى تدمن ويستعصى حلها تقود إلى الخمر مثلا . وقد ذكر لين أن انتشار الدخان قد خفف من استعمال الناس للمسكرات . وقد وجدنا أن بعض هؤلاء الذين يشربون فى الخفاء والذين لم تنجح فيهم أنواع العلاج التقليدى، وجدنا أن بعضهم قد أقلع أثر تجربة دينية عميقة صادقة ــ ولدينا ثلاثة حوادث شفى أصحابها بعد قيامهم بشعائر الحج . والمعروف الآن أن علاج إدمان الخمر قد ينجح فيه العلاج بالأساليب الجماعية التى يقوم بها المصابون أنفسهم ممن أقلعوا من الخمر . وتاريخ الحركة التى ظهرت فى أمريكا تحت اسم Alcoholic Anonymous ونتائجها التى تفوقت فيها على نتائج العلاج الطبى ، خير دليل على ذلك . أما النوع الثالث فهو الشراب الاجتماعى الذى نراه متفشيا فى المجتمعات الغربية الذى لا يحرمه الدين ولا ينكره المجتمع مادام فى حدود الاعتدال. ولكن نسبة لعوامل كثيرة ، نشأت فى هذا العصر الآلى دفعت إلى تغيير نظام المجتمع، أصبح الشراب مشكلة كبرى بالنسبة للعمل ولعامل الوقت وبالنسبة لازدحام الحياة ولمشاكل المرور ــ ولذا أصبح مشكلة طابعها اجتماعى أكثر منه فردى . ونجد أن

مشاكل الخمر السيكلوجية فى هـــذه المجتمعات قد زادت بالفعل مع زيادة المشاكل الاجتماعية للشارب وخاصة بالنسبة لقيادة السيارات . فى هذه الأبعاد الثلاثة ، نجد أن مدى الأعراض يختلف باختلاف الموقف الاجتماعى الذى يُكَوِّنُ عاملا مهما فى نشوئها وحدتها . ومن تجارب أمريكا قبل إلغاء الحظر على المسكرات ، نجد أنه بالرغم من أن الإدمان قليل فإن التسمم الحاد كان أكثر انتشارا لأن الشارب ينتهز مثل هذه الفرص ليرضى نزعته المحرومة. وقد وجدنا أن هذه الوظيفة الانحدارية Gradient Function قد تساعدنا على فهم مشاكل المخدرات أيضا وعلى تحديد الآثار السيكولوجية المترتبة على موقف المجتمع من المدمن . ففى الحشيش مثلا تتوفر الأدلة لدينا أنه كلما ازدادت صرامة العقوبة والتأديب كلما ازدادت حدة المشاكل النفسية بين العاكفين عليه . ولربما كان للعامل الاقتصادى (ارتفاع الأسعار) بين الطبقات المحدودة الدخل أثر ثانوى . وفى بعض الجهات الاستوائية حيث يزرع الحشيش وحيث ينتشر استعماله وحيث لا نجد مشاكل اجتماعية بصدده نرى أن أضرار الإفراط قليلة جدا . ثم فى بعض جهات الشرق الأوسط ، حيث تنتشر نسبيا عادة تدخينه وحيث تكون العقوبة معتدلة ، نجد أن الأضرار السيكولوجية أخف بكثير مما نراه فى البلدان التى يتخذ القانون فيها مواقف أشد صرامة ــ والحقائق التاريخية تؤيد ذلك . وقد ذكر «بل» Bell صياد الفيلة المشهور فى كتابه Wanderings of an Explant Hunter أنه فى إحدى جولاته قبل الحرب العالمية الأولى للصيد فى جهات بحيرة رودلف انقطع مورده من الدخان ، فطلب من رئيس قبيلة أن يمده بالدخان الذى يستعملونه ، ولما أمدوه بالدخان أعجب به كثيراً وذكر أنه استعمله سبعة أشهر ووصفه بأنه أحسن دخان استمتع به . ولــكنه قال إن له تأثيراً يشبه تأثير العقار . ولم يكن يجول بخاطره أبداً أنه كان يدخن الحشيش طول إقامته هناك ولو علم ذلك حتى بعد الانتهاء منــه فليس لدينا من الشك من أن هذا الإدراك قد يؤدى إلى وهم ربما نشأت عنه مخاوف قد تصل إلى حدود المرض . ولــكن « بل » كان يتمتع بشخصية ناضجة متكاملة .

زد على ذلك أن كتابه لايفصح عن السجايا الخفية للاستعداد للإدمان وهى فى أقل مراتبها تتمثل فى النمط الروتينى فى السلوك وفى النزوع إلى التكرار ، وفى ضيق الهوايات وغيرها . وأخيراً فإن طابع الإدمان يتنافى مع حياة الرحالين النشطة .
ويمكننا إنصافاً لأنفسنا معشر البشر الكادحين ، أن نقول إن حاجتنا إلى المنبه أصبحت كحاجتنا للضروريات فى الحياة سواء كان من الشاى أو القهوة أو الدخان أو غيرها . واختيار المنبه يقوم على عوامل جغرافية أو سيكولوجية أو اقتصادية أو اجتماعية أو عشوائية فى بعض الأحيان . على أن طبيعة الشعوب ، وخاصة فيما يتعلق بالمخدرات ، لها وزن وأهمية . فقد يصلح الأفيون مثلا لشعب له طابع فكرى خاص . ولذا قد لاينتشر على مدى واسع رغم توفر الظروف الحسنة . كما قد ينتشر مخدر آخر ، ولهذا فلا مندوحة من القول أن للحشيش طابعا عقليا خاصا وللأفيون كذلك والقات أيضا ولغيره ، كما أن بعض الشعوب قد لا تكون بطبيعتها وتجاربها المكتسبة عرضة للإدمان . وهذا ما لا يمكن تعليله فى حدود ضيقة على أساس البنية فحسب لأن الإدمان كظاهرة سيكولوجية لها أصول متعددة يرتبط بعضها بالبعض.
ولربما تسعفنا فكرة التاريخ فنجد مثلا أن بعض شعوب الشرق القديم الضاربين فى البحار المتجشمين الأخطار فى سبيل التجارة قد لايحتمل أن تكون عرضة للإدمان ، ولكن ربما تستهويها فكرة الاتجار فيها . كذلك نجد أن بعض الشعوب فى كفاحها الطويل وفى اجترارها لآلامها ، قد تعثر فجأة على عقار مستجلب قد تلجأ إليه فى بحثها عن سعادة وهمية . وهنا يكمن الخطر . ولدينا من الأدلة مايؤيد أن تدخين الحشيش كان منتشراً على مدى واسع فى عام ٩٢٤ هـ كما ذكر بن إياس فى « بدائع الزهور فى وقائع الدهور ».
كذلك نجد إشارات عديدة إلى تحريمة فى فتاوى ابن تيميه (توفى عام ٦١٧ هـ فى قلعة دمشق) والزركشى والمناوى وغيره من رجال الأزهر الشريف : وقد أشار لين Lane إلى أن عادة الأفيون قد لاتتفق تماما مع طبائع بعض الشعوب وأشار الدكتور كلوت بك إلى أن الحشيش منتشر بين بعض طبقات الشعب وخاصة التى ترزح تحت

ظل الفقر والفاقة وقال أن الأفيون كان نادرا استعماله بين هذه الطبقات ولكنه كان شائعا بين الحكام الأجانب فى ذلك الوقت « الذين يميلون إلى التخدير به وهو فى الحقيقة أليق بهم بالنظر إلى ما فطروا عليه من حب السكون والميل إلى التأمل » أما الحشيش فأميَل إليه من جُبل على حدة التصور وسهولة الاختراع وقوة الحركة والميل إلى كل مدهش أو مستغرب ، وهذا صحيح لأن الفرد يبحث فى المخدر عما يلائم سجاياه وعن نوع من التجربة تتفق مع أغراض نوازعه وميوله . ومن الصعب أن نفسر فعل العقار على أساس الأثر الظاهر من سلوك العاكف عليه ولكن هناك اتجاهات سلوكية عامة تميز فعل العقاقير المختلفة تبديها القصة المعروفة عن الثلاثة (صاحب الخمر وصاحب الحشيش وصاحب الأفيون) الذين أرادوا دخول اصفهان ليلا وكانت أبوابها مغلقة قال صاحب الخمر لنحطم الباب ولندخل عنوة . وقال صاحب الأفيون لنضطجع إلى أن يصبح الصباح وتفتح الأبواب . وقال صاحب الحشيش لندخل من خرم الباب(١)

وربما يمدنا تاريخ دخول القهوة إلى مصر وكذلك دخول التبغ عن معلومات نافعة فى هذا الصدر ، وخاصة فى بعض قصص المباهلة بين الشيخ على الأجهورى والشيخ إبراهيم اللقانى ، والتى وصل صداها إلى السودان فى ذلك الحين (قرب نهاية القرن العاشر الهجرى) وأسهم فيها الشيخ أدريس بن الأرباب المتصوف السودانى المشهور ووقف إلى جانب الشيخ على الأجهورى مؤيداً وجهة نظره وكانت بينهما مراسلات ودية أشار إليها المؤرخ السودانى ابن ضيف الله المتوفى أوائل القرن الهجرى الماضى . وهى تؤكد ما قاله الإسحاقى فى تاريخه من أن التبغ بدأ ينتشر استعماله فى العالم الإسلامى فى القرن العاشر الهجرى . وقد ترك العالم المصرى محمد قناوى فى أواخر القرن الهجرى الماضى رسالة فى أضرار القهوة والدخان والحشيش

(١) نوجه الأنظار إلى الدراسات القيمة عن مشكلة المخدرات التى قام بها صديقنا العلامة الدكتور صبرى جرجس .

« نصيحة الإخوان فى اجتناب القهوة والدخان » وتحدث فى رسالة أخرى عن القات « شاى العرب » وبالرغم من هذا فيجب إدراك أن الشعوب فى حركة دائبة من التطور ، وأن العومل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدولية لا تخلو من تبديل نفسية الشعب وتغيير أوضاعها التى يقوم عليها الإدمان وغيرها من المشاكل وقد أدى ذلك بالفعل فى بعض بلاد الشرق الأقصى إلى انتشار أنواع جديدة من العقار المخدر المستنبط عن طريق التوليف الكيمائى Synthesis مما كان له أثر فى خلق مشاكل خطيرة بين طبقات الراهقين من الشباب على الأخص وهـذه ناحية تنبغى دراستها والعناية باتخاذ سبل الوقاية منها فى هذا الإقليم لأن بعض هذه العقاقير قد تغنى عن الحشيش بفرض نوع من الإدمان أشد خطرا من الناحية الصحية والاقتصادية. وقد أدركنا أن النفوس البشرية ، وخاصة فى صلاتها الجماعية ، لا يمكن وضع حدود لإمكانياتها الخارقة وهذا ما حدا إلى قيام العلاقات الجماعية العلاجية فى الصحة العقلية. وقد علمتنا تجاربنا أن للنفس البشرية طاقة لا حدود لها إذا استطاع الطبيب أن يدركها وأن يلتمسها فى العلاج . وكثيرا ما اختفت الأعراض واضمحل الداء فى يسر كأن لم يكن. كذلك للكثير منا ملكات يمكن تسخيرها للعلاج، نحن أقل الناس دراية بها وإدراكا لقيمتها ولربما يموت الكثيرون دون إدراك ملكاتهم العظيمة الأخرى . وتقـول حكمة أدلفى : اعرف نفسك . ومعرفة النفس أساس لكل أنواع المعرفة ونجد أن فى فترات الثورات من تاريخ الشعوب يستطيع القادة النابهون خلق المعجزات ، لأن الطاقة البشرية تهب من أعماق النفوس ويتجاوب صداها فى ظل القيادة الرشيدة ونستطيع أن ندرك ذلك من طبيعة سيكولوجية الجماعات الثورية. وفى الثورات نجد أصلح الأزمنة لوضع الأسس الجديدة لكل شىء وخاصة للصحة العقلية التى ـ نسبة لمضمونها ـ ربما لا تقوم تشعباتها الاجتماعية فى فترات الهدوء والكساد لأن البناء قد يضطر للهدم . وهنالك سؤال لابد منه لكل عامل فى حقل الصحة العقلية العامة : مثلا عندما كنت فى خدمة مواطنى فى جنوب هـذا الوادى

كنت أسائل نفسى دواما كيف وعلى أى وضع يقوم مجتمعنا؟ لأن فى قيامه ضرورة لقيام الصحة ، لأن الصحة تنبع أصولها من المجتمع ويتطور جوهرها معه تحت ظل الأحداث الاجتماعية والاقتصادية والسياسية دون أن تفقد نواتها الأولى . ثم إن الصحة العقلية فى أى بلد لا تقوم إلا على أساس حضارته وماضيه وتجاربه وتاريخه وكفاحه وآلامه وآماله ، والصحة العقلية فى الغرب تقوم على أسس تختلف فى جوهرها ، وهذا طبيعى لأن الناس يختلفون فى كل شىء حتى فى القيم والمبادئ ، دع عنك البيئة. وتبعا لذلك فإن الصحة العقلية لن تقوم لها مقومات إلا على أساس مجتمع عربى فى كل بلد عربى . وفى هذه الناحية يجب أن أقول إن الخدمات التى تسديها الهيئات الدولية لها مغزى كبير لأنها فى عملها فى حقل الصحة قد تخلق الروابط والأهداف الموحدة بين بلاد الإقليم التى تساهم حتما فى وحدة المجتمع بين أقطاره . ونتطرق الآن إلى الحديث عن السحر . نجد أن الطب فى بابل أضحى فرعا من فروع السحر [وسحر بابل مازال مضرب الأمثال] ولابد من الإيمـاء إلى أن صنوف الكهانة والعرافة وأساليب السحر لها أهمية بالغة لأنها كانت طليعة الطب النفسى ، ولأن آثارها العلاجية لها أصول سيكولوجية محققة يستطيع المتأمل أن يتبين فيها النواة الأولى للتحليل النفسى والمسرح العلاجى وصنوف الإثارة والتفريغ Abreaction — ولصلة السحر كذلك بالعقاقير نسبة إلى أن ظواهر السحر فى بعض مظاهرها تشبه ظواهر وأعراض بعض العقاقير ، ولأن السحرة كانوا بالفعل يستعملون الأدوية فى سحرهم وخاصة المخدر منها كالحشيش والمسكالين Mescaline والأتروبين . ومن بين ما استعمل فى السحر أدوية اتضح للعلم قيمتها العلاجية . كذلك كان لإلمام السحرة بنفسية الجماعة الفضل فى استغلال الموسيقى والحركات الإيقاعية من فروسية ورقص وغيرها من الحركات المضطربة التى تشبه نوبات الصرع لقصد العلاج ، وجميعها وسائل لا فرق فى جوهرها بينها وبين ما نمارسه اليوم سوى اختـلاف الأساليب والطرائق والنظريات . والأثر السيكولوجى للسحر قوى نافذ فيمن يؤمنون به وقد لمست

من مشاهداتى نفاذه وقدرته على قلب الأحوال النفسية بين طبقات خاصة . وقد وصلت إلينا حالات من التهيجات العنيفة نتيجة لاستعمال خواتيم السحر المستقاة من شموس الأنوار للتلمسانى ومن شمس المعارف الكبرى للبونى — وكان المصابون فى حالات من الهياج والعنف واضمحلال الوعى نتيجة للخوف مما يشبه ما وصفه «ميرا» Mira فى كتابه عن الخوف الذى جمع فيه تجاربه خلال الحرب الأهلية بأسبانيا ؛ ولا غرو ففى الحروب الأهلية نجد أن الصلات العميقة بين المحاربين قد تؤثر فى مفهوم الشجاعة والجبن والنصر والهزيمة مما يجعل الأمر مختلفا عما هو مشاهد فى الحروب العالمية . ومن المهم أن نقول إنه قد وجدنا فى السحر بعض الأفكار التى تنبع أصولها من العقل الباطن مباشرة وفى وضوح تام دون أن يعترى مضمونها أى تبديل لذاته . ونسبة لأسباب لامحل لذكرها نجد أن فى مضمون ذلك ما يؤيد نظرية يونج Jung القائلة بأن العقل الباطن هو مصدر الأشباح والأفكار الشيطانية .

وقد ساعدتنا النماذج الشبحية Archetypes فى السحر وما ترمز إليه قواها وما تعبر عنه طبيعتها من نزوات غريزية إلى الوصول إلى نتائج جدية لا تتأتى عن طريق نبذ دراسة السحر والوقوف منه موقفا أخلاقيا يهدف إلى تحقير جدارته بالبحث ؛ لأنه ليس فى نطاق الحياة والعلم ما لا يجدر تحقيقه على الإطلاق . وفى الزار مثلا ، توصلنا بدراسة هذه النماذج التى تعرف «بالمشايخ» إلى نتائج لها صفة تحليلية هامة فى التشخيص والعلاج — أغنت عن تفسير الأحلام — لقدرتها على التعبير المباشر لنزوات النفس وحاجياتها الفطرية والمكتسبة . ووجدنا أن كل نماذجه أو جلها تعبر عن حاجيات نفسية نوعية وتحكى أيضا عن سنة تطور هذه الحاجيات والرغبات تمشياً مع تطورات الحياة . ويبدو أن الخوف من السحر ومن السحرة إنما هو الخوف من العقل الباطن ، وربما أن الحذر من أطباء الأمراض العقلية يرجع إلى هــذا بعض الشىء . والذين يقولون إن الزار نشأ منذ القدم لاشك مخطئون ، لأن للزار خصائص نوعية انفرد بها

رغم مشابهتة لبعض أنواع السحر . والزار أثيوبي الأصل وكلمة زار تعنى بالأمهرية الأرواح والأشباح وأول من وصفه بلاودن Plowden فى كتابه Travels in Abyssinta and Galla Country الذى نشر عام ١٨٦٨ بعد وفاته وقال عنه بلاودن إنه أشبه برقصة التم تم Tom-Tom مما ينطبق على « الروك أندرول الحديث » . كما أشار إلى حالات التقمص .

ومات بلاودن فى مدينة غندار وقد رأيت قبره فى العام الماضى عند زيارتى لأثيوبيا ــ ثم أشار إليه إشارات عابرة عدد من الرحالة الفرنسيين الذين زاروا أثيوبيا. ومن بعدهم العالم الهولندى Hergrogni فى عام ١٨٨٨ فى كتابه عن مكة الذى ترجم إلى الإنجليزية عام ١٩٣٧ . واستطاع هرجروجنى أن يرجع أصول الزار إلى أثيوبيا. ثم وصفه الأمريكى Mc. Donald فى كتابه Aspects of Islam عام ١٩١١ وأشار إلى رسالة كتبتها مدام رشدى عام ١٨٨٤ لم نعثر عليها[١]. ولم يصفه « لين » مع دقته وغزارة علمه ، ورغم أنه خصص فصولا للسحر والشعوذة . وقد وصل الزار إلى السودان عام ١٩٠٥ ودراسة النماذج المتفشية فيه تؤكد مصدره الأثيوبى . وطبيعة الزار تقوم على ظاهرة التنويم المغناطيسى ونستطيع إدراك حقيقتها التنويمية بالاطلاع على ما كتبه مسمار Mesmer عن المغناطيسية الحيوانية ، وكذلك شاركو Charcot عن حوادث الهستيريا الكبرى Grand Histeria وكذلك بيير جانيه Pierre Janet وبرنهايم وليبو Bernheim; Liebault فى وصفهما للإيحاء والإقناع ولكن أهم المصادر هو كتاب العالم الأمريكى مورتن برنس Mortion prince المسمى تعدد الشخصية Multiple Personalities . وفى حلقات الزار وسائل من الترفيه فهو مسرح غنائى راقص وناد ومطعم وقديماً دعت إليه حالة المرأة الاجتماعية ولا تزال تدعو إليه حالات المرأة بين بعض طبقات المجتمع ــ ولا تزال تتخذه النساء من كافة الطبقات نوعاً من الترفيه

(١) إنه لما يسرنا جدا أن المؤرخ الكبير أستاذنا الدكتور محمد شفيق غربال استطاع أن يدلنا على موضع هذه الرسالة فله منا جزيل الشكر والثناء .

وقد يلجأ إليه اليائس من يأسه . وقد ترك مورتن برنس فى كتابه المذكور وصفا دقيقاللحالات المتعددة التى كانت تتقمصها مريضته « سالى » Sally والتى هى أشبه بحالات الزار . وقد وصفت هذه الحالات فيما بعد على أنها جميعها من خلق « برنس » وإيحائه فى مريضته التى كانت تمثل لا شعوريا ما يوحى إليها وأنها لم تكن ظواهر طبيعية . كذلك وصف جلسبي Gillespie حالات الهستيريا الكبرى التى اختفت بعد وفاة شاركو على أنها من صنعه His Pygmalion .

الإسلام : وفى عصور الإسلام نجد أن المجتمع أصبح العامل الأساسى فى الصحة. وكان لتدعيمه للأسرة وفرضه لحسن الجوار وبثه للمبادئ القوية لربط المجتمع فضل وأى فضل. وقد حث الإسلام على المساواة ودعا لمكارم الأخلاق وهدى الفرد إلى القيم الإيجابية للمجتمع ، مما لا يمكن تفصيله فى هـــذه العجالة . كذلك نجد فى العصر الأموى ، وفى العصر العباسى أيضا ، أن الطب أضحى فرعا من فروع المعرفة العامة وخاصة الأدب . وكان بين الأطباء من هم وزراء وكتاب — وقد أسدى المؤرخون الجغرافيون والرحالة والكتاب وأصحاب المعاجم يدا جليلة وخاصة فى الصيدلة . ولا نريد الإسهاب فى أثر الأدب والشعر وغيرها من الفنون فى رفع الهمم وإيقاظ العزيمة وبث الوعى فى المجتمع وفى بعث الأمل فى النفوس اليائسة التى ملت كفاح الحياة . وقد وصف ابن جزله طبيب المقتدى بالله الخليفة العباسى فى كتابه تقويم الأبدان، أثر الموسيقى فى النفس فى حالتى الصحة والعلاج ، مشيرا إلى أثرها الوقائى فى الصحة بقوله «والموسيقى من الأدوات النافعة فى حفظ الصحة وردها وتختلف بحسب اختلاف طباع الأمم وقديما وضعت هذه الصناعة لحث النفوس إلى السنن الصحيحة ثم استعملها الأطباء فى شفاء الأبدان المريضة . فوقع الألحان من النفوس السقيمة موقع الأدوية من الأبدان المريضة وأفعالها فى النفوس ظاهرة من مشى الجمال عند الحداء ، وشرب الخيل عند الصفير ، ومرح الأطفال لسماع الغناء . وهو يحدث أريحيـــة ولذة ويعين على طول الصلاة والدراسة . والأطباء يستعملونه فى تخفيف الآلام على مثال مايستعمله الجمالون

لتخفيف الأثقال » . وفى تذكرة السامع للمتكلم يقول ابن جماعة: « بقدرة طلب العلم على الإشفاء » . وقد أصبح العلاج بالفنون أمرا لاغنى عنه ، لما يترتب عليه من أثر عاطفى فعال له فضل فى تدعيم العلاج وفى بعض الحالات المرضية نجد أن الفنون إذا كان اختيارها موفقا ربما تنقذ المريض من شعوره بتفاهة الحياة مما قد يؤدى للانتحار . ولكن المريض الذى لايتذوق الفنون ربما كان فرضها عليه مدعاة للملل والسأم بل النكسة فيجب تقصى ذلك . والفولكلور أقوى أثرا فى حالات المرض من الفنون الكلاسيكية نظراً لأصولها الاجتماعية العميقة . ولذا كان واجب الأدباء والفنانين كبيراً فى توجيه إنتاجهم لخدمة المجتمع . وفى القرن الرابع الهجرى ، بدأت تباشير عهد التأليف، وصار للطب شخصية اعتبارية . وكان طابعه يتأرجح بين الأدب والفلسفة لقدرتها على التعبير عن الحياة كما كان الدين فى مصر القديمة والسحر فى بابل . ولعل الرازى قد بز معاصريه فى إدراكه لأهمية العوامل النفسية فى المرض ، وهنالك قصص عديدة تدل على اتجاهه فى هذا الشأن أشار إليها التنوخى فى كتابه « الفرج بعد الشدة » . وذلك رغم أن وسائله تبدو أقل كرامة من غاياته إذا ماقيست بالقيم العليا ، ولكنها فى الواقع أكثر كرامة مما هو متفشّ بيننا اليوم . كذلك برزت قدرته واضحة فى كتابه المسمى « برء الساعة » الذى يقول فيه الرازى « إن من العلل ما تجتمع فى أيام وتبرأ فى ساعة ، ووصفها ينطبق على الاضطرابات النفسية» ـ وقد وردت فى أقواله حكم كثيرة تؤيد ذلك كقوله : ينبغى للطبيب أن يوهم المريض أبدا الصحة ويرجّيه بها وإن كان غير واثق بذلك فمزاج الجسم تابع لأخلاق النفس . الأطباء الأميون والمقلدون والأحداث الذين لا تجربة لهم ومن قلت عنايته وكثرت شهوته قتالون الخ .

وكان الرازى واقعيا لايؤمن بالنظرات العقيمة ولا يحتمل السفسطة . وكانت فلسفته تتجه إلى تقييم التجربة والملاحظة وقد ترك قصصا أكلينيكية رائعة توضح هذا الاتجاه العملى من بينها قصة عبد الله بن سوادة المصاب بحمى الملاريا . ولعل

هذا الاتجاه المستمد من صميم فلسفته العملية المنطقية Rationalistic ما دعا صاعدا الأندلسي فى كتابه « طبقات الأمم » لوصف الرازى بأنه توغل فى العلم الإلهى وما فهم غرضه الأقصى فاضطرب لذلك رأيه وتقلد آراء سخيفة . وكتب ابن سينا فى علم النفس : ولكنه لم يهتم بتطبيق ما كتبه عمليا لخوضه فى الفلسفة النظرية ولاتجاهه الفكرى العام المؤيد لذلك . وقد توسع فى وصف العشق كعلة نفسانية . ولعله استمد أكثر ما وصف فى هذا الصدد من أبقراط ومن جالينوس الذى يشابهه فى الخلق والسجايا . وقد وصف ابن سينا تشخيص الحب عن طريق جس النبض وهى قصة بدأها جالينوس ووصلت إلى قمتها عند رشيدالدين أبى خليفة الطبيب المصرى (مولده عام ٥١٩ هـ) الذى كان يستطيع معرفة شخص الملك الكامل بجس نبضه متخفيا بين الناس . وذكر الراغب الأصفهانى قصة مشابهة عزاها إلى سلمويه طبيب المعتصم — ووصف ابن سينا تدبير العشاق بالتنويم والتغذية وبإيقاعهم فى خصومات وأشغال ومنازعات وبالجملة أمور شاغلة Diversion وقال إن ذلك ربما أنساهم ، أو يحتال بتعشيقهم غير المعشوق أو باشتراء الجوارى والإكثار من مجامعتهن . وقد اختصر صاحب « كتاب طب أبقراط وجالينوس وأفلاطون الثلث بالحكمة » آراء ابن سينا ومن تقدمه ومن تبعه فى هذا الصدد . ومن المهم أن الرازى فى رسائله الفلسفية أعرب عن رأيه الخلق قائلا بأن : « المخنثون من الرجال والغزلون والفراغ والمترفون والمؤثرون للشهوات لا يكادون يتخلصون من هذه البلية (الحب) » .

ولعل موسى بن ميمون القرطبي (ولد عام ١١٣٥ م) طبيب الملك العادل صلاح الدين الأيوبى ، وطبيب ابنه الملك الأفضل من بعده ، كان أعمق إدراكا من غيره فى ذلك العهد فى معرفته للحالات النفسية المختلفة كالغضب والحزن والسرور وفى مدى أثرها فى الصحة والمرض ، وإلى علاجها برياضة النفس وتقويمها بممارسة الأخلاق مما جعل اتجاهه أشبه باتجاهات Paul Dubois السويسرى فى القرن الماضى وترجع فلسفته إلى ما قاساه فى صدر حياته بالأندلس تحت حكم الموحدين قبل نزوحه إلى مصر .

والرسالة الأفضلية التى بعث بها للملك الأفضل « تلبية لأمره » من أهم الرسائل فى الطب « النفسى البدنى » وكان الملك الأفضل « كثير الأسقام عصبي المزاج منقبض النفس» وتدل هذه الرسالة على أن موسى بن ميمون كان عالما نفسانيا محنكا وقد اشتهر بذلك فعلا . فقد جاء فى أبيات مدحه فيها القاضى سعيد شاعر صلاح الدين ، وشاعر الأفضل من بعده :

أرى طب جالينوس للجسم وحده وطب أبى عمران للعقل والجسم

وقد نشرت هذه الرسالة الهامة بمصر عام ١٩٠٨ تحت عنوان خاطىء [١] مع تحريف اسم المؤلف وأشار إلى أهميتها ولفنسون فى كتابه عن موسى بن ميمون .

ونرى فى القرن التاسع الهجرى إشارات هامة للمالنخولية. ففى شرح « كتاب الأسباب والعلامات » لنفيس بن حكيم السكرمانى (٨٢٠ هجرية) الذى كتب متنه فى الأصل نجيب الدين السمرقندى الذى مات قتيلا فى سمرقند عندما افتتحها جنكيزخان. نجد فى هذا الشرح وصفا دقيقا لهذا الداء يشمل بحث أسبابه الاجتماعية وربما كان هذا البحث أقيم بحث إلى مستهل هذا القرن . وقد أشار السكرمانى إلى جملة من العلماء الذين تفردوا بأنفسهم وتركوا لجائية الناس فاحترقت أخلاطهم وحدث بهم إلى الملنخولية وقال أن الإفراط من سبيل التردى. وقد سبقه إلى مثل هذا القول الطبرى فى المعالجات الأبقراطية وقد أشار إلى ذلك السكرمانى. ورغم أنه لا يسمح لنا المجال لبحث الصلة بين العبقرية والاضطراب النفسى،فإننا يجب أن ندرك أن القلق والتوتر النفسى قد يكونان علامة للصحة إذا ما توفرت أسبابها الفعلية ــ والصحة لا تعنى الخلو المطلق من الهم أو القلق فى جميع الأحوال ، بل قد يكون الخلو من القلق أو الهم عندما تتوفر دواعيه من العلامات غير الطبيعية وقد قال المتنبي : وربما صحت الأجسام بالعلل .

---

(١) نشرت عام ١٩٠٨ تحت عنوان « الطب القديم » لموسى بن عبد الله القرطبي ، وأعيد طبعها عام ١٩٣٢ ، وقد قام بجمعها وتصحيحها وطبعها عوض واصف (مطبعة المحيط) الفجالة .

ثم أصبحت الصحة فرعا من الأخلاق والتصوف ـ وقام مبدأ تعريفها على قول أرسطاطاليس « الصحة هى الفضيلة » ونجد فى كتب المتصوفة تفسيرا للصحة باعتبار أنها فضيلة تابعة لأخلاق النفس تنبعث أصولها من الدين. وقد حدا هـــذا ببعضهم إلى ادعاء الطب وإلى تأليف الكناشات الطبية ومن ضمن الكتب الهامة فى التصوف والأخلاق التى توضح هذا المنهج إحياء علوم الدين للغزالى ، والفتوحات المكية لابن عربى ، وكشف المحجوب للهجويرى ، والذريعة فى مكارم الأخلاق والشريعة للراغب الاصفهانى والأخلاق لابن مسكويه والرسالة القشيرية ، والطبقات الكبرى والصغرى للشعرانى. ورغم ذلك فقد استطاع هؤلاء المتصوفين إدراك الكثير من الحقائق السيكولوجية للنفس كحالات « القبض والبسط والرجاء والخوف والعزل والوجد والصحو والسكر » الخ ... ولا شك أن من أقيم الكتب التى تنير الطريق لمعرفة بعض الأحوال النفسية هو كتاب « لطائف المنن » للشعرانى ، لأنه يحكى فيه عن تجارب شخصية عميقة. ويقول القشيرى فى صدد القبض والبسط « وهما حالتان بعد ترقى العبـــد عن حالة الخوف والرجاء فالقبض للعارف بمنزلة الخوف للمستأنف (والمستأنف هو المريد عند بدء سلوكه) والبسط للعارف بمنزلة الرجاء للمستأنف وهذا قول يؤيده كارل ابراهام Karl Abraham حينما قال بصلة القلق مع الكآبة ، والخوف مع الحزن والأحوال الصوفية تجارب تحليلية Analytic فى الأصل. يتضح ذلك من وصف الصوفية « للأحوال والمقامات » التى تنطبق على وصف درجات التعمق النفسى الذى يصل إليه السالك فى سلوكه وصلة ذلك بالتجربة الوجدانية . وقد وجدنا بالفعل أن العواطف التى تنطلق من التجارب الصوفية تنطلق من طبقات نفسية مختلفة الأغوار تزداد عمقا مع توغل السالك فى طريق السلوك أشبه بمراتب التحليل النفسى فى بعض أوجهه . والتجربة الصوفية قد تؤدى إلى تغيير حاسم لاينحصر أثره على ظاهرة محدودة فحسب ، بل على الاتجاه والسلوك الشخصى جملة وتفصيلا ، بل قد يكون مولدا لنمط جديد من الحياة . وقد كتب سارجنت Sargant عما يسمى

بغسل المخ Brain Washing . وتنطبق بعض نواحى سيكلوجيته على بعض ما رأيناه فى هـــذا الصدد . وقد تحل التجارب الصوفية فجأة ودون سابق إنذار ظاهر كما هو معروف فى حياة بعض المتصوفة كفريد الدين العطار مثلا . ورغم ذلك فإن لها أصول خفية يمكن تقصى نموها قبل انطلاقها . وحالات الوجد التى تميز بعض التجارب الصوفية قد تـكون حاسمة فى بعض أنواع العلاج لمن لهم نزعة التصوف وقوتها ظاهرة فى حالات القبض والسكر مثلا . ويمكن تقريب فهم هذه الأحوال على أساس المقارنة بينها وبين ظواهر التحليل النفسى التى هى فصيلة منها تختلف عنها فى نوع التجربة وطابعها وغايتها القصوى وفى كمها وكيفها الوجدانى وفى انفصامها عن حيز الزمان والمـكان . وتعاريف الصوفية لمصطلحاتهم هامة ويجب معرفتها لأهميتها فى تعميق فهمنا لسيكلوجية النفس . ويجد القارئ الـكثير منها فى كتاب «اصطلاحات الصوفية لـكمال الدين الـكاشى ، وفى منازل السائرين لأبى إسماعيل الأنصارى ، وفى الفتوحات المـكية لابن عربى ، وفى غيرها . ونجد فيما كتبه المستشرقون شروحا وافية كشرح المستشرق نيكلسون Nicholson لديوان ترجمان الأشواق لابن عربى ، الذى يذلل كثيرا من صعوبات فهمها . وقد لا يكون من الملائم أن يترك هذا البحث دون أن نشير إلى المعجزات والـكرامات وعما هى وعن طبيعتها وعن أثرها فى الطب والمعالجة ، وتوجد كثير من الأمثلة لهذه الظاهرة فى كتب الشعرانى والنبهانى وكذلك فى كتب الغزالى وابن عربى وغيرهم .. وقد حاول الباقلانى فى كتاب البيان أن يفرق بين المعجزات والـكرامات ، وبين الحيل والـكهانة ، والسحر والنارنجات ، كما حاول الشعرانى بعده فى كتابه « أسرار العبودية » التفريق بين الوحى والرؤية والإلهام . وبعض العلماء المعاصرين يعتقدون أن الـكرامات ظاهرة أزلية وصك من صكوك الألوهية تعريفا لقدرة خالق هذا الـكون الذى بعثه ، وأن حصول الـكرامات ظاهرة تؤيدها النظرية الداروينية Darwinism (نسبة إلى دارون) التى تقول بتطور الـكون من النقص إلى الـكمال . ويقولون إن المعجزة عمل من عمل الخالق فى تطويره دوما

لمخاوقاتة . ونتحدث باختصار عن الرؤية ماحقيقة تفسيرها وما قيمتها العلاجية . وأود قبل أن استهل الموضوع ، أود الإشارة إلى ابن سيرين وإلى القيمة العلمية التى لاتقدر لـكتابه فى التعبير. والحق أن ابن سيرين قد سبق فرويد وقد بزه عبقرية وعلمـــا . ويتضح لنا ذلك مما قاله عن آداب المعبر وعن تعبير الرؤية ومعرفة أصولها التى جمع فيها أصول التعبير التى وصل إلى بعضها فرويد فى كتابه الذى نشره فى آخر القرن الماضى وقد وصفها ابن سيرين وصفا يكاد يشكك الذى لا يعرف عبقرية فرويد فى أنه نقلها عن ابن سيرين . وقد ارتفعت عبقرية ابن سيرين إلى أوجها فى تحقيقه لرموز الرؤيا تحقيقا لم يصل إليه أحـــد بعد وبوضوح لايسمح بمجال للشك فى صدقها. وقد كان لـكتابه أثر كبير فيمن تبعه من المعبرين كالظاهرى والنابلسى وابن الوردى وغيرهم . والحقيقة أن سر تعبير الأحلام لايدرك إلاعلى أساس معرفة قويمة لعلم البلاغة لأن الخواطر الأولى التى تبعث الأحلام والتى تتجسم فى رؤى الحالم ، تقوم على أساليب الإدماج والـكناية والمطابقة والمبالغة والاستعارة وغيرها من أساليب البلاغة . ولذا فإن كتب البديع ككتاب ابن المعتز ، وكتاب الـكناية والتعريض للثعالبى ، وكنايات الأدباء وإشارات البلغاء للجرجانى ، ومفتاح العلوم للسكاكى ، والبديعية للصفدى ، من أهم الـكتب التى لايستغنى المعبر اليوم عن معرفتها . وربما نستطيع أن ندرك قيمة كتاب النابلسى فى تفسير الأحلام عندما نحس بقدرته البديعية فى قصيدته التى مدح بها الرسول صلى الله عليه وسلم المسماة «بنفحات الأزهار على نسمات الأشعار». وقيمة الأحلام أنها تساعد على فهم المريض ومشكلته التى هى أول خطوات العلاج. كذلك لما لها من أثر سيكلوجى عميق فى النفس. والمقام لا يسمح بذكر بعض الظواهر الهامة جدا فى الأحلام وخاصة الرؤيا الصادقة . ونجد وصفا رائعا للمستشفيات وعما وصلت إليه تلك العصور فى كتاب فقيد العروبة الدكتور أحمد عيسى (البيمارستانات فى الإسلام) ، نجد فيه أن وسائل العلاج السيكلوجية فى المستشفيات العامة حينئذ. وكان يطلق عليها البيمارستانات : بيمار = مريض واستان = محل بالفارسية وكانت تطلق

على المستشفيات العامة ولكن مدلولها تغير فيما بعد لأسباب لامحل لذكرها ـ نجد أن وسائل العلاج والترفيه كانت تعكس فى مداها وتنوعها معرفة عميقة بالأصول السيكولوجية للعلاج . وفى القرن الماضى بدأ عهد جديد بإنشاء أول مدرسة طبية على النظم الحديثة عام ١٨٢٧ بمصر وقد ألحقت بالمستشفى العسكرى « بأبو زعبل » ومن العبرة لنا الرجوع إلى كتاب كلوت بك لنرى كيف أن الترجمة من الفرنسية إلى العربية التى كانت لغة التعليم لم تكن مشكلة كبرى إلا فى اختيار الوسائل لا فى اللغة ذاتها. وقد تصفحت أكثر من خمسين كتابا نشرت ببولاق بين عام ١٨٤٦ إلى عام ١٩٠٠ كانت لغتها سليمة وتعابيرها جيدة ونصوصها مفهومة . ومن بين هذه الكتب كتاب المنحة فى سياسة حفظ الصحة ترجمه الحلبي من الفرنسية وصححه محمد الهروى عام ١٢٤٩ وهو ثالث كتاب يترجم . وللكتاب اتجاه عسكرى يبحث فى المشاكل الصحية للجنود من ضمنها مشكلة « العزوبة » و« الأحوال النفسانية للرجال البحريين والأوصاف النفسية للمجرمين » ومنها « وسائل الابتهاج فى الطب والعلاج » تأليف سالم سالم بك مدرس الأمراض الباطنية ، وقد تخرج فى ألمانيا عام ١٨٥٣ بعد نيله الدكتوراه. قال فى مقدمته « ليس كلمة أضر بالعلم من قولهم ماترك الأول للآخر شيئا » وفى كتاب « كنوز الصحة » ١٢٦١ هـ للدكتور محمد الشافعى إشارات للعقل و « التولعات النفسانية » وإلى أثر هذه التولعات فى الصحة . وقد كتب من بعده ابنه الدكتور أحمد بك ابن محمد الشافعى كتابه المسمى « ببلوغ الأمنية للحصون الصحية » وهو كتاب هام لأنه تحدث فى إسهاب عن جغرافية المرض وعن تاريخه.

كذلك اهتم ببحث واجبات المجالس البلدية والحكومات فيما يتعلق بالصحة ـ كذلك الدكتور عبد الرحمن إسماعيل فى كتابه المعروف « بطب الركة » جزء أول ١٣١٠هـ ـ جزء ثانى ١٨٩٤ بحث أنواع السحر وأساليبه المستعملة فى الصحة فى عصره كالزار والمشاهرة والنزيل ومؤاخاة الجن والقرين وضرب الودع والمربوط الخ . . . مما يجعل للكتاب من الناحية الانثروبولوجية قيمة لا تقدر . ولكن أهم هذه الكتب

على الإطلاق هو كتاب « أسلوب الطبيب فى فن المجاذيب » قام بكتابته الدكتور سليمان نجاتى مدرس الأمراض العقلية ، ومدرس ثانى الأمراض الباطنية بمدرسة الطب الخديوية ، وحكيم ثانى الأمراض الباطنية بمستشفى القصر العينى عام ١٣٠٩هـ ، والدكتور سليمان نجاتى خريج مدرسة الطب بمصر وجامعة باريس، وهو أول من درس الأمراض العقلية وتخصص فيها بمصر ، قال « إن هذا الفن لم يطرق لمصر باباً وقد هزتنى أريحية الغيرة الوطنية على أن أكون أول من اشتغل من المصريين بهذا الفرع ، فصرفت فى الحصول عليه أنفس أوقات الشبوبية » ، وتحدث عن رجوعه إلى مصر فقال « وما لبثت بإدارة الصحة العمومية غير قليل إلا وجىء بى إلى مدرسة الطب مدرسا للأمراض العقلية » . وأشار إلى عدم تدريس الأمراض العقلية قبله ، وإلى إصراره على إعطاء دروسه للطلبة بالمستشفى ببولاق (ورشة الجوخ) ، وفق منهج عملى؛ والكتاب فيه الكثير من خبرة هذا الرائد الأول. ونسبة لأهميته فقد عزمت وزميلاى الدكتور أحمد وجدى والدكتور صبرى جرجس على الكتابة عن هذا الرائد العظيم تعريفاً به وتشريفاً له وليكون ذلك مساهمة منا للاحتفالات هذه السنة بحلول العام الدولى للصحة العقلية .

وقبل أن نختتم ، أرى أن البعض سوف يسأل ما هى الصحة العقلية إذاً ؟ ونقول إنه من الضرورى أن ندرك إدراكا تاما أن الصحة العقلية ليست مفهوما طبيا محضا ، بل إن بعض جوانبها الهامة تمت إلى الانطباعات الأولى فى الأسرة وإلى وسائل التربية والتربيب ، وإلى ظروف العمل والكسب ، وإلى الحياة الزوجية ، وإلى المجتمع فى مبادئه ونظمه وتاريخه وفلسفته وعقائده ، وإلى ظروف اقتصادياته ، وإلى صحة البدن. ولهذه الناحية (أى الصحة البدنية) وظيفة كبرى تدخل فى تعريف النظم العلاجية النفسية فى المجتمع ، وفى تقييمها حسب الاتجاهات الحديثة التى تتجه نحو وحدة العقل والبدن . كل هذه وغيرها تدخل فى مفهوم الصحة العقلية . وقد تختلف مقوماتها باختلاف الزمان والمكان . ولذا فلا مندوحة من أن نفسرها تبعاً للظروف الزمانية

والمكانية . وللصحة العقلية جوانب لا يسمح الوقت بالتطرق إليها خاصة فى المجال الدولى .

ونختتم بقول جبران فى كتاب « النبي » :

كيف أستطيع يا صاح أن أجلب السكينة إلى نفوسكم القلقة .

كيف أستطيع تبديد ما بها من نفور وشقاق .

قل لى بربك ، كيف أستطيع ذلك إن لم تكونوا أنتم حريصين على ذلك .

بل إن لم تكونوا محبين لذاتكم ولعناصركم جميعها .

دكتور

التجانى الماحى

الخطوط الرئيسية لسياسة انجلترا تجاه الدولة العثمانية

فى القرن الثامن عشر

فى الإمكان دراسة السياسة الإنجليزية تجاه الدولة العثمانية من خلال تطور وضع السفارة البريطانية فى القسطنطينية . وقد كان السفير الإنجليزى منذ إنشاء هذه السفارة فى عام ١٥٣٨ عميلا لشركة الليفانت. وكانت مهامه الرئيسية تتمثل فى حماية مصالح الشركة التجارية ، والعمل على تطبيق نصوص معاهدة الامتيازات والسعى للحصول على مزايا تجارية للرعايا الإنجليز . وكان السفير يتقاضى مرتبه من الشركة التى تقوم بتعيينه فى منصبه . أما الصفة الدبلوماسية التى منحت للسفير فقد قصد بها فقط وضعه فى مركز يمكنه من الوقوف أمام المناورات الفرنسية فى البلاط العثمانى . وهكذا كان السفير الإنجليزى من الناحية الرسمية يمثل بلاط جلالة الملك بينما لم يكن من الناحية الفعلية أكثر من موظف فى شركة الليفانت(١) .

ومن هنا جاءت الصفة المزدوجة لمنصب السفير الإنجليزى فى القسطنطينية . وخلال القرن الثامن عشر وبتطور الاهتمام السياسى البريطانى بمشاكل الدولة العثمانية ، أخذ الجانب الدبلوماسى من عمل السفير يزداد أهمية ، كما أخذ تدخل الحكومة البريطانية يتزايد بالتالى فى تعيين سفراء بريطانيا لدى الباب العالى . والحقيقة أن منصب السفير البريطانى لدى البلاط العثمانى كان من المناصب التى يشتد التزاحم عليها من جانب الدبلوماسيين البريطانيين . ولا يرجع ذلك إلى أهمية المنصب من الناحية السياسية بل لما يدره من مكاسب مالية على صاحبه . فمرتب السفير البريطانى كان كبيرا بدرجة ملحوظة،

---

(1) A. C. Wood, English Hist. Rev. Vol XL. 1925.
« The English Embassy of Constantinople 1660-1762 ».

هذا إلى جانب مصادر أخرى لدخل السفير كبيع البراءات[٢] وغيرها من أنواع الحماية إلى جانب المبالغ التى كان يدفعها الباب العالى لممثلى الدول الأجنبية .

ولم يكن الجانب السياسى من عمل السفير أكثر من التوسط لدى الدولة العثمانية من ناحية وروسيا أو النمسا من ناحية أخرى وهى وساطة كان الهدف منها كسب سمعة طيبة للسفارة البريطانية وبالتالى تسهيل مطالب السفارة . ومنذ فجر القرن الثامن عشر بدأ الجانب الدبلوماسى من عمل السفير يطغى على الجانب التجارى تدريجيا.

وانعكس ذلك بشكل واضح فى وضع السفارة ، فنى سنة ١٦٩١ استطاعت الحكومة الإنجليزية أن تأخذ من شركة الليفانت حق تعيين السفراء فى القسطنطينية وإن بقيت الشركة تدفع لهؤلاء السفراء مرتباتهم. ومنذ سنة ١٨٠٣ أصبحت السفارة تابعة تبعية تامة لوزارة الخارجية البريطانية .

وهذا التطور فى وضع السفارة البريطانية حدث على ثلاث مراحل: المرحلة الأولى من سنة ١٦٨٨ حتى سنة ١٧٨٠ ، والثانية من ١٧٨٠ حتى سنة ١٧٩٨ ، والثالثة من سنة ١٧٩٨ حتى سنة ١٨٠٣ . أما المرحلة الأخيرة فهى فترة الحملة الفرنسية على مصر التى أدت إلى التحالف البريطانى ـ التركى (١٧٩٩) ووضعت السياسة البريطانية تجاه الدولة العثمانية فى خطوط مستقرة ظلت تسير عليها طوال القرن التاسع عشر . وقد تناول المؤرخون هذا الجانب بالدراسة المستفيضة[٣] .

أما فيما يتعلق بالمرحلة الأولى (١٦٨٨ ـ ١٧٨٠) فيلاحظ أن بريطانيا لم تكن لها سياسة ذاتية محددة تجاه الدولة العثمانية. فقد كان اهتمام بريطانيا بالدولة العثمانية يأتى من زاوية الموقف الأوربى نفسه ـ فنى الفترة ما بين ١٦٨٩ ، ١٦٩٧ كانت انجلترا

---

(٢) البراءة : هى الصك الذى تمنحه بعض السفارات فى القسطنطينية لأحد رعاياها ليتمتع بالامتيازات .

(٣) M. Ghorbal: The Beginnings of the Egyptian Question and the Rise of Mehmet Ali. London 1928.

وكذلك محمد فؤاد شكرى : عبد الله جاك مينو والحملة الفرنسية . القاهرة ١٩٥٢

فى حرب مع فرنسا حول موضوع الحلف الكبير (Grand Alliance) ، وكان وليم الثالث ملك انجلترا حريصا على عقد صلح بين الباب العالى والإمبراطور (النمسا) حتى يتفرغ الأخير تماما لمواجهة فرنسا . فنشب الصراع بين السفيرين البريطانى والفرنسى فى القسطنطينية وكان لا بد أن تفشل مساعى Trumbull السفير البريطانى بالنظر إلى نفوذ فرنسا التقليدى لدى البلاط العثمانى (٤) فأصدرت الحكومة البريطانية أوامرها إلى لورد باجت Paget السفير البريطانى فى فينا بالتوجه إلى القسطنطينية ليبذل قصارى جهده للتوسط بين النمسا والدولة العثمانية. ولم يقدر للورد باجت أن يلعب سوى دور محدود جدا فى صلح كارلوفتز (١٦٩٨) .

هكذا دخلت الدولة العثمانية فى إطار السياسة البريطانية . ولكنه كان دخولا غير مباشر ومرتبطا بتزايد اهتمام انجلترا بمشاكل القارة الأوربية، فلم تكن مشاكل الدولة العثمانية تهم انجلترا لذاتها وإنما باعتبارها تابعة للمشاكل الأوروبية الأكثر أهمية من وجهة النظر البريطانية .

وفى سنة ١٧١٦ عادت انجلترا مرة أخرى تسعى لعقد صلح بين الباب العالى والامبراطور حتى يتفرغ الأخير للأزمة التى نشبت فى إيطاليا بين الامبراطورية وفيليب الخامس ملك أسبانيا(٥). كذلك أصدرت Pitt رئيس الوزارة البريطانية إبان حرب السبع سنوات تعليماته إلى السفير البريطانى فى القسطنطينية ليعمل على إقامة تحالف هجومى ودفاعى بين روسيا والباب العالى . وقد فشلت المحاولتان البريطانيتان .

والعامل الأساسى فى هذا الفشل يرجع إلى طبيعة السياسة البريطانية إزاء الدولة العثمانية، فهذه السياسة كانت تتحدد بعلاقات انجلترا بجيران الدولة العثمانية عدائية كانت أم ودية . أما بقاء الدولة العثمانية أو زوالها فى حد ذاته فلم يكن يدخل على وجه التحديد فى إطار هذه السياسة الانجليزية . لم يحدث هذا إلا فى القرن التاسع عشر

(4) State papers, Foreign, Turkey, 20. Trumbull to shrewsbury, 1 July 1690. & Brit. Mus. Add. MSS. 8880, F.O. 66.

(5) A. Wood, op. cit. pp. 549-550.

وكنتيجة للحملة الفرنسية على مصر ، حين نمت المصالح البريطانية فى الشرق الأدنى وفى الهند . والحقيقة أنه لما كانت السياسة البريطانية الدولية والأوروبية تقوم بصفة أساسية على العداء لفرنسا والتأييد للامبراطورية فقد كان لا بد أن تجىء مواقف انجلترا واتجاهاتها — فى شكلها الرئيسى — معادية للباب العالى الذى يعتبر فرنسا الصديق التقليدى له والامبراطورية العدو التقليدى .

ومن ناحية أخرى كانت انجلترا — بصفة عامة تؤيد روسيا بسبب تجارتها فى البلطيق . فى الوقت الذى كانت تجارة البلطيق آخذة فى الازدهار طوال القرن الثامن عشر ، كانت تجارة الليفانت فى تدهور متزايد . ولما كانت التجارة المحرك الرئيسى للسياسة البريطانية فقد كان من الطبيعى أن تقف بريطانيا إلى جانب روسيا ضد الدولة العثمانية . فإبان الحرب التركية والروسية (١٧٦٩ — ١٧٧٤) كان الأسطول البريطانى — الذى كاد أن يستولى على القسطنطينية — تحت قيادة ضباط انجليز(٦). ومن المعروف أن Dydale, Truvenan, Greig, Elphinston هم الذين أنشأوا البحرية الروسية فى عهد كاترين . وكان مدير بنك البلاط إسكتلنديا يدعى Sutherland وطبيب كاترين الخاص انجليزيا يدعى Rogerson ، كما كانت Maria Gutherie مديرة للدير الامبراطورى الذى يقوم بتعليم الارستقارطية الروسية (٧) . وقبيل توقيع معاهدة كتشك قينارجة التى أنهت هذه الحرب ، أسرع فرجين الوزير الفرنسى إلى التشاور مع بريطانيا وعرض مشروعا للتدخل المشترك من جانب بريطانيا وفرنسا لوقف استيلاء الروس على القرم . ويشير فوكس Fox إلى هذا الحادث بقوله فيما بعد « لقد كنت أحد وزراء جلالة الملك فى ذلك الوقت . وكانت الإجابة التى نصحت

---

(6) W. Miller, the Ottoman Empire and its successors 1801-1927. Cambribge 1927. p. 14

(7) G.B. Hertz, British Imperialism in the 18th Century. London 1908 p. 166.

بها أن جلالة الملك لن يقدم أى احتجاج على هذا الموضوع أو يضع صعوبة فى طريق الأمبراطورة (كاترين)»(٨) . وتمثل الفترة ما بين ١٧٨٠ و ١٧٩٨ مرحلة انتقال بين السياسة الإنجليزية المتسمة بطابع عدم الاهتمام بل العداء للدولة العثمانية وبين سياسية بريطانيا القائمة على تمامية الدولة العثمانية فى القرن التاسع عشر .

فحتى عام ١٧٨٣ كانت الامبراطورية البريطانية أنجلوسكسونية فى أغلب بقاعها ، واستعمارية فى جوهرها ، بينما كان مركز الثقل فى الامبراطورية فيما وراء البحار يتركز فى أمريكا . وفى عام ١٧٨٣ تغير ميزان الاهتمام والقوة داخل الامبراطورية ، فانتقل نحو الشرق وفى البنغال بالذات بينما لم يعد لانجلترا من مستعمرات انجلوسكسونية سوى جزر الهند الغربية ونوفاسكوتيا ونيوفوندلاند . وبانتقال مركز الجاذبية فى الامبراطورية نحو الشرق أصبحت تجارة بريطانيا ومسئولياتها السياسية فى آسيا شاغلها الأول فيما وراء البحار فكانت مسائل الهند على الدوام أمام البرلمان والرأى العام ، وأصبحت المحافظة على طرق المواصلات بين انجلترا وممتلكاتها فى آسيا المشكلة الرئيسية للبحرية البريطانية ، كما أصبحت المهمة العسكرية الرئيسية المحافظة على هذه الممتلكات الأسيوية .

هذا الوضع الجديد للامبراطورية البريطانية هو الذى أدخل الشرق الأدنى فى إطار الاهتمام السياسى لبريطانيا . وفيما بين عام ١٧٨٨ و ١٧٩٢ اختفت فرنسا كمنافس عنيد لانجلترا فى ميدان التوسع الاستعمارى بسبب الثورة الفرنسية وتدهور البحرية الفرنسية فى عهد الثورة ، وبدت روسيا كمنافس خطر بتحكمها فى طرق المواصلات البرية فى وسط آسيا . وفى الوقت الذى عجزت فيه فرنسا عن أن تقدم أى مساعدة جدية لتيبو صاحب الثائر فى جنوب الهند ضد النفوذ البريطانى ، كانت

(8) Hansard's parliamentary history Vol. 29, 1791-92 p. 63.

كاترين تنظر بعين الاعتبار لمشروع إرسال قوات مسلحة عن طريق بحر قزوين لمهاجمة البريطانيين فى البنغال(٩) .

ولقد كان حزب التورى فى انجلترا أكثر إدراكا لحقائق الوضع الجديد للامبراطورية البريطانية وبالتالى لمستلزمات السياسة الخارجية لانجلترا ـ بينما ظل حزب الهويج ، بسبب الحركة الانجليكية ، شديد العداء لتركيا ـ وإلى جانب هذا ظلت تجارة البلطيق تجذب بشدة السياسة الانجليزية لتأييد روسيا . وهكذا كانت السياسية البريطانية عام ١٧٨٣ تتجاذبها عوامل متضاربة ـ من ناحية كانت هناك المستلزمات السياسية للموقف الجديد للامبراطورية البريطانية تحتم تأييد وحماية الدولة العثمانية ، ومن ناحية أخرى كانت المصالح التجارية الضيقة تشير إلى ضرورة الاصرار على صداقة روسيا .

وتعكس مشكلة اوكزاكوف (١٧٩١) وموقف بريطانيا هـــذا التضارب العنيف فى السياسة البريطانية؛ فلقد انقسم كل من الرأى العام والحكومة فى بريطانيا حول هذه الأزمة انقساما حادا .

فى ١٧٨٧ نشبت الحرب بين روسيا والدولة العثمانية ـ وفى أواخر ١٧٨٨ استولى الروس على قلعة أوكزاكوف وأصبح قلب الامبراطورية العثمانية مفتوحا أمام الغزاة . ولـكن سياسبة التحالف الثلاثى كانت تنادى ببقاء الوضع الراهن للموقف فى الشرق الأدنى . وكان هذا يعنى بطبيعة الحال عودة الوضع كما كان عليه فى شرق أوربا دون أن تستولى روسيا على اكزاكوف . وفى مارس ١٧٩١ أرسلت الحكومة البريطانية إنذارا إلى روسيا تطالبها بإرجاع كافة الممتلكات التى استولت عليها ـ باستثناء القرم إلى الباب العالى . وكان بت فى رآسة الوزارة وهو ينتمى إلى حزب التورى ، بينما وقف حزب الهويج بصحافته ونوابه موقف المعارضة العنيدة التى نجحت آخر الأمر فى أن تزحزح بت عن سياسته الموالية للدولة العثمانية .

(9) Cambridge History of the British Empire Vol. II. p. 48.

وواضح من المناقشات التى دارت فى مجلس العموم ومما كتبته الصحافة المعاصرة أنه كانت هناك ثلاثة عوامل حددت موقف بت ووزارته ونوابه فى معارضة التوسع الروسى . أولا ــ أن التقدم الروسى فى البحرين الأسود والأبيض سيفتح الطريق أمام التجارة لعملاء جدد وأن هذه البحار ستخضع للقوانين الروسية فى الملاحة. وكانت جريدة « The Public Advisor » (حزب التورى) أشد قلقا على توازن القوى فى أوربا والبحر الأبيض . فكتبت فى ١٢ يناير ١٧٩١ تقول عن روسيا « إنهـــا تستطيع وتقوم فعلا بتهديد كل أوربا ، إنها دولة إذا لم يوقف تقدمها الحالى ضد الأتراك ستحصل فى السنوات القليلة القادمة على سيطرة بحرية فى أوربا . . . فلانجلترا وفرنسا وأسبانيا وهولنـدا مصلحة مادية ضد روسيا ــ وبذلك يكون مدعاة للدهشة ألا تتخذ خطوات حاسمة حتى الآن لتأييد الأتراك . إن انجلترا لاتستطيع ولن تقف موقف الحياد بعد ذلك ازاء كل توسع تقوم به روسيا» . واقترحت جريدة St. James Chronicle (١٠) أن تستغل انجلترا أزمة اوكزاكوف للتقارب نحو تركيا فتستولى بذلك على ميراث فرنسا فى الشرق الأدنى قبل أن تفيق فرنسا من الثورة . أما العامل الثانى فهو أن مستقبل روسيا الاقتصادى ينذر بأن تصبح روسيا منافسا خطرا للمصدرين الإنجليز بينما لاتستطيع تركيا أن تكفى نفسها ذاتيا من ناحية الانتاج وأنها أضعف من أن تثير خوفا أو حقدا (١١) .

أما العامل الثالث فكان اهتمام انجلترا بمستقبل مصر . فكابتن Sutherland وهو رحالة فى الليفانت نشر كتابا فى عام ١٧٩٠ عن رحلته من جبل طارق إلى القسطنطينية . وفيه عبر عن وجهة نظره حول الحرب الروسية ــ التركية . وكان يعتقد أن فرنسا ستطلق يد روسيا والنمسا ضد تركيا حتى تتفرغ هى للاستيلاء على جزيرة كريت ومصر . فإذا تم ذلك فإن انجلترا ستضطر إلى التخلى عن تجارتها

(١٠) St. James chronicle April 7, 1791.

(١١) J. Ewart, Observations on the nature of the connection that hitherto subsisted between Great Britain aud· Russia. London 1791.

فى الليفانت . «وفى وقت قصير يستطيع الفرنسيون عن طريق برزخ السويس أن يوجهوا ضربة قاصمة إلى تجارتنا فى الهند كذلك[١٢]» .

ولمواجهة هذه الخطط الفرنسية اقترح الكاتب أن تقوم انجلترا وأسبانيا وتركيا بعمل مشترك فى البحر الأبيض ضد روسيا . كذلك عبر لورد بلجراف فى مجلس العموم عن تخاوفه من أن تحقق روسيا « السيطرة الكاملة فى البحر الأبيض باستيلائها على الإسكندرية عقب عبور الدردنيل[١٣]» .

ومن أهم الدراسات المعاصرة التى عرضت لموضوع مستقبل مصر السياسى إبان أزمة أوكزا كوف تلك التى قدمها سير جون دالرمبل Sir John Dalrymple .

لم يكن سير جون يؤيد أساسا سياسة بت . فهو يضع تجارة البلطيق فى الاعتبار الأول لتحديد موقف انجلترا من النزاع بين تركيا وروسيا . ومع ذلك فقد كان دالرمبل يرى أنه إذا اضطرت انجلترا إلى دخول الحرب لإنقاذ الدولة العثمانية فيجب أن تكافأ على ذلك « باحتلال مصر » . والواقع أن دالرمبل كان أحد السياسيين البريطانيين القلائل الذين نادوا فى ذلك الوقت باتباع سياسة بريطانية نشطة فى الشرق الأدنى للمحافظة على الامبراطورية البريطانية وتوسيع رقعتها ولتعويض خسائر بريطانيا فى حرب التحرير الأمريكية . وإلى جانب ذلك فقد كان دالرمبل يرى أن احتلال مصر سيؤدى إلى إنعاش التجارة البريطانية فى البحر الأحمر . وذهب إلى حد وضع مشروع كامل لنظام الحكم فى مصر . فمن الناحية الشرعية تظل مصر ولاية عثمانية وعلى الباب العالى أن يقنع بجزية سنوية قدرها ١٣٠ ألف جنيه سنويا (وهو قدر لم يكن يحصل عليه من البكوات المماليك) إلى جانب ١٥٠ ألف طن من الحبوب . أما انجلترا

---

(12) Account of a tour up the straits form Gibraltar to Constantinople.

(13) Hansard, op. cit. Vol. 29. p.180.

فتقيم « قاعدة عسكرية كبيرة فى مصر ليس فقط للدفاع عنها بل وكذلك لتقـديم المساعدات العسكرية للسلطات البريطانية فى الهند إذا لزم الأمر »[١٤] .

وهذه الناحية بالذات أى استخدام مصر كحلقة للاتصال بين بريطانيا ومستعمراتها فى الهند تبرز كذلك فى كتابات كل من جورج بلدوين[١٥] وكابتن تايلور Taylor . فقد كان تايلور يرى أن تستغل انجلترا تأييدها للدولة العثمانية فى أزمة أوكزاكوف لتحصل من الباب العالى على السماح للملاحة البريطانية فى خليج السويس وفيما بين جدة والسويس[١٦] . كذلك كتبت جريدة The Public Advisor (٢٩ ابريل ١٧٩١) حول هـذا الموضوع فاقترحت أن تعرض انجلترا على الباب العالى حصولها على حق استخدام البحر الأسود والبحر الأحمر للملاحة البريطانية مقابل كافة الخدمات التى تقدمها انجلترا للباب العالى « وبالملاحة فى البحر الأحمر تعمل بريطانيا على إحياء التجارة مع جزر الهنـد الشرقية عن طريق برزخ السويس ، وذلك بنقل بضائعها من هناك براً إلى الإسكندرية ، ومن الإسكندرية بحراً إلى أوربا » . وسيؤدى هذا فى اعتقاد الجريدة إلى تنشيط التجارة البريطانية على سواحل آسيا وفى فارس بالذات. ثم عرضت الجريدة للمصاعب التى قد تعترض هـذا الموضوع فقالت « ولـكن هذا المشروع سوف يسبب قلقا للشركات التجارية الرئيسية » (الليفانت وشركة الهنـد الشرقية البريطانية) .

رغم ذلك لم تقابل هـذه الحجج التى عبر عنها بت ومؤيدوه بالرضاء من غالبية الرأى العام البريطانى أو حتى غالبية أعضاء الوزارة البريطانية . ففى نطاق الرأى العام كان حزب الهويج بصحافته ونوابه فى البرلمـان يقف موقف المعارضة الصريحة ، هذا بينما لم يكن يؤيد بت فى داخل الوزارة سوى لورد ليدز Leeds وزير الخارجية .

---

(١٤) Queries, pp. 75-85.

(١٥) M. Anis; England and the Suez Route. Cairo 1957.

(١٦) I. O. H. M. 4. 36 (2). Taylor to Abercrombie 1790.

والواقع أن موقف بت كانت تكتنفه نقط ضعف واضحة . فلا هو ولا لورد ليدز شرحا المدى الذى ستسير فيه انجلترا فى معارضة روسيا بل حتى لم يشرحا للرأى العام البريطانى شرحا كاملا مدى الخطر الذى تتعرض له المصالح البريطانية من التوسع الروسى. فقالت The Annual Regsiter أنه «ربما كان فى إمكان بت أن يتدخل فى جانب تركيا إذا كان حرا فى أن يذكر كل مايعرفه عن مدى الخطر القابع فى الشمال وهو الخطر الذى كشفت عنه الأحداث بعد ذلك للعالم(١٧)».

ولعل أحد العوامل التى أدت إلى تعذر اتباع سياسة بت ، الضرائب الجديدة المنتظر جمعها من الشعب الإنجليزى بعد الضرائب التى أرهقته إبان الحرب الأخيرة مع أسبانيا ـ وثمة سبب آخر أكثر وضوحا وهو الحرص على تجارة البلطيق مع روسيا ـ فحزب الهويج كان يمثل بالدرجة الأولى البورجوازية الإنجليزية ولذلك جاء موقفه من المسألة منحصرا فى حدود المصالح التجارية الضيقة بقطع النظر عن الاعتبارات الإمبراطورية والسياسة النابعة من الوضع الجديد للامبراطورية البريطانية . ولذلك انتقدت جريدة The Morning Chronicle ماسمته بسياسة إفقار « أحسن زبائننا » ، وقالت « من الحقائق التى لا يجب إغفالها أن روسيا تأخذ من بضائعنا وتوظف من الأيدى العاملة البريطانية أضعاف ما كانت تفعله الثلاثة عشر ولاية فى أمريكا حين كانت هذه مستعمرات تابعة لنا »(١٨) .

ولا شك فى أن أحد العوامل الهامة التى أثارت الرأى العام البريطانى ضد خطة بت كان دينيا . فلقد كان الكاتب الإنجليزى Burke يعبر عن الاتجاهات الرجعية فى السياسة الإنجليزية .

وكانت الحركة الإنجليكية فى عنفوانها تقف جنبا إلى جنب مع صيحات بيرك لتبارك الرجعية البريطانيـــة . واستطاع حزب الهويج فى عام ١٧٩١ أن يتخذ منهما سلاحا ضد كل انقلاب فى السياسة الخارجية البريطانية . فأشار مؤلف أو مؤلفو

(١٧) The Annul Register. p. 107.

(١٨) The Morning Chronicle. April 19, 1791.

كتاب Short Reasonable Hint فى ١٧٩١ إلى « العبودية المؤلمة والشائنة التى تتعرض لها الشعوب المسيحية فى الإمبراطورية العثمانية »[١٩] وكتب مؤلف An adress to the People of England عام ١٧٩١ يحتج على « هجرة حلفاء قدامى من أجل الانضمام إلى أعداء المسيحية » .

أما مجلس اللوردات فعلى الرغم من حملة Fitzwilliam وPorchester وStarmont و Landsdowne فقد فازت الحكومة بتسعة وسبعين صوتا مقابل أربعة وثلاثين[٢٠]. وفى نفس اليوم نوقشت المسألة فى مجلس العموم . فقال Fox أنه يعجب لأن بريطانيا تصدر ما يعادل ٤٠٠ ألف جنيه من البضائع فى العام إلى روسيا وتستورد منها مايقدر بمليونين وخمسمائة ألف ، وأغلب هذه البضائع تنقل على مراكب إنجليزية ، كما أشار إلى «أن انجلترا لا تستطيع أن تدخل الحرب من أجل مدينة (اكزاكوف) مشكوك فى أهميتها ، فهى على كل حالة أقل أهمية من القرم » . أما Burke فكان يردد حملة حزب الهويج العنيفة على تركيا ويرى أن لا أهمية لها فى ميزان القوى فى أوربا . « ما دخل هؤلاء البرابرة بالدول الأوروبية ، إنهم لايفعلون أكثر من نشر الحرب وإراقة الدماء وإثارة المتاعب بين الدول الأوربية. أن أى شىء مسيحى يجب أن يفضل على هؤلاء البرابرة المخربين »[٢١] .

وعلى الرغم من هذه الحملة فعند أخذ الأصوات حصل حزب التورى على ٢٢٨ صوتا مقابل ١٣٥ صوتا فى المعارضة .

وفجأة تراجع بت رغم هذه الأغلبية التى ساندته فى مجلسى اللوردات والعموم . وثمة أسباب كثيرة لتفسير هذا التراجع . فى مقدمتها أن المعارضة ضد سياسة بت كانت قوية وتزداد قوة خلال المعركة سواء فى الصحافة ، أو البرلمان . ولعل أهمها أن انقساما

(19) G. B. Hertz, British Imperialism in the 18th Century. pp. 9-11.

(20) Hansard op. cit. vol. 29 p. 52.

(21) Ibid. pp. 63-70.

حادا وقع بين الوزراء فلقد كان بت ووزير خارجيته لورد ليدز يقفان فى جانب واحد ، أما جرنفل فقد كان مترددا منذ البـــداية . وفى ٣٠ مارس حذر Richmond وزير الخارجية من أن الشعب الإنجليزى قد يتخلى عن تأييده لحكومة بت إذا أصرت على موقفها من هذه المسألة[٢٢] ورد ليدز على ذلك بأنه لم يعد فى الإمكان التراجع. وإبان اجتماع الوزارة مساء ذلك اليوم تـكلم رتشموند وجرنفيل وكذلك Stafford ضد التدخل .

وحين استأنفت الوزارة اجتماعها فى اليوم التالى وجد ليدز نفسه مع لورد Chathan يؤيدان وحدهما رئيس الوزارة . وأعلن لورد ليدز فى الاجتماع أنه سيقدم استقالته إزاء موقف الوزارة الجديد لأنه لايقر التراجع . وعندئذ أعلن بت تراجعه عن موقفه. وهكذا فشلت المحاولة البريطانية الأولى للتدخل فى جانب الدولة العثمانية ضد التوسع الروسى فى قلب الدولة العثمانية .

وواضح أنه على الرغم من فشل محاولة بت ونجاح السياسة البريطانية القديمة تجاه النزاع الروسى ـ التركى ، فإن نواة السياسة البريطانية القائمة على المحافظة على التكامل السياسى للدولة العثمانية ، قد بدأت فى الظهور .

محمد أنيس

(22) Leed's Political Memoronda. London 1884. pp.152-156.

جم سلطان والدبلوماسية الدولية

موضوع اللاجئين السياسيين فى الشرق الإسلامى من الموضوعات التى استدعت انتباه المؤرخين فى الفترة الأخيرة[1] . وهى فضلا عن أنها تمثل اتجاهاً معيناً فى أبحاث التاريخ الإسلامى له جدته وأهميته فإنها تعتبر دعوة لإعادة النظر فى بحث طبيعة العلاقات الخارجية للدول الإسلامية وخاصة ما كان منها ذا صلة بالدول الأوروبية .

ويهمنا فى هذا الصدد وعلى وجه التخصيص ، مصر الإسلامية المملوكية . فالمؤرخون المصريون فى هذه الفترة ، لا يهتمون عادة إلا بذكر خبر وصول القصاد والرسل والسفراء إلى القاهرة ومغادرتهم لها ، أو بإرسالهم من قبل سلاطين المماليك . وقل أن نجد منهم من يهتم بما وراء ذلك ، إلا إذا كان ذا حظوة لدى السلطان القائم بالأمر ، تتيح له الاطلاع على حقائق الأمور ومداخلها ومخارجها . واهتمامهم هذا يكاد يقتصر على ماهو خاص بالدول والإمارات الإسلامية . أما ما كان منها خاصاً بالدول الأوروبية التى تربطها بالدولة المملوكية مصالح عديدة ، فإن الباحث يضنيه التعب حتى يظفر بخبر قصير مقتضب يشير أحيانا إلى اسم الدولة التابع لها الرسول ، ولكنه فى غالب الأحيان ينسب إلى طوائف الفرنج مجتمعة . هذا ، بالإضافة إلى أن العلاقات الخارجية لا يمكن أن توفى حقها من البحث العلمى الدقيق إلا بالاطلاع على الوثائق التاريخية من مكاتبات أو معاهدات . وللأسف الشديد فإن هذه الوثائق الخاصة بعصر المملوكية فقدت معظم صورها الأصلية المكتوبة باللغة العربية ، ولم يصل إلينا منها إلا النزر

---

(١) انظر :

Wiet: Deux princes ottomans à la cour d'Egypte, dans B. I. E., T. xx, Le Caire 1938, pp. 137-150 - Refugiés politiques ottomans en Egypte, dans Arabica, T. 1 Sept. 1654, Fasc. 3, pp. 257-271.

القايل أو النسخ المترجمة إلى اللغة اللاتينية أو اللغات الأوروبية المحفوظة بدور الوثائق والمكتبات فى أوروبا وفى استانبول .

وجم سلطان هو أحد هؤلاء اللاجئين السياسيين إلى مصر ثم إلى رودس والتجاؤه إلى مصر وما أعقب ذلك من نشوب الحرب بين العثمانيين والمماليك ، يفسره تاريخ العلاقات بينهما منذ عهد بايزيد الأول وبرقوق وابنه الناصر فرج(٢) . فما حدث فى عام ١٤٨٤ ، كان على وشك الحدوث بين الدولتين فى مطلع القرن التاسع الهجرى ـ الخامس عشر الميلادى ، لو لم يحل دون ذلك غزو تيمورلنك لبلاد الشام ولآسيا الصغرى ، وهزيمته لبايزيد الأول فى موقعة أنقرة وأسره له فى عام ٨٠٤ هـ / ١٤٠٢م . ومرجع ذلك إلى تنازع النفوذ بين الدولتين بآسيا الصغرى ورغبة العثمانيين فى توحيد آسيا الصغرى تحت رايتهم والقضاء على النفوذ المملوكى بها . وقد خرج العثمانيون من معركة أنقرة بدرس بالغ ، وهو أن الوقت لم يحن لتنفيذ خطتهم هذه بحد السيف . وكانت سياستهم تقوم على الاحتفاظ بالوضع الراهن فى آسيا الصغرى ، دون أن يؤدي ذلك إلى التصادم مع المماليك أو مع غيرهم من القوى المجاورة ، حتى يفرغوا من تأمين فتوحاتهم فى أوربا . ولذلك فإن الفترة الواقعة بين عام ١٤١٣ ، وهو العام الذى تمكن فيه محمد الأول من تصفية اخوته المنافسين له على العرش ، وبين عام ١٤٥٣ ، وهو تاريخ فتح القسطنطينية ، مليئة بحوادث الحرب الباردة بين الدولتين وحرص كل منهما على تثبيت سيادتها على الإمارات الحاجزة بينهما وخاصة إمارة قرهان وإمارة دلغادر . فالمماليك لم يتركوا فرصة إلّا اغتنموها، لتدعيم سلطانهم على هاتين الإمارتين ، كما حدث فى عهد المؤيد ، وبرسباى وإينال ، وخشقدم وقايتباى. وقد أثبتت الأبحاث الأخيرة أن الخطابات المتبادلة بين الدولتين والتى تعبّر عن مظاهر

(٢) عن العلاقات الودية بين المماليك والعثمانيين فى القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى انظر :

Bjorkmann : Die früheşten turkisch - agyptischen beziehung. in 14 jahrundert, dans Mélanges Fuad Koprülü, Istambul, 1953.

الود والصداقة وتبادل التهانى والاحتفالات بمناسبة الانتصارات على المسيحيين لم تكن إلا ستاراً يخفى وراءه حقيقة العلاقات من تغايرٍ وتحاسدٍ وتربصِ كل منهما بالأخرى .

ولم يكن جم أول اللاجئين العثمانيين إلى مصر ولا آخرهم . فقد التجأ إليها كثيرون من أمراء القرمانية والدلغادرية الخارجين على طاعة العثمانيين . وشهد بلاط العثمانيين أيضاً كثيرون من هؤلاء الأمراء ومن أمراء المماليك(٣) .

وقد أخذ محمد الثانى بعد فتحه للقسطنطينية يتجه من جديد إلى العمل على توحيد آسيا الصغرى وترقب الأسباب لذلك . وكاد يفرغ من هذه المهمة فى السنوات الأخيرة من حياته ، وكاد أن يؤدى ذلك إلى الحرب مع المماليك لولا أن فاجأه الموت وهو بآسيا الصغرى فى منتصف عام ١٤٨١ . ثم أعقب ذلك النزاع بين ولديه ، بايزيد الثانى وجم ، والتجاء جم إلى القاهرة . ولكى نفهم ترحيب قايتباى بجم ومساعدته له ، لابدّ أن نرجع إلى الوراء إلى عصر إينال وعصر خشقدم لنتتبع حقيقة العلاقات بين الدولتين .

فعلى الرغم من تبادل السفارات ورسائل التهانى بين محمد الثانى وإينال بمناسبة فتح القسطنطينية وبمناسبة انتصاره فى موقعة نوفوبردا على جورج برانكوفتش ملك الصرب فى عام ١٤٥٦(٤) ، فإن الباحث يلمس بوادر الاحتكاك بين الدولتين .

---

(٣) انظر :

مجموعة الرسائل المتبادلة بين سلاطين العثمانيين والمماليك بالمخطوط رقم ٤٤٤٠ بالمكتبة الأهلية بباريس (المخطوط يعد للنشر) —

Krammers : De la défaite d'Ankara à la prise de Constantinople, dans R. E. I. , 1938 cahier I .

Darrag: L'Egypt sous le règne de Barsby (thèse sous presse) chap. x, La frontière orientale.

Wiet : Deux prinies, Annexe I, p. 147,

(٤) فيما يختص بفتح القسطنطينية انظر :

خطاب محمد الثانى إلى اينال يبشره بالفتح [فريدون بك : مجموعة منشئات السلاطين ، =

فمحمد الثانى لم يكتب بإبلاغ نبأ فتح القسطنطينية لإينال بل قام بإبلاغه أيضا إلى شريف مكة ، وطلب منه إعلان هـذه البشرى من فوق منابر مكة وتوزيع الصدقات التى أرسلها بهذه المناسبة على فقراء الحرمين . ولم ينظر السلطان المملوكى إلى هذا الاتصال المباشر بشريف مكة بعين الارتياح ، واعتبر ذلك تخطياً له بوصفه صاحب السيادة على الحرمين ، ولم يغب عنه خطورة هذا الاتجاه الجديد للعثمانيين نحو الأراضى المقدسة . ولذلك لم يفته لفت نظر السلطان العثمانى إلى تخطيه إياه ، فتولى الرد نيابة عن شريف مكة وأرفق ردّه هذا بردٍ شخصىٍّ من شريف مكة ، الذى لم يفته بدوره أن يطلب المزيد من إرسال الصدقات وأن يرسل إلى محمد الثانى بعض الشاشات المزمزمة بركةً من الله(٥) . وإذا كان إينال قد قاوم هـذا الاتجاه للعثمانيين برفقٍ فقد قاومه خشقدم بشدةٍ وعنف .

أمّا فى آسيا الصغرى فإن كلّا من العاهلين عمل على الحدّ من نفوذ إبراهيم بك ابن قرمان والقضاء على أطماعه التوسعية على حساب كلٍ من الدولتين وإجباره على الاعتراف بسيادتهما . فقد قام هـذا الأمير جرياً على سياسة أسلافه بمهاجمة الأراضى العثمانية فى غرب آسيا الصغرى منتهزاً الفترة الحرجة التى مرت بالدولة العثمانية فى أوائل سلطنة محمد الثانى ثم انشغاله بالاستعداد لمهاجمة القسطنطينية . وانتهت هـذه

= ج ٢ ، ص ٢٢٨ – ٢٣١ ؛ منتخبات من حوادث الدهور ، ص ٢٥٧ – ٢٦٣] – جواب اينال المؤرخ فى ٢٠ من ذى القعدة ٨٥٧ هـ – مخطوط رقم ٤٤٤٠ بالمكتبة الأهلية بباريس ، ورقة ١٥٧ ب – ١٦٠ ب ؛ فريدون بك : نفس المرجع ، ص ٢٣١ – ٢٣٢ ؛ منتخبات من حوادث الدهور ، ص ٢٦٧ – ٢٦٩] – رد محمد الثانى المؤرخ فى ٢٢ من ربيع الآخر ٨٥٨ هـ والذى ورد إلى القاهرة فى ٣ من شعبان ٨٥٨ هـ [مخطوط رقم ٤٤٤٠ ، ورقة ١٦٠ ب – ١٦٢ ا]. وفيما يختص بانتصار محمد الثانى على ملك الصرب انظر :

خطاب محمد الثانى إلى اينال المؤرخ فى ٢ من ذى الحجة ٨٥٩ هـ والذى ورد إلى القاهرة فى آخر جمادى الأولى ٨٦٠ هـ [مخطوط رقم ٤٤٤٠ ، ورقة ٧٨ ب – ٨٠ ب] – جواب إينال المؤرخ فى أول رجب ٨٦٠ هـ [نفس المرجع ، ورقة ٨٠ ب – ٨٣ ا] .

(٥) فريدون بك ، ج ٢ ، ص ٢٣٢ – ٢٣٣ [خطاب محمد الثانى إلى شريف مكة]، ص ٢٣٣ – ٢٣٦ [جوب إينال نيابة عن شريف مكة] ، ص ٢٣٦ – ٢٣٧ [جواب شريف مكة] .

الحرب كما انتهت سابقاتها بانسحاب القرمانيين بمجرد عبور الجيش العثمانى للبوسفور والإسراع بعرض الصلح والاعتراف بالسيادة العثمانيـــة ، وهو الصلح الذى تم فى ١٢ فبراير ١٤٥٤(٦) .

ولم يسكت إبراهيم بك على هذه الهزيمة وحاول الحصول على مساعدة الدولة المملوكية . فوصل قاصده إلى القاهرة فى ١٧ محرم ٨٥٩هـ / يناير ١٤٥٥م يشكو من محمد الثانى ، فلم يلتفت السلطان إليه(٧) .

وأثاره هذا الانصراف عنه ، فقام فى العام التالى بالإغارة على أطراف الدولة المملوكية المجاورة لإمارته ، واستولى على مدينة طرطوس وقلعة الكولك . واضطر إينال إلى تجريد الحملات ضده . وتبادل الفريقان الهزيمة والانتصار وانتهت هذه الحرب باسترجاع المماليك لممتلكاتهم ثم أتبعوا ذلك بالتوغل داخل إمارته يحرقون ويخربون(٨) . فأجبروه على طلب عقد الصلح فى عام ٨٦٢هـ/١٤٥٨م والاعتراف بالسيادة المملوكية وتعهد بأن يحسن الجوار مع نواب السلطنة المملوكية ، وإلا يتعرض بسوء ولا بضرر لجزيرة قبرص(٩) .

وبينما كان إينال يقوم بالمحافظة على « حرمة ناموس الملك » بحربه التأديبية ضد القرمانيين كان محمد الثانى يعمل بدوره على تصفية الإمارات الأناضولية الباقية . فَضَمَّت

(٦) Hammer: Histoire de l'empire ottoman, trad. J. J. Hellert, vol, II, p. 369-Babinger; Mahomet II Le Conquerant et son temps (1432-1441) , trad del Medico, Paris 1954, pp. 91-92, 135.

(٧) منتخبات من حوادث الدهر ، ص ٢٢١ — ابن إياس : صفحات لم تنشر ، ص ٢٣

(٨) منتخبات من حوادث الدهور ، ص ٢٧٤ ، ٢٧٧ — ٢٧٨ ، ٢٨٤ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣١٦ — ابن إياس : صفحات لم تنشر ، ص ٣٩ — ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ .

(٩) مخطوط رقم ٤٤٤٠ ، ورقة ١٩٥ ا — ١٩٨ ا [رد إينال على خطاب إبراهيم بك بن قرمان المؤرخ فى ٢٠ من جمادى الآخرة ٨٦٢ هـ] — منتخبات من حوادث الدهور ، ص ٣١٨ — ابن اياس : صفحات لم تنشر ، ص ٥٥ .

فيما يخص العلاقات بين إبراهيم بك وقبرص انظر :

الدكتور سعيد عاشور . قبرص والحروب الصليبية ، ص ١٦٢ — ١٦٤

إمارات كرمان وآيدين وهنتشا وطرابيزون وسينوب (١٠). ولم يبق أمامه لكى ينتهى من مهمة توحيد آسيا الصغرى سوى إمارتى قرمان ودلغادر .

وما أن انتهى من ضم بلاد البلقان وشبه جزيرة المورة حتى وجد أن الوقت قد حان ليجهز على القرمانيين . ففضلا عما دأبوا عليه من طعن العثمانيين فى ظهورهم وهم يحاربون بالجبهة الأوروبية ، فإن إبراهيم بك الذى طالت أيامه فى الإمرة وازدادت عظمته قد وجدت فيه البابوية والبنادقة منافسا خطيرا لمحمد الثانى فأطلقوا عليه لقب قومان الكبير Grand Qaraman تشبيهاً له بالسلطان العثمانى . وعمل البابا كالكستس الثالث ريبوس الثانى على حثه على الاشتراك فى آخر مشروعاتهم الصليبية ضد العثمانيين. وجاءت الفرصة المواتية إلى محمد الثانى عندما توفى إبراهيم بك فى عام ٨٦٨هـ/١٤٦٤م ودفعته كراهيته للعثمانيين إلى حرمان أولاده من زوجته الأميرة نفيسة عمة محمد الثانى من حقهم فى عرش الإمارة وفضّل عليهم ابنه إسحق بك الذى رُزق به من زوجةٍ ثانية ، ففرّ بقية اخوته إلى استانبول يطلبون العون والمساعدة (١١) .

فى هذا العام الذى قرر فيـه محمد الثانى انتزاع إمارة قرمان بحجة التدخل لحماية حقوق أولاد عمته كشف النقاب عن سياسة العثمانيين الحقيقية إزاء المماليك ، فانتهت سياسة المداراة وبدأت سياسة الجفوة والتربص . فالمماليك يعلمون تمام العلم أن الخطوة التالية لذلك هى التهام إمارة دلغادر والقضاء على النفوذ المملوكى بآسيا الصغرى . وبدأ

(١٠) منتخبات من حوادث الدهور ، ص ٢٨٣ ــ ٢٨٤

Hammer : op. cit, II, p. 369, III, pp. 69-71, 79-85-Babinger: op. cit, pp.19-29-Kritovoulos: History of Mehmed the conqueror, translated from the Greek by Charles. T. Riggs, Princeton, 1954, pp. 163-165, 165-168,173-175.

(١١) منتخبات من حوادث الدهور ، ص ٥٧٧ ، ٥٨١ ــ ٥٨٢

Hammer: III, pp. 115-122 - Babinger: p. 19,221-222,223, 224-225,281-Alderson : The structure of the Ottoman dynasty, Oxford 1956, see table LVII (allianus with Karamangullari) .

محمد الثانى تدخله فى شئون إمارة قرمان بإرهاب السلطنة المملوكية لمنعها من مدّ يد المساعدة لإسحق بك . فجاء قاصده إلى القاهرة فى ٢٨ رمضان ٨٦٨هـ/٤ يونيو سنة ١٤٦٤م يحمل مكاتبته إلى خشقدم التى أغفل فيها ذكر ألقابه السلطانية واستهانها بمخاطبته بلقب المقر الكريم وهو اللقب الذى جرى ديوان الإنشاء المملوكى على تلقيب سلاطين العثمانيين به باعتبارهم دون سلاطين المماليك مرتبة . هذا إلى أن القاصد العثمانى امتنع عن تقبيل الأرض أمام خشقدم حسبما جرت به التقاليد(١٢) . وكان هذا إشعاراً واضحاً بتحول ميزان القوى وإنذاراً لم يخف أمره . ورد خشقدم على هذه الإهانة بالمثل فرفض إرسال قاصد من قبله رداً على هذه السفارة وطلب من القاصد العثمانى أن يغادر القاهرة حاملاً معه جوابه والهدايا التى رد بها هدايا محمد الثانى(١٣) .

وفى العام التالى أغار محمد الثانى على أمارة قرمان . ولم يتمكن اسحاق بك من الصمود إذ أن خشقدم توانى عن مساعدته ، وانتهى أمره بالتجائه إلى حسن الطويل وتنصيب أخيه الأكبر بير محمد مكانه على عرش الإمارة . وكان حسن الطويل أمير قبيلة الشاه السوداء قد غدا قوة كبرى فى هذه المنطقة وامتدت مملكته من إمارة قرمان غرباً حتى خراسان شرقاً ورأى فى مساعدته لإسحق بك فرصة للعمل على زيادة رقعة مملكته على حساب الدولتين المملوكية والعثمانية . وعلى الرغم من أن خشقدم كان يخشى قوته الصاعدة فقد تغاضى مؤقتاً عن أطماعه ، وقبل التحالف معه ضد محمد الثانى الذى يمثل خطراً مزدوجاً على كليهما وتقدم إسحق بك تسانده قوات حسن الطويل وتمكن من استعادة بعض المدن القرمانية واتخذ من مدينة لارند مقراً له(١٤) .

(١٢) منتخبات من حوادث الدهور ، ص ٤٧١ — ٤٧٢ — فيما يختص بلقب المقر الكريم. انظر الدكتور حسن الباشا : الألقاب الإسلامية فى التاريخ والوثائق والآثار ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ٤٨٩ — ٤٩٤ .

(١٣) منتخبات من حوادث الدهور ، ص ٤٧٣ .

(١٤) نفس المرجع السابق ، ص ٤٧٣ — ٤٧٤ . ٤٨٣ — ٤٨٤ ، ٤٨٦ ، ٤٨٨ — ٤٩٠ ، ٤٩١ ، ٤٩٢ ، ٤٩٣ ، ٤٩٧ ، ٥٠٠ — ٥٠١ ، ٥٠٧ — ٥٠٨ ، ٥١٣ — الدكتور زيادة : نهاية السلاطين المماليك فى مصر . بحث مستخرج من المجلة التاريخية المصرية ، =

وقابل محمد الثانى هــذه المناورة بأن مد أصابعه إلى إمارة دلغادر التى تربطه بأمرائها صلة النسب والقرابة وأحس خشقدم بتحول الأمير الدلغادرى أرسلان بك عنه نحو العثمانيين .

وخشى خشقدم أن ينتهى الأمر بالتهام إمارة دلغادر وبالقضاء على السيادة المملوكية فى آسيا الصغرى . فنشطت الدبلوماسية المملوكية لإجبار العثمانيين على وقف عملياتهم الحربيــة بآسيا الصغرى والإسراع بجيوشهم عــبر البوسفور إلى الجبهة الأوروبية واتجهت أنظارها نحو البندقية مستغلة صداقتها لها وحرصها على مصالحها التجارية معها ، وتحفزها للقضاء على الخطر العثمانى الذى أصبح يهدد مياهها الإقليمية ولم يغب هذا الخطر عن محمد الثانى فاتجه بدوره إلى تأمين الجبهة الأوروبية عارضا الصلح على البنادقة حتى يتفرغ للمماليك وقد أصبحت الحرب معهم قاب قوسين أو أدنى . واقتضى الأمر أن يتظاهر خشقدم بالرغبة فى إعادة علاقات المودة مع محمدالثانى فغادر القاهرة إلى استانبول قاصد مصرى فى ٢٧ رجب ٨٦٩ هـ/٢٥ مارس ١٤٦٥م رداً على السفارة العثمانية السابقة إلا أنه عاد فى ربيع الأول من العام التالى / أكتوبر ونوفمبر ١٤٦٥ يخبر بأن ابن عثمان باق على عدائه ويحمل معه جواباً على مكاتبة خشقدم يكفى أن تعلم أنها على قول المعاصرين لم تنصف السلطان المملوكى من حيث عدم ذكر ألقابه السلطانية والإصرار على مخاطبته بلقب المقر الـكريم(١٥) . وفى نفس الوقت مهد البنادقة المقيمون بالاسكندرية للاتصال بين خشقدم وحكومتهم ، ووصل السفير للمملوكى إلى البندقية فى نوفمبر ١٤٦٥ فى الوقت الذى كانت فيه مفاوضات الصلح دائرة مع السفير العثمانى . وقد وجدت البندقية فى العرض المملوكى ما يحقق مصالحها فبادرت بقطع مفاوضات الصلح مع العثمانيين(١٦) . وكان هذا إنذاراً كافياً

= المجلد الرابع العدد الأول ، مايو ١٩٥١ ، ص ٢٠٢

(١٥) منتخبات من حوادث الدهور، ص ٤٩٥ ، ٥٠٨ ــ ٥٠٩ ــ مخطوط رقم ٤٤٤٠، ورقة٧٦ب ــ٧٨ب[خطاب محمد الثانى إلى خشقدم].

(١٦) Babinger : p. 294.

لمحمد الثانى اضطره إلى التريث والتمهل فى إتمام توحيد آسيا الصغرى حتى لايعطى الفرصة للمماليك والبنادقة للإطباق عليه . وانتهى الأمر بتجميد الموقف بين الدولتين مؤقتا .

وأتاح هذا لخشقدم أن يسترد أنفاسه ، فأخـذ يدبر أمر التخلص من الأمير الدلغادرى أرسلان بك الذى خرج عن طاعته ومالأ العثمانيين ، ووجد فى أخيه شاه بوداق الذى كان لاجئا بمصر منذ أيام الأشرف إينال ، ما يحقق أهدافه فخلع عليه خلعة الإمارة وغادر القاهرة وبصحبته أحد الفداوية الذى انقض على ارسلان بك وهو يخطو داخل جامع مرعش ليؤدى صلاة الجمعة(١٧) .

وقذف محمد الثانى فى المعركة بأخيه الشاه سوار وكان لاجئا باستانبول منذ وفاة أبيه سليمان بك وتمكن شاه سوار من أن يسبق أخاه إلى عرش الإمارة ثم أتبع ذلك بمطاردته(١٨) . وأجبر خشقدم مرة ثانية على الاتصال بمحمد الثانى رجاء الوصول إلى حل سلمى يحول دون نشوب القتال بين الدولتين . فأرسل قاصداً إليه فى عام ٨٧١ هـ ١٤٦٦ م يطلب منه عدم التدخل فى شئون إمارة دلغادر(١٩) . هذا فى الوقت الذى كان محمد الثانى يفكر فى سبب للتحرش به ، فوصل قاصد من قبله إلى القاهرة فى

---

(١٧) النجوم الزاهرة ، طبعة W. Popper ، ج ٧ ، ص ٧٣٧ — منتخبات من حوادث الدهور ، ص ٥١٣ — ٥١٤ .

Artin : Zul - Kadr et Bab - Zoueleh, dans B. I. E., 2e sér, no. 6, Le Caire 1886, p. 171 - Babinger : p. 490.

(١٨) النجوم الزاهرة ، نفس الطبعة ، ج ٧ ، ص ٧٣٩ ، ٧٤٧ — منتخبات من حوادث الدهور ، ص ٥١٨ ، ٥٢١ — ٥٢٢ .

Artin : op. cit. p. 178 - Babinger : Ibid.

(١٩) Wiet : Deux princes, Annxe I, p. 147.

نفس العام يطلب السماح له بعمارة عين عرفة وقنوات المياه بمكة[٢٠]. وواضح أن هذا الطلب فى هذا الوقت بالذات ليس الدافع إليه الرغبة فى عمل الخير ، وإنما يخفى وراءه تطلع العثمانيين نحو بلاد الحجاز والتمهيد لذلك بلفت أنظار المسلمين إليهم. وكان طبيعيا أن يرفض خشقدم ، إذ أن الدولة المملوكية كانت تضع فى المقام الأول من سياستها المحافظة على سيادتها الفعلية على الحرمين الشريفين.

واضطرت الدولة المملوكية إلى التدخل الحربى لإعادة هيبتها والمحافظة على حقوقها فى إمارة دلغادر. وبدأت الحرب المعروفة بحرب شاه سوار وهى التى جردت فيها ضده أربع حملات كبرى فى عام ٨٧١هـ/١٤٦٦ (فى عهد خشقدم) وفى أعوام ٨٧٢/١٤٦٧ و ٨٧٣ / ١٤٦٨ و ٨٧٥ / ١٤٧٠ (فى عهد قايتباى). وكانت الهزيمة مصير الحملات الثلاث الأولى وعودة العساكر المملوكية على أسوأ حال ، هذا عدا الهزائم التى لحقت بالقوات الحلبية[٢١]. أما الحملة الرابعة ، وهى التى تولى قيادتها يشبك من مهدى ، فقد انتهت فى أوائل عام ٨٧٧ هـ / ١٤٧٢ بالقبض على شاه سوار فى قلعة زمنطو (قلعة Tsamandus البيزنطية ، وتسمى حاليا بقلعة العزيزية) والعودة به أسيراً إلى القاهرة حيث شنق على باب زويلة. وقبل عودة القوات المملوكية ، نَصَّبَت على عرش الإمارة أخاه شاه بوداق الموالى لمصر[٢٢].

---

(٢٠) Wiet: Ibid - Babinger: p. 491 - Laoust: Les gouverneurs de Damas sous les mamlouks et les primiers ottomans, trad. des Anales d'Idn Tulun et d'Ibn Gum'a, Damas 1952, p. 31,32,33.

(٢١) منتخبات من حوادث الدهور ، ص ٥٣٠ — ٥٣١ ، ٥٤٣ ، ٥٤٨ ، ٦٠٣ — ٦٥٠ [الحملة التى أرسلها خشقدم] ، ص ٦١٩ — ٦٢٠ ، ٦٢١ ، ٦٢٥ ، ٦٢٩ — ٦٣٠ ، ٦٣٣ — ٦٣٥ [٨٧٢ هـ] ، ص ٦٣٦ — ٦٣٧ ، ٦٤١ ، ٦٤٤ — ٦٤٥ ، ٦٤٥ — ٦٤٨ ، ٦٧٢ — ٦٧٣ ، ٦٧٩ ، ٦٨١ ، ٦٨٧ ، ٦٩٥ ، ٦٩٦ ، ٧١٤ — ٧١٦ [٨٧٣ هـ] — ابن إياس : طبعة استامبول ، ج ٣ ، ص ٥ ، ٧ ، ١٠ — ١١ ، ١٢ — ١٣ [٨٧٢ هـ] ، ص ١٤ ، ١٩ ، ٢١ — ٢٢ ، ٢٤ — ٢٦ ، ٢٧ [٨٧٣ ، ٨٧٥ هـ].

(٢٢) تاريخ يشبك الظاهرى ، مخطوط استانبول رقم ٣٠٥٧ ، ورقة ١٢١ ب — ١٣٨ ا ، =

هذا وجدير بالذكر أن هذا الانتصار على شاه سوار لم يوفق إليه المماليك إلا بعد نجاح السفارة التى أرسلها يشبك من مهدى إلى حسن الطويل فى إقناعه بالكف عن مساعدته(٢٣).

وكذلك بعد اتفاق قايتباى ومحمد الثانى على تقاسم النفوذ ، فينفرد العثمانيون بإمارة قرمان وينفرد المماليك بإمارة دلغادر . وقد دفعهما إلى ذلك اتفاقهما فى الرأى على مواجهة أطماع حسن الطويل التوسعية فى أعالى الفرات وفى آسيا الصغرى . ففى المعسكر الآخر ، كانت إمارة قرمان مسرحاً للقتال بين بير محمد يناصره العثمانيون ، وأخيه إسحق بك يناصره حسن الطويل الذى واصل قايتباى سياسة خشقدم إزاءه ومده بالمساعدة والمعونة . ومع هذا فما إن أحس بير محمد باستقرار عرش الإمارة نوعاً ما حتى دفعته كراهية القرمانية للعثمانيين التى تجرى فى دمه ، إلى التمرد على محمد الثانى والتطلع إلى محالفة البنادقة ضده . إذ كان يخشى ضم الإمارة نهائيا إلى الحكم العثمانى وزوال استقلالها . وإزاء هذا الخطر ، فقد اضطر محمد الثانى إلى عبور البوسفور ، فدخل قونية فى عام ٨٧٢/١٤٦٨ وسارع بير محمد بالفرار بمجرد اقتراب القوات العثمانية منها ، وأعقب ذلك بضم الإمارة نهائيا إلى الدولة العثمانية وتولية ابنه مصطفى شلبى والياً عليها . ثم أخذت القوات العثمانية تقضى على جيوب المقاومة التى تزعمها كلٌّ من إسحق بك وبير محمد الذى لجأ بدوره إلى حسن الطويل . واستمرت مقاومة الأميرين بضع سنوات بفضل مساعدة حسن الطويل لهما(٢٤) .

وهكذا فشلت الدولتان فى القضاء على الخارجين على طاعتهما من أمراء التركمان والقرمانية والدلغادرية وأجبرتهما الظروف على التسليم بالأمر الواقع وتقاسم النفوذ.

---

١٥٤ ب — ١٧٢ ا — ابن اياس ، طبعة استانبول ج ٣ ، ص ٥١ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٢ — ٦٣ ، ٦٦ ، ٦٧ — ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ — ٧١ ، ٧٢ ، ٧٥ .

(٢٣) تاريخ يشبك الظاهرى ، مخطوط استانبول ، ورقة ١٣٨ ا — ١٥٤ ب [سفارة قاضى العسكر الشمس ابن أجا إلى حسن الطويل]

(٢٤) Hammer : III, pp. 137-138, 140-Babinger : pp. 325-326; 337.

فى هذا الوقت أرسل يشبك من مهدى ، قائد الحملة المملوكية الأخيرة فى عام ٨٧٦/ ١٤٧١ ــ ١٤٧٢ قاصداً إلى محمد الثانى يطلب منه الكف عن مساندة شاه سوار والوقوف موقف الحياد فى النزاع بينه وبين أخيه شاه بوداق . ونجحت هذه السفارة ورد محمد الثانى قصاد شاه سوار الذين كانوا موجودين باستانبول وقتذاك يستنجدون به . ثم نشطت الدعاية المصرية تذيع فى ربوع إمارة دلغادر تخلى السلطان العثمانى عن مساعدته وعدم رضائه عنه ، فانفض من حوله أمراء التركمان حتى اضطر إلى الاستسلام(٢٥). وأتاح انتصار محمد الثانى على البنادقة فى عام ١٤٧٠ واستيلاؤه على جزيرة نجريون تفرغه للقضاء على مقاومة الأمراء القرمانية ثم محاربة حسن الطويل وخاصة بعد أن علم باتصاله بالبنادقة بقصد التحالف معهم للإطباق على العثمانيين فى آسيا وأوروبا فى وقت واحد . وتمكن محمد الثانى من إيقاع الهزيمة بإسحق بك أمام مدينة العلايا فى عام ٨٧٧ هـ / ١٤٧٢ ، ثم اتجه بقواته لملاقاة حسن الطويل الذى حلت به الهزيمة بالقرب من ترجان Terdjan فى أول ربيع الأول ٨٧٨هـ / ٢٦ يوليو ١٤٧٣(٢٦). وبعد ذلك ببضعة أشهر حلت به هزيمة ثانية على يد المماليك(٢٧).

***

وعادت الدولة العثمانية مرة ثانية إلى سياسة المداراة والتظاهر بالعلاقات الودية ، إذ شغل محمد الثانى بحرب البنادقة وهى الحرب التى ملأت الفترة من عام ١٤٧٤ حتى

(٢٥) تاريخ يشبك الظاهرى ، مخطوط استانبول ورقة ١٣٨ ا ، ١٦٧ ا ــ ١٦٧ ب ــ ابن اياس ، طبعة استانبول ، ج ٣ ، ص ٨٢ .

Artin : p. 179,180.

(٢٦) Hammer : III, p. 141, 142-144, 151-168, 172-185 - Badinger : p. 325, 327, 361 - 363, 364, 370 - 371 - Grousset : Histoire de l'Asie, vol. III, Paris 1922, p. 127, 128, 129, 130, 131 suiv.

(٢٧) ابن اياس ، طبعة استانبول ، ج ٣ ، ص ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ــ ٨٨ ــ الدكتور زياده : نهاية السلاطين المماليك فى مصر ، ص ٢٠٣

عام ١٤٧٩ وانتهت بعقد معاهدة الصلح معهم . ويكفينا دليلا على ذلك أنه لم تكد تنتهى هذه الحرب حتى اتجه محمد الثانى بقواته فى عام ١٤٨٠ إلى آسيا الصغرى وعاد إلى التدخل فى شئون إمارة دلغادر تمهيداً لضمها وإتمام توحيد آسيا الصغرى(٢٨).

ولم تغب عن قايتباى نوايا محمد الثانى ، وكان على يقين من أن الأمور مع العثمانيين لم تسو بعد ، ولا بد من القتال فى خاتمة المطاف . ومن ثم كانت رحلته التفتيشية إلى آسيا الصغرى وأعالى الفرات فى عام ٨٨٢ هـ / ١٤٧٦ م وهى الرحلة التى عمل أثناءها على عمارة القلاع والحصون وشحنها بالحاميات والأسلحة وإصلاح طرق البريد وهو أمر على جانب كبير من الأهمية الحربية(٢٩).

وقد تحقق ظن قايتباى ، فلم تعوز الوسيلة محمد الثانى ، إذ كان لا يزال يوجد لديه باستانبول رصيد من الأمراء الدلغادريين اللاجئين إليه ، وهما علاء الدولة بك ، وعبد الرزاق بك أصغر أولاد سليمان بك . وقذف محمد الثانى بعلاء الدولة الذى تمكن فى عام ٨٨٥ هـ / ١٤٨٠ بمساعدة القوات العثمانية من طرد أخيه شاه بوداق والتربع على عرش الإمارة والاعتراف بالسيادة العثمانية (٣٠). ثم تحرك محمد الثانى وعبر البوسفور بجيشه إلى آسيا الصغرى ليكون على مقربة من تطور الحوادث . إلا أنه توفى مسموما فى ٤ مايو سنة ١٤٨١ بالقرب من بلدة جبزة Ghebzé وقد اتهم ابنه بايزيد بدس السم له ، إذ أن العلاقات بينه وبين أبيه لم تكن طيبة فى الفترة الأخيرة نظراً لما يقال من أن الصدر الأعظم كان قد أقنع محمد الثانى بتولية عهده لابنه جم(٣١).

---

(٢٨) شارل ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية ، ترجمة الدكتور أحمد عزت عبد الكريم والأستاذ توفيق اسكندر ، ص ١٣٩ — ١٤٠ .

Babinger: p. 490.

(٢٩) Devonshire: Rélation d'un voyage du sultan Qaitbay en Palestine et en Syrie, trad, de l'arabe, in B. I. F. A. O., T.xx, Le Caire, 1921, pp. 1-40 - Wiet: L'Egypte arabe, pp. 594-595.

(٣٠) Babinger: p. 490-Artin p. 181.

(٣١) Babinger: pp. 491-492, 493-494

وانتظر قايتباى لمــا عسى أن يسفر عنه تطور الحوادث داخل الدولة العثمانية . فلم يلبث أن ثار النزاع بين الأخوين بعد أن أعلن جم نفسه سلطاناً للدولة العثمانية واتخذ مدينة قونية مقراً له ، وأقام الخطبة وضرب السكة باسمه . إلا أنه اضطر بعد هزيمته أمام قوات أخيه فى موقعة ينى شهر إلى الفرار ومعه والدته وزوجته إلى سورية . ولم يتمكن علاء الدولة ابن دلغادر من تنفيذ أوامر بايزيد من القبض عليه ومنعه من الالتجاء إلى الدولة المملوكية(٣٢)، فوصل القاهرة فى شعبان ٨٨٦هـ/سبتمبر ـ أكتوبر سنة ١٤٨١(٣٣).

وحاول قايتباى فى بادئ الأمر ، التوفيق بين الأخوين على أساس تقسيم السلطة بينهما فيحكم جم الولايات الأسيوية ويحكم بايزيد الثانى الولايات الأوروبية . إلا أن بايزيد ردّ على ذلك بعبارته المشهورة (لا أرحام بين الملوك). ومن ثم أخذ قايتباى يعد العــدة لأمداده بالمال والجند لرحيله إلى آسيا الصغرى للحصول على حقه بحد السيف ، على الرغم من عدم موافقة أمراء المماليك خشية أن يؤدى ذلك إلى نشوب القتال بينهم وبين العثمانيين ، والعهد قريب بالهزائم التى حلّت بهم على يد شاه سوار وحسن الطويل قبل انتصارهم الأخير عليهما(٣٤)، وعلى الرغم من خلو الخزائن من

---

(٣٢) Thusane : Djem-Sultan (1459-1495), Paris 1892, pp. 39-40-Alderson : pp.6-7, 38-39.

(٣٣) Hammer : III, p. 347 - Thuasne : pp. 47-48, 41-50— Wiet : Deux princes, pp. 139-140—

ابن اياس ؛ طبعة استانبول ، ج ٣ ، ص ١٧٧ ، ١٧٩ ، ١٨٠ .

(٣٤) ابن اياس ، استانبول ، ج٣ ، ص ١٨٦ ــ الدكتور زياده : نهاية السلاطين المماليك فى مصر ، ص ٢٠٤ .

Wiet : Deux princes, 140-141 — Hammer : III, pp. 351-356- Thuasne : pp. 50—51

[يذكر نقلا عن المراجع البندقية أن قايتباى أمده بمبلغ ٤٠ الف دوكاه وقوة عسكرية ، كما قدم له كل من نائب دمشق ونائب حلب ١٠ آلاف دوكاه]

الأموال الكثيرة ماصرف على التجاريد السابقة(٣٥). إلا أن الظروف السياسية اقتضت دفع العثمانيين فى غمار الحرب الأهلية ، حتى تتاح لقايتباى فرصة إبعادهم عن التدخل فى شئون إمارة دلغادر ، وتثبيت السيادة المملوكية عليها .

وغادر جم القاهرة تاركاً بها والدته وزوجته ثم ابنه عليا الذى وُلد فيما بعد(٣٦) . وجاءت الأمور على غير مايشتهى قايتباى ، فحلّت به الهزيمة وأجبرته الظروف فى هذه المرة على الالتجاء إلى فرسان الاسپتارية بجزيرة رودس فى ٢٩ يوليو ١٤٨٢ ، بقصد العبور منها إلى أوروبا ومتابعة الحرب ضد أخيه معتمدا على أخواله المجريين . فأمّه چچك Gigek كانت أصلاً مسيحيه تمت بصلة القرابة إلى ملك المجر ما تياس كورڤانوس Mathias Corvinus أُخذت أسيرةً عندما اجتاح والده محمد الثانى بلاد الصرب فى عام ١٤٥٩(٣٧). ولكن جم ، الذى لم يكن قد تجاوز الثالثة والعشرين عاما أخطأ التقدير والحسبان فجزيرة رودس كانت هدفاً استراتيجياً لمحمد الثانى بعد انتهائه من ضم إمارة قرمان المقابلة لها وخاصة بعد الدور الذى قام به فرسان الجزيرة من مساعدة البنادقة والأمراء القرمانية الخارجين على طاعته فى عام ١٤٧٣ ولم تكن مفاوضات الصلح التى قام بها الأمير جم بتكليف من أبية بعد أن ولاه إمارة قرمان سوى ذرٍّ للرماد فى العيون حتى ينتهى محمد الثانى من حربه مع البنادقة وهى الحرب التى انتهت بعقد الصلح معهم فى عام ١٤٧٩(٣٨). وإذا كان الفرسان قد تمكنوا من صد هجمات

---

(٣٥) بلغ مجموع ما أنفقه قايتباى على التجاريد التى أرسلها ضد شاه سوار وحسن الطويل منذ عام ٨٧٢ هـ حتى عام ٨٧٧ هـ مبلغ ثلاثة ملايين وسبعمائة وسبعين ألف دينار . انظر تاريخ الملك الأشرف قايتباى ، مخطوط رقم ٦١ تاريخ ، دار الكتب ، ورقة ٦ ا ــ ١٥ ب .

(٣٦) ابن اياس ، نفس الطبعة والجزء ، ص ٢٦٥ ــ ٢٦٦ [الاحتفال بختان ابنه على مع ختان محمد بن قايتباى فى رجب ٨٩٥ هـ] ، ص ٢٨٦ [وفاته فى ذى الحجة ٨٩٧ هـ] .

(٣٧) H ammer : III, pp. 351-356 — Thuasne:p. 2,52-56 — Alderson :See talble xxvII (Mehmed II and his family).

(٣٨) شارل ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية ، ص ١٣٩ ــ ١٤٠ .

الأسطول العثمانى على جزيرتهم فى ذلك العام وفى العام الذى تلاه فإنها لم تنج من غزو محقق إلا بوفاة محمد الثانى فجأة على الشاطىء القابل لها بآسيا الصغرى(٣٩).

فى هذا الوقت العصيب جاءت الأقدار بجم سلطانا ووجد دوبوسون رئيس الفرسان الاسپتارية فى التحفظ عليه خير فرصة لمنع العثمانيين من غزو الجزيرة ، واضطر بايزيد الثانى إلى مفاوضته فى عقد الصلح والرضوخ لشروطه . فقبل مرغماً أن يدفع له سنويا مبلغ ٤٥ ألف دوكاه فى مقابل الاحتفاظ به ومنعه من استئناف القتال ضده. واقتضت خطة دوبوسون نقل جم فى سبتمبر ١٤٨٢ إلى ڤيلا فرانكا أحد بيوت الفرسان الاسپتارية بجنوب فرنسا ، بعيداً عن أعين العثمانيين ومناوراتهم لاستعادته(٤٠) .

وما أن اطمأن بايزيد الثانى مؤقتاً باتفاقه مع دوبوسون حتى اتجه لمحاسبة المماليك على موقفهم السابق من أخيه والعمل على تنفيذ سياسة أبيه من إتمام توحيد آسيا الصغرى تحت الراية العثمانية والقضاء على النفوذ المملوكى بها . وزاد فى توتر العلاقات أن قايتباى قَبِل تجديد معاهدة الصلح مع فرسان الاسپتارية فى ٢٨ اكتوبر ١٤٧٩ عند ما شعروا بنوايا محمد الثانى العدوانية إزاء جزيرتهم(٤١) . وهم بهذا يطبقون مبدأً رئيسيًّا من سياستهم التى أملاها عليهم موقع الجزيرة بين العثمانيين والمماليك ومطمع كل منهما فى الاستيلاء عليها . فقد درجوا على المبادرة بعقد الصلح مع إحدى الدولتين فى الوقت الذى يكونون فيه على وشك الحرب مع الدولة الثانية حتى يتيح لهم ذلك

---

(٣٩) Thusne: pp. 11-18 — Babinger: p. 366.

(٤٠) Hammer: III, pp. 356-357 — Thusne: pp. 54-47, 57, 67-69.

(٤١) Thuasne: p. 18 — Babinger: p. 466.

فرصة التفرغ لمواجهة الخطر من جانب واحد[٤٢] . ووضح أيضا أن استيلاء العثمانيين على الجزيرة يمثل خطراً موجهاً إلى المماليك وخاصة بعد وصول العثمانيين بممتلكاتهم إلى الطرف الجنوبى من آسيا الصغرى، فضلًا عما يثير ذلك فى نفوس المماليك من شجى بسبب فشلهم من قبل فى غزوها . هذا بالإضافة إلى ما شاع فى القاهرة من أن قايتباى راقت فى عينه الهدية الحافلة التى أرسلها أحد ملوك الهند على يد بعض تجارهم إلى السلطان العثمانى والتى احتاط عليها نائب جده وأحضرها إلى السلطان بالقاهرة ، وكان من بينها خنجر ثمين[٤٣] . وإن صح هذا القول فإنه لا يعتبر سبباً كافياً يبرر نشوب الحرب بين الدولتين ، ومن الجائز أن يُفسَّر تصرف قايتباى هذا فى ضوء العلاقات العدائية القائمة فعلًا قبل ذلك بينه وبين محمد الثانى وابنه بايزيد الثانى .

وكيفما كان الأمر فما أن حلّ صيف عام ١٤٨٣ ، وهو الوقت المناسب للعمليات الحربية فى هذه المنطقة الجبلية من آسيا الصغرى حتى تحرك علاء الدولة بن دلغادر وخرج على طاعة الدولة المملوكية وأغار على مدينة ملطية تسانده القوات العثمانية ، فخرجت العساكر المملوكية لرد عدوانه[٤٤] . وهكذا بدأت الحرب المملوكية ـ العثمانية التى انتهت بعقد الصلح بينهما فى عام ١٤٩١[٤٥] . وانتصر المماليك فى هذه الحرب

---

(٤٢) تطبيقا لهذه السياسة عقد فرسان الاسبتارية الصلح مع مصر فى عام ١٤٠٣ و١٤٢٧ و ١٤٤٥ . انظر :

Darrag : E'Egypte sous le regne de Barsbay, chap. VII (La conquête de Chypre), chap. IX (La politique de Barsbay en Mediterranée).

(٤٣) ابن اياس، طبعة استامبول ، ج ٣ ، ٢١٠ ــ الدكتور زيادة : نهاية السلاطين المماليك ص ٢٠٥ .

Thuasne : p. 142.

(٤٤) ابن اياس ، نفس الطبعة والجزء ، ص ١٩٧ ، ١٩٨ ــ Laoust p. 34

(٤٥) فيما يختص بهذه الحرب انظر :

الدكتور زيادة : نفس المقال ص ٢٠٥ ــ ٢٠٩

C. I. A., Egypte, I, pp. 549-550 et notes — Wiet : L'Egypte arabe, pp. 598-694— Laoust- pp. 35.36,37,38.

انتصاراً لم يكن يتوقعه المعاصرون ، وكان موضوع جم من غير شك أحـد العوامل الرئيسية فى هزائم العثمانيين المتتالية ، إذ أن بايزيد كان يحارب والخوف يتملكه على عرش السلطنة ، فضلًا عن عوامل أخرى ليس هنا مجال إثباتها .

***

ولنترك موضوع الحرب المملوكية ـ العثمانية ، لنتابع مأساة جم وما أثارته من صراع دبلوماسى عنيف بين العثمانيين من جهة والمماليك من جهة ثانية ، وبين القوى الأوروبية التى ارتبطت عداوةً أو صداقةً بهاتين الدولتين الإسلاميتين أو ببعضها البعض ، وهى فرسان الاسبتارية بردوس، والمجر ، والبندقية ، ونابلى ، وفلورنسة ، ودوقية سافوى ، وفرنسا ، والبابوية . ومن هنا كان الاختلاف الشديد فى موقف هذه القوى إزاء جم . فبعضها كان يسعى لتسلمه لاتخاذه ذريعةً لشن حرب تحريرية ضد العثمانيين بأوروبا . والبعض الآخر كان يتآمر لتسليمه إلى المماليك لتحقيق مصالحه الخاصة . وفريق ثالث كان يعمل جاهداً على التحفظ عليـه حيث يقيم بجنوب فرنسا أو بروما بعد نقله إليها كوسيلة من وسائل تهديد العثمانيين تجنباً لحربهم وحرصاً على المحافظة على سلامة بلاده من الغزو . وفشلت البابوية بسبب تضارب مصالح هذه القوى فى التوفيق بينها واغتنام هذه الفرصة لتكوين حملة صليبية عامة ضد العثمانيين والإطباق عليهم فى الجبهة الأوروبية فى الوقت الذى تتوالى فيـه الهزائم عليهم على يد المماليك بآسيا الصغرى .

وفى الفترة ما بين عام ١٤٨٢ ، وعام ١٤٨٨ كان مركز الثقل السياسى لهذه المشكلة الدولية موزعاً بين ردوس ، وروما ، وباريس ، فهذه العواصم الثلاث كان بيدها وحدها حق تقرير مصير جم ، وإليها اتجهت مجهودات جميع القوى المتنازعة عليه . ثم اتجهت الدبلوماسية الدولية نحو القاهرة فى عامى ١٤٨٨ ، ١٤٨٩ ، وعلى الأخص قبيل الانتصار الثانى للمماليك على العثمانيين تحت أسوار أدنه وطرسوس فى ١٥ أغسطس ١٤٨٨ ، وقبيل بدء المعركة الثالثة بينهما فى عام ١٤٩٠ . فانتصار المماليك النهائى أصبح أمراً

كثير الاحتمال وبذل قايتباى بدوره جهداً كبيراً مع هذه الدول الأوربية لاستعادة جم استعداداً للجولة الأخيرة . وليس أدل على ذلك من أن القاهرة شهدت فى هذين العامين استقبال عدة سفارات من المجر وفرنسا ودوقية سافوى وفلورنسة والبندقية والبابا أنوسنت الثامن وأيضاً العثمانيين الذين جاء رسولهم بعرض الصلح . وما أن عُقد الصلح بين المماليك والعثمانيين فى عام ١٤٩١ حتى خف الاهتمام بأمر جم وفقد موضوع استعادته ما كان له من أهميه عظيمة .

وقد أوضحت لنا الدراسات التى قام بها فون همر Von Hammer وتوازن Thuasne سياسة العثمانيين وسياسة هذه القوى الأوربية إزاء جم . ولكن سياسة قايتباى فى هذا الصدد لم تنل منهما مثل هذا القدر من العناية نظراً لبعدها عن دراسة عصر قايتباى دراسة وافية شاملة . ويجمل بنا ، أن نوجزهنا عرض دراستهما حتى يُلقى ذلك ضوءً كافياً يمكننا من تفهم سياسة قايتباى .

أمّا بايزيد الثانى فقد سيطر موضوع جم على سياسته الخارجية سيطرة تامة ، وأدّى ذلك إلى هزيمته أمام المماليك ، وإلى توقف موجة الفتوحات العثمانية فى أوروبا مدة طويلة[٤٦] . وما كاد جم يصل إلى مقر إقامته حتى نشط بايزيد للعمل على استعادته أو للتأكد ، على أقل تقدير ، من عدم وقوعه فى يد أحد أعدائه . ففى عام ١٤٨٣ أرسل سفيره حسين بك إلى ردوس حاملا إلى فرسان القديس يوحنا ، المبلغ المتفق عليه وهدية عزيزة عليهم ، ألا وهى اليد اليمنى لراعيهم القديس يوحنا حتى يسمحوا له بمواصلة السفر إلى جنوب فرنسا للاطمئنان على وجود جم تحت حراستهم . وفى فرنسا حاول السفير العثمانى الحصول على وعدٍ من لويس الحادى عشر بالمحافظة على وجود جم فى بلاده والامتناع عن تسليمه لأحدٍ من أعدائه مقابل أن يتعهد له بايزيد الثانى بدفع مبلغ كبير من المال كل عام وأن يقدم له جميع مخلفات القديسين الموجودة بالقسطنطينية . ولكن لويس الحادى عشر رفض التقيد بمثل هذا الوعد ،

(٤٦) Alderson : p. 6. n.4.

على الرغم من نزعته الدينية وهو يعانى مرض الموت . وبعد وفاته جَدَّد السفير العثمانى هذا العرض على ابنه شارل الثامن ، إلا أن نصيبه كان الرفض أيضاً(٤٧) . وحاول بايزيد محاولات أخرى مع كل من البندقية فى عام ١٤٨٣ ومع البابا أنوسنت الثامن بعد نقل جم إلى روما فى عام ١٤٨٩ ومع خليفته إسكندر بورجيا بعد عام ١٤٩٢ ، وكان الفشل نصيب هذه المحاولات جميعها(٤٨) .

ووجدت المجر فى ذلك فرصة طيبة للهجوم على العثمانيين واستعادة ما انتزعته من بلادها ، فى الوقت الذى يوجد فيه الجزء الأكبر من قواتهم العسكرية بآسيا الصغرى تحارب المماليك . وكان لها فى قرابة الدم التى تربطها بجم وفى رغبته التى أبداها بمجرد وصوله إلى فيلا فرانكا من مواصلة السفر إلى المجر لمواصلة حربه مع أخيه ما يقوى مطلبها الخاص بتسلمه(٤٩) . فأعلن ملكها ماتياس كورفانوس فى عام ١٤٨٢ استعداده لبدء حرب مقدسة ضد الأتراك إذا ماقام البابا بتسليمه إليه وقام ملوك أوروبا بمساندة جهوده والهجوم على الدولة العثمانية بحراً . ولكن أحداً لم يستجب إليه فاضطر فى العام التالى إلى عقد الهدنة مع بايزيد الثانى لمدة خمس سنوات(٥٠) . وما أن انقضت مدة الهدنة هذه حتى فكر مرة ثانية فى تجديد مسعاه ، وبخاصة أن الفرصة كانت مواتية لبدء هجومه على العثمانيين ، بعد هزيمتهم الأولى أمام المماليك ، واستمداد الفريقين للجولة الثانية . فجاء سفيره إلى ردوس فى ١٠ يونيو ١٤٨٨ يخبر دوبوسون أنه على اتصال ببعض كبار العثمانيين الذين وعدوه بالتخلى عن بايزيد ومساعدة جم إذا ما تقدم جم على رأس قواته . ولكن رئيس الفرسان كان يخشى تعرض الجزيرة للغزو من جانب الأسطول العثمانى الذى عبر مياهها الإقليمية فى ٢٨ مايو السابق ، فى طريقه

(٤٧) Hammer : III, pp. 361-362,365 — Thuasne : 104-105.

(٤٨) انظر بعد .

(٤٩) Hammer : III, p. 360,363 — Thuasne : pp.99-100.

(٥٠) Thuasne : pp. 120-103,127.

نحو أدنة وطرسوس لمقاتلة المماليك ، ولذلك رفض استجابة طلبه وعلّق ذلك على ضرورة موافقة البابا[٥١] . وبعد انتصار المماليك على العثمانيين فى ١٥ أغسطس جدّد ملك المجر مسعاه لدى البابا الذى كان يقوم فى نفس الوقت بمفاوضة شارل الثامن لنقل جم إلى روما حتى يتمكن من مهاجمة الأتراك فى هـذا الوقت المناسب . ولـكن البابا رفض تحقيق طلبه لأن شارل الثامن كان يشترط عليه مقابل السماح بتسلمه عدم تسليمه لأحد إلا بموافقته شخصياً . ولذلك عاد ماتياس كورڤانوس ، مضطرًّا للمرة الثانية إلى تجديد المدنة القائمة بينه وبين بايزيد الثانى لمدة ثلاث سنوات أخرى[٥٢] .

وكان فرديناند الثانى ملك نابولى وصقلية يسعى هو أيضاً لأن يكون جم تحت يده . إمّا لاتخاذه ذريعة لمحاربة العثمانيين أو لمسالمتهم . وإبعاد خطرهم عن مملـكته ، أو لمساومة المماليك على تحقيق أهدافه السياسية فى جزيرة قبرص . فالبندقية بعد عقد الصلح مع محمد الثانى فى عام ١٤٧٩ حرّضته على مهاجمة مملـكة نابلى التى كانت فى عداء معها ، فتقدمت الأساطيل العثمانية نحو ميناء أُترَنتو Otranto فى عام ١٤٨٠ واستولت عليها ، إلا أنها أُجبرت على الرحيل عنها فى العام التالى[٥٣] . وعادت البندقية مرة ثانية فى عام ١٤٨٤ إلى تحريض بايزيد الثانى على مهاجمة مملـكة نابلى ولـكن دوبوسون كان يخشى خروج الأساطيل العثمانية إلى عرض البحر خوفاً من أن تتحول إلى غزو جزيرة رودس ، ولذلك فقد ضغط على بايزيد للـكف عن استعداداته الحربية ، مهدداً إياه بتسليم جم إلى أحد أعدائه[٥٤] ومن جهة ثانية كان فرديناند الثانى يعمل منذ مدة طويلة من أجل الحصول

---

(٥١) انظر بعد (العلاقات بين قايتباى ورودس والمجر فى عام ١٤٨٨)

(٥٢) Thuasne : p. 200.

(٥٣) شارل ديل : البندقية ، ص ١٤٠ ، ١٦٨

Hill : A history of Cyprus، vol. III, The Frankish period. 1432-1571, Cambridge 1948, pp.733-743.

(٥٤) Thuasne : 118-119.

على عرش قبرص لدون ألونزو Don Alonzo أحد أبنائه غير الشرعيين[٥٥] . وكاد جم يقع فى أيدى رجاله أثناء عبور السفينة التى تنقله عبر مضيق مسينا[٥٦] . وما أن وصل جم إلى جنوب فرنسا حتى بادر يطالب رئيس الاستبارية بتسليمه إليه . ثم عاد فجدد مطالبته هذه فى عام ١٤٨٥ بعد أن علم بنوايا بايزيد الثانى العدائية ضد مملكته[٥٧] وطلبه مرة أخرى البابا أنوسنت الثامن أثناء مفاوضاته مع شارل الثامن . إلا أن البندقية كانت حريصة على إفساد مسعاه ، فأخبرت البابا بأنه متفق سراً مع بايزيد على تسليم جم له مسالمةً له ، وبذلك سيتحول العثمانيون إلى محاربة البنادقة[٥٨] .

أما البندقية فقد ظلت تندب الحظ الذى لم يمكنها -وهى سيدة البحر المتوسط من وقوع هذا الصيد الثمين فى يدها[٥٩] حتى تستطيع مساومة بايزيد الثانى بعد هـذا الصلح الشائن الذى اضطرت لعقده مع أبيه ، وهو الصلح الذى لم يترك لها سوى بعض المراكز التجارية ذات القيمة الثانوية فى شبه جزيرة المورة وبعض الجزر الصغيرة فى مدخل بحر الادرياتيك وجزيرة كريت وجزيرة قبرص التى كانت تباشر شئون الحكم الفعلى فيها باسم الملكة كاترين كورنارو[٦٠] . أما ولم يُقدّر لهـا ذلك فقد عملت دبلوماسيتها على الاحتفاظ بصداقة العثمانيين درءاً لخطرهم حتى تتفرغ لسياستها فى إيطاليا التى استلزمها انسحابها من شبه جزيرة المورة وبحر الأرخبيل ومواجهة القوى الإيطالية المتحالفة ضدها وهى : البـابا ونابلى وفرّارا وفلورنسه وميلانو . وكانت

---

(٥٥) انظر بعد .
(٥٦) Hammer: : III, p. 358.
(٥٧) Thuasne : pp. 101-102,133.
(٥٨) Ibid : p.188.
(٥٩) Ibid : p. 198.
(٦٠) شارل ديل : البندقية ، ص ١٤٠

Ganshoff : Histoire des rélations internationales. Le Mayen-Age, Paris 1935, p. 256.

حريصة أيضاً على أن تتوج سياستها التى بدأتها فى جزيرة قبرص عقب وفاة جيمس الثانى فى عام ١٤٧٣ بضم الجزيرة إلى ممتلكاتها . ولم تكن تخشى البندقية على سياستها هذه جانب المماليك ، إذ قد عرفت بخبرتها الطويلة معهم كيف تحقق أغراضها مع سلاطينهم بدبلوماسيتها المرنة وبالأموال والهدايا التى كانت تقدمها إليهم وإلى كبار الأمراء ، وإنما كانت تخشى أن يتجه العثمانيون أثناء الحرب المملوكية العثمانية إلى انتزاعها واتخاذها قاعدة لهم فى مهاجمة الشواطئ المملوكية(٦١) . ولذلك كانت تعمل جاهدة على أن يظل جم فى نيس بعيداً عن مسرح الحوادث بالشرق الأوسط ، ومن أجل ذلك تصدت لإحباط إعادته إلى العثمانيين ووقوعه فى يد أحد أعدائهم . واكتفت فى عام ١٤٨٣ ببذل الوعود لبايزيد الثانى عندما أرسل إليها اسكندربك القائد الألبانى المشهور يفاوضها فى أن تعمل على تسليم جم إليه فى مقابل التنازل لها عن شبه جزيرة المورة ، ولم تتحرك خطوة نحو تحقيق هذه الرغبة(٦٢) . وفى العام التالى قابلت بكل تحفظ العرض الذى تقدم به دوبوسون بأن يسلم إليها جم ، وقررت بعد أن ناقشته فى جلسة سرية عدم الاستمرار فى هذه المفاوضات لكيلا تثير شكوك السلطان العثمانى(٦٣) . وفى نفس العام اعتذرت للسفير الذى أرسله دوق سافوى الذى جاء يعرض عليها الاتفاق على تهريب جم إليها على أن تقوم البندقية بمساعدته فى الحصول على حقوق الملكة شارلوت فى عرش قبرص ، وهى الحقوق التى كان من المتفق عليه أن تؤول إليه بعد وفاة شارلوت(٦٤) . بل ذهبت إلى أبعد من هذا ، إلى إحباط الاتصالات بين قايتباى ودوق سافوى(٦٥) ، وإحباط مساعى ملك نابولى لدى البابا فى عام ١٤٨٨(٦٦) .

---

(٦١) انظر بعد .

(٦٢) Thuasne : 106.

(٦٣) Ibid : pp. 124-125.

(٦٤) Ibid : pp. 109-110

(٦٥) انظر بعد العلاقات بين قايتباى ودوق سافوى .

(٦٦) Ibid : 188.

وحاول البابا أنوسنت الثامن التوفيق بين هـذه القوى الأوروبية المتعارضة . إلا أنه لم يوفق فى ذلك بسبب سياسة البنادقة والروادسة الذين وضعوا فى المقام الأول من سياستهم تجنب عـداوة العثمانيين خوفاً على ممتلكاتهم ولما يعرفونه من فشل محقق للمشروعات الصليبية[٦٧]. ولذلك بدأ البابا يفكر جديا منذ عام ١٤٨٥ فى نقل جم إلى روما والتحفظ عليه تحت يده إلى أن يحين الوقت المناسب لتنفيذ مشروعه[٦٨]. وفى ١٣ فبراير ١٤٨٦ تمكن من الوصول إلى اتفاق مع دوبوسون فى هذا الصدد ، مقابل منحه قبعة الكردينالية والموافقة على ضم بعض طوائف الرهبان إلى طائفة فرسان القديس يوحنا مع ما يتبع ذلك من ضم أموالهم وممتلكاتهم[٦٩]. وفى العام التالى نشط لمفاوضة شارل الثامن ملك فرنسا فى نقله إلى روما وطالت هذه المفاوضات واستغرقت ما يقرب من عام نظراً لتشدد ملك فرنسا من جهة ، ونظرا للمحاولات التى قام بها كل من ملك المجر وملك نابلى ، وفلورنسة لتسلم جم . وأخيراً غادر جم جنوب فرنسا إلى روما فى ٨ نوفمبر سنة ١٤٨٨ فوصـلها فى ١٣ مارس سنة ١٤٨٩ [٧٠].

وما أن استقر المقام بجم فى القصر البابوى حتى طلب من البابا السماح له بالسفر إلى القاهرة لرؤية والدته وزوجته وأولاده فلم يسمح له بذلك[٧١] . وفى روما تقابل سفير بايزيد الثانى وسفير قايتباى ، كل منهما يحاول أن يحرك العواطف الإنسانية فى قلب البابا حتى يطلق سراح جم ، ثم انتقل كل منهما من التوسل إلى المساومة . فعرض السفير العثمانى أن يسلم للبابا جميع مخلفات القديسين الموجودة بالقسطنطينية ،

---

(٦٧) Ibid : pp.126-127.

(٦٨) Ibid : pp . 128-133.

(٦٩) Ibid pp. 138-140

(٧٠) Ibid : p. 176—Hammer III, pp. 365-366

(٧١) Hammer : III, p. 376

وأشار السفير المصرى إلى انتصار المماليك على العثمانيين فى العام الماضى وطالب بتسليمه إلى قايتباى أو لأحد أعداء العثمانيين حتى يتحقق النصر النهائى على العثمانيين وأخيراً عندما وجد البابا معرضا عنه طالبه بماله من سلطة روحية أن يعمل على أن يرد دوبوسون المبلغ الذى كان قد أخذه وهو ٢٠ ألف دوكاه ، للإنفاق منه على نقل جم إلى القاهرة حسب اتفاقه مع قايتباى(٧٢).

***

وإذا كانت فرص النجاح تكاد تكون معدومة أمام بايزيد الثانى فى استعادة جم ، فقد كان الأمل كبيراً لدى قايتباى فى نجاح مساعيه فى هذا الصدد إذ كانت ترتكز دبلوماسيته على عوامل رئيسة ثلاثة تتصل بعلاقاته مع هذه القوى الأوروبية . وهى :

أولاً — خوف فرسان الاسبتارية من أن يتحول بايزيد الثانى بأسطوله إلى مهاجمة ردوس فى حالة انتصاره على المماليك .

ثانيا — النزاع حول عرش قبرص بين أبناء حنا الثانى بعد وفاته فى عام ١٤٥٨ ثم طال هذا النزاع وتشعب واتسع نطاقه فشمل كلا من البندقية ومملكة نابلى ودوقية سافوى .

ثالثا — رغبة بعض الدول الأوروبية وخاصة فرنسا وفلورنسة فى استئناف علاقاتها التجارية مع الدولة المملوكية ومنافستها للبندقيـة التى كانت تتمتع بالمركز التجارى الأول بها . وقد اشتدت هـذه الرغبة بسبب تحول النشاط التجارى إلى أسواق الدولة المملوكية بعد استيلاء العثمانيين على امبراطورية طرابيزون فى عام ١٤٦١ وعلى ميناء كافا Caffa وغيرها من المراكز التجارية لجنوى فى شبه جزيرة القرم ، عام ١٤٧٥ وما ترتب على ذلك من القضاء على نشاط الأوروبيين التجارى فى البحر

(٧٢) Ibid : pp. 367-368

الأسود ، وتوقف هذا النشاط تقريباً مع القسطنطينية بسبب حروب محمد الثانى مع البنادقة فى شبه جزيرة المورة وبحر الأرخبيل .

أما رودس فقد سارع قايتباى يعرض عليها فى عام ١٤٨٤ ، قبيل الحرب المملوكية العثمانية الأولى ، تجديد معاهدة الصلح معها للمرة الثانية. ووجدت ردوس فى ذلك العرض ما يجعلها تتفرغ لمراقبة حركات الأسطول العثمانى أمام مياهها (٧٣). وتحت ستار هذا التعاهد طالب قايتباى فى العام التالى بتسليم جم له شدا لأزره وعوناً له على النصر . واقتضى خوف دوبوسون من انتصار العثمانيين أن يتظاهر بالعمل على إجابة رغبة قايتباى ، بل دفعه دهاؤه إلى استغلال هذه الرغبة فى الحصول على الأموال لتغطية المصاريف اللازمة لنقل جم والإنفاق عليه . ويقال فى هذا الصدد أن دوبوسون كان يستغل إمضاء جم الذى انتزعه منه قبيل مبارحته رودس إلى فيلافرانكا فيكون له شرف المفاوضة باسمه وهى خسة (٧٥) أخذها عليه كل من أرخ لحياة جم من المؤرخين المسيحيين (٧٤) .

وتمخضت الجولة الأولى فى هذه الحرب عن انتصار المماليك فى عام ١٤٨٦ ، فتراخى قايتباى فى المطالبة بتسليمه إليه . إلا أنه عاود الاتصال بدوبوسون مرة ثانية عندما لاح فى الأفق قرب التصادم ثانيا مع العثمانيين فى عام ١٤٨٨ . وفى هذه المرة لم يشأ أن يرسل رسولا من المماليك وإنما اختار لهذه المهمة أحد أتباع فرديناند الثانى ملك نابلى الذين كانوا يقيمون بالقاهرة يواصلون التآمر ضد البندقية والسعى للحصول على عرش قبرص لابنه دون الونزو . ولنترك الكلام عن هذا السعى حتى نعرض أولاً لموضوع النزاع على عرش قبرص .

فقد تجدد النزاع حول عرش قبرص بعد وفاة جيمس الثانى فى عام ١٤٧٣ بين أخته الملكة شارلوت التى كان قد نجح فى إقصائها عن العرش ، وبين زوجته الملكة

---

(٧٣) Thuasne : p. 120.

(٧٤) Ibid : p. 96,133-135–Hammer : III, p. 363,364.

(٧٥) انظر بعد . .

كاترين كورنارو إحدى شريفات البندقية . واشتد هذا النزاع بعد أن مات ابنه جيمس الثالث الذى ولد بعد وفاته فى ٢٦ أغسطس ١٤٧٤(٧٦) . ووقفت البندقيـة تؤازر « ابنتها » وباشرت شئون الحكم بالجزيرة ووضعتها فى حماية أحد أساطيلها(٧٧) .
ووقف فرديناند الثانى ملك نابلى بجانب شارلوت بعد أن تبنت ابنه دون الونزو وباركت مشروع زواجه من الأميرة شارلا وهى ابنة غير شرعية لأخيها جيمس الثانى وأخذت تعمل على إجلاسهما على عرش قبرص . فدبرت مع فرديناند خطف هذه الأميرة الصغيرة التى كانت مبعدةً بالبندقية. ولما فشلت فى ذلك أبحرت فى عام ١٤٧٨ إلى الإسكندرية وبصحبتها دون الونز للحصول على موافقة قايتباى ومساعدته . وأتبع فرديناند رحيلهما بأن أرسل إلى الإسكندرية أسطولا يتكون من ٢٢ سفينة لنقلهما مع القوة التى يجردها قايتباى فى صحبتهما إلى قبرص . ورحب قايتباى بهما على الرغم من أنه لم يكن ميالا للتدخل فى هذا النزاع طالما أن الجزية المقررة على الجزيرة تدفع له ، فقد وجد فى وجودها بالقاهرة أداة للضغط بها على البندقية إذا ما اضطرته الظروف إلى ذلك ، فلم يكن يخفى عليه السياسة التى انتهجتها بقبرص عقب وفاة جيمس الثالث إلا أن إقامة شارلوت بالقاهرة قد نغصها وفاة الأميرة شارلا فى عام ١٤٨٠ واتجاه فرديناند إلى تزويج ابنه من الملكة كاترين وكانت لا تزال شابة فى ريعان الصبا ، وخاصة بعد أن أبدت رغبتها فى الزواج لكى تنجب وزيثا للعرش يفسد على البندقية خطتها . وأخذت فى الاتصال بأنصار فرديناند من النابليين والكتلان الموجودين

---

(٧٦) Ziada : The mamluk conquest of Cyprus in the fifteenth century, in 13, F. A., Universitey of Cairo, vol. II, may 1943 (part II) pp. 44-54 — Hill : III, pp. 598-599, 601,602, 603-604,651-652,658:663,664-665,669,679,711-712,725.

(٧٧) Hill : III, p. 690,694,695,711-721,717-720,729,733, 735-736,737.

بالجزيرة . فتركت شارلوت دون الونزو وغادرت القاهرة فى أواخر عام ١٤٨١ ووصلت روما فى يناير من العام التالى(٧٨).

وفى هـذا العام أيضا توفى زوجها الملك لويس ، فواصل شارل الأول ، دوق سافوى الكفاح بعده بمقتضى الاتفاق الذى عقد مع شارلوت فى عام ١٤٦٢ والذى ينظم حقوق آل سافوى فى عرش قبرص إذا ما ماتت دون وريث لها(٧٩). وجدّ فى الميدان السياسى أيضاً موضوع جم ، فاتخذت منه هذه القوى المتنازعة وسيلة لمساومة قايتباى فى تحقيق مصالحها . فبمجرد وصول جم إلى نيس قام دوق سافوى بزيارته وتقديم الهدايا إليه ، واعداً إياه بالعمل على تخليصه(٨٠). وفى عام ١٤٨٤ تعددت مساعيه لتحقيق أهدافه فأرسل سفيرا من قبله إلى البندقية يعرض عليها الاتفاق على تهريب جم إليها ، إلا أن البندقية اعتذرت لانشغالها فى حرب فرارا . فاتجه إلى عدوتها فلورنسه وأوعز إليها بالعمل على إجلاس شارلوت على عرش قبرص بالقوة ، إلا أن هذا المشروع أهمل أمره بعد أن عقد الصلح مع البندقية فى ١٦ أغسطس من نفس العام(٨١) وفى هذا العام أيضا قبضت سلطات البندقية بجزيرة مودون Modon على عميل من عملاء قايتباى يدعى نقولا النيقوسى Nicolas de Nicosie ومعه رسائل تؤكد الصلة بين الأمير جم وأمه عن طريق دوق سافوى . ولم تشأ البندقية أن تغضب قايتباى فاكتفت بإطلاق سراحه ومنعه من مواصلة رحلته إلى نيس(٨٢).

---

(٧٨) Ibid : p. 601,604,605,606,607-608,609.610,664-665,669,729-730 — Le Voyage d'Outremer de Jean Thenaud, suivie de le relation de l'ambassade de Domenico Trevisan auprès du Saudan d'Egypte en 1512 ed. Schefer, Paris 1884, pp. XXXI-XXXII.

(٧٩) Hill : III, p. 587,610.

(٨٠) Hammer : III, p. 360,391 — Thuasne: pp. 99-100

(٨١) Hill : III, p. 611

(٨٢) Thuasne : p. 118

وحاول السفير البندقى أثناء مفاوضاته التجارية مع قايتباى فى عام ١٤٨٣ إيغار صدره إزاء دون الونزو ، إلا أنه لم يتمكن من ذلك بسبب وجود كثير من أفراد حاشيته بالقاهرة . وطال مقام هذا الأمير بالقاهرة دون أن يتخذ قايتباى أية خطوة فى سبيل إجلاسه على عرش قبرص ، إذ لم ينجح أبوه فى تسليم جم إليه ، فغادرها إلى نابلى حيث وصلها فى ٢٧ سبتمبر ١٤٨٧(٨٤) . وظل أتباعه بالقاهرة وعلى رأسهم رزّودى مارينو Rizzo de Marino وترستانودى جبلتو Tristano de Gibleto يواصلون خدمة مصالحه ، وظل الاتصال قائما بين قايتباى وبين أبيه بعد رحيله(٨٥) .

وقبيل نشوب المعركة الثانيــــة ضد العثمانيين رأى قايتباى إرسال رزّودى مارينو لمفاوضة رئيس الفرسان فى تسليم جم له ، فوصل رودس فى ١٠ يونيو ١٤٨٨ فى نفس الوقت الذى وصل فيه سفير ملك المجر . وردّ دوبوسون مساعى السفيرين ، فما كان من رزّودى مارينو إلا أن اصطحب معه إلى القاهرة السفير المجرى ، فوصلاها فى شهر (رجب ٨٩٣هـ/ يونيو ـ يوليو ١٤٨٩) . وفى القاهرة تيسّر التفاهم معه بفضل وجود عدد كبير من كبار أمراء المماليك من أصل مجرى . وهم (الأسرى الذين أهداهم مراد الثانى إلى جقمق عقب انتصاره فى موقعة ورنة Warna(٨٦) ويقال إن السفير المجرى تقابل فى القاهرة مع رسول من قبل جم(٨٧) ، لا نعرف شيئا عنه ولا عن الظروف التى جاء فيها.

---

(٨٣) Hill : III, p. 735

(٨٤) Ibid : p. 609

(٨٥) ابن إياس ، طبعة استانبول ، ج٣، ص ٢٣٩ [فى ذى القعدة ٨٩٢ هـ / أكتوبر ـ نوفمبر ١٤٨٧ كلف قايتباى قسس كنيسة القيامة بالقدس إرسال أحدهم إلى صاحب نابلى ليكاتب صاحب قشتالة بأن يحل عن أهل الأندلس ويرحل عنهم وذلك بعد أن وصل قاصد من صاحب الأندلس يطلب نجدته]

(٨٦) Le Voyage d'Outremer, p. XXXII.

(٨٧) قارن بين ماذكرته المراجع الآتية خاصا بهذا السفير :

Thuasne : pp. 198-199 — Hill : III, p. 739. n. 3 — Wiet : Traduction d'Ibn Iyas. Histoire des Mamlouks Circassiens, T. II, (872-906) , Le Caire 1945,284.

ابن اياس ، طبعة استانبول ، ج ٣ ص ٢٤٨ ـ الدكتور زياده : نهاية السلاطين المماليك ، ص ٢٠٧ .

وكيفما كان الأمر فإن الجهود المشتركة لقايتباى وملك المجر لم تؤد إلى نتيجة ما .

وشهدت القاهرة فى نفس العام وصول خطاب دوق سافوى المؤرخ فى ١٨ أغسطس سنة ١٤٨٨ على يد رسول من قبله يخبر قايتباى بوفاة شارلوت فى العام السابق بعد أن صدّقت على وثيقة تنازلها له عن حقوقها فى عرش قبرص ، وأنه يأمل بمساعدة الله وبمساعدته ، وهو السلطان الشرعى للجزيرة ، فى استرداد حقوقه(٨٨) . ومهما يكن من الأمر فإن هذه الاتصالات لم تسفر عن شيء ما ، إذ رحل جم إلى روما فى ٨ نوفمبر من نفس السنة .

ومنذ عام ١٤٨٦ ، وعلى وجه التحديد قبيل نشوب الحرب العثمانية المملوكية الأولى ، والبندقية تخشى على جزيرة قبرص من تحركات الأسطول العثمانى والاستيلاء على ميناء فماجوستا لاتخاذها قاعدة له فى عملياته الحربيـــة ضد السواحل الشامية . فوضعت الجزيرة فى حماية أحد أساطيلها وزوّدت قائده بتعليمات محددة تقضى بمعاملة الأسطول العثمانى معاملة ودية وبأن يسمح لثمانية أو لعشر سفن فقط من سفنه بالرسو فى فماجوستا إذا ماطلب التزوّد بالمؤونة . واشتد هذا الخوف مرة ثانية قبيل نشوب المعركة الثانية بين العثمانيين والمماليك فى عام ١٤٨٨(٨٩) . ومن جهة ثانيـــة اشتدت المؤامرات ضد البندقية داخل وخارج الجزيرة ، وهى المؤامرات التى كانت تهدف إلى زواج الملـكة كاترين من دون الونزو . واكتشفت البندقية تآمر قايتباى مع رزّودى مارينو ، وتريستانودى جبلتو ، من أتباع فرديناند الثانى ملك نابلى القيمين بالقاهرة ، بقصد تهريب الملـكة من الجزيرة(٩٠) . ولذلك قررت البندقية ، بعد هزيمة العثمانيين

---

(٨٨) Hill : III, p. 611-612, 614-615

(٨٩) Ibid : pp. 735-736.

الأستاذ توفيق اسكندر : سفارة بييرو ديدو ومعاهدة تنازل مصر عن قبرص عام ١٤٩٠ ، القاهرة ١٩٥٦ . انظر الوثيقة الأولى . [التعليمات إلى السفير البندق والمؤرخة فى ١٠ سبتمبر ١٤٨٩] ص ٥ ـ ٦ .

(٩٠) Hill : III, p. 738,739-740,741-742.

فى ١٥ أغسطس ١٤٨٨ ، رفع علمها على الجزيرة والضغط على كاترين للتنازل عن حقوقها ورحيلها للإقامة فى البندقية ، وتم للبندقية ما أرادت فى شهر مايو من العام التالى(٩١) .

ثم أخذت البندقية بما عرف عنها من مهارة دبلوماسية ، تعمل على صبغ هذا التنازل بالصيغة الشرعية بالحصول على موافقة قايتباى صاحب السيادة على الجزيرة . فأرسلت فى بادئ الأمر ، رسولها ماركو ماليبرو Marco Malipiero عهد لذلك بالتعاون مع قنصلها بالإسكندرية . ثم أرسلت سفيرها بيبرو ديدو للانتهاء من هذه المهمة وزودته بالتعليمات اللازمة لذلك فى ١٠ سبتمبر ١٤٨٩ . وكانت البندقية حريصة فى تعليماتها للسفير ، أن يعالج فى مهارة موضوع جم مع السلطان إذا ماسأل عنه ، فيجيب بأنه يقيم فى القصر البابوى منعماً مكرماً . وأن يتجنب مقابلة والدة جم ، وإذا استلزم الأمر مقابلتها فيكون ذلك بعد الحصول على إذن السلطان وذلك جرياً على سياستها بالابتعاد عن هذا الموضوع . ووصل السفير البندقى إلى الإسكندرية فى نوفبر ولكن مفاوضاته بالقاهرة طالت ولم يتمكن من عقد المعاهدة التى تنظم العلاقة بين البندقية والدولة المملوكية بخصوص قبرص إلا فى ٩ مارس ١٤٩٠(٩٢) .

ويشير تقرير السفير البندقى إلى الدوج بعد وصوله إلى الإسكندرية والمؤرخ فى ٢٤ نوفبر سنة ١٤٨٩ إلى وجود رسول بابوى بالقاهرة ، ومعه رسول تركى حضر معه من روما من قبل جم ليطمئن والدته عليه ، وأن السلطان استقبله فى ٦ أغسطس ثم أرجأ مقابلته الثانية له مدة أربعين يوما بمناسبة حلول شهر رمضان والاحتفال بالعيد. وقد جاء الرسول البابوى يحمل خطابا من البابا يهنئ فيه السلطان بانتصاره الثانى على بايزيد الثانى ويحثه على الثابرة على قتاله ، وأنه يريد أن يعلم من السلطان شخصياً رغباته بخصوص جم . ثم زار الرسول البابوى ومعه رسول جم والدته وطمأناها على

---

(٩١) Ibid : p. 737,742-749,750.

(٩٢) الأستاذ توفيق أسكندر: نفس المقال - الوثيقة الأولى ، ص٧ ، والوثيقة الثالثة [معاهدة تنازل مصر عن قبرص للبندقية والمؤرخة فى ٩ مارس ١٤٩٠] ص ١٣ — ١٥

سلامته[٩٣] . وتذكر بعض المصادر أن قايتباى كان يساوم البابا على تسليم جم له مقابل التنازل له عن القدس الشريف[٩٤] ، وهذه مبالغة تبعد كثيرا عن الحقيقة . وحقيقة الأمر أن البابا استغل رغبة قايتباى فى استعادة جم لتحقيق مطلب للرهبان الفرنسيسكان المقيمين بدير صهيون بالقدس الشريف ، وهو مطلب تدخلت البابوية مرات سابقة لدى سلاطين المماليك لتحقيقه ، فهؤلاء الرهبان قد انتهزوا هذه الفرصة وطالبوا باستعادة القبو الذى يوجد به قبر داود عليه السلام ، وهذا القبو كان يعلوه قاعة الحواريين ومجاور من الجهة الشرقية للمكان الذى تناول فيه السيد المسيح العشاء الأخير مع حوارييه ، وهو الذى يعرف « بعُلّية صهيون ـ Caenaculum » والذى أقيمت فوقه كنيسة العُلّية . وكان هـــذا القبو بيد الرهبان الفرنسيسكان حتى انتزعه منهم اليهود مرتين فى عهد المؤيد فى عام ٨٢٣هـ/١٤٢٠م وفى عهد برسباى ٨٣٣هـ/١٤٢٩م ، إلا أنهم نجحوا فى استعادته منهم عقب كل مرة . ثم آل أمره نهائيا فى عهد جقمق فى عام ٨٥٦هـ/١٤٥٢م بيد المسلمين وأقاموا به قبلة وحولوه إلى مسجد . وفضلا عن ذلك فقد قام الرهبان فى شهر صفر ٨٩٤هـ/يناير ـ فبراير ١٤٨٩ ببناء كنيسة محدثة بالقرب من الدير فوق مقام يدّعون أنه مقام السيدة مريم عليها السلام . وليس من قبيل الصدف أن يكلّف قضاة القدس ومشايخها فى شهر شعبان / يوليو من نفس العام ، وهو الوقت الذى كان موجودا فيـــه الرسول البابوى بالقاهرة ببحث شكوى الرهبان بقصد استعادة هذا القبو الذى يدّعون أنه من حقوقهم ، ثم يعاد هذا الطلب فى أوائل عام ٨٩٥هـ / ١٤٩٠م . ويبدو أن هذا التكليف لم يكن جديا ، إذ كان يراد منه التظاهر بالعمل على تحقيق رغبة البابا أملًا فى أن يقوم من جانبه بإرسال جم إلى القاهرة . والدليل على ذلك أنه لم تتخذ أية خطوة إيجابية فى هذا الصدد ، إلا عند ما أصدر قايتباى مرسوماً شريفاً وصل إلى القدس فى آخر جمادى الآخرة من نفس العام ٢٠ مايو ،

(٩٣) نفس المرجع السابق ، الوثيقة الثالثة [خطاب السفير البندقى إلى الدوج بعد وصوله إلى الأسكندرية المؤرخ فى ٢٤ نوفمبر ١٤٨٩] ص ١٠ ــ ١١

(٩٤) الدكتور زيادة : نهاية السلاطين المماليك ، ص ٢٠٨ .

يأمر القضاة ومشايخ الإسلام ببحث موضوع الكنيسة المحدثة وموضوع القبو . فسارعوا إلى الاجتماع بالمسجد الأقصى بعد ذلك بيومين وقرروا هدم الكنيسة لأنها محدثة فى الإسلام وبقاء القبو فى يد المسلمين نظراً لما ثبت لديهم من عدم أحقية الرهبان فى امتلاكه ونظراً لما سبق تحويله إلى مسجد يذكر فيه اسم الله(٩٥). وواضح أن هذه الخطوة قد اتخذت بعد أن فشلت مساعى قايتباى مع البابا لاستعادة جم .

وشهدت السنوات التى كان جم مقيما أثناءها بجنوب فرنسا توقف العلاقات التجارية بين مصر وفرنسا . ووجـــد قايتباى فى رغبة لويس الحادى عشر وشارل الثامن فى العمل على استئنافها فرصة طيبة للمطالبة بتسليمه إليه . وكانت فرنسا قد بذلت جهودا متواصلة لإنعاش تجارتها مع الدولة المملوكية بعد تدهورها عقب القبض على التاجر جاك كير Jacques Coeur ومحاكمته فى عام ١٤٥١ ، والقضاء على احتكار التجار الإيطاليين للأسواق الفرنسية(٩٦). إلا أن هذا النشاط قد توقف بعـد الغارة

---

(٩٥) مجير الدين : الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، طبعة القاهرة ١٢٨٣ هـ ، ج ٢ ص٦٧٦ ، ٦٧٧ ، ٦٧٨ ، ٦٧٩ — ٦٨١ — انظر دراستنا عن النزاع بين الرهبان الفرنسيسكان واليهود والمسلمين على قبر داود وعليه صهيون (تحت الطبع) .

(٩٦) فى عام ١٤٥٦ أصدر شارل السابع عفوه عن جان دى فيلاج Jean de Village قريب جاك كير وأخلص رجاله ، ثم عينه لماله من خبرة بالشئون التجارية بالمشرق قائدا للسفن التجارية الفرنسية المخصصة للابحار إلى الأسكندرية . وأتبع ذلك بأن أرسل فى نفس العام سفيراً لدى السلطان المملوكى الأشرف اينال يوصيه بحسن معاملة التجار الفرنسيين الوافدين إلى بلاده . ولـكن هذا النشاط مالبث أن توقف بعد عامين بسبب نشوب الحرب بينه وبين الفونسو الخامس ملك نابلى وأراجون. وماإن انتهت هذه الحرب فى عام ١٤٦٣ ، حتى بادر خلفه لويس الحادى عشر باتخاذ خطوات ايجابية لإنعاش التجارة الفرنسية ، وذلك بمحاولة القضاء على منافسة التجار الإيطاليين والعمل على استئناف العلاقات التجارية مع مصر . فأصدر قراراً يحرم دخول البضائع الواردة من المشرق إلى فرنسا إلا عن طريق الموانئ الفرنسية الجنوبية . ثم قام ببناء أربعة سفن تجارية واختار لها ميناء أيج مورت Aigues -Mortes كقاعدة تبحر منها إلى الإسكندرية . وفى عام ١٤٧٦ حلت محلها مرسيليا على الرغم من أنها لم تكن تابعة وقتذاك للتاج الفرنسى . ونتيجة لهذه الجهود سجلت السنوات : ١٤٦٤ ، ١٤٦٥ ، ١٤٦٦ ، ١٤٧٠ ، ١٤٧٢ ، ١٤٧٥ نشاط التجار الفرنسيين بميناء الإسكندرية . انظر :

=

التى شنها التجار البروفنساليون على ميناء الإسكندرية فى عام ١٤٧٥ وقبضو على عدد كبير من تجارها وكان بينهم بعض تجار السلطان كابن عليبه وغيره ، وقابلت السلطات المملوكية هذا الإجراء بالقبض على جميع تجار الفرنج بالمدن والموانئ المصرية والشاميـــة وألزمتهم بمكاتبة ملك فرنسا لإطلاق سراح هؤلاء التجار . ونجحت جهودهم فأطلق سراحهم فى العام التالى بعد أن اشتروا أنفسهم كما يقول ابن إياس (بمال له صورة ، وقد جرى عليهم أمور يطول شرحها حتى خلصوا من بلاد الفرنج واستمر ابن عليبة من يومئذ مريضا إلى أن مات بعدمدة)[٩٧]. وفى عام ١٤٧٦ أرسل لويس الحادى عشر وزير ماليته ميشيل جيار Michel Gaillard للعمل على محو الأثر السىء الذى تركته هذه الغارة وما ترتبت عليه من موجدة قايتباى[٩٨]. ولكن جهوده لم تكلل بالنجاح . والشواهد على ذلك عديدة . فنحن لا نلحظ أى نشاط تجارى للفرنسيين بالأسكندرية فى الفترة التى أعقبت ذلك . والرحالة الألمانى فيلكس فابر Felix Faber الذى زار مصر فى عام ١٤٨٣ يسجل خلو فندق الفرنسيين بالإسكندرية من البضائع والتجار[٩٩]. وأخيراً فإن الآثار التى ترتبت على هذه الغارة بالنسبة لبضائع وأموال التجار الفرنج المقيمين بالدولة المملوكية لم تسو إلا فى عام ١٤٨٩ كما يستدل على

Heyd : Histoire du Commerce du Levant, II, pp. 484-485 — De Viriville : Histoire de Charlas VII, Paris 1886, p. 440 — Pigeonneau : Histoire du Commerce de la France, vol. I, Paris 1885, p. 366,397 - Spont : La Bourgeoisie financière au début du XVIie siecle, p. 3 et n. 2, p. 4 - Baratire et Reynaud : Histoire du Commerce de Marseille, T. II (1291-1480), Paris 1951, P. 354,355-356-357,362-363.369.

(٩٧) ابن اياس ، طبعة استانبول ، ج ٣ ، ص ١١٠ ، ١١٥ .

(٩٨) Heyd : II, p. 496 et notes 5,6 — Baratier et Reynaud : II, p.366 Baratier et Reynaud : II, pp. 397-368.

(٩٩) Idid : p. 479

ذلك من تقرير السفير البندقى بيروديدو إلى دوج البندقية فى هذا العام [١٠٠] . وترتب على توقف العلاقات التجارية بين الدولتين أن تمكن التجار الإيطاليون من العودة إلى السيطرة على الأسواق الفرنسية وغمرها بالبضائع المستوردة من الشرق . وقد اضطر شارل الثامن إلى التدخل لحماية التجارة الفرنسية عندما رفع إليه وزير ماليته دوربول Doriole تقريره فى عام ١٤٨٨ عن مدى ما تعانيه التجارة الفرنسية من ركود . فأصدر فى هذا العام قراراً يحرم إدخال أية بضائع إلى فرنسا مالم تكن منقولة على سفن فرنسية وفى نفس الوقت أرسل جيوم بريسونيه Guillaume Briçonnet للسعى لدى قايتباى من أجل استئناف العلاقات التجارية مع مصر والوصية بالتجار الفرنسيين . وانتهز قايتباى هذه الفرصة وطالب بتسليم جم إليه ، ويذكر فى هذا الصدد أنه عرض مليون دوكاه مقابل ذلك [١٠١] . ولكن قايتباى لم يكن فى حاجة إلى أن يعرض هذا العرض المالى ولا كان فى قدرته أن يفى به ، وإنما علق استئناف الفرنسيين لنشاطهم التجارى على تسليم جم له . وهو أمر تعذر تنفيذه نظرا للضغط الشديد الذى كان يبذله البابا لدى شارل الثامن منذ عام ١٤٨٧ لنقل جم إلى روما فضلا من عدم رغبة شارل الثامن فى تسليمه إلى أية قوة من القوى التى تتنازع أمره . وهكذا فشلت جهود قايتباى ، وحرم التجار الفرنسيون من الاتجار مع مصر فترة طويلة أخرى [١٠٢] .

ويتضح من دراسة العلاقات التجارية بين فلورنسة ومصر أنها كانت موضوعاً للمفاوضات بين البلدين فى الفترة ما بين عامى ١٤٧٩ و١٤٨٩ وتعثر هذه المفاوضات واستمرارها هذه المدة الطويلة يكشف عنه موضوع جم . فقايتباى انتهز هذه الفرصة

---

(١٠٠) الأستاذ توفيق إسكندر : سفارة بيرو ديدو . الوثيقة الثالثة ، ص ١١ .

(١٠١) Pauqueville : Histoire du Commerce de France, dans Mémoires de l'Inst. Roy. de France. T. XI, p. 549 — Heyd : II, p. 488 — Thuasne : p. 200

الدكتور زياده : نهاية السلاطين المماليك ، ص ٢٠٧ .

(١٠٢) Heyd : II, p. 486 — Arnold von Harff : The pilgrimage of Arnold von Harff, p. 95.

لاستخدام فلورنسة كعميلة له فى استعادة جم وكانت فلورنسة تتظاهر من جانبها بتحقيق رغبته ، ولـكنها فى حقيقة الأمر كانت حريصة على صـداقة العثمانيين وعلى المحافظة على المركز التجارى الذى نالته بالقسطنطينية منذ عام ١٤٥٥ منافسة للبنادقة هناك[١٠٣] . وفوق هذا وذاك فإن عداءها للبندقية ولسياستها فى الأرض اليابسة كان يقتضى منها أن يكون جم فى يدها تتخذه وسيلة لمساومة العثمانيين ضد البندقية[١٠٤] . وقد توقفت علاقاتها التجارية مع مصر ، على أثر الغارة التى شنها البروفنساليون على الإسكندرية فى عام ١٤٧٥ ، إذ أن انتقام قايتباى قد شمل جميع طوائف الفرنج[١٠٥] ويتضح هـذا من السفارة التى أرسلها قايتباى فى شهر ذى الحجة ٨٨٣ هـ / فبراير — مارس ١٤٧٩ إلى لورنزو العظيم ، الذى يسميه ابن إياس « ملك التليان » . وكان السفير المصرى أحد تجار الإسكندرية وهو الخواجا محمد بن محفوظ المغربى[١٠٦] . وهذا السفير توالت سفاراته إلى فلورنسة فى عهد قايتباى ولعب دورا هاما فى المفاوضات السرية الخاصة باستعادة جم . واجتمع التجار الفرنتيون فى ٢٧ نوفمبر ١٤٨١ ووضعوا مشروعا بالمقترحات التى يجب على السفارة المزمع إرسالها إلى القاهرة اتباعها فى مفاوضاتها . ولـكن هذه السفارة لم يتيسر إرسالها إلى مصر وقتذاك مما دفع قايتباى

---

(١٠٣) Pernoud : Les Villes Marchandes aux XIVe et XVe siècles, Paris 1948, p. 122.

(١٠٤) انظر قبل الحرب بين البندقية وفلورنسه فى عام ١٤٨٤ .

(١٠٥) كان يمثل فلورونسه بالإسكندرية من عام ١٤٦٥ حتى عام ١٤٧٥ القنصل مريوتو سكارسيالوبى Mariotto Squarcialupi

انظر : Heyd, II : p. 488 - Baratire et Reynaud II, p. 366.

(١٠٦) ابن اياس لوطبعة بولاق ، ج ٢ ، ص ١٨٥ — مما هو جدير بالذكر أن طبعة استانبول ، ج٣ ، ص ١٤٥ — ١٤٦ تذكر أن هذه السفارة أرسلت إلى ملك الـكتلان ، ولكن الصحيح ، بناء على دراسة العلاقات بين فلورنسه وقايتباى ، أنها أرسلت إلى لورنزو العظيم .. وقد وقع فى هذا الخطأ أيضا الأستاذ فيت فى ترجمته الفرنسية لهذا الجزء . انظر :

Wiet : Traduction d'Ibn Iyas, p. 106.

إلى إعادة إرسال الخواجا ابن محفوظ مرة ثانية إلى فلورنسة فى عام ١٤٨٤[١٠٧] ، وكان قد جدّ فى الميدان السياسى موضوع جم .

وبدأت فلورنسة اتصالاتها بجم حذرةً من لفت الأنظار إليها . فدفعت أحدرعاياها وهو فرانسسكو برلنجييرى Francesco Berlinghieri إلى إهـداء جم نسخةً أنيقة من كتابه عن جغرافية العالم ، وجاء فى كلمة الإهداء المؤرخة فى ٣١ مايو ١٤٨٤ « أنه يقدم إليه مؤلفه هذا بعد ماعلم عن طريق أحد الفرنتيين المخلصين لشخصه العظيم ، وهو باولودى كول Baolo di Colle اهتمامه بالأدب راجيـا أن يذكره الأمير يوماً ماعندما يجلس على عرش أجداده » . وباولو هذا هوأحد التجار الفرنتيين الذين كانوا يترددون على مصر ، فنجده بعد ذلك بعامين أوثلاثة فى القاهرة يتولى أمر المفاوضات التجارية مع قايتباى[١٠٨] .

ولـكن هذه المفاوضات لم يتيسر نجاحها لأمر لانعلمه . فعاد قايتباى إلى إرسال الخواجا ابن محفوظ مرة ثالثة إلى فلورنسة وكان فى صحبته هذه المرة مترجم من صقلية ، فوصلها فى ١١ نوفمبر ١٤٨٧ وقدم إلى لورنزو العظيم الهدايا الحافلة التى أحضرها له ، وكان من بينها أسد وزرافة أثارت دهشة الفرنتيين وإعجابهم . ثم اجتمع به لورنزو على انفراد حيث أخبره برغبة قايتباى فى نقل جم إلى مكان آخر أكثر أمناً لاتصل إليه يد أخيه بايزيد الثانى ، وأنه على استعداد لدفع مبلغ كبير من المال لوضعه تحت يد البابا أو أن يسلمه البابا إمّا لملك المجر أولملك نابلى أوإلى البنادقة ، وبذلك يحول البابا دون أن يقوم الأتراك

---

(١٠٧) Amari : I diplomi arabi del R. Aachivio Fiorentino, Firenze, 1863, p. 361-362, document no XLIV — Heyd : II, p. 488. n. 2 Malfoto ou

[Mazamet Elmalfet وهو كما جاء ذكره فى الوثيقة محرفاً]

(١٠٨) Heyd : II, p. 488 — Thuasne : p. 117

فيما يختص بميل جم إلى دراسة الأدب ونظم الشعر انظر : الدكتور حسين مجيب المصرى : تاريخ الأدب التركى ، القاهرة ١٩٥١ ، ص ١٤٧–١٤٨ ، ١٥٠ ، ١٥١ .

بأى عمل هجومى ضد أحدهم ، على أن يظل هذا الاتفاق سرا بين هذه الحكومات التى يهمها الأمر . وكان السفير المصرى يحمل أيضا خطاباً من الخليفة العباسى بالقاهرة موجهاً إلى البابا أنوسنت الثامن يذكر فيه أن جم لم يلجأ إلى رودس إلا بعد أن وعده دوبوسون بالأمان ولذلك فإن واجب البابا وهو الرئيس الأعلى للمسيحيين أن يبرّ بهذا الوعد وأن يردّ إلى جم حريته ويعيده إلى والدته وزوجته . وطلب السفير من لورنزو أن يمهّد له تدبير مقابلة البابا بروما . وتصادف أن مر بفلورنسة فى ذلك الوقت رسولان من قبل البابا فى طريقهما إلى باريس لمفاوضة شارل الثامن فى أمر نقل جم إلى روما وتجاهلا إخطار لورنزو بقصدهما عندما علما بوجود السفير المصرى(١٠٩) . ولذلك بادر لورنزو بإخطار البابا بأمر هذه السفارة خشية أن يُتهم بالتآمر مع إحدى الدول الإسلامية ، وعرض على البابا إرسال السفير المصرى إلى روما لمعالجة الموضوع مباشرة معه ، وقد وجد البابا فى هذا العرض المالى الذى عرضه السفير ما يكفل نجاح مفاوضاته مع ملك فرنسا ، إذ أن ذلك ييسّر تدبير المال اللازم لنقله والإنفاق عليه(١١٠) . وفى نفس الوقت سارع لورنزو بإبلاغ بايزيد الثانى نبأ هذه السفارة حتى لا يثير شكوكه وعداوته(١١١) ، وعمل أيضا على السعى لدى شارل الثامن ، فى الوقت الذى كان البابا يقوم بنفس المسعى لديه ، فأرسل إليه سفيرا قدم فيما قدم له من هدايا الزرافة التى أرسلها قايتباى وعرض عليه تسليم جم مقابل مائة ألف دوكاه(١١٢) .

ونحن لانعرف على وجه التحديد ، هل تمكن السفير المصرى من مقابلة البابا وتسليم خطاب الخليفة إليه أم لم يتمكن من ذلك ، ولكن الأمر المؤكد أن المفاوضات التجارية ظلت معلقة إذ يبدو أن إتمامها كان متوقفا على لورنزو فى تسليم جم إلى قايتباى . والوثائق الخاصة بهذه المفاوضات فى هذه الفترة التالية مضطربة فى هذا

(١٠٩) Thuasne : pp. 173-174.
(١١٠) Ibid : pp. 174-176 et notes — Heyd : II, p. 489.
(١١١) Thuasne : p. 175 et n. 2
(١١٢) Ibid : p. 192.

الصدد . فهى تشير إلى تكليف السفير الفلورنسى لويچى دى أنجولو دلاستوفا Luigi d'Aangolo della stuffa بالسفر إلى القاهرة فى ١٠ نوفمبر ١٤٨٨ والتنبيه عليه بضرورة المرور أولاً على روما لمقابلة الحبر الأعظم ثم على نابلى لمقابلة فرديناند(١١٣).

ومن بين هذه الوثائق مرسوم لقايتباى أصدره إلى نائب الإسكندرية مؤرخ فى ٦ من محرم ٨٩٤/١٠ ديسمبر ١٤٨٨ يبلغه فيه أن لقنصل الفرنتيين بالإسكندرية وسائر بلاد السلطان جميع الحقوق والامتيازات الممنوحة لقناصلة البندقية ويطلب منه تخصيص مكان للفرنتيين ينزلون به(١١٤) . ومن المشكوك فيه أن السفير الفلورنسى قد تمكن من قطع هذه الرحلة الطويلة ثم الاتفاق مع قايتباى فى مدى شهر واحد(١١٥) . والثابت أن فلورنسة لم تتمكن من الاتفاق مع قايتباى إلا فى شهر نوفمبر ١٤٨٩ ، كما يستدل على ذلك من المكاتبة التى أرسلها إلى لورنزو والمؤرخة فى ٢٤ من ذى الحجة ٨٩٤هـ/١٨ نوفمبر ١٤٨٩(١١٦) ، ومن تقرير السفير البندقى إلى دوج البندقية والمؤرخ بالإسكندرية فى ٢٤ نوفمبر من نفس العام . وفى هذا التقرير يذكر السفير أن السفير الفلورنسى الذى كان موجوداً بالقاهرة لم يدع فرصة دون أن يتحدث جلياً عن شئون البندقية(١١٧).

ولا نعلم على وجه التحديد ما اتفق الطرفان عليه بخصوص جم . فهل وعدت فلورنسة بالعمل على تسليمه إلى قايتباى ؟ المعروف أن جم ظل مقيماً بروما ولذلك فإن هذه المعاهدة لم يقدّر لها أن تنفّذ وظلّت بدورها حبراً على ورق ولم يتيسر للفرنتيين التعاهد مرة ثانية مع قايتباى إلا بعد وفاة جم ، عن طريق السفير المصرى ابن محفوظ أيضاً فى جمادى الآخرة ٩٠١هـ/ فبراير ١٤٩٦(١١٨) .

***

(١١٣) Amari : pp. 372-374, document ne XLXI.

(١١٤) Ibid : pp. 382-386, document no XLVIII.

(١١٥) Ibid : p. 486.

(١١٦) Ibid : pp. 181-183, document no XXXIX.
Heyd : II, pp. 487-490

(١١٧) الأستاذ توفيق إسكندر : سفارة بيرو ديدو ، الوثيقة الثانية ص ١١ .

(١١٨) Amari : pp. 184-409, document no XL. pp. 210-213. document no XLI.

وإذا كانت دبلوماسية قايتباى لم تنجح فى عامى ١٤٨٨ و ١٤٨٩ على الرغم من فرص النجاح العديدة أمامها فى استعادة جم ، فقد فُقد الأمل فى ذلك بزوال هذه الفرص ذاتها . ففشلت مفاوضاته التجارية مع فرنسا. ثم نقل جم إلى روما أبعد احتمال التفاهم مع ملك فرنسا ودوق سافوى ، وتصفية النزاع على عرش قبرص وضمها إلى البندقية أخرج فرديناند الثانى ملك نابلى ودوق سافوى أيضاً من ميدان المساومة . وكذلك مفاوضاته الطويلة مع فلورنسة ، ومع البابا لم تأت بأية نتيجة .

ومع ذلك جادت الأقدار على غير موعدٍ بما مكنه من النصر النهائى على العثمانيين أو على الأصح انسحاب العثمانيين من هذه الحرب بعد أن خرج علاء الدولة بن دلغادر على طاعتهم وانضم إلى المماليك عقب الهزيمة التى حلت به وبالعثمانيين فى أغسطس ١٤٨٨ ربما لأنه خشى على نفسه وعلى إمارته والنصر النهائى للمماليك أصبح أمراً مفروغاً منه ، أو ربما يعزى ذلك إلى دبلوماسية الأمير الكبير أزبك قائد العساكر المملوكية الذى وفق فى اجتذابه إلى جانب المماليك . بل زاد على ذلك أماناً له بأن تزوج من ابنته[١١٩] وانتقاما منه دفع بايزيد ضده أخاه شاه بوداق الذى كان قد تمكن من الفرار من قلعة دمشق فى شوال ٨٩٢هـ/أكتوبر ١٤٨٦ ولجأ إليه ، فأبقاه إلى جانبه انتظاراً لما عسى أن تتمخض عنه الحوادث ثم أمده بالعساكر العثمانية وأغار على أخيه بعد عصيانه فى ربيع الآخر ٨٩٤هـ/مارس-إبريل ١٤٨٩ إلا أن النصر لم يكن حليفه وخابت آماله فى عرش الإمارة ، فلم يلبث أن قدم القاهرة فى محرم ٨٩٥هـ/ نوفمبر – ديسمبر ١٤٨٩ مفارقا بايزيد الثانى[١٢٠] . وهذا يفسر الانتصارات السريعة لأزبك فى حملته الثالثة بآسيا الصغرى فى العام التالى ضد الحاميات العثمانية بقلعة الكولك

---

(١١٩) ابن اياس ، طبعة استانبول ، ج ٣ ، ص ٢٦٢

Artin: p. 182,183-184,185.

(١٢٠) ابن اياس ، نفس الطبعة والجزء ، ص ٢٣٩ ، ٢٥٨ – ٢٥٩ ، ٢٦٢ ، ٣٧٩

[ظل شاه بوداق مقيما بالقاهرة حتى توفى بها بالطاعون عام ٩٠٣ هـ] –

Artin : pp. 182-183.

وقيصرية ، ورجوعه إلى القاهرة دون أن يشتبك فى قتال فعلى مع القوات العثمانية الرئيسية (١٢١) .

فى هذه الأثناء وصل إلى استانبول سفير سلطان تونس الفقيه مفتى على عربى يعرض وساطته لإنهاء النزاع بين بايزيد وقايتباى (١٢٢) . واستجاب بايزيد لهذه الوساطة فأرسل قاضى قضاة بروصة الشيخ على حلبى إلى القاهرة فوصلها فى إبريل ١٤٩١ ولم يغادرها فى أواخر العام التالى إلا وكان الصلح قد تم وردت إلى الدولة المملوكية القلاع التى كان العثمانيون قد استولوا عليها (١٢٣) .

ونشط بايزيد للمرة الأخيرة لاستعادة جم ، أو للتخلص منه بعد وفاة البابا أنوسنت الثامن وتولى اسكندر بورجيا عرش البابوية ووجد فى الصفات التى عرف بها هذا البابا ما شجعه على ذلك . وكان بصحبة السفير العثمانى السفير المصرى ، الشيخ عبد المؤمن الفارسى الذى أرسله قايتباى إلى استانبول فى عام ١٤٩٤ لتمكين أواصر الصداقة بين الدولتين (١٢٤) . إلا أن هذه المفاوضات قطعها دخول شارل الثامن ملك فرنسا روما ثم تسلمه جم ورحيله معه إلى نابلى حيث توفى بها فى ٢٤ فبراير ١٤٩٥ بعد يومين من دخولها المدينة .

---

(١٢١) ابن اياس ، نفس الطبعة والجزء ، ص ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ـ الدكتور زيادة : نهاية السلاطين المماليك ، ص ٢٠٩ ـ
C. I. A., Egypte I, pp. 549-651 — Wiet : L'Egypte Arabe, pp. 598-603.

(١٢٢) Artin : pp. 185-186.

(١٢٣) ابن اياس ، نفس الطبعة والجزء ، ص ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ـ الدكتور زيادة : نفس المقال ، ص ٢٠٩ ـ ٢١٠ .

(١٢٤) Hammer : III, p. 368.
ابن اياس ، نفس الطبعة والجزء ، ص ٣٠٩ ـ الدكتور زيادة : نفس المقال ، ص ٢١٠ .

وتجمع المصادر على وفاة جم بالسم البطىء وتذهب فى ذلك مذاهب شتى من توزيع الاتهامات هنا وهناك ضد من تآمروا عليه(١٢٥). ويهمنا فى هذا الصدد أن نثبت هنا رأياً جديداً ذكره مؤرخ مكة قطب الدين النهروالى ، فيذكر أن السلطان بايزيد أرسل إليه أحد عبيده فى صورة حلاق فاستخدمه وأمره أن يحلق له فحلق له رأسه بموسى مسمومة وهرب فى الحال وأثر السم فى رأسه وسرى إلى بدنه إلى أن مات(١٢٦).

وأرسل شارل الثامن مع السفيرين مخلفات جم ومن تبقى بجواره من أتباعه حتى أيامه الأخيرة(١٢٧). وكان من بين هذه المخلفات التى حملها أحد الأتباع ببغاء بيضاء كان جم قد عودها على أن تصبح عليه كل صباح قائلة (نصر الله السلطان جم) وفى استانبول صبغ هذا التابع ريشها بالسواد وعلمها قولاً آخر ثم قدمها إلى بايزيد فقالت له (رحم الله السلطان جم)(١٢٨).

أحمد السيد دراج

---

(١٢٥) Hammer : III, pp. 370-375 — Alderson : table XXVII et note 18.

(١٢٦) قطب الدين النهروالى : الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ، ص ٢٥٩

(١٢٧) Hammer : III, p. 374-875.

(١٢٨) الدكتور حسين مجيب المصرى : فارسيات وتركيات ، القاهرة ١٩٤٨ ، ص ٧٣ — ٧٤ .

نظرية جديدة في :

تاريخ بناء جامعة القرويين

بين الحين والآخر تكشف لنا الأيام عن نظريات في تاريخ المغرب كانت إلى الأمس القريب تعتبر في عداد الأسرار الدفينة ، الأمر الذي يؤكد أن تاريخنا بحق لم يكتب كما يجب بل قد ناله في بعض المراحل كثير من التزوير والتحريف. وهكذا فمنذ زمن غير بعيد طالعنا الأستاذ ليفي بروفنصال بنظريته حول تأسيس مدينة فاس استناداً على وثائق فيها النقول العربية وفيها بعض القطع النقدية ، هذه النظرية التي تتلخص في : أن باني عدوة الأندلس من فاس هو إدريس الأول بينما كانت عدوة القرويين من عمل إدريس الثاني ... وطالعتنا بعد ذلك عمليات التنقيب التي قام أساتذة آخرون أمثال ماسلوف وطيراس في جهات متعددة من المغرب ومنها جامع القرويين على حقائق أخرى كانت إلى هذا الوقت خفية على كثير ممن يعنون بالتاريخ ، على أن بين مؤرخينا المغاربة أنفسهم ــ وفيهم طائفة تمتاز بالمصابرة والمثابرة في البحث ــ طالعونا ــ وما يزالون ــ على دفائن أخرى جديرة بالتنويه والإشادة وأذكر من هؤلاء على الخصوص الأساتذة محمد الفاسي والمختار السوسي وعبد الله كنون ومحمد داود وعبد العزيز بن عبد الله ومحمد التطواني ومحمد المنوني ومحمد بن تاويت وأمثالهم ممن توفروا على هواية تاريخية نافذة فراحوا يؤلفون وينشرون. بيد أن كل هذه «الفتوحات» تحتاج دوما إلى تضافر الجهود حتى تحتل مكانها في التاريخ وبالتالي حتى تصبح في متناول التلميذ والطالب والأستاذ . . .

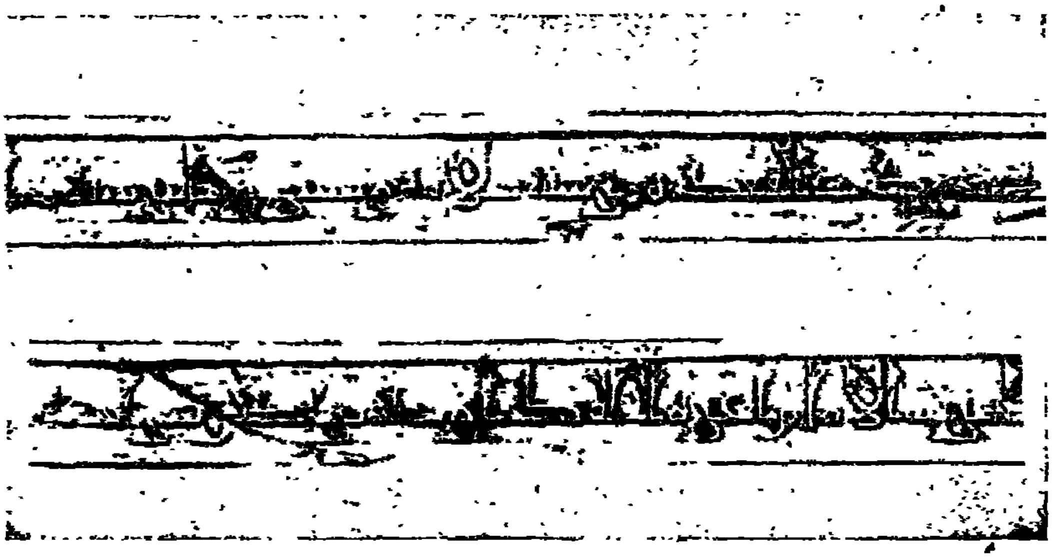
ولا أهدف بهذه المقدمة إلى أن أثير الانتباه إلى هذا « الفتح الجديد » بقدر ما أهدف إلى تصحيح صفحات من تاريخنا المبكر... إن كل أولئك الذين كتب لهم

أن يزاولوا الدراسات التاريخية بصفة عامة وتاريخ المغرب بصفة خاصة يذكرون جيدا أن ابن أبى زرع فى القرطاس والجزنائى فى زهرة الآس وابن خلدون فى تاريخه وسائر من تبع هؤلاء ، يجمعون على أن مسجد القرويين بمدينة فاس بنى سـنة ٢٤٥ بمطالعة العاهل الإدريسى يحيى الأول ، وأن أم البنين فاطمة الفهرية التى تطوعت ببنائه ، ظلت صائمة إلى أن انتهت أعمال البناء وصلت فى المسجد شكراً لله . . . هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن كتب التاريخ تطبق ـ ولا أقول تكاد تطبق ! ـ على أنه لما توفى إدريس الثانى قام بالأمر بعده ابنه محمد بعهد منه إليه وأن هذا الأخير لما ولى، قسم بلاد المغرب بين كبار إخوته بإشارة من جدته كنزة فاختص كل منهم بجهة وكان من بينهم داود بن إدريس الذى استأثر بإقليم تازة ، ووردت الكتب بعد ذلك صدى « الفتنة » بين بنى إدريس على أثر هذا الإقطاع لكنها لم ترجع بحال لذكر داود لا فى عداد الثائرين على السلطة المركزية ، ولا فى عداد الذين قاموا بتهدئة الثورة . . .

تلك هى الحقائق التى حفظناها ، لكننا اليوم أمام وثيقة ساعدت إلى حد كبير على معرفة مدى صحة تلك « الحقائق » .

نحن الآن أمام لوحة نقشت على عهد الأدارسة أنفسهم عثر عليها فى واجهة القبة الرابعة عند البلاط العمودى من جهة العنزة ، أى فى منتهى « البلاطات الأربعة » للقرويين الأولى ... لقد اكتشفت مدفونة فى الجبس تحت كثافة سبعة سنتيمترات تقريبا ، مكتوبة بالخط الكوفى العتيق وهى، ولو أن طائفة من حروفها منهوك ومتعب، غير أنها مقروءة فى الجملة ولم يفت منها إلا قدر يسير من أولها وآخرها . هى لوحة من طول أربعة مترات وأربعة وسبعين سنتيمترا ولكنها ليست عريضة إذ أن سعتها لا تصل إلى عشرة سنتيمترات ، لقد حملت إلينا — فيما حملت — تاريخ بناء القرويين أعنى شهر ذى القعدة من سنة ثلاث وستين ومائتين ثم هى أى اللوحة المذكورة تحمل سرا ثانيا يفوق الأول ذلك أنها تنصف عاهلا إدريسيا اضطرت الكتب لذكره فى

جملة عابرة على أنه عامل لإقليم تازة مع أنه كان السلطان الشرعى على عاصمة الملك، فاس، فى هذه الفترة الغامضة التى عاشها المغرب إثر توزع الأمر بين بنى إدريس. هذا العاهل هو الإمام داود بن إدريس الذى كان بالأمس صاحب تازة. لقد نقش على هذه اللوحة اسمه على النحو التالى : « مما أمر به الإمام أعزه الله داود بن إدريس أبقاه الله ونصره نصرا عزيزا ... » .



جزء من النص الذى يحمل التاريخ الصحيح لبناء جامع القرويين

ترى كيف يكون موقف المؤرخين أمام هذه النقوش التى احتفظت بالحياة منذ أحد عشر قرنا ؟ نحن الآن بين كتب حبرت على عهد بنى مرين فى القرن السابع الهجرى وبين هذه الوثيقة التى نقشت على عهد الأدارسة فى القرن الثالث الهجرى ، فأيهما كانت جديرة فى نظر المؤرخ الأمين بالنظر والاعتبار ؟ لاشك عندى فى أن أحدا من المنصفين لايتردد فى ترجيح هذه الوثيقة ومنحها الأسبقية على غيرها أولا لأنها كتبت فى نفس العصر الذى تتحدث عنه ، وثانيا لأنها تاريخ خام لم يلحقه تأثيرما، من قبل جهة ما ... وليس بالراجح فى نظرى أن نحاول الجمع بين رواية المصنفات ومدلول هذه اللوحة فندعى أن أعمال البناء ابتدأت سنة ٢٤٥ واستمرت إلى سنة ٢٦٣ ، أى أن يحيى الأول بدأها، وأتمها عمه داود وتكون فاطمة بهذا ظلت ضائعة ثمان عشرة سنة ... ذلك لأن المصدر التاريخى أولا يخذلنا. ثم ثانيا لأن مسجدا

لاتصل مساحته إلى ألف متر مربع لا يمكن أن يتطلب هذه السنين الطوال بالرغم من حالة الجفاف التي تعرضت لها البلاد فى هذه الأثناء ، وبالرغم أيضا من الطريقة التى سلكتها فاطمة فى بناء المسجد ، والتزامها ـ تحريا ـ أن تستخرج كل مواد البناء من نفس البقعة ... بقى إذن أن نتمسك بصك منقوش على عهد الأدارسة يحمل الإسم والتاريخ ، وأن نأتى على كاهل القرطاس والآس والعبر، تبعة مانقلوه عن غيرهم وفى الناس فريق قد يتمسك باسم فاطمة القيراونية كمؤسسة ولو أن اللوحة استعاضت عنها بالإمام داود وذلك استئناسا من هذا الفريق بكون الشعوب قد تقوم بالمشاريع وترجو إلى الملوك تبنيها تقديرا لهم وتكريما لمقامهم. بيد أن عدم توفرنا على ترجمة مدققة لفاطمة من جهة ، وعدم نص المصادر على هذا التأويل « الجديد » من ناحية ثانية لايساعد على الاطمئنان ..

بقى بعد هذا أمر آخر لانرى مناصا من إثارته هنا ... وذلك مملكة داود ؟ أين مبدؤها وأين نهايتها ؟ ومتى امتد سلطان داود من تازة على فاس ؟ ومتى انتهى ؟ إن التاريخ ـ كما سبق أن قلت ـ بخل على داود بن إدريس بأكثر من سطر لم يتجاوز عشرة سنتيمترات ! فكيف يمكن أن نتصور الأمور على ضوء الأحداث ؟ بعد وفاة إدريس وزع ولى عهده محمد بلاد المغرب على « الثمانية الكبار » : عيسى والقاسم وعمر وداود الخ. ويحفظ التاريخ ثورة عيسى وتمرد القاسم كما يحفظ لعمر امتثاله لأمر أخيه محمد لتهدئة الثورات ، والتاريخ بعد هذا سكت عن بقية الأخوة الذين ظلوا محتفظين بولائهم محترمين لعهودهم ... وبعد وفاة محمد هذا كان ولى عهده هو ولده عليا الذى لم يبلغ من العمر عشر سنوات والذى توفى مبكرا سنة ٢٣٤، بعد أن عهد لأخيه يحيى الذى عرف بهوايته المعمارية والذى تنسب لأيامه جامعة القرويين ، وتوفى يحيى الأول هذا فى وقت مجهول ليأتى بعده يحيى الثانى الذى عرف بخلقه المائع والذى يجهل طبعا تاريخ توليته وتاريخ انسحابه من الحكم ، وبعد هذا تأتى « دولة » على بن عمر ابن إدريس الذى جهل أيضا تاريخ توليته وتاريخ انتهائها ! !

أريد أن أتصور أن هذين الملكين : يحيى الثانى وعاياً بن عمر ـ وأمر توليتهما بدءاً وختاماً معلوم ! ـ لم يكونا شيئاً يذكر وإنما كان عمهما الذى يكبرهما سناً ويفوقهما حصافة فى الرأى والذى كان فى عداد المتزنين الذين احتفظوا بمراكزهم، أقول هذا العم كان هو المسيطر الحقيقى فى هذه « الفترة الغامضة » إلى أن تربع على الكرسى الملكى يحيى الثالث الذى اغتيل سنة ٢٩٢ ، كان هو المسيطر وإلا فبماذا نفسر أمره ببناء مسجد كمسجد القرويين سنة ٢٦٣ ، وبأى ميزان نزن عبارة الوثيقة الهامة : « أبقاه الله ونصره نصراً عزيزاً » .

الخلاصة أن القرويين بنيت سنة ٢٦٣ وليست سنة ٢٤٥ ، وأن بناءها تم على عهد الإمام داود بن إدريس وليس على عهد يحيى بن محمد بن إدريس ... وشىء ثالث من خلال هذا فإن داود كان فى عداد الملوك الأدارسة المبرزين الذين شيدوا وبنوا وليس فقط عاملا عاديا من عمال أخيه على الناحية الشرقية لمدينة فاس .

عبد الهادى التازى

ذكر الرءوس الثمانية

[هذا النص منقول عن مقدمة كتاب الخطط للمقريزى ، وقد شرح فى هـذه السطور ، الغرض من كتابه والمنهج الذى سلكه فى ترتيب موضوعاته].

اعلم أن عادة القدماء من المعلمين قد جرت أن يأتوا بالرءوس الثمانية قبل افتتاح كل كتاب وهى: الغرض، والعنوان، والمنفعة ، والمرتبة ، وصحة الـكتاب ، ومن أىّ صناعة هو، وكم فيه من أجزاء، وأىّ أنحاء التعاليم المستعملة فيه فنقول:

(أما الغرض) فى هذا التأليف فإنه جمع ما تفرّق من أخبار أرض مصر وأحوال سكانها كى يلتئم من مجموعها معرفة جمل أخبار إقليم مصر ، وهى التى إذا حصلت فى ذهن إنسان ، اقتدر على أن يخبر فى كل وقت بما كان فى أرض مصر من الآثار الباقية والبائدة ، ويقص أحوال من ابتدأها ومن حلها ، وكيف كانت مصائر أمورهم، وما يتصل بذلك على سبيل الاتباع لها بحسب ما تحصل به الفائدة الـكلية بذلك الأثر.

(وأما عنوان هذا الـكتاب) أعنى الذى وسمته به، فإنى لما فحصت عن أخبار مصر، وجدتها مختلطة متفرقة ، فلم يتهيأ لى إذ جمعتها أن أجعل وضعها مرتباً على السنين لعدم ضبط وقت كل حادثة ، لاسيما فى الأعصر الخالية ، ولا أن أضعها على أسماء الناس لعلل أخر تظهر عند تصفح هـذا التأليف ، فلهذا فرّقتها فى ذكر الخطط والآثار، فاحتوى كل فصل منها على ما يلائمه ويشاكله ؛ وصار بهذا الاعتبار قد جمع ما تفرّق وتبدّد من أخبار مصر . ولم أتحاش من تـكرار الخبر إذا احتجت إليه ، بطريقة يستحسنها الأريب ولا يستهجنها الفطن الأديب ، كى يستغنى مطالع كل فصل بما فيه عما فى غيره من الفصول ، فلذلك سميته « كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » .

(وأما منفعة هذا الكتاب) فإن الأمر فيها يتبين من الغرض فى وضعه ومن عنوانه ، أعنى أن منفعته هى أن يشرف المرء فى زمن قصير ، على ما كان فى أرض مصر من الحوادث والتغييرات فى الأزمنة المتطاولة والأعوام الكثيرة ، فتهذب بتدبر ذلك نفسه، وترتاض أخلاقه، فيحب الخير ويفعله ويكره الشر ويتجنبه ، ويعرف فناء الدنيا فيحظى بالإعراض عنها والإقبال على ما يبقى .

(وأما مرتبة هذا الكتاب) فإنه من جملة أحد قسمى العلم اللذين هما العقلى والنقلى ؛ فينبغى أن يتفرغ لمطالعته وتدبر مواعظه بعد إتقان ما تجب معرفته من العلوم النقلية والعقلية . فإنه يحصل بتدبره لمن أزال الله أكنّة قلبه وغشاوة بصره، نتيجة العلم بما صار إليه أبناء جنسه بعد التخوّل فى الأموال والجنود من الفناء والبيوت فإذا مرتبته بعد معرفة أقسام العلوم العقلية والنقلية ليعرف منه كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبل .

(وأما واضع هذا الكتاب ومرتّبه) فاسمه أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد ويعرف بالمقريزى رحمه الله تعالى ولد بالقاهرة المعزية من ديار مصر بعد سنة ستين وسبعمائة من سنى الهجرة المحمدية . ورتبته من العلوم ما يدل عليه هذا الكتاب وغيره مما جمعه وألّفه .

(وأما من أىّ علم هذا الكتاب) فإنه من علم الأخبار ، وبها عرفت شرائع الله تعالى التى شرعها ، وحفظت سنن أنبيائه ورسله ، ودوّن هداهم الذى يقتدى به من وفّقه الله تعالى إلى عبادته ، وهداه إلى طاعته وحفظه من مخالفته . وبها نقلت أخبار من مضى من الملوك والفراعنة ، وكيف حل بهم سخط الله تعالى لما أتوا ما نهوا عنه . وبها اقتدر الخليقة من أبناء البشر على معرفة ما دوّنوه من العلوم والصنائع، وتأتّى لهم علم ما غاب عنهم من الأقطار الشاسعة والأمصار النائية وغير ذلك مما لا ينكر فضله . ولكل أمّة من أمم العرب والعجم على تباين آرائهم واختلاف

عقائدهم أخبار عندهم معروفة مشهورة ذائعة بينهم . ولكل مصر من الأمصار المعمورة حوادث قد مرت به يعرفها علماء ذلك المصر فى كل عصر . ولو استقصيت ما صنّف علماء العرب والعجم فى ذلك، لتجاوز حدّ الكثرة وعجزت القدرة البشرية عن حصره .

(وأما أجزاء هذا الكتاب فإنها سبعة) ؛ أولها : يشتمل على جمل من أخبار أرض مصر وأحوال نيلها وخراجها وجبالها . وثانيها: يشتمل على كثير من مدنها وأجناس أهلها . وثالثها : يشتمل على أخبار فسطاط مصر ومن ملكها . ورابعها: يشتمل على أخبار القاهرة وخلائفها وما كان لهم من الآثار . وخامسها: يشتمل على ذكر ما أدركت عليه القاهرة وظواهرها من الأحوال . وسادسها: يشتمل على ذكر قلعة الجبل وملوكها . وسابعها : يشتمل على ذكر الأسباب التى نشأ عنها خراب إقليم مصر . وقد تضمن كل جزء من هذه الأجزاء السبعة عدّة أقسام .

(وأما أىّ أنحاء التعاليم التى قصدت فى هذا الكتاب) فإنى سلكت فيه ثلاثة أنحاء وهى: النقل من الكتب المصنّفة فى العلوم ، والرواية عمن أدركت من شيخة العلم وجلة الناس ، والمشاهدة لما عاينته ورأيته . فأما النقل من دواوين العلماء التى صنّفوها فى أنواع العلوم فإنى أعزو كل نقل إلى الكتاب الذى نقلته منه ، لأخلص من عهدته وأبرأ من جريرته ، فكثيراً ممن ضمنى وإياه العصر واشتمل علينا المصر ، صار لقلة إشرافه على العلوم وقصور باعه فى معرفة علوم التاريخ وجهل مقالات الناس يهجم بالإنكار على ما لا يعرفه . ولو أنصف لعلم أن العجز من قبله . وليس ما تضمنه هذا الكتاب من العلم الذى يقطع عليه ولا يحتاج فى الشريعة إليه . وحسب العالم أن يعلم ما قيل فى ذلك ويقف عليه . وأما الرواية عمن أدركت من الجلة والمشايخ فإنى فى الغالب والأكثر ، أصرّح باسم من حدّثنى ، إلا أن لا يحتاج إلى تعيينه أو أكون قد أنسيته ، وقل ما يتفق مثل ذلك . وأما ما شاهدته فإنى أرجو أن أكون ولله الحمد غير متهم ولا ظنين .

وقد قلت فى هذه الرءوس الثابتة ما فيه قنع وكفاية ، ولم يبق إلا أن أشرع فيما قصدت وعزمى أن أجعل الكلام فى كل خط من الأخطاط وفى كل أثر من الآثار على حدة ، ليكون العلم بما يشتمل عليه من الأخبار أجمع ، وأكثر فائدة وأسهل تناولا ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم وفوق كل ذى علم عليم .

المعجم الصغير فى مفردات اللغة المصرية القديمة

للدكتور أحمد بدوى والدكتور هرمن كيس

تطالعنا المطابع فى كل عام بعدة مؤلفات جدية فى الدراسات الايجبتولوجية بلغات مختلفة ، يضيف كل منها شيئا جديداً إلى ذلك العلم الناشىء الذى لايزيد عمره عن قرن ونصف قرن من الزمان .

يظهر بعض هذه المؤلفات هنا فى مصر ، ويظهر أكثرها فى الخارج ، وهى مجهودات تقابل بالشكر والاعتراف بالجميل من كل مهتم بالدراسات المصرية القديمة أو بالحضارات الشرقية بصفة عامة .

ومن بين هذه المؤلفات التى ظهرت فى مصر فى العام الماضى، كتاب له طابع خاص هو: المعجم الصغير فى مفردات اللغة المصرية القديمة ، وهو المؤلف الذى اضطلع به الزميلان الأستاذ الدكتور أحمد بدوى مدير جامعة عين شمس والأستاذ الدكتور هرمن كيس أستاذ الدراسات المصرية القديمة بجامعة جوتنجن بألمانيا سابقا .

ولست فى حاجة إلى التذكير بفائدة المعاجم فإنها أعمال لاأقول إنها نافعة أومفيدة فحسب ، بل هى فى حقيقة الأمر ضرورية وأساسية للتقدم فى دراسة أى لغة من اللغات ، وبعبارة أخرى ضرورية وأساسية لتفسير النصوص التى لا يمكن أن تتقدم بدون فهمها الصحيح دراسة التاريخ أو نواحى الحضارة المختلفة لأى أمة من الأمم ، حتى ولو كانت لغتها من اللغات الحية التى مازال الناس يتحدثون بها .

وليست فكرة عمل المعاجم فكرة جديدة ، أووليدة العصر الحديث ، فقد سبقتنا إليها الحضارات القديمة : عرفها المصريون القدماء فى الدولة الحديثة وقد عثر بين وثائق تل العمارنة التى يرجع تاريخها إلى القرنين الخامس عشر والرابع عشر ق . م، على جزء

من معجم لـكلمات مصرية وما يقابلها فى البابلية مع نطقها . كما نعرف أيضا أن مكتبات الملوك الأشوريين كانت تحتوى على معاجم لتفسير الـكلمات وبخاصة ما كان يستخدم منها فى العصور السابقة .

أما فى اللغات الأوربية الحديثة فقد بدأت المعاجم فى القرن الخامس عشر أو قبل ذلك بقليل وأخذت تتطور على ممر العصور إذ ظهرت منذ البداية تلك المشكلة التى مازلنا نعانيها حتى اليوم وهى هل يقتصر المعجم على الـكلمات فقط أو يتناول الموضوعات أيضا ، والتى أمـكن حلها جزئيا بالتفريق بين النوعين وأصبح معجم الموضوعات يسمى موسوعة أو دائرة معارف له أسسه وأساليبه الخاصة به .

وقبل أن أنتقل إلى نقطة أخرى أرى لزاما على أن أنوه بجهود اللغويين العرب فى هذه الناحية من الدراسات. ويكفى أن يذكر الإنسان لسان العرب تلك الذخيرة الباقية على مر العصور ليدرك أن العرب لم يقصروا فى هذا المضمار. بل إننا إذا قارننا أعمالهم بأعمال معاصريهم فى هذه الناحية لزاد تقديرنا لهم . ولنترك الآن موضوع المعاجم وتاريخها ونقصر حديثنا على هذا المعجم الجديد. ولـكن تقديمنا له لا تـكتمل فائدته إلا إذا استعرضنا ماسبقه من جهود فى معاجم اللغة المصرية القديمة فى اللغات الأوربية .

منذ نشأت الدراسات المصرية القديمة أى منذ أيام شمبليون نفسه ظهرت الحاجة الشديدة إلى معاجم اللغة ، بل قد أتم هو نفسه قبـل موته فى عام ١٨٣٢ عمـل أجرومية طبعت عام ١٨٣٦ ومعجما طبع فى عام ١٨٤٤ . كما حاول العالم الإنجليزى برش Birch محاولة مماثلة سنة ١٨٧٦ عندما نشر معجمه عن اللغة الهيروغليفية Dictionary of Hieroglyphics .

ولـكن الدراسات المصرية كانت تتقدم تقدما سريعا وأصبحت الحاجة ماسة إلى معجم أكبر اضطلع به العالم الألمانى الـكبير هنرى بروكش Heinrich Brugsch فى أربعة أجزاء كبيرة صدرت فى عام ١٨٦٧ ــ ١٨٦٨ ثم نشر ملحقا له فى ثلاثة أجزاء آخرين بين ١٨٨٠ــ١٨٨٢ وما زالت لهـذا المعجم واسمه Hieroglyphich, Demotisches Wörterbuch قيمته حتى اليوم، لأنه عنى كما هو واضح من عنوانه

بالديموطيقية ومفرداتها مع مقارنتها بأصولها فى الكلمات المصرية وهو مجهود يعتبر من أعظم المجهودات التى اضطلع بها ذلك العالم النابغة ذو الإنتاج الخصيب .

وأراد العالم الإنجليزى ولس بدج Wallis Budge أن يقدم لغير الملمين بالألمانية خدمة ، فقام بوضع معجم آخر اعتمد فيه على بروكش كما قام أيضاً بعمل معجم صغير لكتاب الموتى .

وأذكر مع الاعتزاز بالفخر بأنه بالرغم من أن مصر لم تكن قد بدأت تعنى بآثارها العناية اللازمة فى مستهل هذا القرن فقد ظهر من بين أبنائها رجل نابغة بحق هو المرحوم أحمد كمال الذى عكف على الدراسات المصرية القديمة فاستفاد وأفاد ، وخلف لنا ثروة من الكتب باللغة العربية نجد فيها خلاصة ما وصل إليه علماء الغرب من أبحاث حتى ذلك الوقت . لقد عكف المرحوم أحمد كمال على وضع قاموس على غرار قاموس بروكش أثبت فيه معانى المفردات المصرية باللغة العربية وعنى عناية خاصة بالمقارنة بينها وبين اللغة العربية بل والتقريب أيضا . ورغم علمنا بأنه أكمل جمع المادة العلمية وأعد أكثر من جزء واحد من معجمه فقد وافته المنية فى عام ١٩٢٣ قبل أن يقدمه للمطبعة . رحم الله هـذا العالم النابغة . وأرجو بل وألح فى نشر ما تركه من تراث علمى ولعل أبناءه يعملون على تحقيق هذا الرجاء وخصوصاً ما حققه من مقارنات بين اللغة المصرية القديمة واللغة العربية واللغات السامية الأخرى .

وتقدمت دراسة اللغـة المصرية القديمة وخطت خطوات كبيرة فى القرن الحالى وظهرت نصوص هامة سواء على جدران المقابر والمعابد ، أو على اللوحات والتماثيل وأوراق البردى وغيرها ، كما ظهرت أيضاً تعديلات كثيرة فى معانى بعض الكلمات خصوصاً وأن قاموس بروكش كان يعتمد قبل كل شىء على النصوص المتأخرة ، ولكن تقدم هذه الدراسات المصرية جعل المشتغلين بها يتطلعون إلى معجم أكبر ، يجدون فيه الكلمات الهيروغليفية لا فى صورها فى العصور المتأخرة فقط ولكن فى أيام الدولة القديمة وفى الدولة الوسطى والدولة الحديثة أيضا ، بل وكانوا

يتطلعون إلى ما هو أكثر من ذلك فاللغة المصرية قد تطورت دون شك منذ نشأتها وعاشت بعض الكلمات خلال آلاف السنين واختفى البعض الآخر ، وظهرت كلمات جديدة ، وأصبحت هذه اللغة فى عصرى البطالمة والرومان ، لا فى كتابة مفرداتها فحسب ، بل وفى معانيها وفى أجروميتها شيئا يبعد بعدا غير قليل عن الأصل القديم ، وإن ظلت الحروف الهيروغليفيه مستخدمة بعد أن دخلها الكثير من التحوير .

وظلت مصر على وفائها للغتها القديمة فى العصر المسيحى بعد أن تطورت التطور الطبيعى الذى تقتضية سنة الزمن ومرور آلاف السنين ، ولكن وفاء أقباط مصر اقتصر على اللغة دون الكتابة فاقتبسوا للغتهم الحروف اليونانية ، وأدخلوا عليها من الكتابة الديموطيقية المتأخرة سبعة حروف لأن أصواتها التى تؤديها لم تكن فى الأبجدية اليونانية . كان المشتغلون بالدراسات المصرية ينظرون إلى هذا التراث كله ويتطلعون إلى معجم كبير يشفى غلتهم ويجدون فيه ما ينشدون ولكن هل كان فى مقدور فرد واحد أن يقوم بمثل هذا العمل مهما أوتى من نبوغ وطيلة عمر :

لقد فكر علماء الدراسات المصرية كثيرا وأدركوا منذ البداية ما أمامهم من صعاب ، وأخيرا أتاهم الحل الموفق السعيد عندما قام المجمع العلمى البروسى فى عام ١٨٩٧ بتذليل هذه الصعاب وكون نخبة من خيرة علمائه وعلى رأسهم العلامة أرمان لوضع هذا المعجم وتكفل هو ومجمع برلين العلمى بجميع النفقات ، وكانت نفقات باهظة لأن الأمر لم يكن أمر المرتبات لبعض الموظفين أو ثمن الورق والأقلام ، وإنما كان شيئا أكثر من ذلك لقد كانت أكثر النصوص المصرية التى سبق نشرها فى مؤلفات مطبوعة ينقصها الكثير من الدقة ، كما أن الغالبية العظمى من النصوص المصرية لم يكن قد سبق نشرها ، ولهذا قررت لجنة المعجم منذ البداية ضرورة نقل جميع النقوش المصرية من أصولها ، سواء ما كان منها فى معابد مصر ومقابرها ، أو فى متحف القاهرة أو متاحف العالم المختلفة ، وما كان منها على الحجر أو فى ملفات البردى أوعلى أى نوع من الآثار التى خلفها المصريون القدماء فى أى عصر من العصور.

خرج العلماء الألمان إلى مصر وغيرها من البلاد التي نقلت إليها الآثار المصرية يجمعون هذه النقوش ويحققونها وساعدهم على ذلك علماء الدراسات المصرية فى جميع بقاع العالم وأمدوهم بما لديهم ، بل إن بعض أولئك العلماء من غير الألمان عكفوا السنين الطوال على حل رموز البرديات المكتوبة باللغة الهيراطيقية وقدموا ثمرة علمهم إلى لجنة المعجم. واستمر ذلك حتى قيام الحرب العالمية الأولى ، وحتى فى تلك الأيام ، أيام الحرب ، استمر العمل فى المعجم فلما انتهت الحرب بما أصاب الألمان من نكبة وإفلاس ، مرت على المعجم أيام حالكة دقيقة وأصبح المشروع كله مهددا. ولكن إرمن وتلاميذه وعلى رأسهم زيته Sete وجراپوا Hermann Grapow ظلوا على تصميمهم ووفائهم ، وتقدم لمساعدتهم أدبيا وماديا كثير من الهيئات المهتمة بالدراسات المصرية القديمة ، بل وبعض الأفراد ، حتى قارب العمل أن ينتهى ولكن تكاليف طبع المعجم الكبير ظلت عقبة كئودا بعض الوقت .

كان طلاب الدراسات المصرية فى جميع أرجاء العالم فى حاجة ماسة إلى معجم جديد ليحل محل معجم بروكش وهنا نشأت فكرة إصدار معجم صغير مؤقت ساعد على تحقيقها ماقدمته سيدتان من هبات مالية فصدر فى عام ١٩٢١ تحت عنوان Aegyptisches handwärterbuch باسم أدولف إرمن وهرمن جراپو فسد ذلك الفراغ الشاغر .

وأخيرا ، وبعد مجهود شاق طويل بدأ المعجم الكبير يأخذ صورته الأخيرة فصدر الجزء الأول منه فى عام ١٩٢٦ ، وصدر آخر أجزائه وهو الجزء الخامس فى عام ١٩٣١ كما ظهرت أيضا أجزاء عدة من ملحق لهذا المعجم يحدد النصوص التى وردت فيها المفردات . وأخيرا فى عام ١٩٥٠ فقط ظهر جزء سادس منه لأن الأجزاء الخمسة الأساسية مرتبة حسب الأبجدية المصرية القديمة فصدر ذلك الجزء الجديد على حسب الأبجدية الألمانية ، وإلى جانب كل كلمة معناها بالمصرية القديمة ومكانها فى الأجزاء الخمسة .

بلغ عدد جزازات قاموس برلين أكثر من مليون ونصف ، ولم تقتصر الجزازة على الكلمة بل كانت تشتمل الجملة التى وردت فيها والمرجع الذى نقلت منه ولهذا كانت قاعات ذلك المعجم منذ البداية جنة كل باحث فى اللغة المصرية . وقد زاد عدد تلك الجزازات بعد عام ١٩٢٦ وما زالت تزيد كل يوم ، فكلما عثر على نص جديد أضيفت كلماته إلى المعجم حتى كاد يصل الآن إلى مليونين يشرف عليه ذلك العالم الجليل هرمن جرابو الذى أفنى حياته العلمية كلها فى استكماله .

وإنى إذ أتحدث الآن أتصور أمامى قاعات ذلك المعجم عند ما كنا نطلب العلم هناك وأتذكر أمامى تلك الصناديق التى تغطى الجدران والتى تحتوى على الجزازات ننظر إليها نظرة تقرب من التقديس ، وأتذكر زميلى الدكتور أحمد بدوى عندما كنا سويا فى عام ١٩٣١ نتحدث عن ذلك المعجم ونتمنى بكل ما فى الشباب من أمل بسام أن يكون لنا فى مصر شىء منه ، وبالرغم مما ذكره الدكتور بدوى فى مقدمته التى سماها قصة المعجم بأن فكرة وضعه بدأت فى عام ١٩٥٢ فإنى أؤكد له ولكم أن مثل هذه الأمنية داعبت خياله وأحلامه قبل ذلك بعهد طويل ، ولكنه لم يتخذ خطوات جدية لتنفيذها إلا فى عام ١٩٥٢ . ولم تنته مهمة معجم برلين الكبير بإصداره بل استمرت حتى فى أيام الحرب العالمية الثانية وظل جرابو راعيا له أمينا على محرابه حتى قضى الموقف الحربى بنقله من برلين إلى أحد الأماكن النائية فى شرق ألمانيا . وأراد بعض ذوى الشأن بعد الحرب نقله إلى موسكو ولكن مساعى جرابو وعودة أهل السياسة إلى شىء من التعقل أبقت المعجم فى برلين الشرقية وبنيت له قاعات غير بعيدة من مكانه القديم الذى هدمته القنابل . ولست أنسى زيارتى لهذه القاعات فى عام ١٩٥١ إذ وجدت هناك أستاذى القديم الذى وقف حياته لخدمة المعجم وأصبح ، بعد أن فقد كل شىء ، يعتبر هذا المعجم أهله وولده . رأيت الشيخ الجليل يقف مرة أخرى بين أبنائه من مساعديه الجدد عاكفين على إضافة جزازات جديدة. فقد نجا المعجم كله من ويلات الحرب ولم يفقد منه أثناء نقله عدة مرات إلا صندوق

واحد ـ كما أخبرنى جرابو ـ سرعان ماعوّضوا جزازاته . وسيظل هذا المعجم فى مكانه الجديد فى بناء المجمع العلمى ، كما كان دائماً ، نوراً يشع منه العلم ومنهلا عذباً صافياً لكل من ورده .

لقد سدّ معجم برلين سواء الصغير أو الكبير حاجة كبيرة ولكن مع الأسف كانت فائدته لغير الملمين باللغة الألمانية فائدة محدودة ، وكيف يتمكن أبناؤنا من الاستفادة منه ، بل وكيف يتقدمون فى دراساتهم بدون وجود معجم يستخدمونه .

لقد دعا الدكتور بدوى عند ما كان أستاذاً للدراسات القديمة فى جامعة عين شمس أستاذه وصديقه الدكتور هرمن كيس ليكون أستاذاً فى تلك الجامعة الناشئة وقد كان ذلك كسباً لنا جميعاً . فالأستاذ كيس من أعظم علماء العالم المعاصرين؛ لا يمتاز بسعة العلم وغزارة المادة فحسب ، بل يمتاز أيضا بفهمه العميق للروح المصرية القديمة ، ويمتاز بما هو أكثر من ذلك . يمتاز بروحه العلمية الصافية التى لا تضن بمساعدتها لكل من أراد . فكلنا يعرف فضل هرمن كيس ويعرف أيضاً أنه ما قصر أو بخل على أحد من تلاميذه أو غير تلاميذه بنصحه وعونه العلمى ، ولو استغرق منه ذلك أياما وأسابيع ، وعطل بحوثه الخاصة . والآن أترك لقلم زميلى الدكتور بدوى يحدثنا عن بداية القصة فى تنفيذ هذا المعجم :

فهو يقول: « لم يكد العالم الجليل يتلقى دعوة الجامعة حتى أسرع ملبيا فشارك فى رعاية الطلاب وأسهم فى ذلك بجهود مشكورة . على أننا لم نلبث غير قليل حتى بان لنا أن حياة طلابنا العلمية لا يمكن أن تستقيم دون أن يتاح لهم استخدام معجم اللغة المصرية فى سهولة ويسر . ولكن كيف السبيل إلى ذلك والمعجم كبير ضخم أخرجه المجمع العلمى البروسى وبذل فى سبيل إخراجه من الفكر والجهد المتصل ومن السهر والعرق والورق ثم من الوقت والمال ما شغل الدنيا ـ ولم يزل ـ أكثر من نصف قرن ، أخرجه وشرح مفرداته باللغة الألمانية التى لم تتح لطلابنا المصريين رغم ما يبذل معهم من جهود فى سبيل تعلمها ، ولن تتاح لهم مهما تضاعفت تلك الجهود فى وقت قصير .

ترانا نعمد إلى هذا المعجم الضخم فنترجمه إلى اللغة العربية لنتيح لطلابنا المصريين استخدامه والانتفاع به؟ ذلك أمر لن يمكن تحقيقه فى سهولة ، ولو أمكن إذا لبذلنا فى سبيل ذلك من الجهد والمال والورق والعرق ما يكلفنا من أمرنا شططا ويرهقنا من أمرنا عسرا. ولن يكون لنا بعد ذلك من الفضل غير نصيب من ترجم منتفعا بجهود غيره فوق ما ينفق من مال قد يكون من الخير أن ينفق فى غير هذا العمل . بل لن يتاح لطلابنا أن ينتفعوا بهذا الجهد دون أن يكون بعضهم قد شاخ أو أن يكونوا كلهم قد ودعوا حياة العلم والثقافة إلى أخرى قد لا يحتاجون فيها إلى ثقافة هذه الدنيا .

لقد يكون أسهل من ذلك وأهون ــ إن نحن فكرنا فى الترجمة ــ أن نعمد إلى ذلك المعجم الصغير الذى أخرجه العالم الألمانى « آدولف أرمن » ليعين به المبتدئين من طلابه إلى أن يخرج إليهم المعجم الكبير .

ذلك أمر يسير ، كان من الممكن إنجازه فى شهرين على أكثر تقدير . إلا أن مجرد التفكير فيه يعرضنا حتما إلى سخرية لاقبل لنا بتحمل نتائجها ، ذلك لأن المعجم المشار إليه قد ألجأت إلى إخراجه يومئذ ضرورة ملحة . فلما ظهر المعجم الكبير كان المعجم الصغير قد استنفد أغراضه ، وكان حتما عليه أن يزول بزوال تلك الضرورة .

فلنفكر إذاً فى إخراج معجم مصرى عربى صغير يكون فيه شىء من الابتكار يتيح لطلابنا المصريين أن ينتفعوا به فى سهولة ، وأن يستعينوا به فى الدراسة والتحصيل .

وحرصاً على أن تكون استفادة الدارسين من أبناء الشرق العربى كاملة ، لم نكتف فى إخراج هذا المعجم بترجمة معانى مفرداته إلى اللغة العربية وحسب ، بل أضفنا إلى ذلك الترجمة الألمانية أيضا ، ولم يفتنا كذلك ، أن نثبت من مفردات اللغة القبطية كل ما يرجع إلى ما فى هذا المعجم من أصول مصرية قديمة» ويسترسل الدكتور « بدوى » فى ذكر ما لقيه هو وزميله من تشجيع حينا وما لاقاه هو من صعاب فى أكثر الأحيان إلى أن يصل إلى قوله :

«فإذا جاز أن يكون هناك مايميز هذا المعجم الذى نخرجه اليوم، فإنا لا نريد إبرازه وإنما نترك أمر ذلك إلى من يقرأ أو يطلع وينتفع ثم إلى من يقدر ويحكم» .

ولنلق الآن نظرة على هذا المعجم الصغير الجديد Hand worterbuch. يقع المعجم فى ثلاثمائة صفحة من القطع الكبير سلك فيه واضعاه من ناحية التبويب والترتيب منهاج معجم برلين سواء الكبير أو الصغير معتمدين على لغة الدولة الوسطى ، وهى ما يرى أكثر علماء الدراسات المصرية أنها تمثل خير عصور اللغة المصرية القديمة ويمكننا أن نطلق عليها اسم اللغة الفصحى . ولكنهما لم يقتصرا على ما لدينا من تراث من الدولة الوسطى بل أضافا أيضا الشىء الكثير من مفردات الدولة القديمة والدولة الحديثة كما أثبتا أيضا كثيرا من المفردات القبطية المطابقة لأصولها المصرية القديمة بنفس القدر الوارد فى المعجم الكبير على وجه التقريب، كما ذكرا فى المقدمة .

وكل صفحة من صفحات المعجم مقسمة إلى أعمدة أربع ، نجد فى أقصاها على اليسار نطق الكلمة المصرية بحروف لاتينية وفى العمود الثانى كتابتها هى ومشتقاتها باللغة المصرية القديمة ، وفى العمود الثالث وهو أكثرها اتساعا معنى الكلمة باللغتين الألمانية والعربية والقبطية فى بعض الحالات . أما رابع الأعمدة فهو مخصص أيضا للكتابة المصرية للكلمة نفسها كما وردت فى الدولة القديمة أو فى الدولة الحديثة .

ولنأخذ مثلين أو ثلاثة :

(١) من حرف الميم :

كلمة « حمس » (ص ١٥٩) نجدها فى العمود الأول من اليسار مكتوبة بدون حروف العلة أى الحروف الساكنة فقط hmsj حرف ḥ تحته نقطة للدلالة على نطقه كحاء ، ثم حرف m يليه حرفا s ثم j وفى العمود الثانى كتابتها بالهيروغليفية كما وردت فى نصوص الدولة الوسطى ، وفى العمود الثالث معناها باللغتين الألمانية والعربية : هكذا (رباعى معتل الآخر) جلس ، قعد (IV inf.) setzen, sich setzen ثم بالقبطية إلى جوارها ؛ وفى العمود الأخير كتابتها كما وردت فى الدولة القديمة .

(٢) من حرف الباء :

كلة بتك (ص ٧٨) فى العمود الأول btk وفى العمود الثانى كتابتها بالهيروغليفية ومخصصها السكين مكتوب وراءها . وفى العمود الثالث معناها بالألمانية schlachten وبالعربية كلتان بَتَك ، ذبح (العدو) — وأعترف أن كلة بتك العربية التى تقابل بتك المصرية كانت جديدة علىّ فبحثت عنها فى أحد المعاجم العربية الصغيرة فوجدتها — البَتْك : القطع ، وبابه ضرب ونصر . وبتك آذان الأنعام : قطعها ، شُدّد للكثرة .

وأردت التحقق من وجود هذه الكلمة المصرية فى معجم برلين الصغير فلم أجدها ولكنى وجدتها فى المعجم الكبير فقط .

(٣) وها هو مثل ثالث من حرف القاف :

كلة « قرر » (ص ٢٥٧) — فى العمود الأول نطقها krr وفى العمود الثانى الكلمة المصرية ومعها مخصصها رسم ضفدعة وفى العمود الثالث معناها باللغة الألمانية وهو frosch ثم كتابتان لها فى القبطية وإلى جانبها معناها باللغة العربية وهى ضفدع . ولكن الدكتور بدوى لم يقتصر على ذلك بل وضع أيضا إلى جانب الضفدع اسما عربيا غير مألوف لنا الآن وهو قُرَّه ، قَرَّه ، قِرَّة بالضم والفتح والكسر . وقد بحثت عن هذه الكلمة فى المعاجم العربية الصغيرة فلم أجدها ولكنه عثر عليها دون شك فى المعاجم الكبرى ، وفى إيرادها فائدة للمشتغلين بالمقارنات اللغوية لأن هــذا الاسم للضفدع معروف أيضا فى البابلية « پكرورو pakruru » والتى يحتمل أن تكون مأخوذة من الكلمة المصرية بعد دخول أداة التعريف « پا » قرر « أى الضفدع » .

وعلى ذكر هذه الكلمة أذكر أننى سمعت اسم الضفدع فى لهجة أهل الواحات البحرية يقولون عنها « بجرورة » وأغلب الظن أنها من الكلمات الباقية من اللغة المصرية فى اللهجات ، وليست من العربية .

يكفينا هــذا القدر من الأمثلة لإيضاح أهمية هذا المعجم وأنه لم يلتزم بما جاء

فى المعجم الصغير لبرلين بل أضاف عليه الشىء الكثير كما يظهر فيه مجهود الدكتور بدوى بصفة خاصة فهو المسئول عن وضع المعانى العربية إذ عنى عناية خاصة بالبحث عن معانيها فى العربية سواء ما يستخدم منه اليوم أو ما كان يستخدم فى العربية فى أزمنة ماضية إذا كانت هناك مشابهات لفظية ليستفيد من ذلك المعنيون بالدراسات المقارنة بين اللغات .

لقد سار هذا المعجم على منوال معجم برلين سواء فى ترتيب حروف الأبجدية أو فى طريقة عرض المفردات والسبب بسيط فهى الطريقة المثلى فى مثل هذا النوع من المعاجم .

ويحق لنا أن نتساءل عن مدى اختلاف هذا المعجم الجديد عن معجم برلين الصغير وهل تناولته يدا المؤلفين بالتحوير أو التجديد أم هى ترجمة له .

وخير ما يمكن للإنسان أن يفعله فى مثل هذه الحالة أن يقارن بين الإثنين . لقد وضعت أمامى المعاجم الثلاثة ، معجم برلين الكبير ومعجم برلين الصغير والمعجم الصغير فى مفردات اللغة المصرية القديمة وفتحتها عند بداية حرف الميم وفحصت المفردات التى وردت فى كل منها وتبدأ بميم تليها ألف ممدودة ، مما فكانت النتيجة ما يأتى :

عدد المفردات التى ذكرت فى معجم برلين الكبير ١٣٨ وفى معجم برلين الصغير ٢٧ وفى هذا المعجم المنشور فى القاهرة ٣٠ . ولنترك المعجم الكبير جانبا .

ولننظر فى المعجمين الصغيرين فإن الرقمين ٢٧، ٣٠ يدعوان إلى ذلك .

ولكن المقارنة بين هذين المعجمين قد أوضحت لى أن هناك بعض كلمات قد اختصرت من معجم برلين ، وأخرى جديدة قد أضيفت ، كما نرى فى كثير من المفردات اختلافا فى طريقة الكتابة وفى المخصص بل هناك ما هو أهم وأعمق من هذا كله فإن بعض معانى الكلمات فيها تغيير أيضا ، وهو تغيير أصح لأنه قد اعتمد على أبحاث أحدث إذ يجب ألا ننسى أن ما يقرب من سبعة وثلاثين عاما تفصل بين المعجمين .

لقد نفدت جميع نسخ معجم برلين الصغير منذ سنوات كثيرة وأصبح الطلبة وغير المتخصصين فى حاجة شديدة إلى مايحل محله ، وقد ظهر هذا المعجم الجديد ولله الحمد فى الوقت المناسب وفيه معانى المفردات باللغة الألمانية ليحل هـذه المشكلة ولن تقتصر فائدة المعجم على أبناء الأمة العربية وحدهم بل سيستفيد منه إلى أبعد الحدود من يعمل فى حقل الاستشراق فهو دون شك فتح جديد فى دراساتهم . وسيتمنى الكثير منهم لوأن مؤلفى هذا المعجم قد زادا من عدد المفردات ، ونحن نتمنى معهم أن نرى ذلك فى الطبعة القادمة .

وهناك نقطة أخرى ، وهى صحة جميع المعانى التى وردت فى هذا المعجم وهل هى نهائية أم أن بعضها يحتاج إلى شيء من التعديل ؟ والجواب على ذلك أن الدراسات المصرية القديمة علم ناشيء كما قلت قبل الآن ، ولا يمكن أن يدعى المؤلفان غير ذلك فإن معجم برلين الكبير نفسه لم يحتو على كل المفردات ومن آونة لأخرى تظهر أبحاث جديدة تحدد معانى الكلمات التى لم يكن الألمان قد توصلوا إليها عند نشر ذلك المعجم أوظهرت وثائق جديدة أثبتت أن المعانى القديمة يجب تعديلها .

ومامن شك فى أنه توجد فى هذا المعجم بعض المآخذ ولكنها مآخذ يسيرة إذا قورنت بفائدته الكبيرة، والعصمة لله وحده.

إن المعاجم تحتاج دائما إلى التعديل سواء بتصحيح ماورد فيها من معان أوإضافة معان أومفردات جديدة وخصوصا فى مثل الدراسات المصرية الناشئة ، وقد أدرك هذه الحقيقة كل المشتغلين بالدراسات المصرية وأولهم الألمان ونرجو أن يطول بنا العمر حتى نرى طبعة جديدة منقحة ومزادة من معجم برلين الكبير .

كانت هذه الرغبة واضحة جلية فى مؤتمر المستشرقين فى عام ١٩٤٨ بباريس عندما قرأ ألن جاردنر بحثا عن الصفحتين الأولى والثانية من الجزء الأول من ذلك المعجم تناول فيه ماورد من معنى لثلاث كلمات وإضافة أشكال جديدة لبعض المفردات وقد أصاب جاردنر فى تصويبه لإثنين منها وانبرى له آخرون يذكرون تصويبات أخرى

لم يفطن إليها ، وعندما نشر جاردنر بحثه الذى ألقاه فى ذلك المؤتمر فى مجلة الآثار المصرية بانجلترا فى عدد ديسمبر سنة ١٩٤٩ أشار إلى ذلك كما أضاف إشارات أخرى إلى نصوص لم ترد فى ذلك المعجم ، وما أحكم النتيجة التى وصل إليها بعد ذلك البحث .

فقد قال : « أن ماورد فى هذه الحاشية التى أضفتها يبين بوضوح الغرض الأساسى الذى كنت أهدف إليه وهو القول بأننا لم نصل إلى النهاية ، بل إننا قريبون جدا من نقطة البـــداية فى موضوع البحوث الجدية للمعاجم المصرية » .

ومامن شك فى أن جاردنر محق فى تعليقه فلربما مضت بضع عشرات من السنين قبل أن نصل إلى المستوى الذى ننشده ونتمناه ، ولـكن ذلك لايعنى وقوفنا مكتوفى الأيدى بل يعنى الاستمرار فى البحث العلمى المنظم وإضافة الجديد إلى مالدينا من ثروة ، والتعاون العلمى الصحيح بين جميع هيئات المشتغلين بالأبحاث المصرية .

وإنى إذ أكرر التهنئة للدكتور بدوى وزميله الدكتور كيس على توفيقهما فى هذا المعجم الذى سد دون شك فراغا كنا نحس به ، وسيساعد الـكثيرين من المشتغلين بالدراسات اللغوية السامية والمقارنة بينها على السير فى أبحاثهم ، إذا أرادوا عقد مقارنات بين المصرية القديمة واللغة العربية كإحدى اللغات السامية .

وإنى إذ أزجى التحية والتقدير أشفعهما بأمنيتين ، ولا أقول شرطين ، أولاهما أن يكون هذا المعجم الصغير نواة لمعجم كبير ، أما الأمنية الثانية فهى موجهة إلى الدكتور بدوى وحـــده .

لقد استمعت إليه فى حفل استقباله فى مجمع اللغة العربية منذ ثلاثة أسابيع بمناسبة اختياره عضوا فيه . وكم أعجبنى وسرنى منه إشارته إلى أنه كثيرا ما كادت بعض الدراسات الأخرى أن تنجح فى اجتذابه إليها فيترك الدراسات المصرية ولـكن فرعون كان أقوى بأسا وأشد ساعدا فاستطاع الاحتفاظ به .

لقد أصبح الدكتور بدوى الآن مديرا لجامعة عين شمس وهو يؤدى دون شك فى هذه الوظيفة خدمات كبيرة لأمته ولـكنى لست أدرى هل هو أسعد حالا فى تلك الدوامة

الـكبيرة من الأعمال أم كان أسعد حالا وأطيب نفسا عندما كان يقوم بالتدريس . على أى حال فهو ولله الحمد مازال متصلا عن قرب بالدراسات المصرية كمشرف على مركز تسجيل الآثار ولهذا أتقدم إليه بهذا الرجاء .

لقد اجتازت الدراسات المصرية القديمة ، ومازالت تجتاز حتى الآن محنة أثق أنها لن تطول، فهل نطمع منه فى أن يولى الدراسات المعجمية المصرية شيئا من عنايته فيجعل لها مكانا فى المركز.

لدينا نواة وهى جزازات قاموس المرحوم أحمد كمال ولدينا نواة أخرى وهى نسخة من معجم برلين عن مفردات الدولة القديمة فهل نطمع منــه فى العناية لنشر الأولى وإكمال الثانية ونشر معجم مصرى لمفردات الدولة القديمة أو على الأقل إكمالها ليتيسر الانتفاع منها لأبناء الأمة العربية وغيرهم من الباحثين الأجانب الذين يأتون إلى وادى النيل كل عام .

إننى أدرك أيها الزملاء ما تنطوى عليــه أمنياتى من جهود وسهر وعرق وورق كما يقول الدكتور بدوى وهى تحتاج أيضا إلى ورق غير قليــل فالمال ضرورى لبدء أى عمل والسير فيه ولـكن عهدنا به أنه يرحب بالمصاعب ويحب الأعمال النافعة الـكبيرة فعسى أن يستجيب لهذا الرجاء .

أحمد فخرى

الزى لشتنشتآتر : الإسلام والعصر الحديث

مع مقدمة بقلم سير محمد ظفر الله خان

Ilse Lichtenstadter : Islam and modern age

مؤلفةهذا الكتاب يهودية الديانة، ألمانية الأصل ، ثم رحلت إلى الولايات المتحدة الأمريكية وتجنست بالجنسية الأمريكية .

وقد درست الثقافتين العربية والإسلامية فى جامعات ألمانيا وانجلترا وحصلت على إجازتى دكتوراه ، إحداها من جامعة فرانكفورت ، والثانية من جامعة أوكسفورد ، وهى الآن عضو فى المدرسة العليا للآداب والعلوم بجامعة نيويورك ، وكانت قبل ذلك أستاذة للأدب العربى والثقافة الإسلامية فى المعهد الآسيوى بنفس المدينة. وللمؤلفة ـ غير هذا الكتاب ـ مقالات وأبحاث أخرى نشرت فى كثير من المجلات العلمية فى ألمانيا وأمريكا والباكستان ومعظمها تدور حول النواحى الاجتماعية فى الإسلام مثل مكانة المرأة أو نظام الأسرة ، وفيما يلى بيان بأهم هـذه المقالات :

Lichtensladter (Ilse)

An Arab - Egyptian Family ; (The midelle East Jaurnal, vol. VI. Washington, 1952)

The Muslin Woman ; (Sociologus, vol. VII, Berlin 1957)

From Particularism to Unity : Race, nationality and minorities in the Early Islamic Emptre. ; (Islrmic Culture, Hyderabad, 1949).

ولم تقنع الدكتورة «الزى» بما حصّلت من معلومات عن هاتين الثقافتين : العربية والإسلامية جمعتها من الكتب التي قرأت ، أو من المحاضرات التي استمعت إليها ، بل أرادت أن تتصل بالعرب وبالمسلمين اتصالا شخصيا، وأن ترى بلادهم ، وأن تحيا بينهم وتعيش معيشتهم وأن تدرس عن كثب عاداتهم وتقاليدهم وأخلاقهم ، وأن تلمس بنفسها مشاكلهم وتستمع إلى أفكارهم وآرائهم ، ولهذا سافرت إلى مصر ثلاث مرات فى السنوات : ١٩٤٧ و ١٩٥٠ و ١٩٥٥ ، وأقامت بها مددا طويلة ، وزارت معظم البلاد العربية المجاورة لمصر كما زارت باكستان ـ باعتبارها دولة إسلامية ـ فى سنة ١٩٥٥ ، وأقامت بها شهورا ، ثم أقامت فى مدينة دلهى ثلاثة أسابيع اتصلت خلالها بالجالية الإسلامية المقيمة فى عاصمة الهند .

وقد عقدت المؤلفة أواصر الصداقة أثناء هذه الزيارات مع عدد كبير من مسلمى الشرقين الأدنى والأوسط ـ رجالا ونساء ـ وكانت تجربة طيبة مكنتها من جمع كثير من الملاحظات والمعلومات وقد لقيت من أصدقائها المسلمين كل ترحيب ، وكانوا ـ كما تقول فى مقدمة كتابها ـ يشعرونها دائما ـ مع أنها يهودية أنها فى بيتها ، وذلك على الرغم من اختلاف أنماط حياتهم وقواعد دينهم . وقد تحدث إليها كثيرون من هؤلاء الأصدقاء فى مصر وباكستان عن كفاحهم وعن إيمانهم ، كما كانوا فى معظم الأحوال يصارحونها بنقدهم للأساليب الأوربية ، وقصور الغرب وعجزه عن فهم أساليبهم .

***

والكتاب كما تقول المؤلفة فى مقدمتها فيه محاولة لتحليل المشاكل التى تعترض العالم الإسلامى المعاصر من حيث علاقتها بأسسها القديمة مع فحص الأسباب التى أدت إلى ظهور هذه المشاكل .

ومن الواجب في رأيها إبراز هذه الأسس الكامنة في الإسلام والتي ظلت قوية ثابتة على مر العصور ، كما كانت مستقلة عن الأحوال الخارجية أو العصور المتغيرة ، فإن الكشف عن هـذه الأسس يمدنا بالدوافع الداخلية الثابتة للحياة والفكر الإسلاميين .

والعالم الإسلامى خرج أخيرا من عزلته الطويلة وبدأ يشارك من جديد فى الشؤون العالمية ، وكثير من مراحل صراعه ترجع أسبابها إلى عودة الاتصال بينه وبين الغرب ، وإنه لما يعنى الشرق والغرب معا إيجاد حل لهذه المشاكل ، ولذلك كان الهدف الثانى لهذا الكتاب — كما تقول المؤلفة — هو تحليل المشاكل التى نشأت عن تقابل العقليتين الشرقية والغربية .

والقسم الأول من هـذا الكتاب الذى يتناول مبادئ الإسلام وأسسه يعتمد اعتمادا كبيرا على المراجع والمصادر الإسلامية القديمة ، فى حين أن القسم الثانى الذى يعنى بتحليل مشاكل العالم الإسلامى المعاصر يعتمد فى معظمه على الملاحظات الشخصية للمؤلفة .

وقد ركزت المؤلفة جهودها للعناية بدراسة النواحى الدينية والثقافيـة والأدبية والتاريخية للعرب وللعالم الإسلامى ، ولكنها تقرر كذلك أنها لكى تفهم الإسلام فهما عميقا دقيقا كان لابد لها أيضا من العناية بالظواهر الاجتماعية والاقتصادية .

والمؤلفة تذكر أنهـا كانت قد انتهت من تأليف كتابها وكتابة الصفحات الأخيرة منه فى الوقت الذى نشأت فيه أزمة السويس أى قبيل العدوان الثلاثى على مصر ، ذلك العدوان الذى هزّ ضمير العالم — على حد تعبير المؤلفة وهى يهودية — ، ومع هذا فإن هـذه الأحداث المؤلمة لم تغيّر — كما تقول — أى جزء من أجزاء البحث ، بل على العكس زادت من اعتقادها أن الإدراك المتعمق لينابيع الثقافة الإسلامية أصبح ضروريًّا لفهم الصراع القائم بين الشرق والغرب ، وأسباب الشدّ والجذب المتبادلين بين العالمين .

والمؤلفة ترى أن الوقت لم يحن بعد لتقييم هـذه الأزمة بكل تشعباتها وأسبابها المتعارضة ، وقد يتضح من المناقشات العامة أن الأسباب الحقيقية لهذه الأزمة إنما ترجع إلى العوامل السياسية والاقتصادية ، أو إلى الانفعالات الوطنية ، أو إلى الصراع بين الدول الكبرى ، أو إليها جميعا ، ولـكن المؤرخ الحق يجب عليه ـ وسط هذه المنافسات والثورات المتكررة المتتابعة ، ووسط حالة القلق العام التى تسود عصرنا الذى نعيش فيه ـ أن ينفذ ببصره إلى مظاهر التغير والانتقال بين عصر وعصر ، وأن يقارن بين هذه الفترة التى نعيش فيها وبين الفترات الحاسمة الشبيهة لها فى التاريخ مثل انحلال الامبراطورية الرومانية ، أو قرون النهضة والإصلاح ، أو عصر الثورة الفرنسية .

ولهذا ترى المؤلفة أن أزمة الشرق الأوسط الحالية ليست إلا جزءاً من الصراع فى سبيل السيادة بين آسيا والغرب .

والمؤلفة ترى أخيراً أن الصراع بين العرب وإسرائيل يجب أن يحكم عليـه وأن يبحث عن حل له داخل نطاق هذا الصراع الـكبير بين آسيا والغرب ، ونحن نخالف المؤلفة فى هذا الرأى ، ونرى أن الصراع بين العرب وإسرائيل هو أولاً جزء لايتجزأ من الصراع بين القومية العربية وكل القوى الخارجية ـ شرقية أو غربية ـ التى تحاول العدوان على العالم العربى .

* * *

وقد قسمت المؤلفة كتابها إلى : مدخل ، وبابين ، وخاتمة .

فنى المدخل تـكلمت عن المشكلة : مداها ومعناها .

وجعلت عنوان الباب الأول : « أسس الإسلام » ، وقسّمته إلى فصول تـكلمت فيها عن :

١ ـ الأساس الثقافى : المجتمع العربى قبل الإسلام .

٢ ـ الأساس الدينى .

٣ ـ الأساس الفقهى والقانونى .

٤ ـ الأساس الاجتماعى .

٥ ـ الأساس الفلسفى .

وجعلت عنوان الباب الثانى « المسلم والتجديد » ، وقسّمته إلى فصول تكلمت فيها عن :

١ ـ المشكلة العامة .

٢ ـ المشكلة الاجتماعية : الزواج والأسرة ، التعليم ، الاقتصاديات .

٣ ـ المشكلة السياسية : الدولة الإسلامية ، الإسلام والقومية .

٤ ـ الفكر الجديد فى الإسلام .

أما الخاتمة فقد تحدثت فيها عن موقف الشرق قبالة الغرب أو بمعنى آخر عن تقابل الشرق والغرب .

وفى نهاية الكتاب قائمة مفيدة بالمراجع التى أفادت منها المؤلفة عند وضع الكتاب .

* * *

وقد جهدت المؤلفة ـ كما تقول فى مقدمتها ـ أن تلتزم الحياد فى بحثها وأن تتناول الموضوع كما يتناوله كل باحث يسعى إلى الحقيقة ، فلا تحابى فريقا على فريق آخر . وحاولت قدر الإمكان أن تلتزم الأمانة فى تفسيراتها ، ولهذا هى تتوقع أن لا يرضى عنها فى بعض الأحيان القارئ المسلم أو القارئ الغربى ومع هذا فإنها تصرح أنها اضطرت احتراما لقواعد البحث ولصداقتها العميقة للمسلمين واحترامها التام لدينهم أن تلتزم الحقيقة بالقدر الذى استطاعت .

والحق نقول إن المؤلفة حاولت جهدها أن تكون معتدلة ومعقولة عند كلامها عن الإسلام والمسلمين ، فهى تقول مثلا عند حديثها عن الإسلام : الإسلام ليس دينا وحسب ، إنه أكثر من ذلك ، إنه أسلوب من أساليب الحياة .

والإسلام كدين له قيم خاصة ، وخير دليل على هذا أن الدين المسيحى لم يستطع

أن يجد سبيله إلى نفوس الأميين والفقراء من المسلمين أو إلى نفوس المثقفين ثقافة عالية أو إلى نفوس القادة والساسة ، وإنك لتجد علماء الذرة والحيوان والرياضة — رغم بلوغهم هذه الدرجة العليا من العلم — ظلوا مخلصين لدينهم الإسلامى .

ومما يستحق الالتفات أنه ما من واحد من الطلبة المسلمين الذين يتلقون العلم فى أوربا قد تحــول إلى المسيحية ، قد يكون من بينهم من استغرب فى أنماط حياته ، ولــكن ليس من بينهم من استنصر ، ولم يحدث هــذا عن مصادفة ، ولــكن له دلالته القوية ، وذلك أن الإسلام له قيمه التى لا ترضى الجاهل وحسب ، بل والتى تــكفى حاجات المتعلمين والمثقفين »

ومن المثل الطيبة على اعتدال المؤلفة ودفاعها عن الإسلام وتأييدها لأحكامه حديثها عن المرأة وحقوقها فى الإسلام ومكانتها فى المجتمع الإسلامى (انظر ص ١٢٢ وما بعدها) وكلامها عن الحجاب ، نشأته وتطوره وحكم الإسلام فيه (ص ١٢٣ وما بعدها)

ومع ذلك فإن القارئ المسلم لا يستطيع أن يرضى عن كل ما أوردت المؤلفة فى كتابها من آراء فإن فيه مآخذ كثيرة ، وفى رأيى أنها لا تنفرد وحدها بترداد هذه الأفكار التى نأخذها عليها ، بل هى أفــكار سمعناها ونسمعها كثيراً من عدد من المستشرقين ، وقرأناها ونقرؤها لهم فيما يكتبون ويؤلفون .

من ذلك قولها بوجود تعارض أو تناقض فى القرآن[1] وتستشهد على هذا بالآية رقم ١٠٥ من سورة البقرة التى تقول :

« مانَنْسَخ من آية أو نُنْسِخها نأتِ بخير منها أو مثلها ، ألم تعلم أن الله على كل شىء قدير » .

وهذه دعوى باطلة لست أحسب أن الهدف منها برىء ، وقد فطن إلى هذا المأخذ السيد محمد ظفر الله خان وأشار إليه فى التقدمة التى قدم بها للــكتاب

(١) انظر كذلك ص ٩٨ — ٩٩ من الــكتاب .

وناقشه وحاول أن يفنده مستندا إلى قوله سبحانه وتعالى فى سورة آل عمران :

« هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آياتٌ ، محكمات هُنَّ أُمُّ الكتاب ، وأُخَرَ متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زَيْغٌ فيتَّبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، ومايعلم تأويله إلا الله والرَّاسِخون فى العلم يقولون آمَنَّا به كُلٌّ من عند ربنا وما يَذَّكَّر إلا أُولو الألباب » .

والذى نعلمه ونؤمن به نحن المسلمين أن لاتناقض ولا تعارض فى القرآن البتة ، ولو أن المؤلفة ومن يقول بقولها من المستشرقين رجعوا إلى المعجم المفهرس للقرآن لوجدوا أن الكتاب الكريم به نحو ٣٨٥ آية وردت فيها كلمة « آية » ، وأن كلمة « آية » فى كل هذه الآيات لاتعنى فقرة من فقرات سور القرآن ، وإنما هى تعنى دائما: الدليل والبرهان والشاهد والعلامة والعبرة والعظة مثل قوله تعالى :

« قال رب اجعل لى آيةً قال آيتك ألا تكلم الناس »

وقوله : « إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين » .

وقوله : « وإن يَرَوْا كل آية لايؤمنوا بها » .

وقوله : « أن تبتغى نفقاً فى الأرض أوسُلَّماً فى السماء فتأتيهم بآية » .

وقوله : « هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله » .

وقوله: « وقالوا مهما تأتنابه من آية لتسحرنابها فما نحن لك بمؤمنين ».

وقوله : « فاليوم نحن ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية » .

وقوله : « إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة » .

وقوله : « وكأين من آية من السموات والأرض يمرون عليها » .

وقوله : « إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون » .

وقوله : «وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل » ... الخ والمقصود بالنسخ فى الآية التى استشهدت بها الأستاذة « الزى » إنما هو نسخ آيات الله فى كونه ،

والسياق يدل على هذا بدليل أن الآية تختم بقوله تعالى : « ألم تعلم أن الله على كل شىء قدير » .

والحقيقة أن هذا التناقض المدعى منشؤه جهل باللغة العربية وكتب الأصول والتفسير ، ونقصان فى معرفة مصطلحات القرآن .

ومما يؤخذ على مؤلفة هذا الكتاب أنها حين تحدثت عن فرقة الأحمدية القاديانية التى نشأت فى الهند أشارت إلى القول الخاطىء الذى حاول أن يفسر به أحمد قاديان ــ مؤسس الفرقة ــ قوله تعالى « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » من أن المقصود « بخاتم النبيين » الخاتم الذى يختم به ، لا أنه آخر الأنبياء ، ولو أنها روت هذا القول على أنه قول أحمد قاديان لما كان هناك ما نأخذه عليها ، ولكنها ذكرت ما يفيد موافقتها على هـذا القول ، بل وادعت أن القرآن يؤيده ، فقالت :

« The Korman itself calls Muhammad - Seal of prophets »

انظر ص ٦٨ ، ص ٨٦

ومما يعيب هذا الكتاب فى نظر القارىء المسلم أن المؤلفة تتحدث عن محمد عليه السلام باعتباره مشرعا ، وتتحدث عن التشريعات الواردة فى القرآن باعتبارها من وضعه ، ولهذا تنقده وتصف تشريعاته بالقصور وعدم الشمول ، فهى تقول مثلا فى ص ٧١ ــ ٧٢ :

« ومحمد ــ رغم ما يمتاز به من عبقرية ــ لم يكن مشرعا لتشريعات شاملة ــ حتى داخل النطاق المحدد لتنظيماته المبتكرة ــ فالتشريعات الموحى بها فى القرآن هى قرارات صدرت لتوائم حالات خاصة ، وتشريعاته الاجتماعية تبدو وكأنها فصلت لتناسب حاجات بيئته الاجتماعية الخاصة ، ومثل هذا القوانين المتصلة بالعلاقات الأسرية وبالزواج والميراث »[١]

(١) ونص كلامها باللغة الإنجليزية : [انظر الصفحة التالية]

=

والـكاتبة لم تنس يهوديتها ، فهى تبدى الأسى والأسف وتتهم الرسول عليه السلام بالقسوة لأنه أبعد اليهود عن المدينة (انظر ص ٤٩) ، مع أنها اعترفت عند تحليلها « للصحيفة » وهى أول دستور أصدره النبي للمجتمع الإسلام فى المدينة بعـد هجرته إليها ـ أنها أول وأقدم وثيقة فى العالم تنص على الحرية الدينية ، فقد نصت الصحيفة على أن يترك لليهود الحرية فى أن يظلوا يهودا .

والحقيقة أن الرسول عليه السلام قد جامل اليهود مجاملة لم يجاملها لأية طائفة أخرى ، وأكرمهم غاية الإكرام ، واعترف بهم ـ فى الصحيفة ـ كعنصر ثالث إلى جانب المهاجرين والأنصار ، ونص فيها على حريتهم الدينية ، ولـكنهم قابلوا هذا كله بالجحود ونـكران الجميل والدسائس والمؤامرات يدبرونها ضد الرسول ، ثم انضموا أخيرا إلى الحلف الذى جمع أعداءه جميعا فى موقعة الخندق ، فالرسول إذن لم يكن قاسيا حين اضطر إلى إقصاء اليهود عن المدينة ، بل كان رحيما الرحمة كلها ، والرسول اضطر إلى اتخاذ هذا الإجراء اضطرارا لأنه كان فى سبيله لتكوين دولة جديدة ، والثورات والدول الجديدة ـ فى كل عصور التاريخ ـ لا يمكن أن تسمح ببقاء العناصر المناوئة الهدامة .

والمؤلفة ـ ويشاركها نفر من المستشرقين ـ تحاول فى أكثر من موضوع أن ترد الإسلام إلى أصول قديمة ، بعضها يهودى أو مسيحى ، وبعضها وثنى ، فهى على سبيل المثال ـ تقول فى ص ٤٩ وما يليها : إن الحج بصورته الإسلامية فيه كثير من

In spite of his genius, Muhammed was not a systematic law-giver, not even within the limited range of his original organization. The laws revealed in the koran are decisions (ad hoc) made to fit specifi cases. His social legislation is cut to the requirements of his own social invironment, for instance the regulations affecting family relations, marriage and inheritanee).

الشعائر التى كانت تتبع فى عهود الوثنية مثل الطواف وتقبيل الحجر الأسود ، وهذه محاولة ماكرة لأن أصحابها يريدون أن يثبتوا أن الإسلام لم يأت بجديد ، بل هو مجموعة من الأصول والقواعد والشعائر أخذت عن الأديان السابقة ، حتى الوثنية العربية القديمة التى قام الإسلام لمحاربتها والقضاء عليها .

والمؤلفة تستعمل عند كلامها عن الإسلام بعض المصطلحات المتصلة بالدين المسيحى والنظام الكهنوتى ، فهى مثلا عند كلامها عن أثر الدين ورجال الدين فى الحركات السياسية خلال العصور حتى وقتنا الحالى تضرب أمثلة كثيرة ، ومنها أن شيوخ الأزهر فى القاهرة يهددون وينذرون بإصدار قرار الحرمان (excommuniction) ضد أىّ مسلم يعقد صلحا مع إسرائيل ، فهى تقول فى ص ٦٧ ـ ٦٨ :

(The Azhar Sheikhs in Cairo who threaten to excommunicate any muslim who would make peace with Israel ... etc).

ونظام الحرمان نظام كهنوتى عرفه باباوات وكرادلة روما فى العصور الوسطى ، ولم يكن يعرفه ولا يمكن أن يعرفه الإسلام ، وإذا كان لشيوخ الأزهر من رأى فى إسرائيل فهو أنها دولة مصطنعة معتدية دخيلة ، لا وجود لها من الناحية القانونية ، وكل من يتعامل مع هذه الدولة من المسلمين يعتبر خائناً لوطنه ولدينه .

وبعد ، فهذه مآخذ لا يرضى عنها القارئ المسلم لأنها تتصل بعقيدته وإيمانه ، والكتاب رغم هذا له قيمته ، فقد بذلت صاحبته جهداً كبيراً فى الدراسة والبحث وجمع المعلومات ، وحاولت حقيقة أن تتفهم أصول الدين الإسلامى والأسس التى قام عليها المجتمع الإسلامى خلال العصور ، ونجحت فى مواضع كثيرة فى تفهم وجهة نظر المسلمين ومشاكلهم ، وإذا كانت قد خانها التوفيق عند عرض بعض النقط التى أخذناها عليها فإنما فعلت ذلك مرغمة وتحت تأثير رواسب قوية استقرت فى نفسها ، وكانت أقوى من منهجها العلمى ومن رغبتها فى التزام الحيدة والعدالة عند إصدار

أحكامها . تلك الرواسب بعضها يرجع إلى الأثر القوى للديانة اليهودية التى وُلدت عليها المؤلفة وفى جوّها نشأت ، وبعضها يرجع إلى الأثر الأقوى للثقافة الغربية التى تلقتها وللأساتذة الأوربيين الذين درست عليهم .

ونحن إذا كنا نحب ديننا ونعمل على دراسته وفهمه فإن من واجبنا أن نقرأ هذا الكتاب وأشباهه ، فإن فيه إلى جانب هذه المآخذ خيراً كثيراً ، ومن واجبنا أن نترجمه إلى اللغة العربية وأن نناقش ما يستحق المناقشة ونرد على ما يستحق الرد .

جمال الدين الشيال

هارولد لاسكى : تأملات فى ثورة العصر

Reflection son the Revolution of our Time

قدم لنا الفكر السياسى الإنجليزى فريقين من الفلاسفة السياسيين، فريق تفرغ للبحث والتدريس والكتابة مثل سير أرنست بيكر وبروفسور هـ . تونى ، وفئة ثانية جمعت بين البحث الأكاديمى والممارسة العملية للسياسة مثل جراهام دالاس وجون ستراشى. ومن بين أعلام الفريق الأخير هارولد لاسكى. فقد ظل الأستاذ لاسكى يقوم بالتدريس فى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بلندن وغيرها قرابة ثلاثين عاما، منذ سنة ١٩٢٠ حتى وفاته سنة ١٩٥٠ ، كما ظل فترة طويلة عضوا فى جماعة « الفابيين » ثم عضوا فى اللجنة التنفيذية لحزب العمال ، وكان رئيسا لها عند ما تولى حزب العمال الحكم فى سنة ١٩٤٥ حتى إن الكثيرين كانوا يعتقدون أنه الزعيم الحقيقى للحزب ، وأصدر عشرات الكتب والمقالات والنشرات دفاعاً عن مبادئ الحزب ودعوة له . فلاسكى مزيج فريد من الفيلسوف السياسى والأستاذ والداعية وعضو الحزب يجمع بينهما جميعا فى نشاط لم يفتر حتى مات .

ولعل كتبه الثلاثة « قواعد السياسة » سنة ١٩٢٥ و « الديموقراطية فى محنة » سنة ١٩٣٣ و « تأملات فى ثورة العصر » سنة ١٩٤٣ هى أهم ما كتبه ، إذ أن كلا منها يمثل بداية مرحلة من مراحل تطوره الفكرى . وذلك أن لاسكى كان فى الفترة الأولى من حياته الأكاديمية يؤمن بالمبادئ الفابية ودعوتها إلى التغيير التدريجى « gradualism » ويبدو ذلك بوضوح فى كتابه « قواعد السياسة » المشار إليه ، ثم تحول عنها إلى اليسارية المتطرفة حوالى سنة ١٩٣٠ وكان أول مؤلف كبير له ظهر فيه هذا التحول هو كتابه الثانى «الديموقراطية فى محنة» الذى بدأ يدافع فيه عما أسماه

التجربة الاشتراكية فى روسيا ، ويشيد بالنظرية الماركسية ذاهباً إلى أنها فى مجموعها خير محاولة للإصلاح الجذرى الذى يتطلبه العصر ، ولو أنه لم يؤيدها على طول الخط فقد وجه سهام نقده إلى نقطة أساسية فى النظرية وهى ما تذهب إليــه الماركسية من ضرورة العنف فى مرحلة الانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية ، وهو يقول فى ذلك إنه لا مكان للأمن والطمأنينة والحرية فى ظل أى نظام يتطلب من الناس إيماناً به إلى حد اعتباره فى ذاته مبررا كافيا لاستعمال العنف ؛ ولعل اتجاهه هذا فى نقد النظرية الماركسية أثر من آثار التدريجية الغابية التى كان يؤمن بها من قبل. كما اعترض لاسكى على المادية التاريخية لنزعتها « العقلية » المغالى فيها ولتجاهلها أن هناك عوامل أخرى لها فى توجيه النشاط الإنسانى أثر يفوق أثر العوامل الاقتصادية، بيد أنه يتفق مع الماركسية فى أن النظام الاقتصادى السائد فى مجتمع ما هو العامل الرئيسى فى تحديد صورة الحكم فيه وأن الفئة التى لابد أن تسيطر فى ظل الرأسمالية ، بناء على ذلك ، هى الفئة التى تتحكم فى تكييف علاقات الإنتاج ومن ثم تستطيع أن تحصل على قدر من القوة السياسية يكفى لتوجيه سياسة المجتمع كله .

وجاءت المرحلة الثالثة فى التطور الفكرى عند لاسكى بعد قيام الحرب العالمية الثانية وتعرض انجلترا لهزيمة تقضى على أسس مدنيتها وتقاليدها السياسية فبدأ يدافع عن هذه التقاليد ويشيد بالروح الديموقراطية المتأصلة فى الشعب الإنجليزى ويوجه إلى الفاشية هجوماً لا هوادة فيه ، كما يبدو فى كتابه «تأملات فى ثورة العصر» الذى نحن بصدده؛ كما كان لاعتداء روسيا الغاشم على فنلندا فى أوائل الحرب رد فعل سيء عند لاسكى ظهر صداه فى كتابه فى شدة نقده لحكام روسيا كما سيجىء فى حينه .

والكتاب نفسه ، الذى يقول لاسكى إنه بدأه فى الشهر الثانى من الحرب العالمية الثانية عند ما بدأ البرلمان البريطانى يناقش تقرير « بفريدج » عن الخدمات الاجتماعية، وانتهى منه فى نوفمبر سنة ١٩٤٢ ، ظهر فى أوائل سنة ١٩٤٣ . وهو يدور حول رأى لمؤلفه عن المرحلة التى تمر بها المدنية الغربيــة فى الوقت الحاضر نتيجة لواقع اقتصادى

أدى بصورة حتمية إلى أن أصبحت علاقات الإنتاج الحاضرة لا تسمح بأية صورة من الصور بالإنتاج التوسعى فى ظل الرأسمالية ، حيث إن الرغبة فى الكسب ، وهى الحافز الرئيسى فى ظل نظام الملكية الخاصة ، لابد أن تتحكم فى كمية الإنتاج ونوعه دون وزن لحاجات المجتمع فى مجموعه . ومن ثم لابد من تغيير هذه العلاقات التى تتضمن فى جوهرها تمتع فئة قليلة بميزات تمنحها قوة اقتصادية، وبالتالى قوة سياسية، لا تتفق مطلقا مع نسبتها العددية فى المجتمع. ولما كانت هذه الفئة المتميزة غير مستعدة لأن تتنازل عن امتيازاتها فإنها تصم أذنيها عن صوت العقل والمنطق والواقع وتلجأ إلى جميع الوسائل للمحافظة على الوضع القائم فيما يتعلق بالمصدر الأساسى لهذه الامتيازات وهى الملكية الخاصة فى وسائل الإنتاج وما يتبعها من سيطرة على الائتمان . وهكذا فإن التغيير المنشود لابد أن يأخذ صورة الثورة التى قد تتسم بالعنف وتكون صراعا داميا ، كما حدث فى روسيا، أو قد تتم بوسائل سلمية كما تنبأ ماركس بما سيقع فى انجلترا .

ويصف لنا لاسكى هذه المرحلة من التغيير فى الفصل الأول من كتابه تحت عنوان « نبذة عن روح العصر » بأنها تغيير ثورى لا يقل عمقا عن أى تغيير آخر فى تاريخ الجنس البشرى الحديث ولا يقل فى جوهره ومغزاه عن التغيير الذى شهد سقوط الأمبراطورية الرومانية أو مولد المجتمع الرأسمالى وحركة الإصلاح الدينى . وهذا التغيير حتمى تكمن حتميته وطبيعته فى كل ما يتكوّن منه طابع مجتمعنا . ثم يستعرض لاسكى بعد ذلك الآراء المختلفة والأسباب التى سيقت فى تعليل هذا الوضع ، من سياسية واجتماعية ونقص فى نظم التربية وانكماش فى سيطرة القانون ، ويستبعد أن يكون أيًّا منها وحده هو العلة ، ولكنها جميعاً أدت مشتركة إلى قيامه . بيد أن من بين هذه الآراء رأياً يعزو المحنة التى يمر بها العالم والسبب فى ضرورة التغيير إلى زيادة تدخل الدولة فى مختلف قطاعات النشاط القومى ، وخاصة فى القطاع الاقتصادى ، ويرى فى سياسة عدم التدخل « Laissey faire » علاجاً للموقف وأساسا صالحا

لمجتمع يتطور تبعاً لمقتضيات حاجاته وظروفه ؛ ويهاجم لاسكى هــذا الرأى بشدة فى كتابه. ولا غرو فهو اشتراكى عتيد يطالب بزيادة تدخل الدولة لصالح الطبقة العاملة؛ وهو يقول بصراحة فى هذا الصدد إن الدولة ليست عاملا محايدا لخدمة المجتمع كله ، بل هى سلاح يستعمل فى خدمة الطبقة التى تجعل سيطرتها على وسائل الإنتاج فى وضع يمكّنها من استغلال إمكانيات الدولة لخدمة مصالحها الخاصة .

ثم يخصص الجزء الأكبر من بقية الفصل الأول لشرح سمات العصر الذى نعيش فيه من انتشار للخوف والقلق وعدم الطمأنينة مما يقضى على كل أمل فى التفاهم بين الفئات المختلفة فى المجتمع . وينتهى إلى أن البشر يواجهون الحاجة إلى تغيير جذرى فى روح الحكم كلها ، وإن هذا التغيير إما أن يحدث بتعاون من جانب أولئك الذين يحكمون الآن ، أو تؤدى الوقائع الموضوعية حتما إلى تغيير عنيف من أسس المجتمع الذى يحكمونه . وهو يستنكر الرأى القائل بأن نبذ الديموقراطية بوصفها إطارا للدولة يحل أى مشكلة من المشاكل التى يتعرض لها حاليا الجنس البشرى ، بل إن ذلك ، فيما يرى يزيد هذه المشاكل حدة حيث إن نبذ الديمقراطية يؤدى إلى إنـكار المناقشة الحرة ، وهذا يؤدى بدوره إلى القضاء على الروح التى يتطلبها الـكشف العلمى الذى يعد شرطا لا بد منه لبقاء أى مجتمع حديث .

ويناقش لاسكى فى الفصل الثانى من كتابه الثورة الروسية التى يقول عنها أنها تمثل فى علاقاتها التاريخية بالقرن العشرين نفس وضع الثورة الفرنسية بالنسبة للقرن التاسع عشر . وهو يذهب إلى أن العالم يمر الآن بفترة من رد الفعل لا يديولوجية الثورة الروسية مما يجعل قدرتنا على الحكم عليها دون تحيز تشوبها العواطف والانفعالات التى أثارتها هذه الثورة . فالناس حيالها فريقان ، فريق يرى مزاياها من الضخامة بحيث لا يستطيعون حتى مجرد التفكير فى الثمن الذى اقتضته ، وفريق هاله الثمن البشع الذى دفعته البشرية فى سبيل تحقيق هذه الثورة فلم يعد يقبل أية مناقشة فى مزاياها. ويتهم لاسكى الفريقين بالتطرف والغباء. فالفريقان ينظران إلى الثورة الروسية

فى ذاتها بوصفها حدثا قام به الروس وحدهم ونسى الناس أن كل حركة الأفكار التى نسميها التاريخ «الحديث» ساهمت فى وقوعها ، إذ ما كانت هذه الثورة لتتم ، فى نظره لولا الثورة العلمية التى قامت فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ولولا أيضا الثورة الصناعية التى حدثت فى القرن التاسع عشر ، كما أن جميع الأفكار والمثل التى أتى بها مفكرون من أمثال هوبز وروسو وهيجل والاشتراكيون المختلفون من برودون إلى ماركس ساهمت فى تهيئة الجو لوقوعها بالصورة التى وقعت بها . ويقول لاسكى إن نجاح الشيوعيين فى الاستيلاء على السلطة واحتفاظهم بها يرجع إلى أسباب أهمها إدراكهم وفهمهم العميق لحاجات الناس الذين تحت سيطرتهم والعمل الحاسم على إجابة الرغبات الحقيقية لهؤلاء الناس ؛ وكذلك التدخل الأجنبى الذى استغله زعماء الشيوعية إلى أقصى حد فى إثارة المشاعر الحماسية لدى مواطنيهم وتكتيلهم للعمل السريع فى بناء نظامهم ، رغم أن الرصيد الكبير من الشعور الطيب نحو الثورة الشيوعية بين الطبقات العاملة فى مختلف أنحاء العالم جعل هذا التدخل أضعف من أن يقضى حقيقة على النظام الجديد .

ورغم إعجاب لاسكى الصريح بما حققته الثورة الروسية، وخاصة تحت زعامة لينين ، والتماسه المعاذير لشتى نقائصها ، ما يعترف به منها ، فإنه عندما يتعرض لغزو ستالين لفنلندا يتحول إلى هجوم شديد على زعماء روسيا السوفيتية ناعتا الاعتداء السوفيتى بأنه مغامرة تتسم فى كل تفاصيلها بالطابع العدوانى الفاشى الذى ظل هؤلاء الزعماء يندددون به سنين طويلة . وهو لا يقتصر فى نقده لحكام روسيا على هذه المناسبة وحدها بل أنه يتهمهم أيضا بأنهم اعتمدوا أكثر مما ينبغى فى حكمهم ومحافظتهم على سلطتهم على أجهزة البوليس السرى حتى أصبحت هذه الأجهزة دولة داخل الدولة ، ولو أنه يلتمس لهم فى ذلك بعض العذر من الظروف المحيطة بهم ومن كونهم عاشوا عيشة المتآمرين المشردين ، فى صراع دائم مع هذه الأجهزة نفسها عندما كانت تحت سيطرة حكام روسيا السابقين مما جعلهم يجنحون إلى إقامة حكم

دكتاتورى مطلق عند ما استولوا على السلطة والقضاء على كل مظهر من مظاهر الديموقراطية .

ويقول لاسكى فى هذا الصدد إن ديكتاتورية البروليتاريا التى نادى بها ماركس تحولت عند التطبيق العملى إلى دكتاتورية الحزب الشيوعى الذى يسيطر عليه حفنة من الزعماء أو ، فى معظم الأحيان ، فرد واحد . وهنا يصف المؤلف ديكتاتورية ستالين فينعتها بأبشع ما يوصف به حكم من مصادرة للحريات وأحكام بالإعدام بالجملة دون محاكمة ونفى وتشريد لكل مخالف فى الرأى وتزوير فى الانتخابات ورقابة صارمة على كل ما يكتب أو يقال وإثارة الأبناء ضد الآباء وانتشار الخوف بصورة لم يسبق لها مثيل . وهو يقول إنه لايستطيع أن يجد مبررا يستسيغه العقل لمثل هذا الاضطهاد الفظيع أو دفاعاً عنه ، اللهم إلا على أساس أن حكام روسيا الشيوعية لا يخطئون ، وهو ما لا يسلم به عاقل .

ورغم ماعرف عن لاسكى من ميول شيوعية فإن هذا الجزء من كتابه يعد عريضة اتهام قاسية من أقوى ما كتب فى هـذا الصدد حتى بدا أشد أعداء النظام الشيوعى هجوما عليه ، ولعل لاسكى لم يهاجم وضعا أو نظاما بهذه الشدة إلا عند ما يتعرض للحديث عن الفاشية التى اشتهر بعدائه الشديد لها .

ويسوقنا ذلك إلى الحديث عن الفصل الثالث من الكتاب الذى خصصه المؤلف للفاشية تحت عنوان « معنى الفاشية » . ويعتبر لاسكى الفاشية العدو الحقيقى للجنس البشرى فى العصر الحاضر ، وأن هزيمتها أصبحت ضرورة تاريخية بالنسبة للطبقة العاملة لأنها تمثل أبشع وسيلة لجأت إليها الطبقات المتميزة لخنق الديموقراطية السياسية التى أصبح من الواضح أنها ستؤدى حتما ، مع ما يترتب عليها من اتساع فى القاعدة العددية للقوة السياسية ، إلى القضاء على جوهر النظام الرأسمالى وهو سيطرة فئة قليلة تملك وسائل الإنتاج على مصائر المجتمع كله .

ويفسر ذلك بأن المستفيدين من الأوضاع القائمة فى ظل النظام الرأسمالى لا يقفون

عند حد فى دفاعهم عما يعتقدون أنه مصلحتهم الحقيقية ، بل و كيانهم نفسه ، مستعملين فى ذلك كل الأسلحة بما فيها التعاون مع بعض المغامرين الذين لايبغون سوى الحصول على المكاسب لأنفسهم عن طريق الاستيلاء على القوة فى المجتمع ، ومن هنا تنبثق الفاشية وتترعرع ثم يشتد ساعدها وتنجح فى الحصول على القوة التى تبغيها . ويطلق لاسكى على هذه المحاولة ، وعلى محاولات أخرى تلجأ إليها الرأسمالية فى محاولة إيقاف التغيير الحتمى المنشود ، اسم الثورة المضادة . فالفاشية فى نظره صورة من صور الثورة المضادة التى تهدف بها الطبقة الرأسمالية إلى أقلمة المجتمع الرأسمالى — مع الاحتفاظ بجوهره — لظروف الأساليب الفنية الحديثة والسوق العالمى وتقسيم العمل . فهى رأسمالية نبذت أصولها التحررية التقليدية بعد أن تأكدت بالتجربة من اتجاه الأحداث أن الفكرة التحررية ، سواء فى المجال الاقتصادى أو السياسى أو الاجتماعى ، لابد أن تؤدى بطبيعتها إلى القضاء على الفكرة الرأسمالية .

ولعل لاسكى لم يتعرض للفاشية وأصولها وطبيعتها ونتائجها فى مؤلف من مؤلفاته بالتفصيل والإحاطة التى عالج بها الموضوع فى كتابه هذا . وهو يخلص من بحثه إلى أن الفاشية نظام مدمر بطبيعته ، فزعماؤه مضطرون إلى القضاء على جميع المراكز التى يمكن أن تكون مصدر خطر على خططهم أو تعترض سبيل تفردهم بالسلطة فى المجتمع . فلا يقتصر الأمر فى ذلك على الطبقة العاملة وحدها ، التى يعمل زعماء الفاشية على إثارة مشاعرها الوطنية واستمالتها بمختلف الوسائل والوعود حتى يضموها إلى صفهم ويلهوها عن المطالبة بمصالحها الحقيقية ثم لايلبثوا أن يسيطروا عليها تماما ويستغلوها فى صراعهم ضد القوى الأخرى داخل المجتمع وخارجه ؛ ولا على فئة المفكرين التى يحاول النظام الفاشى أن يخضعها أيضا لمقتضيات شمولية حتى ولو أدى الأمر إلى قتل البحث العلمى الحر الذى قد لاتتفق نتائجه مع ادعاءاته ، بل إن طبقة الرأسماليين نفسها — التى أتت بهذا النظام إلى الحكم ليساعدها فى كفاحها ضد الطبقات العاملة — سرعان

ما يأتى دورها وينشب فيها النظام مخالبه حيث إنه بطبيعته يقوم على التوسع العدوانى الذى لابد أن يؤدى إلى الحرب ، أو إلى حالة مستمرة شبيهة بالحرب ، مما يتطلب تدخلا بل وإشرافا كاملا من أجهزة الدولة على جميع مجالات النشاط الاقتصادى بصورة تنقل القوة الاقتصادية ، والسياسية بطبيعة الحال، إلى جهاز بيروقراطى يخضع للإشراف المباشر لزعماء الحزب . وهكذا فالفاشية فى نظر لاسكى العدو الأول الذى ينبغى أن تتضافر جميع الجهود فى القضاء عليه وعلى الأسباب التى أدت إلى قيامه . ولذلك نجده فى هذا الكتاب يدافع عن اشتراك حزب العمال البريطانى فى وزارة تشرشل الائتلافية إبان الحرب ، مع ما فى ذلك من تضحية ببعض المبادئ الرئيسية للحزب، على أساس أن هتلر وما يمثله هتلر هما العقبة الأساسية فى إتمام التغيير الثورى الذى يدعو إليه ويعتبره ضرورة حتمية يفرضها الواقع التاريخى والتطور الحادث ، أو الذى لابد أن يحدث ، فى علاقات الإنتاج .

ويخصص لاسكى بعد ذلك الفصول الثلاثة التالية من كتابه للحديث عن الديموقراطية والظروف الداخلية والخارجية التى يتطلبها بقاؤها وحسن أدائها لوظيفتها. ويجدر بنا هنا ، قبل الكلام عن مفهوم لاسكى عن الديموقراطية وظروفها ، أن نشير إلى أنه كان قبل الحرب ، خاصة بين سنة ١٩٣٣ وسنة ١٩٣٩ ، قد دأب على مهاجمة الديموقراطية الإنجليزية بوصفها قناعا تختفى وراءه سيطرة المصالح الرأسمالية ؛ ولكننا سنجده فى هذا الكتاب ، الذى كتبه فى السنين الأولى للحرب وبعد أن أصبحت انجلترا مهددة فى كيانها نفسه ، يدافع بشدة عن القيم الديموقراطية التى تشبعت بها روح الشعب الإنجليزى ويعتبر الدفاع عن هذه القيم واجباً يستحق ، كما ذكرنا ، تضحية من جانب العمال ببعض مبادئهم الأساسية .

ومع ذلك فإن لاسكى لا يفوته أن يذكرنا فى كتابه هذا بأن نظم الديموقراطية الرأسمالية لا تكفل إلا حرية سلبية ، وأن وظيفتها الأساسية هى حماية حقوق فئة

واحدة من الفئات التى يتكوّن منها المجتمع وهى الفئة التى تهيئ لها سيطرتها الاقتصادية أسباب التحكم فى القوة السياسية .

ويرجع لاسكى أسباب إخفاق الديموقراطية ، فى نظره ، إلى عاملين أساسيين . أولهما إصرار بعض الفئات التى تتمتع بامتيازات معينة على تجميد الديموقراطية السياسية عند النقطة التى لا تهدد فيها الأسس الاقتصادية للمجتمع القائم، ولما كان هذا التجميد يتنافى مع ما تتطلبه المحافظة على الديموقراطية نفسها من قدرة الغالبية العددية فى المجتمع على إحداث أى تغيير ، مهما كان جذريا ، بوسائل دستورية سلمية فإن إصرار هذه الفئات على تجميد الديموقراطية السياسية عند نقطة معينة هو فى الواقع قضاء عليها . والعامل الثانى الذى يعزو إليه لاسكى إخفاق الديموقراطية ، وهو منبثق من الأول ، أن اليسار بدأ يندفع فى اعتقاده بأن إيمان الرأسماليين بالأساليب الديموقراطية سينهار بمجرد أن تتعرض مصالحه للخطر ، ومن ثم سيلجأ إلى وسائل فيها القضاء على الديموقراطية الحقة دفاعاً عن هذه المصالح . وقد نجم عن ذلك جو من الشك فى الديموقراطية وفى قدرتها على تحقيق وظيفتها بحيث أصبح الموقف مهيأ بشكل واضح للثورة من ناحية وللثورة المضادة من ناحية أخرى . ومن ثم قامت أصوات تتنكر للديموقراطية باعتبارها لا تؤدى إلى شىء سوى تهيئة المسرح للصراع بين الأغنياء والفقراء . بيد أن لاسكى يخالف هؤلاء جميعا فى الرأى ويقول إن العيب فى الواقع ليس نقصا فى الديموقراطية السياسية نفسها ولكن فى أنها غير مصحوبة بديموقراطية اقتصادية موازية لها بحيث لا يختل توازن المجتمع وأن ذلك ناجم عن عدم إدراك لمفهوم الديموقراطية على حقيقته وعن ظروف الواقع التاريخى الذى تطبق فيه . فالمجتمع الديموقراطى فى نظره هو نتاج العلاقات الروحية بين أعضائه بقدر ما هو نتاج صورة الحكم فيه ، وأن الاثنين — العلاقات الروحية بين أفراد المجتمع وصورة الحكم فيه — متأثران إلى أبعد حد بالأوضاع الاقتصادية القائمة ؛ ومن ثم فإن الأمر يتطلب وحدة فى الأهداف العظمى لدى جميع قطاعات المجتمع كما يتطلب أن تكون مسئولية الحكام

مسئولية حقيقية خاضعة للرقابة المستمرة من أفراد المجتمع دون حاجة إلى الالتجاء للقوة. ويقول لاسكى إن السبيل إلى ذلك لا يتأتى إلا بواسطة نظام يقوم على حرية كاملة ، غير متأثرة بالأوضاع الاقتصادية ، فى اختيار الحكام وتغييرهم بطريقة دستورية منظمة.

وعند ما ينتقل لاسكى إلى الكلام عن الظروف الدولية التى لابد من توافرها حتى تؤدى الديموقراطية مهمتها يبدأ بأن يذكرنا بأن الانتصار فى الحرب يعنى هزيمة هتلر ولكنه لا يعنى هزيمة الظروف التى جعلت وجود هتلر ممكنا . ومن ثم كان لابد من تنظيم شامل على الصعيد الدولى بحيث تقوم الدول بمجهود موحد لتحرير قوى الإنتاج فى العالم؛ بيد أنه يؤكد أن ذلك لا يمكن أن يتم بصورة حقيقية وحاسمة وفعالة إلا إذا عدلنا علاقات الإنتاج داخل كل دولة تعديلا جذريا .

فتعديل الأوضاع الاقتصادية فى نظره هو العامل الأساسى فى تهيئة الظروف الداخلية والخارجية اللازمة للديموقراطية الحقة ، ويقول إن فشل مؤتمرات نزع السلاح العديدة التى عقدت بعد الحرب الأولى دليل واضح على أن "الرأسمالية فى مرحلتها الامبريالية لا يمكن أن تستغنى عن الحرب كوسيلة من وسائل التعبير عن نفسها !!.

ويشير لاسكى إلى أن هذا التنظيم الشامل فى المجال الدولى يتطلب إنشاء هيئة تضم جميع الأمم ، المنتصرة فى الحرب والمهزومة على السواء ، على أن يتجنب بعد الحرب مأساة فرساي ومعاملة الشعوب المهزومة كما لو كانت كلها عصابات من المجرمين . وينبغى أن تكرس هذه الهيئة جزءا كبيرا من إمكانياتها وجهودها لتحقيق هدفين أساسين ؛ أولهما إدخال المدنية الحديثة فى المناطق المتخلفة من العالم والثانى تصفية الاستعمار تماما بمظهريه السياسى والاقتصادى معا .

فإذا تم ذلك وتوطدت دعائم الهيئة الدولية زالت من العالم إلى حد كبير تلك الظروف التى أثارت الحرب عامدة لصالح الثورة المضادة ، وعندئذ سيظهر حتما أن الرأسمالية الفردية التى تمخض عنها الاقتصاد التقليدى غير ذات موضوع .

ويخصص المؤلف الفصل الأخير من كتابه للديموقراطية فى ظل التخطيط باعتبار أن هـذا الموضوع هو مشكلة الساعة . فمن رأيه أن الأمر الذى لا شك فيه، أننا عند نهاية الحرب سنكون قد انتقلنا إلى عهد المجتمع الخاضع للتخطيط الشامل ، وأن ذلك يقتضينا استعدادا خاصا وتحديداً دقيقا لأهدافنا من التخطيط لأن النازية أثبتت أن التخطيط يمكن أن يوجه فى خدمة مصلحة فئة قليلة ، خاصة وأن الأساليب الفنية الحديثـة فى التسليح والحكم تجعل فى وسع هـذه الفئة أن تسيطر تماما على الكثرة . وهو يذكرنا بأن التخطيط الشامل للمجتمع قد يقوم بسهولة على التضحية بحرية الفرد .

ويحاول لاسكى بعد ذلك أن يحدد المجالات الرئيسية للتخطيط بأنها الميادين التى يجب أن تخضع للسيطرة المباشرة للدولة، وهى الائتمان والأرض والتصدير والاستيراد ووسائل النقل والوقود ومصادر القوى . وينفى لاسكى ما يقوله خصوم التخطيط من أنه يتعارض بطبيعته مع الحرية ويدمر شخصية الفرد ؛ ويقول إن أصحاب هذا الرأى ينسون أن جوهر الحرية نفسه فى حاجة إلى إعادة تحديد كلما ظهرت مجموعة جديدة من الظروف التاريخية .

كما يشير إلى بعض الاعتراضات الأخرى التى تساق ضد تدخل الدولة عن طريق التخطيط وإشرافها على المشروعات الاقتصادية الكبرى مما يؤدى إلى سيطرة حفنة من البيروقراطيين الذين قـد يستغلون وضعهم للحصول على امتيازات على حساب المجتمع، وكأننا استبدلنا سيطرة رأس المـال بسيطرة البيروقراطية ، بالإضافة إلى أن البيروقراطى ، الذى يتصرف فى رأس مال لا يملكه سينقصه الحافز الرئيسى لإتقان عمله ويقتل روح الابتكار لديه . ويحاول لاسكى أن يفند كلا من هذه الاعتراضات على أساس المقارنة بما حدث فعلا فى التجربة الاشتراكية فى روسيا . ورغم أنه يهزأ بهذه المخاوف باعتبارها مجرد دعاية من جانب الطبقات التى تتمتع فى الوقت الحاضر بامتيازات ليست من حقها ، إلا أنه يعترف بالحاجة إلى ضمانات ضـد خطر أن يفقد

المجتمع فى ظل التخطيط الشامل ، عاداته الديموقراطية ويقع فريسة لطمع البيروقراطين فى السلطة . ولذلك نراه يطالب باللامركزية الكاملة فى الحكم ويذهب إلى أننا إذا لم ندرك أنها سر الحرية فسندفع الثمن غاليا من حريتنا وأمننا .

ويختم المؤلف كتابه بأن العالم غامر مرتين خلال هذا القرن بأرواح الملايين من شبابه فى سبيل مثل عليا جميلة وأملا فى تغيير الأوضاع التى تئن البشرية تحت وطأتها ولكن فى المرة الأولى أخفق تماما فى تحقيق هذه الآمال وراحت أرواح الملايين هباء. فلعلنا لا نفعل نفس الشىء مرة أخرى ونتعظ بالتجربة الماضية .

وأخيراً أود أن أضيف أنه من الواضح أن لاسكى وإن كان قد نجح فى التخلص تماما من تدريجيته الغابية بتأثير الماركسية ، إلا أنه لم يستطع أن يوائم بين إيمانه بالحرية وبشخصية الفرد وبين الماركسية التى اعتنقها وظل يدافع عنها طوال الفترة الأخيرة من حياته ؛ وتبدو جميع المحاولات التى بذلها فى التوفيق بين هذين الأمرين مفتعلة وغير ذات جدوى ؛ ولعلهما — أى الحرية والمحافظة على شخصية الفرد من ناحية والماركسية من ناحية أخرى — أمران لا يتفقان .

عبد الكريم أحمد

المكتبة التاريخية

بإشراف الدكتور أحمد عزت عبد الكريم أستاذ التاريخ الحديث بجامعة عين شمس

فى نهضتنا العربية الحاضرة تلتقى القوى المفكرة والقوى العاملة لتسهم جميعا فى بناء الوطن العربى ، كل يؤدى دوره فى ناحية تخصصه . ودور التاريخ، دور بارز فى إنهاض الأمم وتذكيرها بماضيها وتبصيرها بحاضرها ؛ فالتاريخ سجل الحياة ، يحكى قصتها ، ويصور صراعها الدائب فى سبيل الكمال ، ويقص تجربتها وما انطوت عليه أعمالها من خطأ ومن صواب ، رائده تقصى الحقيقة فى كل ما يصور وما يقول .

« والمكتبة التاريخيه » مشروع قام على أساس هذا الفهم لدور التاريخ فى بناء الأمم . ويشرف على إصدار هــذه المجموعة الدكتور أحمد عزت عبد الكريم أستاذ التاريخ الحديث بجامعة عين شمس . ويرمى المشروع كما قال الدكتور فى تقديم الكتاب الأول إلى أن تكون سلسلة الكتب التى تصدر فى متناول جمهور القراء المثقفين ، فلا هى دراسات أكاديمية عميقة لا يقف عندها إلا المتخصصون ولا هى تنزل إلى مستوى التأليف المتهافت ، وإنما تكون وسطا يفيد طلاب الجامعات وكل صاحب حظ من ثقافة ، وعلى ألا تقصر ما تنشره فى هذه السلسلة من الكتب على ناحية من التاريخ بعينها ، وإنما تكون مطلقة تتناول شتى أنواع الثقافة التاريخية وما يتصل بها من تآليف مترجمة حتى ينفسح المجال لكل باحث وتعم الفائدة جمهور القارئين . وبذلك تسهم « المكتبة التاريخية » فى نشر الوعى التاريخى بين أبناء الوطن العربى ، وتعاون معاونة فعالة فيما نهدف إليه الآن من بناء الوطن العربى الكبير .

والأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم من أنشط وأخلص رجال مدرسة التاريخ الحديث ، وقف جهوده على خدمة التاريخ وطلابه ؛ فلا عجب أن سار مشروع « المكتبة التاريخية » قدما وبخطى سريعة ثابتة إلى غايته ؛ فقد أخذ المشروع طريقه

إلى الظهور فى يونيه سنة ١٩٥٨ ، وما لبث أن تحمس له عدد كبير من الأساتذة واحتفلوا احتفالا كبيرا لإنجاحه ، فظهر منه حتى الآن تسعة كتب اتخذت حجما واحدا وزيا واحدا . وسوف نعرض لها هنا بالتعريف .

الكتاب الأول : المجمل فى تاريخ الأندلس : للأستاذ المرحوم عبدالحميدالعبادى.

هذا الكتاب عبارة عن فصول دونها عن المحاضرات التى ألقاها الأستاذ المرحوم عبد الحميد العبادى على طلبة التاريخ بجامعة عين شمس فى تاريخ المغرب والأندلس ، أحد تلاميذه وهو « أحمد إبراهيم الشريف » المعيد الآن بقسم التاريخ بجامعة عين شمس ، وأعد أكثرها فى حياة الأستاذ ، ثم أجرى فيها ــ رحمه الله ــ قلمه وأقرها تمهيدا لنشرها . وقد حرص الشريف ــ كما ذكر فى مقدمة الكتاب ــ على أن يحتفظ قدر ما استطاع بأسلوب أستاذه العبادى وروحه فى الدرس ، كما حرص على التزام الخطوط العامة التى كان يرسمها رحمه الله ، بل إنه حرص على تسجيل كثير من أساليب الأستاذ وعباراته الشخصية ، وألزم نفسه بأن تكون شخصية الأستاذ واضحة تماما فيما يكتب .

وقد جمع الكتاب ــ على صغر حجمه مادة غزيرة وحوى صورة واضحة كاملة لتاريخ الأندلس . وقد بدأ الكتاب بالحديث عن أهمية دراسة تاريخ المغرب والأندلس من ناحية التاريخ الإسلامى الخاص ، ومن ناحية التاريخ العام ، ثم عرض لفتح المغرب الإفريقى ، ثم فتح الأندلس ، ثم عرض فى تسلسل لتاريخ العرب فى الأندلس منذ الفتح إلى نهاية العرب فى الأندلس ، بأسلوب رشيق وصوّر النواحى السياسية والاجتماعية والظروف الدولية فى ذلك الوقت ، تصويرا قويا خاليا من التفاصيل التى قد تجنى على الصورة التاريخية وتذهب برونقها ووضوحها .

والكتاب إلى ذلك عمل من أعمال الوفاء ، قصد به تخليد ذكرى عالم كبير خدم التاريخ خدمة جليلة ؛ فقد جمع المادة ونسقها وأعدها الأستاذ أحمد ابراهيم الشريف وراجعها الدكتور مختار العبادى ، وتفضل الدكتور أحمد عزت عبد الكريم فجعلها

فاتحة سلسلة كتب « المكتبة التاريخية » ، وقد تنازل الجميع عن حقوقهم المادية كما تنازلت عنها أسرة الفقيد ، ورصد دخل الكتاب لإنشاء جائزة مالية باسم « جائزة الأستاذ عبد الحميد العبادى فى التاريخ الإسلامى » وتمنحها « الجمعية المصرية للدراسات التاريخية » فى كل عام لأحسن طالب فى مواد التاريخ الإسلامى بجامعة عين شمس والإسكندرية والقاهرة على التوالى ، وقد عمل العبادى بها جميعا وأفاد الطلاب من فيض علمه .

الكتاب الثانى : الإسلام فى أسبانيا : للدكتور لطفى عبد البديع المدرس بكلية آداب عين شمس .

وهذا الكتاب يعالج نفس الجانب من التاريخ الإسلامى الذى عالجه الكتاب الأول وهو تاريخ الأندلس ، وإذا كان كتاب الأستاذ العبادى قد عالج الناحية السياسية ولم يهمل الناحية الحضارية ، فكتاب الدكتور لطفى عالج الناحية الحضارية ولم يهمل الناحية السياسية .

والدكتور لطفى عبد البديع رجل اجتمعت له أكثر من أداة للكتابة فى هذا الموضوع ، فهو إلى جانب ثقافته اللغوية والأدبية العربية ، قد توفر على دراسة اللغة الأسبانية والحضارة الإسلامية فى أسبانيا عدة سنوات . وقد أدار الدكتور لطفى بحثه حول فكرة أساسية هى أن « الفتح الإسلامى لم يكن مجرد حادث سياسى فى تاريخ أسبانيا وإنما كان حدثا حضاريا استهلت به حقبة خلقت فى الحياة الأسبانية بشتى مظاهرها ، آثارا عميقة لم تنقطع بزوال سلطان الإسلام السياسى ، بل ظلت ماثلة تتراءى فى كيان أسبانيا وعناصرها المختلفة . والحياة الإسلامية كانت من التغلغل فى أسبانيا بحيث لم يكن من الطبيعى أن تنمحى برفع راية سنتياجو على قصر الحمراء » ؛ ولذلك مر سريعا على الحالة السياسية ليلقى بثقل بحثه على الناحية الحضارية . وكان من أبدع ما كتب الفصلان الرابع والخامس عن « تأثير الإسلام فى أسبانيا » ثم « التأثير الثقافى للإسلام فى أسبانيا » . إذ تناول فيهما تأثير

الإسلام فى الحياة الأسبانية الاجتماعية والدينية ، والتأثير الثقافى الإسلامى فى اللغة والأدب والفن القصصى والشعر والفلسفة والعلوم والفنون . كما تناول « العلوم والآداب فى الأندلس » فى الفصل الثالث تناولا قويا ، فعرض لتاريخ العلوم والآداب فى الأندلس عرضا إجماليا ولكنه واضح مدعم بالأسانيد .

الكتاب الثالث : التاريخ والمؤرخون فى مصر فى القرن التاسع عشر : للدكتور جمال الدين الشيال ، أستاذ التاريخ الإسلامى بجامعة الإسكندرية .

جعل الدكتور الشيال كتابه على قسمين : القسم الأول تناول فيه التأليف التاريخى فى مصر فى القرن التاسع عشر ، فتحدث فيه عن تطور التأليف التاريخى فى مصر الإسلامية ، ثم انقطاع حركة التأليف خلال القرون الثلاثة منذ الفتح العثمانى لمصر فى بداية القرن السادس عشر ، حتى يصل الجبرتى حبل ماانقطع فى نهاية القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر . ويتكلم الدكتور الشيال عن الجبرتى ومدرسته فى التأليف التاريخى كلاما مستفيضا عرض فيه لحياة الجبرتى التى أهلته لكتابة تاريخه ، ثم تناول كتبه وخطته فى التأليف والإمكانيات التى أعانته على جمع المادة التاريخية وتحقيقها حتى ليعتبره واحد عصره .

ثم تحدث عن النهضة الجديدة فى القرن التاسع عشر . وأفرد فصلا للحديث عن « رفاعة رافع الطهطاوى » ومدرسته ، ثم فصلا للحديث عن « على مبارك » ومعاصريه . وتحدث عن تآليفهم فأعطى صورة موضحة لها . ثم تحدث عن الحركات الوطنية وأثرها فى التأليف التاريخى . كما أفرد فصلا عن المؤرخين السوريين فى مصر فى القرن التاسع عشر .

والقسم الثانى من الكتاب دراسة مقارنة بحث فيها مختلف الاتجاهات فى التأليف التاريخى ومناهجه والعوامل المؤثرة فيه .

وبالجملة فكتاب الدكتور الشيال سجل حافل للنهضة الثقافية فى مصر فى القرن

التاسع عشر ، ومرشد لمن أراد أن يقرأ لمؤرخي هذا القرن بما حوى من ثبت لمؤلفاتهم جعله المؤلف ملحقا فى آخر الكتاب .

الكتاب الرابع : طائفة الاسماعيلية (تاريخها ـ نظمها ـ عقائدها) : للدكتور محمد كامل حسين أستاذ الأدب المصرى بكلية الآداب ـ جامعة القاهرة .

يقول الدكتور أحمد عزت عبد الكريم فى تقديمه لهذا الكتاب « لا أكاد أعرف أستاذا تعشق موضوع تخصصه ، فأخلص له وبذل له من ذات نفسه وقلبه وعقله وفرغ له حتى لا يكاد يريم عنه ، كما فعل زميلى الأستاذ الدكتور محمد كامل حسين . فقد تخصص فى الدراسات الإسماعيلية منذ سنوات بعيدة وحشد لها جهوده ووقف عليها نشاطه حتى أصبح بحق من روادها الأول ، لا بين الناطقين بالضاد فحسب وإنما بين سائر علمائها فى شتى أقطار الأرض » والحق أن من يقرأ الكتاب يلمس أثر التخصص فيه ويدرك إحاطة المؤلف تماما بالموضوع الذى يتحدث عنه . فقد تحدث عن طائفة اسماعيلية فى تاريخها القديم والحديث وعرض لنظمها وعقائدها حديث الأستاذ المتمكن القدير ، وعرض الخبير الذى ملك ناحية بحثه حتى أصبح بين يده أمرا سهلا ميسرا .

وطائفة الاسماعيلية تستحق هذه العناية من البحث والدرس فلها تاريخ حافل بالحوادث والتيارات ، فقد لعبت دورا كبيرا فى الحياة الإسلامية . فقد أسس أصحابها لهم دولا فى بقاع مختلفة من العالم الإسلامى ، وكانت لهم قلاعهم وحصونهم ، وقد خشى بأسهم كل الدول المجاورة لهم ، بل والبعيدة عنهم ، وكانت بينهم حروب عنيفة قاسية امتدت وتشعبت . كما أحدث الجدل بينهم وبين خصومهم فى الآراء الدينية قوة علمية شغلت الفكر الإسلامى زمنا طويلا . وقد امتاز الإسماعيليون بالتنظيم الدقيق فى نشر مذهبهم الدينى الذى يدينون به ، حتى استجاب لهم جمهور كبير من الناس . وكتاب الدكتور محمد كامل حسين يعرض لكل ذلك فى بيان ووضوح .

الكتاب الخامس : الثورة المهدية وأصول السياسة البريطانية فى السودان :

للدكتور جلال يحي مدرس التاريخ الحديث بمعهد الدراسات الإفريقية بجامعة القاهرة .

تناول الدكتور جلال يحي فى كتابه هذا فترة دقيقة من تاريخ مصر والسودان شهدت صراع كل من شطرى الوادى فى سبيل التخلص من التدخل الأجنبى والحيلولة دون وقوع كارثة الاحتلال لكليهما ؛ فقد قامت وحدة وادى النيل فى القرن التاسع عشر من مصر والسودان وما يكملهما ، وسارت فى طريق التقدم يحدوها الإخاء والتعاطف لتحقيق الخير لهما معا . ولكن حدث إلى جانب ذلك أن امتدت موجة الاستعمار الغربى إلى القارة الإفريقية ، وبدأت السياسة البريطانية ترسم لنفسها خطة استعمارية واسعة فى هذه المنطقة من العالم . ولما بدا عجز الحكومة المصرية وارتماؤها فى أحضان الأجانب فى عهد توفيق ، قامت الثورة العرابية فى مصر ولكن لم يقدر لها النجاح ووقعت مصر فريسة للاحتلال البريطانى . وكان رد الفعل الذى أحدثه الارتباك فى مصر والنفوذ الأجنبي فيها أن قامت الثورة المهدية فى السودان كمحاولة من الشطر الجنوبى للتخلص مما وقعت فيه مصر ، يشهد بذلك التعاطف الذى كان قائما بين الوطنيين فى كلا البلدين ، ثم المحاولة التى قام بها التعايشى لغزو مصر بغيـة تخليصها من الاحتلال الانجليزى . ولقد بذلت الحكومة المصرية بالرغم من الاحتلال — جهودا كبيرة للحد من الثورة المهدية فى السودان ومحاولة القضاء عليها لإبقاء الوحدة بين شطرى الوادى ، ولكن الحكومة الانجليزية كانت قد رسمت خطتها على انتهاز الفرصة لتصفية الامبراطورية المصرية الافريقية ، ثم ضمها بعد ذلك لحسابها ، وكانت ترى فى استفحال الثورة المهدية ونجاحها ما يحقق لها هذه السياسة ، فإمكانيات الجنوب فى الحكم لم تكن لتجعل منه دولة قادرة على الصمود أمام أطماع انجلترا إذا ما تقدمت إليه ، يشهد بذلك ما قاله رئيس وزراء بريطانيا لورد سولسبرى فى مجلس العموم « لماذا نحارب الدراويش ، إنهم يحققون سياسة صاحبة الجلالة ، فهم سيحفظون السودان لنا » . والدكتور جلال يحي حينما

يتناول هذا الموضوع، يتناوله تناول الباحث الذى أتيحت له فرصة الاطلاع على الوثائق الرسمية المصرية والأجنبية، ولذلك جعل اهتمامه إلى توضيح مالابس الحركة المهدية من أصول السياسة البريطانية، فهو دراسة للتاريخ الدبلوماسى للعلاقات المصرية السودانية الانجليزية فيما بين سنتى ١٨٨٠ ــ ١٨٨٥ وهى الفترة الحاسمة التى وضع فيها الأساس الذى حدد مستقبل مصر والسودان لمدة طويلة.

الكتاب السادس : الجامعات الأوروبية فى العصور الوسطى : للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، المدرس بكلية آداب القاهرة.

فى هذا الوقت الذى تتجه فيه الجهود إلى النهوض بالجامعة، يظهر هذا الكتاب الذى تناول فيه كاتبه تطور نشأة الجامعات الأوربية فى العصور الوسطى، وتاريخ النشاط الفكرى والتعليمى فيها فى ذلك الوقت. فتناول فى الفصل الأول النشاط الفكرى فى غرب أوربا حتى نشأة الجامعات، ثم تحدث فى الفصل الثانى والثالث عن نشأة الجامعات الأوربية وانتشارها. ثم عرض فى الفصل الرابع للنظم الجامعية فتكلم عن إدارة الجامعة، ومبانيها، وطريقة التدريس، ومناهج الدراسة، والكتب والمكتبات، والامتحانات والإجازات. وعرض فى الفصل الخامس لحياة الطلبة فتحدث عن حياتهم اليومية ومستوى معيشتهم وما يلاقونه من مصاعب. وأبرز فى الفصل السادس الدور الذى قامت به الجامعات فى حركات الإصلاح وبخاصة فى حركات الإصلاح الدينى. وأما أثر الجامعات فى النشاط الفكرى، فإن الجامعات تعبر عن أقصى ما بلغته أوربا فى العصور الوسطى من نشاط فى ميدان الثقافة والفكر. وكانت الجامعات هى الضوء الذى بدد ظلمة العصور الوسطى، وأمدت المجتمع الأوربى بفئة ناضجة من المثقفين المتعلمين، وهى الفئة التى أمسكت بزمام الحكومات الأوربية فى العالم الحديث.

وختم الدكتور عاشور بحثه القيم بخاتمة تحدث فيها عن أثر الجامعات فى العصور الوسطى فى النظم الجامعية الحديثة، ثم عن مدى تأثر الجامعات الأوربية عند

نشأتها بالجامعات الإسلامية التى كانت أسبق منها . وبهذا الصدد نأمل أن يقوم من أساتذة التاريخ الإسلامى من يقدم لنا بحثا عن الجامعات الإسلامية حتى تكتمل الصورة عن التعليم الجامعى والحياة الجامعية فى الشرق والغرب .

الكتاب السابع : سلاجقة إيران والعراق : للدكتور عبد النعيم حسنين الأستاذ المساعد بكلية آداب جامعة عين شمس .

« شهد التاريخ حركات اندفاع شعوب وجماعات خرجت من مواطنها الأصلية إلى حيث استقرت فى أرض جديدة صنعت فيها مواطنها ، وحملت معها عناصر مقوماتها الأولى فاحتفظت منها بما ينفعها فى حياتها الجديدة ، واقتبست مما وجدته صالحا للبقاء والتطور من الحضارات الأصلية فى الأرض الجديدة » وكانت هذه الهجرات لشعوب بربرية اندفعت نحو مواطن الحضارة ؛ فالمواطن الحضارية تنطوى على قوة جذب كبيرة للمتبربرين ، يجذبهم إليها ما تنطوى عليه من فرص كبيرة لحياة أفضل . وقد أثرت هذه الهجرات فى تاريخ العالم وشكلته تشكيلا جديدا .

من هذه الحركات العالمية خروج الشعوب التركية من مواطنها فى وسط آسيا وحول سواحل بحر قزوين ، وتسربها أحيانا واندفاعها أحيانا أخرى إلى غرب آسيا وشرق أوربا ووسطها . ولقد اعتنق الترك الإسلام منذ وصل إلى ديارهم، ثم شاركوا فى حياة الجماعة الإسلامية مشاركة فعالة حتى لم يمض قرنان من الزمان حتى كان مصير العالم الإسلامى فى الشرق الأوسط بيد الترك .

والترك السلاجقة مجموعة من القبائل التركية عرفوا باسم الغز ، هاجرت إلى العالم الإسلامى من أقصى التركستان فى خلال القرون الثانى والثالث والرابع الهجريه تحت ظروف قاهرة ، والتفت حول زعامة بيت من بيوتها هو بيت سلجوق ، فظلت تحت زعامة هذا البيت تصطنع لنفسها الملك وتحارب فى سبيله من يتصدى لها حتى تمت لها السيطرة على إيران والعراق وهيمنت على الخلافة العباسية وحاربت الفاطميين

والإسماعيليين تأمينا للوحدة المذهبية . ثم تابع السلاجقة رسالة العرب فى قتال الروم حتى انتزعوا منهم أرض الأناضول وحولوها إلى أرض تركية إسلامية فمهدوا بذلك للترك العثمانيين فيما بعد أن يقضوا على دولة الروم ، وأن يندفعوا فى الأرض والبحار الأوربية . ولكن السلاجقة احتفظوا فيما احتفظوا به بعاداتهم فى اعتبار الملك ملكا خاصا يقسمه الملوك بين أبنائهم ، فنشأ عن ذلك النزاع بين فروع البيت السلجوقى ، كما أن تحرك القبائل والجماعات كان مستمرا فى هذه الفترة والتنازع بينها على امتلاك الأرض كان دائما ، الأمر الذى ساعد على التشتت والانقسام والضعف .

والدكتور عبد النعيم حسنين أحد الثقات فى اللغة الفارسية وآدابها وفى تاريخ إيران وكل ما يتعلق بالثقافة والحضارة الإيرانية . وقد سخر هذا كله فى كتابة هذا الكتاب فاعتمد على مراجع مطبوعة وغير مطبوعة أكثرها باللغة الفارسية لعلها لم تستخدم قبل الآن فى التأريخ للدول الإسلامية فى العصور الوسطى باللغة العربية ولعلنا نقرأ قريبا كتابا آخر فى سلاجقة الروم يكمل المعرفة بتاريخ هذا البيت السلجوقى الذى قام فى التاريخ الإسلامى بدور كبير .

الكتاب الثامن : سيف الدولة الحمدانى : للدكتور مصطفى الشكعة المدرس بآداب عين شمس .

انتهى العصر العباسى الأول ، وانتهى معه عهد الخلفاء العظام ـ الذين كانت قبضتهم على الدولة قوية ، وبدأت شخصية الخليفة تضعف نتيجة لظهور شخصية القواد الذين كانت تلتف حولهم أجنادهم من الترك والديلم وغيرهم وتأتمر بأمرهم لا بأمر الخلافة ، واضطرت الخلافة إلى الاعتراف بحكم المتغلبين من القواد . غير أنه وإن ضعفت قوة الخلافة وقل نفوذها فإن حيوية العالم الإسلامى لم تضعف تبعا لذلك ، بل قامت الدولة الثغرية التى نشأت على أطراف العالم الإسلامى بدورها خير قيام فى فى الدفاع عن حدود أرض الإسلام ، بل والدفع بها إلى الأمام فى بلاد الحرب

وضم أجزاء جديدة إليها .

ومن هؤلاء الأمراء المتغلبين « سيف الدولة الحمدانى » الذى أنشأ لنفسه ملكا فى حلب ، وقامت دولته بوظيفتها الثغرية خير قيام ، فقد كانت تواجه ثغرا من أهم ثغور المسلمين بل هو أهمها جميعا ، ذلك هو ثغر الروم ، وقد نشطت الدولة البيزنطية فى عهد الأسرة المقدونية التى حكمت فى ذلك الوقت ، وبلغت حدا كبيرا من القوة ، وظهر فيها كثير من القواد والأباطرة العظام من أمثال نقفور فوكاس ، وقد امتدت آمالهم إلى التفكير فى استعادة بيت المقدس من أيدى المسلمين ، وكان من الممكن أن يتم هذا لولا قوة سيف الدولة وقدرته على تنظيم الجيوش وحسن قيادتها .

وسيف الدولة أمير عربى وهو من بيت اشتهر أفراده بالشجاعة والقيادة والغزو، ذلك هو البيت الحمدانى . ولقد كان فى عمل سيف الدولة الحربى ما يذكر بمجد العرب وقوتهم ، ولكن ما هو أظهر من ذلك ما حفل به بلاط سيف الدولة من شعراء وأدباء أحدثوا فى الأدب العربى بريقا أخاذا يأخذ بمجامع النفوس ، وحسبك أن تعرف أن من بين هؤلاء الشعراء أبا الطيب المتنبى وأبا فراس الحمدانى . وكان سيف الدوله نفسه يقول الشعر ويطرب له ويجزى عليه فهو بحق رب السيف والقلم .

والدكتور مصطفى الشكعة أديب يقول الشعر ويطرب له وقد تخصص فى دراسة الأدب أيام الحمدانيين وله فيه بحوث قيمة . وكتابه هذا جمع بين الأدب والتاريخ فكان تصويرا جميلا لعصر سيف الدولة من ناحيتيه الحربية والأدبية .

الكتاب التاسع : موجز تاريخ الاشتراكية : تأليف نورمان ماكنزى ، ترجمة الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى المدرس بآداب عين شمس ، والأستاذان إسحاق ملطى وعبد العزيز محمدين المدرسان بكلية المعلمين .

هذا الكتاب عرض موضوعى دقيق شامل للمذاهب والحركات الاشتراكية الأوربية الحديثة منذ أواخر القرن التاسع عشر على وجه الخصوص حتى عام ١٩٤٨ .

وقد تناول النشاط الاشتراكى لدى العمال ومفلسفى حركاتهم فى كل قطر من الأقطار الأوربية الكبرى وبخاصة انجلترا وألمانيا وفرنسا . وأعطى أهمية خاصة للثورة الشيوعية فى روسيا منذ أكتوبر سنة ١٩١٧ ، وذلك بسبب ما أثارته من تطورات اقتصادية وسياسية هائلة . وتطرق المؤلف فى بحثه إلى تناول النشاط العمالى فى كل قطر أوربى وبخاصة بعد الحرب العالمية الثانية ، ولمح إلى نضال الاشتراكية والشيوعية والأحرار جنبا إلى جنب ضد الخطر الفاشى الذى تمثل فى اليابان وألمانيا وإيطاليا — أوما يسمى دول المحور — وأعطى أهمية خاصة للحرب الأهلية الأسبانية التى كانت من مقدمات الحرب العالمية الثانية . وعلق على انتصار العمال فى انجلترا أهمية كبرى ، ومال إلى وجهات نظرهم . وانتهى فى كتابه إلى أن الاشتراكية قد قطعت شوطا بعيدا فى نشاطها ، وإن لم تكن الأسلوب الوحيد الذى يمكن أن يتبعه العالم ؛ فهناك النشاط الرأسمالى الحر وله مزاياه ، وهناك النشاط الرأسمالى الموجه لمصلحة المجموع — كما هو الحال فى بريطانيا — وهناك الشيوعية القومية كما هو الحال فى يوجوسلافيا .

ويعتبر هذا الكتاب أول كتاب علمى رزين يصدر باللغة العربية عن تاريخ الحركات والفلسفات الاشتراكية ، بعد كل الذى ظهر بالعربية من كتب لا تمثل إلا أهواء أصحابها .

والدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى الذى تولى الترجمة مع زميليه ، متخصص فى التاريخ الحديث ويدرس النظم والنظريات السياسية بكلية آداب عين شمس وقد جاءت ترجمته دقيقة وفى أسلوب عربى سليم . وقد أضاف إلى الكتاب مقدمة تحدث فيها عن أهم ما طرأ على الاشتراكية منذ عام ١٩٤٨ حتى الوقت الحاضر .

حوادث دمشق اليومية

(١١٥٤ ـ ١١٧٥هـ ، ١٧٤١ ـ ١٧٦٢م)

جمعها : الشيخ أحمد البديرى الحلاق
نقحها : الشيخ محمد سعيد القاسمى
وقف على تحقيقها ونشرها : الدكتور أحمد عزت عبد الكريم ،
أستاذ التاريخ الحديث بجامعة دمشق

[مطبوعات الجمعية المصرية للدراسات التاريخية القاهرة ١٩٥٩] .

فى المكتبة الظاهرية فى دمشق مخطوط كتبه الشيخ أحمد البديرى الحلاق بين سنتى ١١٥٤ـ ١١٧٥هـ الموافقة لـ ١٧٤١ ـ ١٧٦٢م شرح فيه حوادث دمشق اليومية فى تلك الفترة شرحا عفـــويا صادقا « لقد كان البديرى منفعلا مع أحداث زمانه فأخذ يسجل ما شاهد وما سمع يوما بعد يوم ، دفعه إلى هذا هواية الكتابة ، والتعبير عن مشاعره . والتنفيس عن كامن عواطفه . لقد سجل لنا رأيه فى الناس وفى الحكام وفى الحوادث ، ووصف لنا الحياة بجميع مظاهرها وصفا دقيقا بارعا حتى نكاد نحس أننا نعيش معه فى تلك الفترة من القرن الثامن عشر ، نحيط بجميع جوانب الحياة وننفعل معها كما انفعل كاتبها بها .

لم يكن البديرى عالما « ولا متعلما » إلى درجة أنه يستطيع أن يكتب بلغة سليمة لكنه كان على جانب من ثقافة عملية شعبية يدرك ما يحيط به ، ويستطيع التعبير عن خلجات قلبه بأسلوب عامى لطيف ، وبشعر شعبى هو الزجل والمواليا . فأتى كتابه صورة حية عن حياة دمشق فى فترة من فترات التاريخ المجهول ليس فيها صنعة ولا تزويق ولا تزوير ، لأنه كتبه لنفسه ولم يكتبه لأمير أو وزير ... لذا كان كتابه مرآة تعكس لنا أحداث عصره ، ووثيقة تاريخية شعبية ، ومصدرا جيـدا يصف لنا

الحياة الاجتماعية بتفاصيلها والحياة الاقتصادية برخائها وشدتها والنظام الإدارى والعسكرى بعسفه وفساده .

لم يصلنا كتاب البديرى كما كتبه تماما بل وقع فى يد عالم من دمشق فى القرن التاسع عشر هو المرحوم الشيخ محمد سعيد القاسمى ـ جد أسرة القاسمى الدمشقية الفاضلة ـ فنسخه لنفسه وبدا له أن ينقحه ويهذبه ويحذف منه بعض الألفاظ الحوشية العامية والأشعار الزجلية والأدعية الصوفية الطويلة ... لكن الذى وقع هو أن نسخة البديرى الأصلية التى كانت فى حوزة المرحوم الشيخ طاهر الجزائرى قد فقدت تماماً ، وبقيت لنا النسخة المنقحة ، وهى محفوظة فى مكتبة أسرة القاسمى العامرة ، وقد نسخ عنها نسختان موجودتان فى المكتبة الظاهرية بدمشق ونسخة أخرى فى المكتبة التيمورية فى القاهرة . وعلى نسخة المكتبة الظاهرية اعتمد العالم المحقق الدكتور أحمد عزت عبد الكريم ، طابقها مع النسخة التيمورية وراجع النقاط الهامة فى نسخة الأسرة القاسمية .

لقد أدى الدكتور عبد الكريم خدمة جلى للعلم والمتعلمين وللأمة العربية وخاصة الإقليم السورى بهذا الجهد الطيب الذى بذله فى تحقيق الكتاب . ولقد أتى تحقيقه دقيقا وافيا يستند على أمتن القواعد العلمية وإليكم الخطوات الهامة فى هذا التحقيق :

١ ـ المقدمة : يعتبر الدكتور أحمد عزت عبد الكريم بحق من أقدر المختصين بتاريخ العرب الحديث لذا كانت المقدمة المؤلفة من ٦٠ صفحة من أحسن ما كتب عن تاريخ دمشق فى العهد العثمانى بشكل مختصر ، فلقد أخذ مادتها من كتاب البديرى نفسه ومن الكتب المعاصرة أو القريبة من العصر المبحوث ككتاب العجمى (خلاصه الأثر ...) وكتاب المرادى (سلك الدرر ...) والمقار والقارى والغزى والجبرتى والأمير حيدر الشهابى والقرآلى ... ومن كتب الرحالة الأجنبية كفولنى وبورخارت وبرتون وأخيرا « تريس الذى يعتبر كتابه عن الحج أحسن مرجع له » .

لقد بين لنا المحقق فى المقدمة أهمية البحث عن المصادر الأصيلة والكشف عنها وصنف لنا هذه المصادر على نوعين :

ا ـ الوثائق الرسمية وهى بحاجة إلى حملة عظيمة تقوم بها الدولة ورجال العلم .

ب ـ الوثائق الأهلية (على حد تعبيره الموفق) وهى من أمثال كتاب البديرى التى تصف الحياة من الداخل .

لقد استنبط المحقق حياة البديرى من كتابه وأوضح لنا مهنته وبيئته ومستواه الثقافى والدينى والمادى كما ذكر لنا لمحة عن حياة المنقح الشيخ محمد سعيد القاسمى ومستواه العلمى والدينى ولم يغفل ذكر الأسرة القاسمية والنابهين فيها .

ثم حلل المحقق كتاب البديرى تحليلا رائعا وصنفه بحسب مواضيعه الهامة وكتبه بأسلوب علمى دقيق مستشهدا على كل نقطة بما ذكره المؤرخون العرب القريبون من عصره والمحدثون والأجانب المعاصرون والحديثون .

لقد دلت كتابة هذه المقدمة على سعة اطلاع الأستاذ المحقق القدير فى هذا الموضوع ، وعرضت المواد التى يحويها كتاب البديرى عرضا موافقا للطريقة العلمية بحيث يستطيع الباحث أن يحيط بالمعلومات التى سردها البديرى متفرقة ومضطربة هنا وهناك ، وأن ينتفع بها .

٢ ـ تحقيق الكتاب : فى كل نسخة من النسخ المنقحة التى ذكرناها سابقا لا تأتى دائما الجمل والكلمات متطابقة ، ويعود هذا بلا شك إلى عمل النساخين ، ولقد استطاع المحقق من المطابقة والمراجعة أن يصل إلى أفضل حل وأقربه إلى قصد الكاتب والمنقح . ولقد ذكر فى الحواشى الملتبس من هذه المطابقات كما شرح فيها رأى البديرى ومقصده وبين أحيانا خطأ البديرى فى ذكر حادثة مستدلا بذلك من قول البديرى نفسه ومن أقوال معاصريه واستطاع أيضا أن يصحح ـ اعتمادا على البديرى ـ ما ورد فى الكتب الأخرى العربية منها والأجنبية لاعتقاده أن البديرى كان أصدق فى تصوير الحادثة وإيرادها

٣ ـ الفهارس : ذيل الكتاب بفهرس جامع للأعلام الواردة فى الكتاب وفهرس للأماكن والبلاد وفهرس للمصطلحات والوظائف. وهذه الفهارس بلاشك من أنفع ما يمكن أن يسديه محقق إلى جمهور الباحثين.

٤ ـ الفهرس المفصل لمواضيع الكتاب : لقد وضع العالم المحقق فهرسا مفصلا لمواضيع الكتاب فى النهاية يعين الباحث فى الحصول على غايته من الكتاب. وإن هذا الفهرس مع المقدمة عمل هام جدا يخدم موضوع الكتاب ويجعله سهل التناول.

٥ ـ أرفق الكتاب بمخططين لمدينة دمشق، نقلا عن العالم الفرنسى سوفاجه، أحدهما دمشق فى القرن ١٦، والآخر دمشق فى القرن ١٩ وعليهما صور توضح تطور المدينة القديمة.

يقول الدكتور أحمد عزت عبد الكريم فى مقدمته : «نرجو أن يكون هذا الجهد المتواضع الذى نتقدم به اليوم لجلاء جانب من تاريخ سوريه فى القرن الثامن عشر مقدمة لهذه الحملة التى تدعوا إليها (أى الحملة لجمع الوثائق الرسمية والأهلية المتعلقة بالتاريخ السورى فى العصر العثمانى) ، ولبنة فى البناء التاريخى الذى ندعو لإقامته».

وقد أهدى الأستاذ المحقق هذا الجهد إلى البلد الطيب الذى أحبه وعاش فيه ثلاث سنوات يدرس فيها بجامعة دمشق ، وإلى الأجيال التى ستصنع الوحدة العربية بجميع مفاهيمها.

شكرا للأستاذ العالم المحقق على ما أسداه لهذا البلد ولجميع البلاد العربية من خدمة جلى ولما يقدمه إلى العالم والإنسانية من عمل طيب يفوح منه الإخلاص والإيمان بالقضية العربية.

محمد أبو الفرج العش
محافظ متحف دمشق

المؤتمر الثالث للآثار

فى البلاد العربية

عقد المؤتمر الثالث للآثار فى البلاد العربية فى مدينة فاس بالمملكة المغربية فى المدة من ٨ ـ ١٨ نوفمبر ١٩٥٩ تحت رعاية حضرة صاحب الجلالة الملك محمد الخامس ، وتضمن جدول أعماله الموضوعات الآتية :

ا ـ تقارير الدول أعضاء جامعة الدول العربية عما قامت به كل دولة من أبحاث أثرية أو حفائر أو ما أصدرته من مؤلفات علمية خاصة بالآثار فى السنتين الأخيرتين .

ب ـ بحث موضوع توصيات المؤتمر الثانى للآثار فى البلاد العربية ، الذى عقد فى بغداد فى نوفمبر سنة ١٩٥٧ ، ومعرفة ماتم تنفيذه منها فى كل دولة ، وما لم يتم تنفيذه وأسباب ذلك .

جـ ـ بحوث علمية يلقيها أعضاء المؤتمر .

د ـ محاضرات عامة عن الآثار فى مختلف البلاد العربية .

واشتركت فى المؤتمر وفود عن الأمانة العامة للجامعة العربية ، والمملكة الأردنية الهاشمية والجمهورية العراقية ، والجمهورية العربية المتحدة ، والجمهورية اللبنانية ، والمملكة الليبية المتحدة ، والمملكة المتوكلية اليمنية ، والمملكة المغربية ، والحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية ، وإمارة قطر ، ومجمع اللغة العربية بالقاهرة ، وجامعة الإسكندرية ، وجامعة عين شمس ، والجامعة الأمريكية بالقاهرة ، والجامعة الأمريكية ببيروت ، والجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، وهيئة اليونسكو كما اشترك فيه خبيران عالميان فى الآثار هما الأستاذ شارل كوينتز المدير السابق للمعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة ، والأستاذ رومانللى ، مفتش الآثار بوزارة المعارف الإيطالية ورئيس الاتحاد الدولى للآثار .

وتفرع المؤتمر إلى ثلاث لجان فرعية هي :

١ ــ لجنة التعاون العلمي بين المشتغلين بالآثار في البلاد العربية .

٢ ــ لجنة قوانين الآثار في البلاد العربية وتوحيدها .

٣ ــ لجنة المصطلحات العلمية في الآثار .

وقد ناقش المؤتمر تقارير الدول عما قامت به من أبحاث أثرية أو حفائر في السنتين الأخيرتين . كما ناقش الأسباب التي حالت دون تنفيذ بعض توصيات المؤتمر السابق الذي عقد في بغداد في نوفمبر سنة ١٩٥٧ . وبحث المؤتمر موضوع توحيد قوانين الآثار في البلاد العربية ، وألقى فيه نحو عشرون بحثا علميا في النواحي الأثرية المختلفة الهامة كما ألقيت ست محاضرات عامة حضرها عدد كبير من أهالي مدينة فاس ، وهــذه المحاضرت عن :

ا ــ اليمن قديما وحديثا ، ألقاها الدكتور أحمد فخري .

ب ــ الحروف المنحوتة بالقرويين في خدمة الآثار ، ألقاها الأستاذ عبد الهادي التازي عضو وفد المغرب .

جـ ــ جولة في آثار الأردن ، ألقاها الدكتور عوني الدجاني مندوب الأردن .

د ــ المشاريع الأثرية الكبرى في الإقليم السوري ، ألقاها الدكتور سليم عادل عبد الحق رئيس وفد الجمهورية العربية المتحدة .

هـ ــ روائع الآثار في العراق ، ألقاها الأستاذ فؤاد سفر رئيس وفد العراق .

و ــ شالة وقيمتها التاريخية والأثرية ، ألقاها الأستاذ عثمان عثمان إسماعيل المدرس بكلية الآداب بالمغرب .

واتخذ المؤتمر عدة توصيات هامة ، منها التوصيات الآتية :

١ ــ يرى المؤتمر أن مشروع القانون الذي عرضه وفد الجمهورية العربية المتحدة يصلح لأن يكون أساسا لدى الدول الأعضاء في جامعة الدول العربية عند وضع تلك الدول قوانينها الأثرية .

٢ ـ يوصى المؤتمر بإنشاء مجلس للمتاحف والمعارض فى كل دولة عربية ، له حق الإشراف على إقامة المتاحف والمعارض وتنظيمها .

٣ ـ يرى المؤتمر أن صيانة المبانى الأثرية ومعالجة الآثار فى كافة البلاد العربية تقتضيان المبادرة بإنشاء مركز للترميم ولتقديم الخدمات الفنية الضرورية لجميع أعضاء جامعة الدول العربية .

٤ ـ يوصى المؤتمر بأن تهتم الإدارات المختصة بالآثار فى حكومات جامعة الدول العربية بالبحث عن الآثار المغمورة تحت المياه .

٥ ـ يوصى المؤتمر جامعة الدول العربية أن تتصل بحكومات الدول العربية الممثلة فى المجلس التنفيذى لليونسكو لاتخاذ الخطوات اللازمة لإرسال لجنة لتحقيق ماجرى من اعتداءات على المبانى الأثرية فى كل من القسم المحتل من فلسطين والجزائر .

وقام المؤتمرون بعدد من الرحلات والزيارات ، فزاروا معالم مدن فاس والرباط والدارالبيضاء وصفرو وإفران وزرهون ووليلى وتازة.

وخلاصة القول ، لقد نجح المؤتمر نجاحا كبيرا ، إذ حقق أهدافه العلمية ، وكان فرصة طيبة لتعارف العلماء العرب فى الآثار على بعضهم البعض وتوثيق الصلات بينهم كما كان فرصة لأن يشاهد هؤلاء العلماء بلاد المغرب الجميلة وآثارها الخالدة ، ولأن يقفوا على نهضتها الحديثة التى تخطو خطوات سريعة واسعة .